موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين 3

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

السياحات الصوفية والزيارات الدينية

رحلتا أوليا جلبي. رحلة الخياري. رحلة عبد الغني النابلسي الثانية

رحلات مصطفى البكري الصديقي. رحلة المكناسي

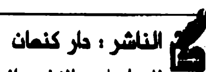
رحلة البوسعيدي. رحلة القياتي



السياحات الصوفية
والزيارات الدينية

المياحات الصوفية والزيارات الدينية

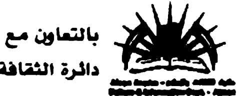
درسها وحققها ووضع حواشيها : تيسير خلف


الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق - ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail 1: said.b@scs-net.org
E-mail 2: kanaanbook@yahoo.com


بالتعاون مع

دائرة الثقافة والإعلام بعجمان

دولة الإمارات العربية المتحدة - تلفاكس: 0097167423189

E-mail 1: mafarag_2005@yahoo.com
E-mail 1: m_harbi3@yahoo.com

الطبعـة الأولى : 2010 / عـدد النسـخ 1000

إخراج: لبنى حمد

التدقيق اللغوي: سامي عبد المجيد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com
http://www.neelwafurat.com

السياحات الصوفية والزيارات الدينية

رحلتا أوليا جلبي
1649-1671 م

رحلة الخياري
1671 م

رحلة عبد الغني النابلسي الثانية
1693م

رحلات مصطفى البكري الصديقي
1710- 1736 م

رحلة المكناسي
1787 م

رحلة البوسعيدي
1872 م

رحلة القاياتي
1885 م

درسها وحققها ووضع حواشيها

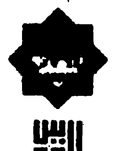
تيسير خلف

صدرت هذه الموسوعة بمناسبة

احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية 2009

بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام بعجمان / دولة الإمارات العربية المتحدة







لنا كلمة

إن أهم إسهام يمكن أن نقدمه للقدس في احتفاليتها عاصمة للثقافة العربية لعام 2009 هو أن تبقى حية في الأذهان، في وقت يحاول المحتلون الصهاينة محو وجهها العربي والإسلامي، واستبداله بوجه غريب عنها، ولكي تبقى حية في الأذهان بصورتها العربية الإسلامية هي وأخواتها مدن فلسطين المحتلة الأخرى، لابد من تقديم الوجه الحقيقي لها من خلال الكتب والمؤلفات التي تناولتها من وجهة نظر عربية إسلامية.

ولذلك تحمسنا لمشروع موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، لأننا أدركنا أهمية نشر هذا الأثر، وتعميمه في هذه الاحتفالية، لأنه يسد نقصاً كبيراً في المكتبة العربية، ومن شأنه أن يسهم بشكل مباشر في خدمة قضية القدس وفلسطين، بشكل حضاري يرد على الدعاية الصهيونية بالحجة والمنطق التاريخي.

ولذلك فنحن نرى أن الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م هو احتفاء بتاريخها وأعلامها، عبر جعل هذا التاريخ في متناول الجميع، لأن من شأن هذا الأمر أن يسهم في تعميق الوعي بضرورة تحريرها من رجس الاحتلال، وإعادتها مدينة عربية إسلامية، تُشد الرحال إليها كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا طوال القرون الخمس عشرة الهجرية الماضية.

والاحتفاء بالقدس يختلف عن الاحتفاء بأي مدينة عربية أخرى، فهو ليس ترفاً أو استعراضاً شكلياً بقدر ما هو ممارسة عملية واجبة على كل عربي ومسلم، والتزاماً فكرياً وإيماناً راسخاً بعروبة هذه المدينة، ولن يتم كل ذلك إلا بتكريس هذه القيم عبر الوسائل الثقافية والمعرفية، ومنها نشر الكتب وإنتاج الأفلام والبرامج والمسلسلات التي تؤكد على الوجه الحقيقي لهذه المدينة التي شهدت أعظم الأحداث في تاريخنا العربي والإسلامي.

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة عجمان

هذه الموسوعة

إسهاماً منها في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م ارتأت دار كنعان للدراسات والنشر أن تُقدم لقراء العربية موسوعة شاملة لرحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين خلال أكثر من أحد عشر قرناً، شهدت فلسطين خلالها عدداً كبيراً من الرحلات التي قام بها عرب ومسلمون، بعضها تم تحقيقه خلال فترات زمنية مختلفة، ومنها ما بقي حبيس المخطوطات، لم يتيسر لعموم القراء مطالعته.

ولأدب الرحلات أهمية خاصة بالنسبة لفلسطين، فهي الأرض المقدسة التي زارها ملايين الحجاج ونقلوا لأحبتهم أخبار مشاهداتهم لهذه الديار المباركة. غير أن عدداً قليلاً منهم قام بتدوين مشاهداته، التي تمثل الزمن الذي عاش فيه هذا الرحالة أو ذاك، ولذلك فالرحلات وثائق تاريخية وجغرافية، من شأنها أن تعمق الوعي التاريخي وتوسع الآفاق والمعارف والرؤى.

ولقد عرفت فلسطين طوال هذه القرون تطورات وتحولات كثيرة، لم يكن بالإمكان الاطلاع عليها من خلال كتب التاريخ التقليدي المتداولة، نظراً لحصر اهتمام هذه الكتب في أخبار الحروب والتحركات السياسية والعسكرية لهذا القائد أو ذاك، بعيداً عن التاريخ الذي يخص الأرض والبشر، ولذلك نأمل أن نُسهم بقدر الاستطاعة في نفض الغبار عن هذا التاريخ المجهول الذي يميط اللثام عن الكثير من الحقائق الغائبة.

وتكمن أهمية هذه الموسوعة، في أنها تمثل الجانب الآخر من صورة الرحلات التي قام بها الرحالون الغربيون إلى فلسطين خلال قرون طويلة، أسهموا من خلالها في تكوين وعي معين تجاه فلسطين، مستقى بشكل أو بآخر من الوعي الديني المسيحي واليهودي الذي يُمثل فيما يُمثله جانباً واحداً من الصورة، غير أن الأمر بات أكثر خطورة بعد حملة نابليون على فلسطين آخر القرن الثامن عشر، حيث بدا نوع جديد من الرحلات مرتبط بشكل أو بآخر بالمشاريع الاستعمارية التي كانت تُعد في دوائر القوى العظمى، مستهدفة إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين في مغالطة لحقائق التاريخ والجغرافيا والمنطق. ولذلك ساد خلال قرنين من الزمن نوع من الرحلات الاستكشافية إلى فلسطين وما يحيط بها، أسهم بشكل مباشر في تكوين وعي زائف لتاريخ فلسطين خصوصاً وبلاد الشام بشكل عام، ما نزال نعاني من تبعاته حتى هذه اللحظة، إذ ركزت معظم رحلات الغربيين على إدعاءات كاذبة تحيل على جهل وتخلّف سكان فلسطين من العرب الذين

يعيشون في خيام ويمتهنون السرقة والسلب والخروج على القوانين، تاركين هذه الأرض الخصبة معطلة، فكان لابد من إعمار هذه الأرض المقدسة بشعب متحضر يبلغ بها مراقي التقدم، معيداً لها مجدها القديم الذي توقف مع قدوم العرب المسلمين إليها . وهذا هو الوعي الذي سوغ للصهيونية كل جرائمها بحق فلسطين وأهلها حتى يومنا هذا.. فما أحوجنا إذاً لتصويب الصورة، وتوضيح الأمور ووضعها في نصابها، ونقل الجانب الآخر من الصورة الذي تمثله رحلات العرب والمسلمين التي ننشرها في موسوعتنا هذه.

ومن الملاحظ أن الوعي العربي للخطر الصهيوني بدأ بالظهور في مطلع القرن العشرين، والرحلات التي نقدمها خلال هذه الفترة؛ تُبين بشكل واضح وجلي أن الكثير من العرب كانوا على بينة من أبعاد المشروع الاستعماري الصهيوني لفلسطين، ولذلك ظهرت في ذلك الوقت أشكال متعددة لمقاومة هذا المشروع، منها أدب الرحلات الذي كان يهدف إلى تقديم حقيقة الأوضاع وتوعية الناس لما يجري حولهم، وهذا ما تصدى له كلٌّ من نجيب نصار ونجيب عازوري وعارف العارف وبشير كعدان وغيرهم..

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، إذاً هي إسهامٌ هامٌ في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية وهي إسهامٌ نطمح أن نثري به المكتبة العربية، فتكون هذه الموسوعة إضافةً هامةً إلى المراجع الأخرى التي تناولت الحديث عن فلسطين أرضاً وشعباً وتاريخاً عبر العصور الغابرة.

دار كنعان للدراسات والنشر

تقديم

ما إن انتهى عام 1516م حتى كانت فلسطين مع كامل بلاد الشام في حوزة العثمانيين. وكان دخول جيش (الخنكار) المدجج بالسلاح الناري إلى هذه البلاد أشبه بنزهة، إذ لم يواجه أي مقاومة تذكر بعد معركة مرج دابق شمالي حلب في 23 آب (أغسطس) من ذلك العام، ومقتل السلطان قانصوه الغوري، ومن ثم دخول السلطان سليم خان إلى حلب، فدمشق، اللهم إلا معركة أخيرة غير متكافئة مع جيش للمماليك في خانيوس، حاول التصدي للعثمانيين ليمنعهم من دخول مصر في 11 كانون الأول فهزم شر هزيمة، وباتت القاهرة بعدها لقمة سائغة.

ولم يلق المماليك، الذين حكموا بلاد الشام ومصر والحجاز قرابة القرون الثلاثة، من ينصرهم في بلاد الشام، وكذلك لم يلق العثمانيون من يقف بوجههم من أهل البلاد، فكانت المعارك بين جيشين يتقاتلان بمعزل عن إرادة عامة الناس وتطلعاتهم، الذين كانوا يسمون بـ(الحرافيش) أواخر العصر المملوكي، في حين كان الحكام ومن لف لفهم يسمون بـ(أولاد الناس).

وقد ظهرت في تاريخ فلسطين خلال العصر العثماني أربع سمات، توزعت على القرون الأربعة التي حكموا فيها بلادنا، ففي القرن السادس عشر برزت مراكز قوى مبعثرة تمثلت بزعامات محلية ذات مرتكزات بدوية إقطاعية، استخدمتها الدولة العثمانية كأدوات في الحكم، وفي تصريف الشؤون الإدارية المحلية. وفي الثلث الأول من القرن السابع عشر انتقلت أزِمَّةُ الأمور إلى قوى محلية من خارج فلسطين، ونعني بالذات فخر الدين المعني الثاني، الذي مد سلطته من جبل لبنان، معقلة التاريخي ومعقل أسلافه، إلى كامل الساحل الشامي بما في ذلك فلسطين، لتعود الأمور في الثلث الثاني من ذلك القرن إلى السلطة العثمانية، التي ملأت الفراغ السياسي بعد إعدام فخر الدين عام 1635م ووضعت حداً لسلالته، غير أن ظهور إمارة عربية في فلسطين في الثلث الثالث من هذا القرن وبدايات القرن الثامن عشر، وهي إمارة الزيادنة، وضع حداً للسيطرة العثمانية

المباشرة، حيث تمتعت مناطق واسعة من فلسطين بنوع من الحكم الذاتي تحت سلطة ظاهر العمر الزيداني، والأسر الإقطاعية في جبال الخليل والقدس.

وبين فترة القضاء على إمارة الزيادنة، والحملة الفرنسية عام 1799م بقيادة نابليون بونابرت، وثم دخول قوات إبراهيم باشا المصري إلى بلاد الشام، ومنها فلسطين عام 1831م قامت ثورات عديدة واضطرابات محلية، تفنن خلالها الوالي العثماني أحمد باشا الجزار بإنزال العقوبات وفرض الأتاوات على الفلاحين الفلسطينيين حتى أنهكت البلاد، وأسلمت أمورها للأقدار.

ولكن، وخلال فترة حكم إبراهيم باشا لبلاد الشام، بدأت روح جديدة تنبعث في حياة الناس، فقد بدأت ملامح التحديث تظهر على أنظمة الحكم، وظهرت لغة جديدة تختلف عن مظالم الفترات المظلمة السابقة القائمة على نظام الالتزام المدمر. وبعد خروج قوات إبراهيم باشا عام 1841م، تنبهت السلطات العثمانية إلى ضرورة إعادة بناء الدولة على أسس جديدة، فصدرت سلسلة القوانين الإصلاحية، التي سميت بالتنظيمات، فكان (خط شريف كلخانة) عام 1839م والذي يتضمن وعداً للسكان بمنحهم الأمان على أموالهم وأعراضهم وأرواحهم، ووعداً بإصلاح القضاء وإلغاء نظام الالتزام المقيت. وفي عام 1856م أصدر السلطان عبد المجيد ما سمي بـ(التنظيمات) التي قررت معاملة جميع أبناء السلطنة معاملة متساوية، بمعزل عن ديانتهم، ووعدت بإجراءات إصلاحات تنظيمية ومالية وإدارية وتعليمية.

وفي عام 1864م صدر قانون الولايات العثماني، الذي قسم السلطنة إلى 27 ولاية، وتم تقسيم كل ولاية إلى عدد من الألوية، وكل لواء إلى عدد من الأقضية.

وقد تميزت هذه الإصلاحات بالمركزية الشديدة نتيجة رغبة السلاطين العثمانيين في فرض سلطانهم المباشر على أراضي السلطنة كافة، وعدم ترك الأمور بيد الولاة الذين لا يؤمن جانبهم على الغالب.

وخلال هذه التحولات الطويلة التي مرت على أرض فلسطين، كانت الحياة تمر ببطء شديد مع توقف وتراجع أحياناً، فعم الجهل، وتعمق الفقر إلى أقصى حد ممكن، وتحكمت بالبلاد قوى الإقطاع المحلية، بالتآزر مع الولاة الظلمة، الذين لم يكن لديهم هدف سوى جباية الأموال.

في هذه الفترات انتشرت السياحات الصوفية، وهي رحلات كان يقوم بها شيوخ الطرق ومريدوها، بقصد زيارة أضرحة الأنبياء والصحابة والصلحاء، بغية الحصول على

المدد واكتساب الثواب، ولذلك اقتصرت هذه الرحلات على سرد مناقب التصوف والمتصوفين، وذكر الخوارق والمعجزات، ووصف الأضرحة وما يتصل بها، وهو ما يمكن عدُّه شهادة أمينة على وعي أبناء تلك العصور، وحدود مداركهم.

ولا يخفى أن السلطنة العثمانية كانت من أكبر مشجعي التصوف و(الدروشة) عبر بناء التكايا وإجراء الأوقاف عليها، وتكريم كبار المتصوفين وإعفائهم من الضرائب، وما إلى ذلك. نظراً لأن الفكر الصوفي كان يسيطر على السلالة العثمانية نتيجة تأثيرات جلال الدين الرومي وصدر الدين القونوي وغيرهما من أئمة التصوف المتأثرين بـ(الشيخ الأكبر) محي الدين ابن عربي. ولذلك لم تكن مصادفة أن يكون بناء مسجد على ضريح ابن عربي في صالحية دمشق؛ الإنجاز العمراني الأول للسلطان سليم خان حين فتح بلاد الشام.

ومع ذلك قدمت لنا رحلات المتصوفة وغيرهم، ممن قصدوا زيارة المقامات والأضرحة والمساجد والمعابد التاريخية في الأراضي المقدسة في تلك الحقب، معلومات غاية في الأهمية عن الأحوال الاجتماعية والسكانية والجغرافية لفلسطين، في فترات غامضة، تكاد أن تكون المعلومات عنها معدومة، ومن خلال هذه الرحلات التي استمرت على مدار قرنين من الزمن تقريباً، يمكن لنا أن نكوّن صورة عن فلسطين، مبهمة بعض الشيء، ولكنها أفضل من العدم، خصوصاً إذا نظرنا إلى الموضوع من منطلق الرؤية التاريخية للصراع على بلادنا، وبروز المطامع الغربية فيها مع حملة نابليون عام 1799م، ثم تدفق الرحالة الغربيين والمستكشفين بعد هذه الحملة، تمهيداً لاستعمار فلسطين وإنشاء ما سمي (الوطن القومي) لليهود، الذي مثل قمة المشروع الاستعماري الغربي لمنطقتنا.

تيسير خلف

دمشق 2 آذار 2009م

رحلة أوليا جلبي إلى فلسطين
1649-1671م

زار الرحالة العثماني الكبير أوليا جلبي[1] المتوفى سنة 1090 هجرية/ 1679 ميلادية، فلسطين أكثر من مرة ودوّن وقائع زياراته في رحلته الشهيرة سياحة نامة سي، ذات الأجزاء الكثيرة، والتي تعد واحدة من أكبر وأشهر الرحلات في العالم الإسلامي خلال حقبة ازدهار الإمبراطورية العثمانية.

ومحمد ظلي أفندي الشهير بأوليا جلبي من رجال القرن الحادي عشر الهجري، يعدّه بعض المستشرقين ابن بطوطة التركي. ولد في اسطنبول عام 1020 هجرية/ 1611 ميلادية من أبوين أبخازيين من القفقاس.

كان جده حاملاً للواء السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية، أما والده درويش فكان جواهري البلاط السلطاني (قويو مجي باشي). وقد صحب السلطان سليمان القانوني في أكثر من حملة عسكرية. أما أمه فكانت أختاً للصدر الأعظم.

كان أوليا جلبي ذا ميل للدراسات العلمية ولذلك فقد عمل (حافظاً) في مسجد آيا صوفيا، وهناك سنحت له فرصة التعرف بالسلطان مراد الرابع الذي أعجب بصوته في تلاوة القرآن فرفعه إلى قصره وجعله من ندمائه. لكن حياة القصور لم ترق له، فغادرها في رحلة استمرت خمسين عاماً زار خلالها معظم مناطق العالم الإسلامي وأوروبا، مرة بصفة إمام، ومرة وحده. وخلال أسفاره رافق أهم الجيوش العثمانية إلى الشرق والغرب، واستطاع أن يرى أكثر بلاد الأناضول والروملي والقفقاس، ووصل جزيرة كريت، وجال في إيران وفيينا وألمانيا وهولندا وبولندا وروسيا، ورجع إلى اسطنبول عن طريق جزيرة القرم. زار أوليا جلبي أيضا سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر وحتى هنغاريا وبلغاريا واليونان والبوسنة والسويد وغيرها.

---

[1] - انظر عن حياته وأسفاره كراتشكوفسكي من ص 702 ـ 711. وكلمة جلبي تلفظ تشلبي، وهي كلمة تركية تعني اللطيف او المهذب ،ومنها كلمة «شلبي» العامية في بلاد الشام»

مصنّف أوليا جلبي يُعد من أهم الوثائق التي تصف العصر الذي عاش فيه. وهو يزودنا بتفصيلات غنية عن الأقطار التي زارها وعادات شعوبها وأحوالها الفكرية والاجتماعية ونظم حكوماتها ومعاهدها ومنشآتها وآثارها القديمة التي أوْلاها قدراً كبيراً من اهتمامه وخص منها بعنايته - شأنه شأن الهروي - المساجد والمزارات والأضرحة. ويتضمن مصنفه حكايات كثيرة عن كرامات الأولياء والأنبياء، ومنها حكايات تتميز بصبغة أسطورية واضحة. لقد كان أوليا جلبي شديد التدين بل كان متصوفاً مفرقاً في التصوف، في عصر انتشر فيه التصوف وعم الأقطار الإسلامية.

وقد أجمل موردتمان Mordtmann (1852 – 1932) الواسع الإطلاع على الثقافة التركية القول في أوليا جلبي حين قال: (لقد كان أوليا جلبي كاتباً خصب الخيال مع جنوح واضح إلى الغريب وإلى المخاطر، وهو يفضل الأسطورة على الوقائع التاريخية الجافة ويلذ له الدخول في المبالغات بحيث يبلغ في ذلك حد الإسفاف. فإذا ما وضعنا في حسابنا هذه النقائص فإنه يجب الاعتراف من جهة أخرى بأن كتابه ذخيرة لا تنفد في جميع ما يمس الحياة الاجتماعية والأدب الشعبي والجغرافيا وأنه يعرض كل هذا في أسلوب يمتاز بالبساطة والحيوية معاً)[2].

ويضيف تيشنر Taesehner أن المؤلف لا يخلو من بعض العُجْب بنفسه ومن الميل إلى المبالغة. وأسوأ من ذلك أنه يعمد أحياناً إلى العبث بالحقائق. ولهذا فإن دراسة المصنَّف والإفادة منه في البحث العلمي تحتاج دائماً إلى أعمال التحفظ وبذل العناية الشديدة. ولا شك أن النتائج التي يمكن الحصول عليها بعد ذلك ستكون ذات قيمة كبرى بالنسبة للباحث[3].

ولا يجوز أن يغيب عن أذهاننا بعد هذا كله أن اوليا جلبي، الذي اعتمد على مشاهداته الشخصية فيما دونه في كتابه، كان جغرافياً كبيراً، ورحالة من أعظم الرحالين الذين عرفهم الشرق وأن كتابه سياحتنامه مصدر في الدرجة الأولى من الأهمية. وبه ختمت سلسلة الجغرافيين الرحالين الكبار من أهل الشرق.

زار أوليا جلبي بلاد الشام مرتين الأولى عام 1058 هجرية/ 1648 ميلادية، صحبة الوزير مرتضى باشا الكرجي المعروف بالسلحدار، و المعيّن واليا على الشام. وأخبار هذه

---

[2] - Mordtmann, Ewliya Celebi, p.35.

[3] - كراتشكوفسكي، ص 707. وقد اخذ كراتشكوفسكي الكثير مما كتبه عن جلبي عن:
Taeschner, Die geographische literature der Osmanen, pp. 67 – 70.

الرحلة في المجلد الثالث من الكتاب. وأما الثانية فكانت في عام 1082 هجرية/ 1671 ميلادية في طريقه إلى الحج وأخبارها في المجلد التاسع.

وفي هاتين المرتين زار فلسطين وواصل السفر منها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج[4]. ونحن نعتمد أساساً في حديثنا عن وصفه لفلسطين على ما كتبه عن سفرته الثانية[5]، في حين اعتمدنا في القسم المخصص لفزة على رحلته الأولى.

أتى جلبي إلى فلسطين قادماً من صيدا على الساحل الشامي. وسلك طريقاً لعله لم يسلكه سائح آخر. ولعل الذي حدد هذا الطريق أن جلبي سعى إلى زيارة أكبر عدد من المزارات المنتشرة في فلسطين. فسار من صيدا جنوباً على محاذاة البحر ثم انعطف صاعداً إلى المنطقة الجبلية جنوبي لبنان فزار الجليل الفلسطيني ثم توجه من هناك إلى جبال الضفة الغربية فالقدس.

وقد تناول جلبي القدس بوصف مستفيض استغرق حوالي خمس عشرة صفحة من الجزء الثالث من سياحتنامه (الأصل التركي). ولعلّ أهم ما تضمنه حديثه عن القدس: وصف القلعة والسور بالتفصيل، ووصف الحرم الشريف المفصّل، بما في ذلك المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وأجزاء الحرم المختلفة الأخرى، وكذلك حديثه عن المدينة كما شاهدها في القرن الحادي عشر، بما في ذلك الإدارة العثمانية فيها وفي فلسطين ككل. أما الحديث عن تاريخ المدينة وتاريخ الحرم القديم، وكذلك الحكايات الشعبية المرتبطة بالمقدسات الإسلامية المختلفة، فهو أقل أهمية، ولا سيما وأن ذلك يمتزج بأساطير كثيرة تكمن قيمتها في أنها تعطينا فكرة عن الحالة العقلية السائدة في وقته وعن أفكار جلبي ومعتقداته بشكل خاص.

بدأ جلبي عرضه بحديث عام عن تاريخ المدينة منذ بدايته وحتى الفتح العثماني. وهو عرض لا ينطوي على فوائد علمية كثيرة. وفيه من الأساطير قدر غير قليل. وهو يتسم بالإيجاز بالنسبة للعصور السابقة للعثمانيين، ولا يكاد يذكر فترة المماليك التي امتدت حوالي 270 سنة.

---

[4] - ويرجح الدكتور العسلي انه زار القدس مرة ثالثة في سنة 1672/1083، بعد عودته من الحج فقد ورد في نص رحلته قوله: إنه زار كل المواقع في حرم القدس قبل عيد رمضان سنة 1082 (كانون الثاني، سنة 1672) ثم يقول في موضع آخر من الرحلة إنه زار القدس سنة 1672/1083.

[5] - أخذنا هذا النص المترجم حول القدس عن الدكتور كامل جميل العسلي الذي قام بتعريب هذا القسم عن الترجمة الإنكليزية التي نشرها اسطفان نقلاً عن مخطوط مكتبة طوبقابو سراي، كما اننا استعنا بالطبعة التركية الصادرة في استانبول 1971.

ويكتسب حديثه المفصّل عن الفترة العثمانية أهمية خاصة لأنّ الكاتب تناول فيه فترة عاش فيها، وكان يتحدث عن جزء من تاريخ دولة كان هو من رجالها. فأفاض في الكلام عن فلسطين وعن إيراداتها وأوقافها وتوزيع الأراضي وأنواعها. كما تناول جهاز الإدارة في القدس بجناحيه العسكري الذي يرأسه الباشا والمدني الذي كان برئاسة القاضي. وذكر أهم الموظفين والرؤساء العسكريين والمدنيين. وخصّ جهاز القضاء بالعناية وعدّد أهم الموظفين التابعين له وتحدث عن وظائفهم.

وقد وقف الدكتور كامل جميل العسلي على مجموعة من الأخطاء التاريخية لاعتماده على ما كان يتردد من روايات يرجع بعضها في أصوله إلى الأدب المتصل بالتوراة وما يسمى بالإسرائيليات بل وإلى الفولكلور الفلسطيني السابق على ذلك والعريق في القدم. ومن الأمثلة على ذلك قوله بأن نبوخذ نصّر أراد أن ينتقم لدم يوحنا المعمدان فاحتل القدس!. (ومعروف أن نبوخذ نصّر سبق يوحنا المعمدان بحوالي ستمائة سنة). وقوله: إن السلطان سليم أعطى طوائف الروم والفرنجة خطاً شريفاً أكد فيه ما جاء في الوثائق العمرية من إعفاءات. وفاته أن الفرنجة لم يكن لهم وجود في القدس زمن عمر. وقوله: إن مصطفى لالا باشا هو الذي شيّد قلعة القدس بأمر السلطان سليمان. وقوله: إن باب المغاربة سمي بهذا الاسم لأن المغاربة أخذوه في الحرب. وقوله: إن البرج الكائن على يمين الداخل إلى قلعة القدس هو (برج داود ومسكنه). وقوله: إن عدد أبراج سور القدس هو 57، بينما العدد الصحيح هو 34 برجاً إلخ.. ومن أجل هذا فلا بد للمرء أن يتوخى الحذر من المعطيات التاريخية (وغيرها) التي يُوّردها اوليا جلبي..

أصل هذه الرحلة مخطوط في عشرة أجزاء ضخمة في مكتبة برتو باشا في التكية السليمية بأسكدار من ضواحي اسطنبول، بدأ بطباعتها أحمد جودت صاحب جريدة إقدام في اسطنبول عام 1314 هجرية/ 1896 ميلادية، فصدر منها ثمانية أجزاء باللغة العثمانية القديمة التي تكتب بالحروف العربية، ثم توقفت طباعة بقية الأجزاء عند منع تداول هذه الحروف في تركيا. وأكملت طباعة الجزئين التاسع والعاشر عامي 1935 و1938 ميلادية بالحرف اللاتيني.

رحلة أوليا جلبي

سياحتنامه سي

وفد جلبي إلى القدس قادماً من صيدا على الساحل الشامي فسار جنوباً على محاذاة البحر ثم انعطف صاعداً إلى المنطقة الجبلية فزار يارون والجش والسوق العتيق وقرية ميرون وعين الزيتون وهي تقع على بعد 12كم إلى الشمال الغربي من صفد على الطريق التاريخي الذي يصلها بعكا والساحل.

ثم زار مدينة صفد التي وصفها بشكل شبه مفصل، فقال عن جامع الملك الظاهر الذي يسمى أيضاً بالجامع الأحمر: إنه كانت تغطي المسجد من الخارج قبة رصاصية، كما غطى الرصاص رأس المئذنة التي تشبه الأبراج في ضخامتها وعلوها، وقد اكتسب هذا الجامع اسمه من حجارته الحمراء المصقولة، وفوق المحراب كتبت سورة العرش بخط جميل. كما تحدث عن جامع الصواوين فقال: (وفي محلة الصواوين جامع الشيخ عيسى وصاحبه مدفون في ساحته).

ثم زار مقام (أبو قميص) وبحيرة المنية (طبرية) وقلعتها وقام بزيارات للمشاهد مختلفة في منطقة صفد وطبرية. وبعدئذ واصل سفره إلى قلعة عين التجار (اليوم خان التجار وخان السوق) فجبل طابور فاللجون فقرية نَيّن (في مرج ابن عامر) فقرية زرعين (في المرج نفسه). ثم زار جنين وقباطية وعرابة والمغارة والفندقومية وسبسطية. ومن هناك اتجه إلى عكا والناقورة، ثم عاد إلى دير شرف وبيت ايبا وجنين مرة أخرى.

ونجد بعد ذلك في رحلته المحطات التالية: نابلس وصف الجامع الكبير في نابلس (محرابه الحالي كان مدخل الكنيسة من الناحية الشرقية، وعلى جانبي المدخل يوجد ثمانية أعمدة ممشوقة من الرخام يرتكز عليها قوس الجامع الذي هو آية في فن البناء، ويبلغ طول الجامع 300 خطوة وعرضه 100 خطوة، ومجموع ما فيه من الأعمدة 55 عموداً.

ومحرابه واسع جداً ومنبره قديم. ثم زار قرى عسكر، وبلاطة، وعورتا، وحوارة، وبيتا، وعقربة، والزاوية، وخان اللبن (عقبة اللبن)، وسنجل، والبيرة، والنبي شمويل (صمويل)، وعين الظاهر بيبرس (قرب قرية العنب «أبو غوش») والشيخ جراح بظاهر القدس، فالقدس.

وصف الحصن القديم والقبلة الأولى

بيت المقدس

تدعى باليونانية ولاية إيليا وبالسريانية مقديشا وبالعبرية حاس[7] وبالعربية بيت المقدس أو القدس. وتضم المدينة مقامات مائة وأربعة وعشرين ألف نبي. وكانت قبل الطوفان وبعده قبلة الجنس البشري.

وعندما هاجر النبي تلبية لأمر إلهي من مكة إلى المدينة كان عمره إحدى وخمسين سنةً وتسعة أشهر. وقد عاش في المدينة عشر سنوات. وفي السنة الثانية (من الهجرة) نزلت عليه الآية ﴿فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ (سورة البقرة، الآية 144) على يد جبريل الأمين.

وهكذا تحولت القبلة من بيت المقدس إلى مكة. وأمر بمراعاة الصيام في مكة لكن القبلة الأولى كانت بيت المقدس، وبقيت المدينة قبلة للنصارى. وباختصار كانت القدس مطمع كل الأقوام التي امتلكتها، وخصوصاً النصارى لأن المسيح هبط من رحم أمه فيها، في القدس. وفضلاً عن ذلك فقد نشبت جميع الحروب من أجل هذه المدينة. لكن النصارى شنوا حروباً أخرى أيضاً بغية الاستيلاء على مكة. (فقصة) أصحاب الفيل، أبرهة، وقوم تبعٍ من اليمن معروفة.

إن حصن القدس بني في الأصل في أثناء حكم داود، بناه طالوت (شاول) لأنَّ جالوت (جوليات) هاجم القدس تكراراً بسبب الأماكن الأكثر قداسة الكائنة فيها. وبعد أن قام (جالوت) بحملات عدة ضدها نجح في أخذها. وبعدئذ خاض طالوت وداود معركة كبيرة جداً ضدّ جالوت في مرج دابق حلب حيث تمكن داود بحصاه المحكمة التسديد من قتل جالوت، كما جاء في الآية: ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك...﴾ (البقرة الآية 251).

---

(7) - ربما تحريف ا هاثر Ha-,ir بمعنى المدينة بالعبرية

وأصبح داود من ثم ملكاً مستقلاً وعاد سالماً بالغنائم الكثيرة إلى القدس وجمّل المدينة بالغنائم التي أخذها من مملكة جالوت. وعلى الرغم من أن داود كان نبياً وملكاً فقد اشتغل بالحدادة وكان يصنع الدروع. ولهذا فإن داود هو راعي الحدادين.

وبعد ذلك وفي سنة....[8] أراد نبوخذ نصّر أن ينتقم لدم يوحنا المعمدان[9]، فترك بلده نصيبين في كردستان(!) ووصل إلى القدس. وقد دمر جميع مبانيها وأنزل بأهلها الويلات، وقتل عدة آلاف من الإسرائيليين. ولم يرفع سيفه عنهم إلا بعد أراقة دماء تعدل في قيمتها دم يوحنا. وأخذ دانيال أسيراً إلى صفد ثم جُلِبَ إلى الموصل.

وازدهرت القدس ثانية. وفي أثناء حكم الإمبراطور البيزنطي هرقل في سنة..[10] من الهجرة قام عمر بن الخطاب بحصارها بنفسه[11] وكان معه ستون ألف مقاتل. وسلمت المدينة بعد أن أعطيت الأمان. لكن أهلها اشترطوا أن تترك لهم كنيسة القيامة، وهي مركز عبادتهم الرئيسي.

ولما وضع هذا الشرط في عهد قطع لهم قاموا بتسليم القدس. وبنى عمر مسجداً فوق كنيسة انسطاسيا[12]. ثم ترك عشرة آلاف محارب في القلعة ورجع إلى مكة[13]، وأرسل عمرو بن العاص لفتح مصر.

وبعدئذ أخذ الكفار القدس ثانية في سنة...[14] وزحف صلاح الدين، وهو ما زال وزيراً لنور الدين الشهيد في دمشق، زحف نحو القدس على رأس مائة ألف جندي وافتتحها بعد معركة ضارية [سنة 583هجرية، 1187م]. ثم هدم القلعة لكي لا يتمكن الكفار من تحصينها ثانية إذا ما فتحوا المدينة مرة ثانية.

وعندما كانت القدس في حوزة المماليك الشراكسة خرج كل العلماء والصالحين لملاقاة سليم شاه سنة 922 هجرية (1516م). وسلموه مفاتيح المسجد الأقصى وقبة صخرة الله، وسجد سليم وهتف قائلاً: «الحمد لله أنا الآن صاحب مسجد القبلة الأولى» ثم وزع

---

[8] - السنة غير مذكورة في الأصل التركي الذي ترجمه اسطفان (المع)، وهي سنة 586 قبل الميلاد

[9] - يوحنا المعمدان لم يكن معاصراً لنبوخذ نصر.

[10] - لا ذكر للسنة في الأصل، وهي 15 هجرية، 636م

[11] - لم يشارك الخليفة عمر بالحصار بل حضر بعد سقوطها بطلب من البطريرك الأورشليمي صفرونيوس

[12] - لم يقل ابن البطريق سوى أن عمر صلى على درجات المدخل الشرقي لكنيسة انسطاسيا في القيامة، التاريخ 2، ص 17.

[13] - الصواب أن الخليفة عمر رجع إلى المدينة

[14] - السنة غير مذكورة في الأصل

الهدايا على جميع الأعيان وأعفاهم من الضرائب الباهظة وثبتهم (أي ثبتهم في وظائفهم).

ثم أدار الوثائق العمرية التي كانت في حوزة رهبان الروم والفرنجة[15] أمام وجهه وعينيه وأعطاهم خطا شريفاً أكد للرهبان فيه ما جاء في تلك الوثائق، أي أنهم كانوا معفون من أداء الضرائب وأن كنيسة انسطاسيا (المقصود القيامة) تظل مكان الصلاة الرئيسي بالنسبة لهم كما كانت حتى الآن.

وعين... باشا[16] حاكماً على المدينة وثبّت مولانا أخفش زادة شيخ الدراويش المولوية في منصبه ومنح 500 أقجة على سبيل الصدقة.

وتم تخليص إيالة (فلسطين) (من يد المماليك). وهي ما تزال تعتبر نوعاً من «إقطاعية شمير» تمنح لأرباب المناصب الكبيرة (بالتركية arpalyq).

ويبلغ محصولها العائد إلى السلطان 357.485 أقجة[17] وفيها تسع زعامات و 106 تيمارات. ولدى حاكم القدس 500 جندي يأتمرون بأمره وهو أمير الحاج الشامي. وأمير حجاج مكة في الذهاب والإياب. وتبلغ مخصصاته السنوية 40.000 قرش.

إنها ولاية مزدهرة. لكن أرباب الإقطاعيات فيها لا يؤمرون بالخدمة في الميدان. وما على هؤلاء إلا أن يرافقوا وهم يحملون إعلامهم الحجاج القادمين (ويأخذوهم) إلى مكان الحج الذي يقصدونه. ويبلغ عددهم جميعاً ستمائة رجل.

ويتلقى قاضي القدس (وهو الحاكم المدني) مخصصات تعادل مخصصات الباشا، ولأن المنطقة التي ينفذ حكمه فيها تعد ألفاً وستمائة قرية يعين في كل منها نائب شرع، وذلك أن ولايته رفيعة المقام. وعندما يظهر أحياناً أن البطاركة والقسس والشمامسة والرهبان والقساوسة المتزوجين يخلفون بعد وفاتهم بعض الأموال فإن الملا (القاضي الكبير) والباشا يحصلان من تلك الأموال على ما يتراوح بين أربعين وخمسين ألف قرش. ويحدث ذلك بوجه خاص في عيد الفصح الشائن عندما يذهب الملا والباشا إلى باب كنيسة الأنسطاسيا (القيامة) الذي لا يفتح (في ذلك اليوم) قبل وصولهما إلى هنالك، ويأخذ القسيس من كل حاج من الحجاج الذين يتراوح عددهم بين الخمسة الاف والعشرة آلاف ما بين عشرة قروش وخمسة عشر قرشاً. ويعطى الملا والباشا (....) 20؟ وهو مبلغ كبير.

---

(15) - لم يدرك المؤلف ان طوائف رهبان اللاتين لم يكن لهم وجود في فلسطين زمن عمر.

(16) - اسم الباشا غير مذكور في الأصل

(17) - في الطبعة التركية التي بايدينا والتي سنشير اليها فيما بعد: 257485 اقجة (له ع)

وعندما قام سليم بتخليص البلاد (من أيدي المماليك) كان بشالق (فلسطين) يتألف من السناجق التالية: 1 . غزة 2 . وجبل عجلون 3 . واللجون 4 . ونابلس 5 . والقدس. وهذه السناجق يديرها الباشا. وهناك خمسة سناجق أخرى تحت حكم زعماء البادية (tsholbeylery) يديرونها كأنها ملك خاص لهم، ولكنهم يدينون في الوقت نفسه بالولاء للسلطان. وفي هذه الولاية بعض القرى المخصصة للأوقاف إلا أن معظم القرى تتبع أرباب الإقطاعات من الزعماء والتيماريين، وهم قادة الفرسان الإقطاعيين. وهناك أيضاً قائد قوات السنجق. وقائد الإنكشارية.

وينقل أرباب الإقطاعات الحجاج المسلمين إلى الخليل ومكان ولادة عيسى في بيت لحم وإلى النبي موسى لأن الطرق غير آمنة بسبب المتمردين من الإعراب.

وهناك (في القدس) قائد الفرسان (آغا السباهية) وقائد (آغا) الإنكشارية وقائد لانكشارية دمشق ومناصب للشيوخ الأربعة للمذاهب الأربعة، ونقيب للأشراف. أما الأشراف والأعيان والعلماء والصالحون فعددهم كبير جداً. وهناك أيضاً قائد القلعة (الدزدار) ويتبعه حامية تتألف من مائتي رجل.

ويرسل الملا جنوداً من الحامية إلى الجهات الصعبة في البلاد ليكونوا تحت تصرف القضاة المقيمين في القدس والخليل ونابلس والرملة والكرك واللجون وجنين. وقد جمعت هذه المناطق كلها تحت ولاية قاضي القدس. وتضم المناطق أحياناً (إلى منطقة القدس) تبعاً لمقدرة الملا، ولكنه يعين في بعض الأحيان قاضياً لبضع سنوات للقدس وحدها. وباختصارٍ فإن الحصيلة السنوية للإدارة القانونية في القدس تبلغ 40 ألف قرش.

ويتبع ملا القدس 20 ضابطاً (آغا) يعينون ببراءات من السلطان وأول هؤلاء المحضر باشي الذي يعينه السلطان في احتفال رسمي. وهو الحارس الليلي لأبواب المدينة، وينفذ مهام وظيفته بوساطة العساكر السلطانية. والآغا الثاني هو ناظر الشرطة الذي يعين خصيصاً للقدس وهو منصب عال يشتهيه الكثيرون. والآغا الثالث هو المعمار باشي. (رئيس المعماريين)، والرابع هو المهندس باشي والخامس هو المعتمد باشي (كبير الوكلاء) والسادس الصرّاف باشي (أمين الصندوق الرئيسي) الذي يقوم شخصياً بدفع الهبات السنوية (الصرة) التي ترد من السلطان إلى العلماء والآغا السابع هو الخزندار باشي (أمين بيت المال) والثامن هو الصوباشي (ضابط الشرطة) والتاسع البازار باشي (المحتسب) والعاشر الكتخدا (رئيس البلدية) والحادي عشر: رئيس سوق القماش المقصّب. وباختصار فإن رؤساء جميع فئات التجار يحضرون يومياً إلى المحكمة الشرعية لأداء واجباتهم.

وهناك سبعة أوقاف «باهرة» في القدس يأتي متولوها إلى المحكمة ويحضر كل منهم هدية إلى المُلا. إنها إدارة شرعية كبيرة ومحكمة قضاء كبيرة.

وصف حصن القدس

إن كل التواريخ تسمى هذه البلاد بلاد فلسطين. وقد امتدحها الله في القرآن الكريم في اثنتين وأربعين آية، تلميحاً وتصريحاً.

ولما كان جميع الملوك في الأجيال السابقة حريصين على الاستيلاء على القدس فقد حوصرت مائة مرة ودمرت قلعتها. وكانت قلعة ضخمة مبنية بالأحجار المربعة المنحوتة عندما شيدها مصطفى لا لا باشا بأمر السلطان سليم و(بإيرادات) اثني عشر سنجقاً. والقلعة التي هدمت في الأزمنة القديمة ترتفع من أساساتها إلى ما بين أربعين وخمسين ذراعاً مكياً. وقد بنيت خارج السور، بينما بني مسجدا الأقصى والصخرة داخله. وهي قلعة مربعة الشكل وقوية ذات بناء ضخم وكل حجر من أحجارها المربعة في حجم الأسد أو مؤخرة الفيل.

ويمكن وصف محيط «جسم» القلعة كما يلي:

يأتي أولاً باب المغاربة، الذي يفتح جنوبياً. وهو باب صغير وقد سمي بهذا الاسم لأن المغاربة أخذوه في الحرب وقد عبر عن تاريخه هكذا:

[أمر بإنشاء هذا الباب في أيام (الـ) سلطان الأعظم السلطان سليمان خان ابن سليم خان خلد الله ملكه (بـ) تاريخ محرم الحرام في سنة سبع وأربعين وتسعماية].

وقد سجل هذا النقش على جميع الأبواب وأبراج القلعة وعلى منحنيات الزوايا بخط واضح جداً.

وإذا سرنا على امتداد سور المدينة (وهو بلا خندق) وتركنا هذا الباب في اتجاه الغرب فنمشي خمسمائة خطوة كبيرة حتى نصل إلى برج الماء. ومن هناك نتجه صعداً مرة ثانية إلى أقصى زاوية في الغرب فنسير ألف خطوة حتى نصل إلى باب داود.

وهذا الباب أيضاً يفتح جنوبياً. وهو باب جديد يبلغ علوه اثني عشر ذراعاً. ومن هنا إلى زاوية القلعة مسافة 250 خطوة في اتجاه الغرب. وهذا الموقع هو أحد زوايا القلعة. ومن هنا يتجه المرء إلى الشمال. ويسير شمالاً على محاذاة الخندق مسافة ستمائة خطوة «ممتدة» فيصل إلى باب خليل الرحمن. ويفتح هذا الباب غرباً وارتفاعه عشرة أذرع. وله بوابة حديدية مزدوجة عالية.

وعلى هذا الباب أيضاً نقش يبين تاريخه مكتوب على عتبته العليا. وإذا مرّ المرء من باب الخليل هذا على امتداد حافة القلعة التي لا خندق لها في اتجاه الغرب فيصل إلى «البرج المائل»[18] بعد مسافة أربعمائة خطوة. وهذا البرج هو الزاوية الأخرى للقلعة. ومن هذا المكان أيضاً يتجه المرء إلى جهة الشمال(!).

وإذا اتجه المرء من هذا «البرج المائل» في الخندق إلى جهة الشرق فهو يرى حدائق وبساتين إلى أن يصل إلى أسفل المرتقى المؤدي إلى باب الصولجان الحديدي[19] Bozdoghan Qapu على بعد تسعمائة خطوة.

وقد دعي هذا الباب بهذا الاسم منذ أن أعدم مصارع كردي (أو كرجي؟) عنده. وخارج هذا الباب يتابع المرء الخندق في اتجاه الشرق حتى يصل بعد مائة خطوة إلى مغارة الأرواح المقطوعة في الصخر، وهي الأرواح التي سجنها الملك سليمان[20] وهي مغارة محفوفة بالأسرار ويحميها طلسم، وجديرة بالمشاهدة. وإذا سار المرء ثلاثمائة خطوة أخرى من المكان المحاذي للبرج القائم فوق هذه المغارة في اتجاه الشرق - في الخندق - فيصل إلى باب الساهرة وهو باب حديدي صغير يفتح شرقاً[21]. وإذ يمشي من هذا المكان على حافة الخندق في اتجاه الشرق فيجد أمامه زاوية برج رستم باشا[22] على خمسمائة خطوة.

ومن هنا يتجه المرء الآن إلى الجنوب وهو يسير في الخندق، على مرمى النار؟ إلى أن يصل إلى باب الأسباط. ويدعى أيضاً باب مريم لأنها مدفونة هناك. وبعد خمسمائة خطوة نأتي إلى باب حديدي مزدوج مكشوف[23] يقع في الجانب الشرقي مقابل جبل الطور (الزيتون).

ومن باب مريم يسير المرء بمحاذاة سور المسجد الأقصى الذي لا خندق له مسافة

---

[18] - ليس هناك الآن من اثر لهذا الاسم التركي وليس هناك ما يشير إلى أن «قلعة جالود» هذه هي «برج مائل» وكان الصليبيون يدعونه ببرج تانكرد.

[19] - يقصد باب العامود.

[20] - يقصد مغارة الكتان او محجر سليمان.

[21] - الباب يفتح بالطبع إلى جهة الشمال.

[22] - المقصود: برج اللقلق الآن.

[23] - هما بابا الرحمة والتوبة اللذان يطلق عليهما عامة الناس بالقدس باسم تو توما، ويطلق عليهما الأجانب اسم الباب الذهبي وهما مقفلان ربما منذ القرن السادس للميلاد ويدعيان الآن كذلك باب الدهرية إشارة إلى الأسطورة التي تقول بأنهما سيفتحان ثانية عند دنو اليوم الآخر.

ستماية خطوة فيصل إلى زاوية مقام مريم[24]. وهذه هي الزاوية الرابعة لحصن القدس، وهي لهذا السبب مربعة الشكل.

ومن مقام مريم إلى الغرب لا يصادف المرء خندقاً وهو يمر بإزاء أماكن شاهقة ومهولة إلى أن يمر أمام محراب المسجد الأقصى ويصل ثانية إلى باب المغاربة بعد أن يسير أخيراً ثمانمائة خطوة.

ووفقاً لهذا الحساب يكون محيط الحصن سبعة آلاف وخمسين خطوةً. وله سبعة وخمسون برجاً حسن التحصين وثلاثة وسبعون منحنى تسيطر على الأسوار الأخرى. وهناك ما مجموعه أربعة آلاف وخمسون كوة (فتحة) بين شرفات السور.

وإذا ما سار المرء من مقام مريم إلى باب المغاربة فباب داود ومن ثم إلى الزاوية الشمالية(؟) فهو لا يصادف خندقاً على امتداد ألف وسبعمائة ذراع فوق أرض حجرية تماماً. فالخندق ليس ضرورياً هناك. وفضلاً عن ذلك فلا مكان له هناك. والخندقان الكائنان في الطرف الغربي ليسا عميقين كثيراً. وربما تراوح عمقهما بين خطوتين وثلاث خطوات.

وبداخل باب الخليل تتصل القلعة في أحد الجوانب بالحصن الرئيسي. وهو حصن داخلي صغير آخر يبلغ محيطه أربعمائة خطوة وله ثلاثة أبواب حديدية مكشوفة تؤدي إلى الحصن الكبير. ومن الباب الأول يعبر المرء على جسر خشبي يؤدي إلى القلعة. وفي هذا المبنى الذي شيّبه الدهر، إيوان مزدان بالعديد جداً من أدوات الحرب، الكائنة داخل القلعة.

ويعيش في القلعة قائدها (الدزدار) ووكيل الحاكم (الكيخيا)، وإمام وواعظ ومؤذن وعساكر. وهناك ما مجموعه إحدى وسبعون غرفة مبنية بداخلها، وهي صغيرة للغاية. وبستان قائد القلعة بستان صغير مزدهر، قائم في خندق القلعة.

وبرج الزاوية الواقع إلى يمين الداخل إلى القلعة هو البرج والمسكن الشريف الذي بناه داود نفسه. وهو غير مسكون لأسباب عاطفية، ولكنه يستخدم مستودعاً للذخائر وبيتاً للمال. وله باب حديدي. والبرج مبني بالحجارة المربعة المنحوتة التي يبلغ قياس الواحد منها خمسة إلى ستة أذرع[25].

والحق أنه لا مجال للشك على الإطلاق في أن الأرواح هي التي بنته. ويتراوح عمق

---

[24] - هو ما يعرف اليوم باسم مهد عيسى ومحراب مريم حيث أرضعت السيدة مريم طفلها، فيما يقال

[25] - بالإنجليزية Yards (لد ع)

خندق هذه القلعة خارج باب الخليل ما بين حوالي أربعين وخمسين ذراعاً مكياً[26]. والقلعة تتألف من ثلاثة طوابق متينة البُنيان. وكل حجر من أحجارها في حجم جسم الفيل.

أما محراب مسجد داود في القلعة فيتجه إلى الشمال (!) نحو المسجد الأقصى. ولما أنزلت الآية ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ - البقرة، 144 - على محمد، جعل الاتجاه في الصلاة نحو مكة.

وقد حول السلطان الأيوبي عيسى محراب داود هذا إلى مسجد ووضع لوحة رخامية بيضاء في جداره الأيسر كتب عليها النقش التالي: [بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله[27]. ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾[28] وعمل هذا البرج المبارك من مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين عيسى ابن ملك(!) العادل بن سيف الدين بن أبي بكر بن محمد بن أيوبيان بن شادي خلّد الله دولته وتولى عمارته عز الدين وعمر عمارته بأرض فلسطين في شهور سنة عشر وستماية وإلى! الله رب العالمين].

وليس هناك مبانٍ مهما كانت حول حصن القدس[29] اللهم إلا حارة داود التي تتألف من أربعين بيتاً.

وإذا استثنينا البساتين والكروم وحدائق الزهور فجميع المباني هي داخل الحصن (السور). وجميع الأحياء إسلامية، وهناك ما مجموعه ألف قصر عال شبيه بالحصن. ومباني هذه المدينة من الحجارة، وليس فيها مبان خشبية مطلقاً. ومع ذلك فالأبواب مصنوعة من الخشب. والدور مغطاة بالشيد وكلها مصلّيات(!). وهناك مسجدان للجمعة، أحدهما داخل القلعة، والآخر هو المسجد الذي عينه لذلك نص حاسم، وهو المسجد الأقصى الذي ذكره خالق العالمين في القرآن الكريم (الإسراء). وليس هنالك إلى جانب هذين مسجد للجمعة، فجميع المساجد الأخرى مساجد عادية.

---

(26) - ربما هو الذراع المعماري العادي الذي يبلغ طوله 29.5 انش = 75سم

(27) - التوبة، الآية 109، في النص الذي سجله جلبي: [أم من اسس الخ]

(28) - سورة الصف، الآية 13.

(29) - المقصود السور.

وصف المسجد الأقصى

يفترض أن داود هو الذي بدأ بناءه. أما سبب بنائه فهو أن الطاعون انتشر بين بني إسرائيل في زمن داود فصلى داود ودعا بأن يزول المرض. وعندما خفت حدة الطاعون بني المسجد الأقصى في الموضع الذي صلى فيه داود. ولكن قبل إتمام البناء توفي داود وأتم سليمان البناء. وبعد أن رفع داود قواعده إلى مقدار قامة الرجل مات داود بسلام بعد أن قهر جالوت. وهكذا انتقل الملك إلى سليمان. وأصبح سيداً لجميع المخلوقات وأمر الأرواح (الشريرة) بأن تبني هذا المسجد الأقصى.

وبعد فترة طويلة تم البناء. وفي ذلك اليوم نفسه كان سليمان يتوكأ على عصاه الملكية بينما كان يراقب انتهاء المسجد فجاء الأمر الإلهي: ﴿ارجعي إلى ربك﴾[30]. وصعدت روحه الشريفة إلى السماء، بينما كان جسده يتكئ على العصا. ولم يعلم بذلك أحد من الخلق. ومع ذلك فعند تطهير المسجد الأقصى فإن آصف براخيا، وهو حكيم من رجال سليمان ووزيره، وحافظ خاتمه الخاص، دأب على صرف جميع الأرواح والجنيات من عملهم اليومي قبل الغروب وحبسهم جميعاً عند انتهاء العمل في السجن القديم[31] الكائن في الخندق خارج باب العامود. وكان يفعل ذلك باستخدام طلسم. ومع الوقت هلكوا جميعاً. وحتى في هذا الوقت يمكن للمرء أن يشاهد جماجمهم هنالك(!). إنه مكان مظلم جداً يقشعر المرء لدى النظر إلى داخله.

وفيما بعد أكلت دودة عصا سليمان من الداخل فسقط على الأرض. وهناك اتفاق بين جميع العلماء على أنه وفقاً للكتب المقدسة دفن بجوار والده داود.

وبعدئذ جاء الأمر الإلهي[32] بتحويل المسجد الأقصى إلى قبلة. وامتثل العديد من الملوك. وبنى كل منهم ملحقاً للمسجد حتى أصبح جميلاً كأنه الجنة.

وبعد أن قضي النبي ﷺ عشر سنوات (!) في المدينة بعد الهجرة صَدَر له الأمر الإلهي: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾[33]. وعندئذ حولت القبلة من القدس إلى

---

[30] - الفجر، الآية 28

[31] - مغارة الكتان

[32] - البقرة، آية 144 و145.

[33] - البقرة الآية 144 و145، ومعروف ان هذه الآية نزلت في السنة الثانية للهجرة (المترجم).

مكة. ومع ذلك فإنه بالإشارة إلى القدس نزلت الآية: ﴿وليّطوّفوا بالبيت العتيق﴾[34]، وفي هذا الوقت الحاضر فإن هذا المسجد هو كعبة المتصوفة.

إنه مسجد كبير يتسم بالجلال والصفاء. ويبلغ قياسه من الباب الجنوبي[35] حتى المحراب ثلاثمائة خطوة بالضبط. ويبلغ عرضه من محراب عمر في الشرق إلى زاوية محراب المالكية أربعمائة خطوة. ويبلغ مجموع ما فيه من العمدان سبعين عاموداً كبيراً وصغيراً، وهي ذات أشكال فتانة من لون السماق وغيره من الألوان. وكل عامود منها جوهرة بذاته تساوي كنوز مصر.

وجناحا المسجد أضيفا إليه فيما بعد، وهما يستندان إلى دعائم بينما ترتفع القبة على أقواس ضخام. ويتألف المبنى من صفوف واحدها فوق الآخر وهناك أقواس فوق الأعمدة القوية. ويستند السطح الذي يشبه العرش والسقف الخشبي إلى عشرين دعامة من خشب الأرز، وهي مطلية بمختلف الألوان. إنه منظر مدهش. ويرتفع المبنى المستدير أربعين ذراعاً من الأرض، بينما يبلغ ارتفاع ا لمباني القائمة إلى جواره عشرين ذراعاً، ويستند المسجد من الداخل إلى مائة وعشرين قوساً، من كبيرة وصغيرة. والقبة التي تعلو المحراب هي أعلى أجزاء المبنى. إنها قبة رائعة لا مثيل لها على وجه الأرض. ويبلغ ارتفاعها خمسين ذراعاً، وهي ملكة جميع القباب المحيطة. إنها ليست كروية كالقباب الأخرى بل أهليلجية.

والمسجد مزدان من الداخل برسوم من الفسيفساء الزجاجية المذهبية بألوان متقزحة تمثل شجرة أرز الجنة (الطوبى) وزهرات أشجار الفاكهة. إنه مبنى مستدير «نور على نور» (سورة النور، الآية 35). وقد كتبت حوله الآية: ﴿الله نور السموات والأرض﴾(النور، 35) وقد رمّمه سليمان خان ولا يمكن إيفاء المحراب والمنبر حقهما من الوصف بالكلمات، لأنهما يفوقان الوصف والتحديد. صحيح أن المنبر من الخشب، إلا أن الصانع البارع، رغبةً منه في عرض براعته، جعل المنبر كأنه من عمل ساحر. أما المحراب فهو مذهب بسخاء كأنما هو قطعة مطلية باللازورد ومرصّعة بالجواهر. وكل معدن أو حجر كريم معروف على وجه البسيطة، أيما كان، قد أدخله الصانع البارع، في حجم عين الطير في ذلك المحراب، بحيث أصبح نموذجاً يجل في جماله عن الوصف.

---

(34) - الحج الآية 29

(35) - يخلط المؤلف هنا، كما في أماكن أخرى، الشمال بالجنوب

وبعد أن نظر سليمان خان في إنشاء المحراب والمنبر والقبة اختار من معارفه الشخصيين المعلّم الموهوب، المختصّ في فسيفساء الزجاج عبد الله السكّير (Serkhosh Abdo) الذي أتى بالعجائب في هذا المحراب الذي في الحرم الشريف، وذلك باستعماله أثني عشر نوعاً من الزجاج ذي الألوان المختلفة المتقزحة، بحيث أن الأشعة المنعكسة عندما تسقط على الأرض تضيء المسجد كله وتملأ جموع المصلين الكبيرة بالضياء والتأمل، وتوحى لهم بصلاةٍ تلفها المهابة والخشوع.

وإلى جانب ألواح الزجاج ذات الاثني عشر لوناً التي مر ذكرها من قبل هناك ما مجموعه مائة وخمسة من ألواح الزجاج، بما في ذلك البلور والبلور الصخري والزجاج البنفسجي.

وإلى يمين المحراب ويساره غرست ألواح من الخشب الممتاز[36] في الجدار قياس كل لوحة ثلاثة أقدام، وجميعها مطلية ببراعة فائقة بألوان قوس قزح. وهي محاطة بالرخام. وكلما أنعم المرء النظر فيها ازداد بها إعجاباً، كأنما هو ينظر إلى عمل الله. لكم كانت هذه الصفائح الرخامية الكبيرة جميلة في صقلها وزينتها.

وهناك سبعة شبابيك في هذا الحائط على جانبي المحراب وتطل عليه.

وأمام المنبر تقع دكة المؤذنين[37]، وهي ترتفع على أثني عشر عموداً رفيعاً صغيراً جيد التوازن، كأنها سرادق. وهناك أيضاً «كرسي سليمان»[38] وكرسي للواعظ. وقد زينها المعلم البارع باللمسات الفنية، وجعلها منظراً بهياً يسمو بالنفوس.

إنّ سجاد الصلاة الحريري في هذا المسجد رائع. وهو سجاد أناضولي وعربي وفارسي. وما من سجاد في المساجد الأخرى يضاهيه في الجمال.

وهناك حوالي ألف من المعلقات الثمينة البارعة الصنعة تتدلى من السقف إلى جانب سبعة آلاف من قناديل الزيت الصغيرة[39]. ويضاء كل ليلة حوالي ألف قنديلٍ. أما في ليلة القدر فتضاء القناديل جميعاً، بحيث يغدو المسجد وهو الجيد الإنارة من قبل، نوراً على نور، في حين يسبّح خارج المسجد بالضياء أيضاً.

---

(36) - ليست هذه الألواح من الخشب بل هي صفائح من الرخام المزدان بكثافة بالأشكال الهندسية

(37) - المكان المواجه للمنبر مخصص للمبلغين لا للمؤذنين

(38) - ليست هنالك منصة ولا كرسي تحمل اسم سليمان في المسجد الأقصى في الوقت الحاضر.

(39) - إن عدد القناديل المعلقة الآن (اي في سنة 1939) في الأقصى، كما يقول سدنة المسجد، هو اربعة الاف وقد تم تركيب الضوء الكهربائي في الساحة فحسب

للمسجد عشرة أبواب، سبعة منها تفتح جنوباً[40]. ويبلغ ارتفاع الباب المركزي خمسة عشر ذراعاً. إنه من صنع قديم وهو من النحاس المطلي بالمينا. وعلى كل جانب من جانبي الباب ثلاثة أبواب أخرى، وهي متقنة الصنع وجديرة بالرؤية. وإلى اليسار يقع باب الخضر بينما يقع إلى اليمين باب المالكية. وخلف المنبر يقع المدخل المؤدي إلى المدرسة[42]. وخارج الأبواب الجنوبية[43] هناك قناطر على ست دعائم ورواق.

زيارة المسجد الأقصى

هناك أولاً في الزاوية الشرقية محراب عمر. فبعد الفتح أدى الصلوات هناك طيلة أسبوع كامل. ويليه محراب داود حيث كانت تؤدي الصلاة عندما كانت أساسات المسجد قيد الحفر. وإلى يساره آيات قرآنية كتبها بشكلٍ متساوٍ بالأحرف الكوفية الخلفية عثمان. وتبدو كأنها كتبت بيد العلي القدير.

وإلى يمين المنبر يقع مهد عيسى، وهو مصلى يقع خلف درابزين فني الصنعة. وله مدخل منفصل.

ويقع مقام الخضر عند باب المسجد الأيسر. وأحمد الله أنني زرتها جميعاً وصليت عند كل منها ركعتين راجياً الله بخشوع أن يلبي سؤلي بشفاعتهم.

هنالك ثمانمائة من السدنة أرباب الرواتب في المسجد الأقصى هذا. فهناك أئمة للمذاهب الأربعة وعدد مساوٍ من الوعاظ. وأيام الجمعة يصعد الخطيب إلى المنبر وبيده السيف[44]. أما السيف المشقوق فهو سيف عمر[45] ويمكث الخطيب على رأس عمله مدة أسبوع واحد. وهناك في الجملة خمسون مؤذناً، ومسبحاً ومبلغاً (أو معرِّفاً) وسواهم من القراء وكذلك السدنة.

---

[40] - الصحيح شمالاً.

[42] - المدرسة الختنية القديمة

[43] - الصحيح: الشمالية

[44] - من المعروف جيداً أن الخطيب ينبغي ان يستند إلى السيف اثناء الخطبة في المدن المفتتحة، ولكن لما كانت القدس قد استسلمت صلحاً فيفترض في الخطيب فيها أن يستند إلى عصا وهو يلقي خطبة الجمعة من المنبر. إنه يرتدي ثوباً حريرياً أخضر اللون وخفا جلديا احمر. اما المدن الفلسطينية التي يحمل فيها الخطيب السيف فهي نابلس ويافا وغزة والناصرة وعكا والخليل. ويشغل منصب الخطيب في المسجد الأقصى في الوقت الحاضر افراد من بني جماعة، وهي عشيرة من عشائر قبيلة كنانة التي تنتسب إليها قريش ويرتدي الخطيب في صلاة الجمعة رداءً اخضر وخفا احمر. وفي الخطب التي تلقى في المسجد الأقصى. يوضع إلى يمين الخطيب علم النبي موسى، وإلى يساره علم المسجد الأقصى ويوضع العلمان على أعمدة المنبر.

[45] - هذا السيف المشقوق هو ذو الفقار، وهو سيف علي بن ابي طالب

وهذه الوظائف تدفع معاليمها من جيب السلطان. ويأتي أمين الخزنة الخاصة سنة فسنة لتوزيع هذه الهدايا والأعطيات عليهم.

وقبة المسجد الأقصى مغطاة كلها بالرصاص. والقناطر مغطاة من الداخل بالزخارف المذهبة بكثافة إلى ارتفاع قامة الرجل، وهكذا فإنها تحير المشاهد بفخامتها وهذا كل ما في الأمر.

وصف مسجد صخرة الله

يقع مسجد صخرة الله شمالي المسجد الأقصى الذي سبق ذكره. ومن هذا المسجد الأخير يسير المرء خلال مرج فوق (رصيف) طوله مائتا خطوة من بلاط الرخام الأبيض غير المنحوت الذي رصف بأمر السلطان سليمان (القانوني) - ومن ثم يتجه المرء بخطاه إلى حوض ماء رخامي ضخم مصنوع من كتلة واحدة[46] وفق توجيهات السلطان سليمان نفسه.

.... وهو أثر لا يُضاهى (بجماله) على وجه الأرض. إنه متقن الصنع ويقع في وسط المصطبة. وعندما يجتازه المرء متجهاً إلى الشمال يصل بعد حوالي اثنتي عشرة خطوة إلى درج يؤدي إلى قبة الصخرة. وعدة الدرجات اثنتان وعشرون درجة، وهي من الرخام الأبيض. وعرض الدرج يرى المرء الصخرة المقدسة. والقبة التي فوقها هي قصر أقيم في وسط الحرم تماماً، وهو مغطى بالرخام الأبيض المصقول. ومنظرها يشل في الإنسان القدرة على الكلام، وعندما يشهدها المرء يردد هذا الدعاء: «اللهم اجعل النور في قلبي وفي عيني وأذني. وامنحني نور رحمتك، يا رؤوف يا رحيم».

وعندما يأتي المرء من جهة المسجد الأقصى يرى منبراً مقابل باب قبة الصخرة الجنوبي[47]. وهناك يحمل الحجاج أحذيتهم بأيديهم ويسيرون حفاةً مسافةً مائة خطوة على البلاط الرخامي الأبيض في المسجد، إلى أن يصلوا إلى باب مسجد صخرة الله. وهناك يتركون أحذيتهم في حراسة البوابين ويبدؤون زيارتهم.

إن عبد الملك بن مروان هو الذي بدأ أولاً بإنشاء قبة الصخرة هذه سنة 72 هجرية. ولما كانت الصخرة هي القبلة الأولى فإن كثيراً من الملوك والسلاطين بنوا من بعد مباني ملحقة بها، وزيّنوها على نحو رائع وجعلوها مكاناً يتسم بالهدوء والجلال.

---

(46) - وهو يعرف منذ اجيال باسم الكاس

(47) - وهو المنبر الصيفي الذي بناه القاضي برهان الدين بن جماعة (780 . 839هـ/ 1378 . 1436م)

وفي سنة 926هـ (1520م) ارتقى السلطان سليمان سدة العرش وفتح قلعة بلغراد وفيما بعد جزيرة رودس ومالطة(!) وجمع بذلك ثروة هائلة. وعندما أصبح ملكاً مستقلاً(!) ظهر له النبي في «ليلة مباركة» وقال له: «يا سليمان لتبلغن الثامنة والأربعين من العمر[48] وتقومن بفتوح كثيرة. ولن يفنى نسلك إلى آخر الزمان ولسوف أسبغ عليك دائماً رحمتي. وإني آمرك بأن تنفق هذه الغنائم على تزيين مكة والمدينة وتحصين قلعة القدس لتصد عنها الكافرين عندما يحاولون الاستيلاء على القدس في عهود خلفائك. وعليك أيضاً أن تزين حرمها ببناء حوض للماء فيه وأن تمنح الدراويش فيه هبات المال السنوية وأن تزين أيضاً صخرة الله وتعيد بناء القدس».

وإذ كان هذا هو أمر النبي فإن سليمان نهض من نومه على الفور وأرسل من غنائمه ألف كيس[49] إلى المدينة وألف كيس أخرى إلى القدس. ثم بعث المعمار البارع الخوجا سنان، مع المواد اللازمة إلى القدس. ونقل لالا مصطفى باشا من ولاية مصر إلى ولاية سوريا. وإذ أمر هذا الأخير بتعمير القدس فقد جمع كل معلمي البناء والمعماريين والنحاتين الموجودين في القاهرة ودمشق وحلب وأرسلهم إلى القدس ليعيدوا بناءها وليزينوا الصخرة المقدسة، بحيث أن الآية «هذه جنات عدن... فادخلوها ..»[50] كتبت بحق على باب الجنة[51] في قبة الصخرة. حقاً إنها صورة طبق الأصل لقصر من قصور الجنة.

وخلال السنوات الثماني والثلاثين التي جُلت فيها في سبعة عشر بلداً يبقى هذا الموقع فريداً بين المباني التي شاهدتها كأنه واحد من الجنات الثماني[52]. وإن المرء ليقف مشدوهاً أمام منظرها، ويأخذ بمجامع اللب الجمال الأخاذ لمسجد رائق الحسن ينهض كقصر الخورنق وسط مسجد مرصوف ببلاط الرخام الأبيض.

إنّ محيط هذا المبنى المثمن هو ثلاثمائة خطوة[53] وهو ملبَّس بالرخام السماقي والرخام المعرق المتعدد الألوان حتى ارتفاع ثلاث قامات. وحتى هذا الرخام يشهد بألف صورة من الصور على عجائب الخالق.

ومن فوق الغطاء الرخامي حتى طرف المبنى (العلوي) زُيّن المبنى ببراعة بالبلاط

---

(48) - حكم السلطان 48 سنة قمرية

(49) - الكيس كان يعادل خمسمائة قرش

(50) - ليست هذه بآية ويبدو انها كلمات مقتطعة من آيات مختلفة

(51) - وهو الباب الشمالي

(52) - في القرآن الكريم الجنات سبع (لـه ع. المترجم).

(53) - إن محيط المبنى السفلي لقبة الصخرة هو 160 متراً وطول كل ضلع من اضلاع المثمن هو 20 متراً.

المتعدد الألوان، بأكمل بلاط في الدنيا . وعلى هذا البلاط كتبت سورة ياسين حول المبنى بقلم أحمد قرا حصاري.وفي كل زاوية من زوايا المثمن أضيفت آيات مثل سورة ياسين، والآية ﴿سلاماً قولاً من رب رحيم﴾ (ياسين، 58) والآية: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ (هود، 88) بخط جلي كبير.

وفوق هذه البلاطات المنقوشة وضعت ميازيب لماء المطر مصنوعة من النحاس المطلي بالقصدير. وفوق شرفات المثمن غطي السطح كله بصفائح الرصاص. وفوق ذلك لبست رقبة القبة ببلاطات منقوشة كتبت عليها حروف يبلغ ارتفاعها عشر أقدام، وهي ممتازة الصنع. ثم ترتفع القبة الجليلة إلى أوج السماء. ومع ذلك فإنها ليست كروية كالقباب الأخرى بل هي أهليليجية كالقبة التي تعلو مقام جلال الدين الرومي في قونية. وتصل قمة القبة إلى الغمام. أما الهلال الشريف فيبلغ ارتفاعه أثني عشر ذراعاً . ويقولون إنه ذهّب بكثافة حتى إن لألاءه تُرى على بعد مرحلة. إنه منير حقاً .وتحت هذه القبة السامقة تقع صخرة الله.

لهذا المكان المقدس أربعة أبواب. هناك باب يواجهه الجنوب، وآخر يواجه الشرق، وثالث غير مغطى (أي من الخارج) يتجه شمالاً هو باب الجنة . ورابع يواجه الغرب. وهذه الأبواب المزدوجة مصنوعة من البرونز الأصفر الساطع، الذي يتلألأ كالذهب. وما من معلم فنان يستطيع في هذه الأيام أن ينفذ عملاً كهذا . وعلو كل باب عشرة أذرع. وعلى كل باب ستائر مزدوجة من القماش المطرز لأن فصل الأمطار في القدس يتسم بالقسوة.

والمبنى من الداخل أيضاً، كما هو من الخارج، مكسو من القمة حتى القاع بصفائح الرخام من سماقي ومعرق وزعفراني وأصفر ويرقاني وأحمر سماقي وأبيض مرقش ذي عروق مدهشة. وكل صنف من أصناف الرخام هو الأجود من نوعه. وقد قُصّت قطع البلاط بحيث تشكل أزواجاً . وإذا وضعت الواحدة منها بجانب الأخرى فإنها تكون رسوماً كثيرة غريبة وجميلة (متناسقة). وحتى خارج الباب الجنوبي يرى المرء إذ يدخل قبة الصخرة صورة ديكين[54] منقار أحدهما إزاء منقار الآخر، ولهما أجنحة مفروشة على الرخام الذي يكسو الجانب الأيمن من الباب، وهما مثبتان على الرخام المعرق بمعجزة من معجزات السماء. وقد رسم الديكان رسماً جميلاً بحيث يلفتان الأنظار. وفضلاً عن هذا فهناك رسوم نباتية ورسوم أخرى في هذا الرخام ذي العروق. والنوافذ في الجدار الأول الذي يتحد مع غيره في المركز تطل على باحة المسجد . ويقرأ المرء على زجاجها الرائع

---

(54) - هما في الواقع حمامتان

المصنوع والمقزّح الألوان كلمات: «لا إله إلا الله» أو الآية ﴿الله نور السموات والأرض﴾ (سورة 24، الآية 35) أو أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة. أنه زجاج مصبوغ جميل يحير الألباب.

أما الجدار الثاني فهو إن أردنا الدقة ليس بجدار بل هو صف دائري من الأعمدة داخل الجدار الأول. وفيه ما مجموعة اربعة وعشرون عموداً، تصل بينها أقواس تستند إليها القبة العالية. إلا أن ستة عشر عموداً من الأعمدة الأربعة والعشرين هذه هي أحجار ضخمة مفردة صنعتها يد الله القدير نفسه. ولونها أحمر سماقي، وهي تجل عن الوصف. أما الأعمدة الثمانية الباقية فهي دعائم مربعة تقف عند النقاط الأساسية. وقد زينها الباني البارع تزييناً سخياً بالزخارف الفنية التذهيب وكذلك بالألوان المنوعة حتى إن الشخص الغريب الذي لم يعتد على رؤية هذا المنظر يصيبه الذهول حينما تسقط أشعة الشمس من خلال نوافذ الزجاج المصبوغ على هذه الدعائم.

وأما السقف بين هذه الأحجار المفردة الضخمة الأربعة والعشرين وبين الجدار فقد طلاه ببراعة فائقة على أرضية بنية بلون الجمال، الرسامون بهزاد القاليقوتي[55]، وماني، وشاه قولي، وولي يان، وآغا رضا. ويقسم السقف إلى ثمانية أقسام، كل قسم منها مصبوغ على مثال مغاير للآخر.

وتحت الأقواس التي يسندها صف هذه الأعمدة هناك شرفات يمشي عليها الناس لإضاءة قناديل الزيت. وأمام هذا الصف من الأعمدة هناك أيضاً، في الجدار محراب الحنفية، حيث تؤدى الصلاة مجموعة كبيرة من الناس خمس مرات في اليوم.

هناك أئمة ومؤذنون (في قبة الصخرة). وفوق الباب المؤدي إلى مغارة الصخرة تقوم دكة المؤذنين. ولكن لا منبر هناك (أي في قبة الصخرة). وتنتشر على الأرض سجاجيد حريرية ثمينة.

وبداخل هذا الصف الثاني من الأعمدة هناك صف دائري ثالث منها، فيه اثنا عشر عموداً ذات لون أحمر سماقي ومبرقش. وكل منها يساوي في قيمته الإيراد السنوي لآسيا الصغرى. إنها أعمدة ضخام من حجر مفرد.

وتستند القبة العالية الملأى بالأنوار الإلهية إلى هذا الصف الدائري من الأعمدة.

---

[55] - من المستحيل أن يكون أعظم رسامي المنمنمات الفرس بهزاد الهروي (فهو من هرات لا قاليقوت «كالكوتا») الذي عاش بين سنتي 1440 و 1514، هو الذي رسم سقف قبة الصخرة مع أن الزخارف القائمة هناك هي فارسية أيضاً في البلاط الذي يكسو مثمن قبة الصخرة ورقبتها.

والسقف الكائن بين صف الأعمدة الثاني والثالث مطلي أيضاً بشكل غير مألوف على أرضية بنية بلون الجمال. وينقسم هذا السقف إلى ستة عشر حقلاً، كل حقلٍ منها مطلي ببراعة يد صناع على نحوٍ يأخذ بالألباب.

وبين هذه الأعمدة الكائنة في الصف الثالث وضع شبك من الحديد. إنه تحفة فنيّة مصنوعة بطريقة معجزة، وينسب إلى داود.

وهناك أبواب خلال هذا الشبك الحديدي يدخل منها إلى الصخرة. وهذه الأبواب هي أيضاً من الشبك المصنوع بطريقة فنية، ومفتوح من جميع الجهات. وداخل هذا الشبك هناك درابزين من خشب الأرز مرصّع باللؤلؤ ويحيط بالصخرة المقدسة وليس له أي باب. ولا يجوز لأي شخص كان أن يدخل الصخرة. وأرباب الرتب العالية والمحتد الكريم هم وحدهم الذين يسمح لهم بدخول الفناء لتنظيف الصخرة المقدسة ومسح الغبار عنها بمنشفة مرة واحدة في العام، في حين أن جميع الحجاج يطوفون حوله عادة من الخارج.

وصف صخرة الله

أدعو لإخوتي الحجاج أن لا تساورهم أية أفكار غامضة حولها. إن تلك الصخرة التي تدعى بصخرة الله محاطة بهذا الدرابزين. وهي صخرة بيضاء يبلغ حجمها، وفقاً لمحيط الدرابزين، مائة خطوة. ويرى المرء من خلال الدرابزين حجراً أبيض يدعى صخرة الله. ويرى بعض المفسرين أن الآية: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ [سورة الشورى، آية 42: 12] تعنى (أن الله يشير بذلك): «لقد خلقت أولاً حبيبي محمداً على وجه الأرض ثم أغلقت الأرض بمقاليدها (مفاتيحها) أي أنني أقمت جبالها. ويقول مفسرون آخرون إن المقاليد تُلمّح في الدرجة الأولى إلى جبل عرفات ثم إلى قبة الصخرة. وهذه الأخيرة معلقة بحول الله (!) لأنها قبلة لجميع الأرواح التي تَتَعَبّدُ في القدس، سواء الخيرة منها أم الشريرة. وحتى في ذلك الزمان البعيد كانت قبة الصخرة مكاناً للعبادة. إنها قبلة آدم نفسه، كما ذكرنا من قبل.

تلقّى النبي هبة النبوة وهو في الأربعين من عمره في مكة حيث عاش ثلاث عشرة سنة أخرى بعد ذلك. ولما بلغ الثالثة والخمسين وتسعة أشهر هبط عليه جبريل من الله العزيز القدير وقال له: «يا محمد إن الله العزيز القدير يُقرئك السلام ويقول: أشر إلى موضع يُقام فيه مكان لعبادة الله، فعين حبيب الله مكاناً وأبلغ جبريل الأمين.

ويقول بعض الرحالين: «لا، إن محمداً ترك مكة وذهب إلى القدس على البراق. لكن هناك اختلاف واسع في الآراء حول هذا الموضوع. وعلى أي حال فإن النبي جاء إلى القدس حيث رحبت به أرواح الأنبياء جميعاً. وأدى الصلاة في المغارة التي تحت الصخرة المقدسة. وما إن مسح محمد وجهه بيديه حتى هبط جبريل من عند الله وقال له: «يا محمد إن الله تعالى يقرئك سلامه، وقد أرسل لك البراق لتطير إلى الجنة. وأمر قائلاً: ليركبْه ويأت ويرعرشي واللوح المحفوظ وقلمي وجناني الثماني. ليرني دون وسيط ويشاهد عظمتي. وعند ذلك أطاع النبي أمر الله وترك مغارة الصخرة وصلى ركعتين على صخرة الله. وحتى هذا اليوم فإن آثار رأسه الشريف وهو راكع وآثار ركبتيه على الصخرة ما تزال ظاهرة - هكذا يقولون. ومع ذلك فلا يسمح للمرء بأن يزورها. وبعدئذ بسمل رسول الله وامتطى البراق وطار وهو يتلو الآية ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومُرساها. إن ربي لغفور رحيم﴾ (سورة هود، الآية 41). وإذ هو قال ذلك نخس البراق ووصل بيسر إلى السماوات العلى. ثم سمع هزيم الرعد فاستدار بوجهه الكريم نحو الصوت فرأى صخرة الله وراءه كأنها تناشده: «يا محمد خذني معك إلى حضرة الله». وكانت الصخرة تتحدث بلسان. فخاطب رسول الله الصخرة على الفور هكذا: «يا صخرة الله ظلّي معلقة بإذن الله» فظلت الصخرة معلقة في الهواء بإذن الله. وحتى اليوم ما تزال معلقة لا يصلها بالأرض شيء (!). وإذ كانت الصخرة معلقة بين السماء والأرض فهي تدعى (الحجر المعلق). لكنها صخرة الله. ويقولون إن كلمات كتاب التاريخ تصدق بهذه الحالة، بمعنى أنها المقلَد (المفتاح) الثاني الذي خلق على وجه الأرض. ويروي كتاب التاريخ أيضاً أن هناك صخرتين جاءتا من الجنة. أحدهما الحجر الأسود الذي كان في الأصل بلون الياقوت. وفي أثناء طوفان نوح العظيم بقي في ماء الهاوية. وكان الخاطئون يمسحون وجوههم عليه. وهكذا تغير لونه وأصبح «الحجر الأسود». أما الصخرة الثانية فيقال إنها صخرة الله هذه. ولكن الله وحده يعلم حقيقة الأمر.

وقد أمر المرحوم السلطان أحمد[56] بصنع ظُلّة غنية التذهيب كان غطاؤها يتألف من ستارة مرصعة بالذهب والجوهر. وثبتت زواياها بحبالٍ من حرير بحيث غطت الصخرة المقدسة. ومن هذه الظلة إلى أعلى نقطة في القبة علو يتراوح مقداره ما بين

---

[56] - أحمد الأول (1589 . 1617) (للدع . المترجم)

أربعين وخمسين ذراعاً. ويبدو داخل هذه القبة، النيلي اللون، كأنْ سطحه كله مطلي بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة المغروسة في المينا. أما اسم الرسام الذي طلاه فهو شاه قولي.

وعندما طارت الصخرة خلف نبي الله ثم أمرها الرسول بالوقوف في مجراها خلال الهواء بقي تحتها فراغ (!). وهذه المغارة تتسع لمائتي شخص[57]. ويقع مدخلها خلف محراب الحنفية تحت دكة المؤذنين تماماً. ويدخل إليها باستخدام درج حجري. وبابها يتألف من شباك من الحديد.. وتحتها غرفة واسعة ومصلى للأتقياء من الحجاج. وقد أمر أحد الخلفاء في الأيام الخوالي بإقامة حائط حاجز رفيع تحت الصخرة المقدسة لئلا تستبد الرهبة بالحجاج الذين يرغبون في زيارة المغارة، فيتمكنوا من أداء صلواتهم بذهن حاضر وسكينة. وذلك أن منظر الصخرة المعلقة كان يفزع الحجاج ويؤدي بالكثير من النساء الحوامل إلى الإجهاض لمجرد رؤيتها. بيد أنه يمكن إدخال إصبع بسهولة أو حتى إدخال يد في بعض الأماكن بين الصخرة والحائط.

مقامات مغارة صخرة الله

عندما تَنْزل على الدرج يكون مقام جبريل ومحرابه على الجانب الأيمن من المغارة، بينما يكون مقام داود على اليسار. وعندما صلى النبي هناك لمس الصخرة المقدسة بعمامته الشريفة وترك بعض العلامات المجوفة (في الحجر). وعلى الزائر للمكان أن يمسد ذلك المكان ثم يمسد وجهه ويدعو قائلاً: «اللهم بيض وجهي ببركة معراج محمد عليه السلام». وعندما أتى جبريل الأمين من خلوة الخضر وصومعة سليمان إلى النبي لم يدخل من جانب المغارة بل انشقت الصخرة التي فوقها. وفي هذا الشق الذي نزل منه يشاهد مصباح زيت كبير ظل مشتعلاً منذ ليلة الإسراء. ويملأه السدنة بالزيت على الدوام ويجددون الفتيل، وهم مسؤولون عن هذه الخدمة. وبذلك فإن داخل المغارة يغمره الضوء بحيث أن من يصلي ركعتين تحت هذا الضوء الغامر لن يحرم أبداً من رحمة الله وفَضْله بعونه تعالى. وهذا ما أردت أن أقوله.

ثم إن هنالك عاموداً صغيراً ورقيقاً من الرخام عند مدخل المغارة. وهو موضوع تحت الصخرة المقدسة، أملاً في أن يسندها إذا ارتجفت. وبذلك يشعر الناس بالأمان وباب هذه المغارة يواجه الجنوب. وكل هذه النصب والآثار كائنة داخل قبة صخرة الله.

---

[57] - لا تكاد المغارة تتسع لأربعين شخصاً، وهم وقوف

إنها قبة أهليليجية ضخمة كأنها هبطت من قمة الأجرام السماوية. لم يبن بناءً كهذا قط منذ سقوط آدم، ولا رأى السائحون له نظيراً في جميع أرجاء العالم المعمور.

المقامات الكائنة خارج درابزين الصخرة المقدسة

هناك أولاً سياج من القضبان الفضية حول خزانة تضم الأثر المبارك لقدم النبي اليمني وتُملأ بماء الورد نهاراً وليلاً، وقد اعتاد الحجاج أن يغسلوا وجوههم به. ومقابل الخزانة نرى ترس حمزة موضوعاً على زاوية معكوسة. ويسميه بعض الناس مرآة الإسكندر. وهي مقعرة في أحد جانبيها. أنها طلسم عظيم كأنما هي مرآة العالم. ولو نظر فيها ألف رجل في وقت واحد لأمكن رؤية كل واحد منهم. إنها قطعة لافتة جداً للنظر. ويشهد الفقير كاتب هذه السطور بأنها مرآة الإسكندر.

وعلى شبكة صخرة الله صنع داود رمانات من حديد. إنها حقاً عجيبة من عجائب رسول الله، وقطعة فنية من عمل داود نبينا عليه السلام.

وفي النقاط الرئيسة الأربع نجد مقامات الخلفاء الراشدين الأربعة - رضي الله عنهم جميعاً. فإلى الشرق مقام علي، وإلى الجنوب مقام أبي بكر الصديق، وعند الباب الغربي مقام عمر، وعند الباب الشمالي أو باب الجنة مقام عثمان ذي النورين.

وتستمد الصخرة نورها من المصباح المعلق من القبة. وكل من صلى ركعتين تحت قناديل الزيت هذه، وعددها ألف قنديل بالضبط، سيبلغ بالتأكيد أكثر ما يشتهي.

وبالإضافة إلى ذلك هنالك ثلاثة آلاف قنديل أخرى معلقة في هذا المكان المقدس. كأنها فروع من نور الشمس، ولا حاجة بنا لأن نذكر العديد من الشمعدانات البالغة الثمانة.

وكل واحد منها تحفة أنجزها فنان ضليع. وهي قد بلغت في ثمانتها حداً فائقاً بحيث أن إيراد مصر نفسه لعدد من السنين يعجز عن شرائها. ناهيك بقطع البلور النفيسة.

إن البسط والسجاجيد في هذا المكان المقدس هي من أجل العبادة. وليس هناك نظير لهذا السجاد حتى في قصر الملك. ولما كان البادشاه (السلطان) العثماني في الوقت الحاضر أكثر السلاطين جلالاً واحتراماً في الدنيا بأسرها وقد ذاعت شهرته بين جميع الملوك حتى دولة الصين ولما كانت كل ريح تردد هذا النبأ الذي يفرح القلب، ولهجت الألسن بالثناء على السلطان لكرمه الذي لا يحد[58] فقد جعل هذا المسجد جنة لا نظير

---

[58] - الأصل التركي محرفه والترجمة فيها شيء من الإفتراض.

لها في الأرض وزينه برسوم بهزاد، وذلك أن السلطان العثماني وحده هو الذي يمكن أن يكون صاحب بيت الله.

وأحمد الله إني زرت كل موقع (في منطقة الحرم) قبل عيد رمضان (عيد الفطر) سنة 1082هـ [22 . 31 كانون الثاني 1672] وأتممت الختمة ليلة القدر في المسجد الأقصى في بيت الله وأهديت ثواب ذلك إلى أرواح موتى المؤمنين المدفونين في القدس.

وصف الحرم والأقصى وصخرة الله

نقول في البداية إن صحن الصخرة المقدسة هو ميدان مغطى بالرخام الأبيض تؤدي إليه الأبواب من سبعة أماكن. والأبواب لها قناطر مزدوجة وليس بها مصاريع. وفي جهة الشرق باب له قنطرة واحدة. ويصعد المرء إلى صحن الصخرة المقدسة على سلم ذي ثماني عشرة درجة من الحجر.

ويتم الدخول من الشمال عبر ثلاث بوابات على سلالم حجرية في كل سلم منها عشرون درجة ومن الجنوب هناك ثلاث بوابات أخرى مقنطرة. وليس لهذه أيضاً مصاريع. ويتم الوصول إلى الصحن عبر هذه أيضاً بسلالم في كل سلم منها عشرون درجة تؤدي إلى صحن الصخرة المقدسة. وهكذا يتسنى الوصول إلى الصحن من جميع الجوانب. ويرتفع الصحن سبعة أذرع مكية عن الأرض المحيطة به. وذلك أن الحرم يقع كالقصر وسط وادٍ خضر ومركزة هو صخرة الله. والأرض من تحته مُنخرية بالمغاور من أولها إلى آخرها. وفي هذه المغاور سجن سليمان الأرواح الشريرة. وما تزال آثار الأصفاد والسلاسل ظاهرة للعيان. والناس الذين لديهم قدر كافٍ من الشجاعة يدخلون هذه المغاور ويجيلون النظر فيها. إنه مكان معتم ومخيف. وهو حتى اليوم منامة للجان الأشرار، وطافح بالغبار. ويمكن للمرء أن يختلس النظر إلى المغاور من خلال شقوق في الأبواب. وهذه المغاور طافحة بالهياكل العظيمة. وفوقها تقع صخرة الله. وقبتها تدعى القصر الأبيض لأنها مغطاة بالرخام الأبيض الطبيعي. والمتعبون والمحزونون من الناس يغادرون المسجد وملء إهابهم الأمل والبشر (بإذن الله). إن الحرم يذهب بالحزن وقد قست أيضاً محيط الصحن المرتفع كله. إن اتساعه من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، ومائتا خطوة أخرى من الجانب الغربي[59] بينما يبلغ طول كل من الجانبين الجنوبي

---

(59) - النص غير واضح ولعل المقصود ان الجانب الشرقي للصحن طوله 200 خطوة والجانب الغربي 200 خطوة كذلك (المترجم . لد ع).

والشمالي ثلاثمائة خطوة. وهكذا فلدى حسبان مساحة صحن صخرة الله نجد أن محيطه يبلغ ألف خطوة. وفي وسط هذه الخطوات الألف المربعة تنهض القبة المنيرة إلى السماء. وهذا كل ما في الأمر.

المقامات الجديرة بالزيارة في الحرم

تأتي أولاً قبة صخرة الله. بين البابين الغربي والشمالي للقبة ونحن ننظر إلى الشمال وعلى مقربة من الجدران الخارجية للمبنى هناك محراب أحمر. قبة النبي. هي قبة صغيرة تنهض على أربعة أعمدة صغيرة ورفيعة. ومحرابها واطئ وهو من أحجار طبيعية تضرب إلى الحمرة. كان لونها أحمر وأصبح الآن ضارباً إلى الحمرة.

وإلى يمين هذا المحراب هناك بناية لطيفة ثمانية الشكل وعليها قبة، وهي قبة المعراج. ولهذه القبة عمودان صغيران من المرمر في كل زاوية من زاويتيها نصبهما بناء حاذق. وهيكلها ملفوف بالرخام الأبيض والقبة مغطاة بالرصاص الجيد وفوق قمتها هلال ذهبي. ويواجه باب القبة الشمال ولكنها الآن مقفلة من جميع الجوانب. ولا يعرف ما بداخلها وليس لها شبابيك. ويبدو أنه من غير الحكمة أن يدخلها المرء، لأنها كانت مغلقة. ونقرأ فوق مدخلها النقش التالي المؤرخ وآيات قرآنية: [بسم الله الرحمن الرحيم. رضي الله على نبيه سيدنا محمد وأصحابه. ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾، ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾، هذه قبة النبي ﷺ التي ذكرها أهل التاريخ في كتبهم تولى إظهارها بعد عدمها وعمارتها بعد دثارها بنفسه وماله الفقير إلى رحمة ربه الأمير الأجل الأسفهلار الكبير الأوحد الأغر الأخص الأمن المجاهد الغازي المرابط عز الدين جمال الإسلام سعيد السعداء سيف أمير المؤمنين أبي عمر بن علي بن عبد الله الزنجيلي متولي القدس الشريف وذلك في شهور سنة سبع وتسعين وخمسمائة][60].

وتقع بئر الأرواح أمام الباب الشمالي[61] وماء المطر المتجمع من هذا البيت المقدس

---

[60] - نقلنا نص النقش من: Van Berchem, C.I.A. Jeruslem Haram, P. 37. وهو النص الصحيح اما النص الذي اورده جلبي فهو غير واضح في مواضع منه وتنقصه بعض الجمل كما ان تاريخه هو 577هـ/ 1181 . 1182م بينما التاريخ الصحيح الوارد في النقش هو: 597هـ/ 1200 . 1201م (المترجم له ع)

[61] - تقع بئر الأرواح اليوم تحت البلاطة الرئيسية للمغارة التي تقع تحت الصخرة اما البئر المشار إليها هنا بأنها امام الباب الشمالي لقبة الصخرة فهي بئر الجنة

ينساب إلى بئر الأرواح. وقد سميت بهذا الاسم بئر الأرواح لأنها تنعش أرواح أولئك الذين يشربون منها في شهر تموز. ويقال إنها بئر ضخمة.

وعند الباب الجنوبي للحرم (يقصد قبة الصخرة . المترجم) هناك منبر صعد إليه النبي ليلة الإسراء ليعظ أرواح جميع الأنبياء. إنه منبر صغير. وفي أيام الجفاف يجتمع أهل المنطقة حوله ليصلوا صلاة الاستسقاء[62].

وقريب من هذا المكان قبة الأرواح، وقريب منها باب الموازين حيث تجد رسوماً للموازين. وأمام الباب الشرقي لقبة الصخرة، وعلى بعد حوالي سبع خطوات منه، تقع محكمة النبي داود عليه السلام. وهي مبنية تحت الأرض كقصر من القصور وقبتها تستند كلياً إلى أعمدة، وليس لها أي جدار[63]. وتتكون دائرتها الخارجية من تسعة أعمدة نفيسة وتتكون دائرتها الداخلية من ستة أعمدة. وترتفع القبة على هذه الأعمدة. ويكسو القبة من الخارج والداخل بلاط القاشاني الخالص بلون اللازورد. أما القبة نفسها فهي مغطاة بالرصاص الجيد الصنع الذي يشبه الرصاص الذي يكسو جامع السليمانية في استانبول.

ومحيط هذه البناية خمسون خطوة وأرضها مرصوفة ببلاط الرخام الطبيعي الأبيض. وفيها محراب صليت فيه ودعوت وحمدت.

وهنا ينتهي ذكر المواقع الحرية بالزيارة في قبة الصخرة.

وعند وصول المرء إلى باب الموازين من داخل المسجد يلاحظ وجود مزولة بنيت وفق نظام فيثاغورس العجيب. إنها مزولة فريدة لا نظير لها في أرجاء العالم المعمور. ويؤذن المؤذنون في كل من مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى وفقاً لهذه المزولة. وبناءً على ذلك يتردد الأذان من مآذن المدارس، لأنه ليست هنالك مئذنة خاصة لأي من المسجدين.

وعلى جميع جوانب مسجد الصخرة المقدسة[64] هنالك غرف تابعة لأربعين مدرسة. وفي كل منها يعيش أناس صالحون يعتبرون من الدراويش صانعي المعجزات، وبعضهم لا يكسرون صيامهم مرة واحدة في الأسبوع، بينما بعضهم ربما لم يذق اللحمة

---

(62) - هو منبر برهان الدين بن جماعة، عند الطرف الجنوبي الأوسط لصحن الصخرة

(63) - هي القبة المعروفة اليوم بقبة السلسلة والتي بنيت في الأصل لتضم بيت مال المسجد الأقصى، وبانيها هو عبد الملك بن مروان .

(64) - يقصد الحرم الشريف (المترجم لد ع)

منذ أربعين أو خمسين سنة. هكذا هي هذه الأنفس النقية التي يعيش أصحابها هنا حياة التصوف، بينما هم في الوقت نفسه عليمون بالمعارف والعلوم الدنيوية.

وهنا ينتهي وصف مسجد صخرة الله المقدسة. وهذا هو كل شيء.

إن مسجدي الصخرة المقدسة والأقصى الذين وصفناهما أعلاه يحيط بهما أرض مستوية واسعة. إنها كبيرة بحيث لا يستطيع من يقف في نهايتها أن يميز الناس في النهاية الأخرى فيما إذا كانوا رجالاً أو نساءً. وهو مرج ممرع. وفيما يلي مقاييس محيطه. في جانب المسجد الأقصى أربعمائة خطوة، ومن الشمال في جانب باب حطة، هناك أيضاً أربعمائة خطوة. أما الجانب الشرقي، وهو سور الحصن نفسه، فقياسه ستمائة خطوة. والجانب الغربي وهو جانب المحكمة الشرعية فطوله مثل ذلك. وبموجب هذا الحساب فإن محيط هذه المنطقة يبلغ ألفي خطوة. وهي مكان للتنزه تزينه أشجار الورد واللبلاب والآس ويملأه تغريد البلابل المسكر، وهو يزخر بالأشجار، التي تبني فيها الطيور أعشاشها، بينما هناك أشجار أخرى مثمرة من نوع شجرة الطوبى الطيبة في الجنة. وإلى جانب ذلك نجد أشجار المحلب والحور والصفصاف وآلافاً عدة من أشجار الزيتون والرمان وكذلك أشجار أرز لافتة للنظر متوازنة الشكل.

ويصادف المرء في ثلاثة وثمانين موضعاً مصاطب صغيرة لأداء الصلاة في العراء، أقيمت تحت ظلال الأشجار العالية. ولكل مصطبة منها محراب، وكل مصطبة يسكنها ولي من أولياء الله.

وصف أبواب الحرم الكائنة على الطرق العامة

إن الرواق الكائن عند باب مريم[65] الذي يواجه الشمال هو محل إقامة الهنود. وعلى الخط نفسه يقع باب حطة المذكور في السورة الثانية (الآية 58): ﴿وادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم﴾. ومن هناك إلى زاوية باب حطة الأصغر، وعلى الخط نفسه أيضاً، يقع باب الناظر، خلف قصر الباشا[66] تماماً.

هذه الأبواب الخمسة(!) تفتح شمالاً وفيها بوابات خشبية. ويضاف إليها باب الغوارنة وباب الحديد. وحول الحديد نزلت الآية التالية في سورة الحديد (السورة 57، الآية، 25): ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾.

---

[65] - او باب الأسباط من ابواب الحرم، لا السور.

[66] - هو المبنى المعروف بمبنى كلية روضة المعارف هذا الباب هو باب العتم او الدوادارية لا باب الناظر (المترجم)

ويأتي بعد ذلك باب القطاعين وباب المطهرة وباب السلسلة. وهذا الأخير باب مزدوج له مصراعان من البرونز. وهو يعرف أيضاً بباب المحكمة، وهو مزدحم جداً.

ويلي ذلك باب المغاربة، وهو باب صغير له بوابة من الحديد. وهذه ستة أبواب في مجموعها، بادئين بالعد من الزاوية الغربية لقصر الباشا. وكلها على الجانب الغربي (للحرم).

أما الجانب الجنوبي، أي جانب المسجد الأقصى والجانب الشرقي ففيهما أسوار الحصن (أسوار المدينة - المترجم). وليس فيهما أبواب، لأن هناك على امتدادهما ودياناً وخنادق. وهذه هي أبواب الحرم العالية العشرة، على الوجه الذي ذكرناه.

وهناك على امتداد الجوانب الجنوبية والغربية والشمالية لساحة الحرم أروقة ذات قباب تستند إلى ثلاثمائة وستين عموداً ودعامة. وجميع الأروقة تضاء كل ليلة بقناديل الزيت. فيغدو نورها ساطعاً كأنه نور النهار. ويعيش في هذه الأروقة دراويش من الهند والسند وبلخ وفارس وأكراد وتتار ومغول وأتراك. وهم لا يحتاجون إلى إضاءة الشموع الخاصة ليلاً لأنهم يستطيعون أن يقرأوا القران (من ضوء قناديل الزيت التي تعطي ما يكفي من النور) ويتلوا الذكر ويرفعوا إلى الله أحسن الدعاء.

وتؤدي الطرق بين هذه الأورقة إلى أبواب الحرم التي مر ذكرها. وهي محاطة من الجانبين بجدران (؟) وكل رواق فيه محراب[67] وليس هنالك أروقة على امتداد السور الشرقي لأن هذا في الوقت نفسه هو سور الحصن. على أنه توجد بعض الصوامع في عدد من المعاقل والحصون. ومن كل باب من الأبواب تؤدي ممرات مرصوفة بالرخام الأبيض، وعرض الواحد منها ما بين خمسة إلى عشرة أذرع، خلال مروج خضراء إلى المسجد الأقصى أو قبة الصخرة بحيث لا تلمس قدم المار عليها ذرة من الغبار.

وهناك مائتا غرفة للمدارس حول هذا الفناء الكبير الذي يحيط بالأجزاء السفلى لمسجد صخرة الله. ويبلغ مجموع عدد المدارس في القدس حوالي ثلاثمائة وستين مدرسة وزاوية بين كبيرة وصغيرة.

على أن أفضل المدارس وأكثرها حظاً من العناية هي مدرسة باب حطة[68]. ولهذه المدرسة مئذنة. ثم تأتي مدرسة باب الناظر. (اقرأ: باب الدوادارية) وهي ترتفع خلف قصر الباشا تماماً في الزاوية (زاوية ساحة الحرم). ولها مئذنة رفيعة.

---

[67] - النص غير واضح تماماً.

[68] - ربما هي المدرسة الطولونية او المدرسة الفنارية، وكان يصعد إليهما من السلم الموصل إلى مئذنة باب الأسباط (لله ع).

والمدرسة الفورانية في باب الفوارنة لا مئذنة لها. والمدرسة السلطانية[69] في باب المتوضأ هي أحسن المدارس جميعاً. ولها مئذنة من ثلاثة طوابق يبلغ ارتفاعها 130 قدماً. وقد صعدها الكاتب المتواضع وتمتع بمنظر كامل للمدينة كلها.

ولا توجد إلى جانب هذه المآذن الثلاث[70] مآذن أخرى في منطقة الحرم. وليس للمسجد الأقصى ولا لمسجد قبة الصخرة المقدسة مئذنة. ويتلى الأذان من أعلى المئذنة الأخيرة لأنها قرب البلدة. ولما كان المسجد الأقصى ومسجد الصخرة المقدسة الكائنين في هذا المرج بعيدين عن البلد فلم تبن مئذنة لأي منهما.

وخلف باب المغاربة في هذا الفناء يقف المبنى الجميل لجامع المالكية[71]. وطول هذا الجامع من بابه الشمالي حتى المحراب ثلاثمائة قدم وعرضه سبعون قدماً. ومع ذلك فليس له مئذنة ولكنهم ينشدون الذكر هنا بعد صلاة الفجر ويرددون الأدعية بطريقة تحير ألباب محبي الدعاء والتصوف. إنه مسجد مغطى بالرصاص وله رواد كثيرون.

وساحة المحكمة الشرعية عند باب السلسلة تؤدي إلى الصحن الكبير. وعلى مقربة من هذا المكان يقوم قصر ملكي من أربعة طوابق[72]، وهو بناء عال عجيب، ولكنه لا يقارن بقبة الصخرة المقدسة. وهو محاط من جميع جوانبه بالرخام الملون بلون اليشب (الخضر الضارب إلى السواد) والمبرقش والأحمر السماقي، من مختلف الأنواع.

وسوف نحتاج إلى وقت طويل لو حاولنا أن نصف المباني المحيطة بساحة الحرم على أفضل وجه نستطيعه. ويكفي أن نصف المقامات المحيطة به لأن هذا أيضاً فيه ثواب حسن.

مقامات المسجد الأقصى

خلف جامع المغاربة يقع مسجد المالكية، ثم يأتي بعد ذلك المسجد الأقصى بالمعنى الضيق للكلمة ومقام الخضر وقبة النبي داود في الطرف الأقصى للمسجد الأقصى. وفي الزاوية الشرقية لهذا الحرم يقع مسجد الحنابلة، وهو مبني على اثنتي عشرة دعامة. ولهذا المسجد قبة. وتمتد المغاور في الأرض التي تحته حتى تصل إلى الأقصى. وهنا في

---

(69) - وتسمى ايضاً الأشرفية

(70) - هناك مئذنة رابعة هي مئذنة جامع المغاربة (المترجم لد ع).

(71) - كان يعرف بجامع المغاربة حتى سنة 1927، ثم حول منذ ذلك العام إلى متحف

(72) - ربما كان المقصود بالقصر المدرسة التنكزية (لد ع).

هذه المغاور، أيضاً سجن سليمان الأرواح الشريرة. وفي بعض الأماكن هناك مغاور تستند إلى سبعين عموداً.

وإلى الشرق من هذه المغاور وعند زاوية الأسوار، هناك سلم حجري به عشرون درجة يؤدي إلى مقام مريم، حيث عاشت وقد لجأت هنا فراراً من كلام الناس الذين أساؤوا إليها. وفي هذه المغاور محراب صغير يواجه الشرق. إنه مهد عيسى، وهو حجر لامع مصقول يشبه العش.

وفي داخل هذه المغارة مقام آخر إحياءً لذكرى حواريي عيسى، وأبعد من هذا مقام جبريل. وهذه المقامات الخمسة توجد في المغارة. ولكن العجيب فيها أن المرء عليه أن ينزل إليها عشرين درجة على سلم حجري لا ينفذ إليه حتى بصيص من النور. إنها غرفة مظلمة. ولكن الخالق قضى بأن يكون ضوء النهار في مهد عيسى. وإذا بالمغارة أصبحت ضوءاً بقدرة عين الله القدير[73]. ومع أن المغارة خالية من النار فإنها مضيئة. ليس هنالك فيها من شيء يحترق لا قنديل ولا شمعة. هذا هو نور الله!.

وإلى يمين هذه المغارة هناك ثقب صغير وخلال هذا الثقب يدخل بعض المتهورين لإلقاء نظرة. إنه مكان مظلم لا يميز الرجل فيه رجلاً آخر. والمغارة كبيرة، تمتد حتى المسجد الأقصى. والواقع أنها كانت السجن الذي سجن فيه سليمان الأرواح الشريرة. إنه ممر مظلم يحفل بهياكل عظيمة للأرواح والجنيات. وحتى الهيكل العظمي الصغير فيه يبلغ طوله سبعة أشبار. وبعض الجماجم كبيرة في حجم جماجم الروم. ووراء ذلك يصادف المرء في هذه المغارة طيوراً في حجم الحمام، تحوم وتهاجم المرء في الوجه (خفافيش).

وأرض المغاور مغطاة برمل ناعم يشبه رمل الساعة الرملية. وفي الأيام الخوالي كانت الأرواح الشريرة تلوث الرمل وتنام عليه.

وفي بعض ثقوب الصخر رأينا بعض نهايات حبال مصنوعة من ليف النخيل. وقال الأدلاء الذين كانوا يروننا المكان إن سليمان كان يكتف الأرواح الشريرة بهذه الحبال. والحق أن هذا غير منطقي. ولكن لنفرضَ إنه ربط هذه الأرواح بطريقة معجزة. فحسب تاريخ محمد بن اسحق هناك فترة طولها ألف وستمائة سنة بين سليمان ومولد النبي. أضف إلى هذا الوقت الذي مر بين ذلك المولد وزيارتنا إلى القدس فيكون المجموع ألفين وثلاثاً وأربعين سنة لأنني زرت المدينة سنة 1083هـ (1672م) وقد عاش رسول الله ثلاثاً وستين سنة. ولو

---

[73] - هنالك كوة للسهام عند أعلى الدرج

أخذنا هذا كله بالحسبان والزمن الذي مر منذ سليمان حتى سنة 1083هـ فإننا لنعجب كيف قاومت هذه الحبال التي أوثقت بها الأرواح الفساد طيلة ثلاثة آلاف وستمائة وأربعين سنة. لأنني زرتها سنة 1083 للهجرة. ورداً على هذا السؤال الذي سألته تلطف علماء القدس بإجابة السائل الحقير بأن سليمان كان سيد الأنس والجن والبهائم والطيور. وما دام الأمر كذلك فقد استطاع بقدرته الفائقة أن يصنع من ليف النخيل حبالاً قوية لربط الأرواح الشريرة وعمل يده ذاتها لا يتطرق إليه الفساد. وقد رضيت بهذا الجواب.

وبالاختصار فإن المرء يشاهد في الرمل في هذه المغاور آثاراً عديدة لحيوانات لا تحمل أي شبه مهما كان لصورة أي إنسان.

وعاد الأدلاء أدراجهم. وعند مدخل أحد المغاور كوم بعضهم خمسة إلى عشرة حجارة على الرمل عند الثقب، حتى يستطيع الزوار مغادرة المغاور. وبعد أن تركنا مغارة مريم حمدنا الله وشكرناه.

وصف عمود الصراط

ونزلنا من هناك وذهبنا شمالاً فجئنا إلى مقام جسر الصراط، وهو ناتيء من سور الحصن (المدينة). إنه حجر مستدير مصقول لونه ضارب إلى الحمرة، وأملس بحيث أن الطير يقدر أن يطير حوله ولكنه لا يقدر أن يحط عليه. لكن الطير في الجو فوقه لا يستطيع أن يبقى هناك لأن الوادي الذي تحته عمقه بضعة آلاف من الأذرع، وهو يذكر المرء بالدرك الأسفل من جهنم. وهو في الواقع يدعى وادي جهنم لأنه يضم جميع قبور اليهود، وهو مكان هؤلاء الناس المجردين من الدين.

إن هذا العامود الذي يشبه جسر الصراط بني في السور قبل وقت (ترميم التحصينات الذي أجراه) السلطان سليمان. وقد بني على صخرة الأساس الناتئة من السور. ويطلب من المتهم أن يمشي فوق هذا العامود إلى نهايته ثم يطلق سراحه. وإذا سقط فهم لا يأبهون لدفنه، لأنه على أية حال سوف يذهب إلى جهنم، وهم يتركون جثته تتعفن في الوادي.

ومنذ الجاهلية بقي هذا العامود في موضعه. وفي سنة.... عندما كان الحصن يعاد بناؤه بأمر من السلطان سليمان صدف انه وضع أساس التحصينات على موقع هذا العامود فأزيل من موقعه وبني في السور، لكن في مكان أعلى من السابق، ناتئاً من خط السور ولذلك سمي «برج الصراط».

وتركناه وذهبنا إلى مواقع وأماكن وآبار وزوايا متصلة بالسور وإلى مقامات مختلفة ومصليات على الساحة أقيمت هنا وهناك في جميع أرجاء المرج الأخضر. ثم ذهبنا إلى الأحياء الإسلامية داخل الحصن (المدينة).

إن مقامات باب التوبة وباب الرحمة لبني إسرائيل تتصل بأسوار الحصن. وكان الناس في الأيام الخالية يتوبون عند أحد هذين البابين، وينالون الرحمة ويتخلصون من الهم وقلقهم عند الباب الآخر.

وهناك فوق باب مريم صومعة للدراويش أصحاب طريقة يزيد البسطامي، حيث يقام ذكر رائع كل ليلة خميس.

وفي خط هذه المباني يقع أيضاً مقام سليمان وكرسيه وهما متصلان بسور الحصن ولهما قبتان عاليتان وسبع نوافذ. هنا كرسي سليمان. وقد ذكرت هذه المقامات بعد مقام مغارة مريم. وهي تقع في الجانب الشرقي من ساحة الحرم.

تعداد المقامات في الجانب الشمالي

باب حطة هو مقام النبي قفاح بن... وعلى مقربة منه يقع مبنى قبة الأرواح، وله قبة صغيرة ترتفع على ثمانية أعمدة رفيعة.

ومقابل قبة سليمان وباب المحكمة، قرب حوض الإمام الشافعي، تقع قبة موسى[74] وسبيلا الإمام الأعظم أبي حنيفة والإمام علي. وقد بناهما دانيال باشا تكريماً للإمام علي.

أما مقامات عزرا نبي الله، والأرواح غير المنظورة، والصالحين الأمناء، وأركان الإسلام الأربعة، والصوفية على مختلف فئاتهم، والزعماء الروحيون لعصرهم فهذه كلها مقامة على مصاطب منفصلة واقعة في ساحة الحرم.

غير أن النصب المسقوفة بالرصاص والمقامات والقباب في حرم الصخرة، ومدارسهم وزواياهم والمباني الأخرى ذات الألوان الداكنة، تمتد من جبل الطور (الزيتون) إلى القدس.

◆ ◆ ◆

وإليكم الآن ترجمة بتصرف لما جاء في الصفحات الأخيرة من نص جلبي الأصلي الذي لم يترجمه اسطفان إلى الإنجليزية:

---

[74] - وتدعى ايضاً قبة الصخرة الصغيرة، وأكثر من ذلك شيوعاً اسم قبة شقفة الصخرة

زيارة طور زيتا

يقول المفسرون إن آية «التين والزيتون» في القرآن الكريم تشير إلى هذا الجبل. وهذا المكان توجه فيه 124 نبياً بالدعاء إلى الله. وهو مكان يرتاده الكثيرون.

زيارة الجسمانية: في سفح الجبل يقع قبر السيدة مريم، وينزل إليه بثلاث عشرة درجة. وهو في كنيسة يفتح بابها إلى جهة القبلة، وهو مغلق. وإلى شمال القبر مغارة كبيرة يقال إنها المغارة التي اختلى بها السيد المسيح عن أعين الذين أنكروه. وهي المغارة التي نزل بها جبريل عليه السلام وأنزل عليه فيها الإنجيل. والمكان الذي دخل منه جبريل عليه السلام معروف حتى الآن. وإذا سرت من هذا المكان حوالي 600 خطوة صعداً إلى الشرق تصل إلى جبل الطور (الزيتون).

زيارة الملك القادر[75].

وهو ملك عادل من ملوك بني إسرائيل توفي سنة 300 ق.م! وكان اليهود الذين أنكروا السيد المسيح قد قالوا له: «إذا أحييت هذا الملك العادل فإننا سنؤمن بك»؟؟. وفي هذه اللحظة قام السيد المسيح وقال للميت: «قم بإذن الله». فاستفاق هذا الملك في تلك اللحظة من الموت قائلاً: «لا إله إلا الله عيسى روح الله». وآمن بالسيد المسيح وعاش بعد ذلك سبعين سنة. وتقع قرب هذا المكان كنيسة قديمة[76] تقع إلى جانبها عين ماء مالحة تفيد طبياً ضد جميع أنواع الإمساك والاضطرابات المعدية إذ أن ماءها ينظف أمعاء من يشرب منها. ويقال إن هذا الماء من معجزات السيد المسيح، وهو يسير من العين ويختلط بمياه بحيرة لوط.

وإذا ذهبت من هنا صعداً مسافة مائة خطوة تجد:

مقام حضرة موسى[77]

هو مقام ذو قبة فيه خزانة طويلة بداخلها عصا طولها ستة أذرع ملفوفة بغطاء أحمر من الصوف له شعبتان. لا نظير لهذه العصا في الدنيا. إنها من أشجار الجنة وبها

---

(75) - لا ندري ما هو المقصود بالملك القادر ولا مكان قبره بالضبط، وهو على الأرجح في وادي سلوان أو قدرون

(76) - كانت هناك كنيسة قديمة قرب عين سلوان الشهيرة التي تبعد حوالي 300 متر عن الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم وكان لدى المسلمين اعتقاد بأن لمياه عين سلوان قدرة على شفاء الأمراض (ناصر خسرو مثلاً)، انظر كتابنا (من آثارنا في بيت المقدس) ص 97، وما بعدها.

(77) - ليس المقصود هنا مقام النبي موسى المشهور البعيد 30 كم شرقي القدس، بل مقام يعرف بمقام عصا موسى كان يقع على جبل الطور.

نزلت الآية: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾[78]، والآية ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق البحر﴾[79]. والسبب في نزول هاتين الآيتين أن سيدنا موسى حين تاه في الصحراء مدة ست سنين طلب قومه منه ماء. فضرب سيدنا موسى بهذه العصا حجراً فانبجس الماء من سبعة أماكن، وبعد ذلك أخفوا الحجر في (خريطة) وكانوا حين يحتاجون إلى الماء يضربون الحجر بالعصا فيخرج الماء منه. ويوجد هذا الحجر الآن في غار عيسى بالشام. وهذه هي العصا التي التهمت أفاعي فرعون.

وإذا ذهبت إلى أعلى تجاه طور زيتا تمر بين الحدائق والأشجار.

وفي الطور قبر رابعة العدوية في مغارة مظلمة لا يدخلها النساء بل يدعون من خارجها. وعلى مقربة منها يجب أن تزور الشيخ محمد العلمي[80]. وعلى قمة جبل طور زيتا قلعة الطور (هل يقصد مبنى كنيسة الصعود أو مصعد عيسى) وعلى الباب الغربي لهذه القلعة حجر عليه آثار قدمي المسيح. كما يوجد إلى الشرق مقبرة وهنا مقام سلمان الفارسي.

[ويعدد جلبي بعد ذلك مقامات للأنبياء على جبل الطور: مقام يونس واسحق وداود ويعقوب وموسى والعزيز وآدم. وكذلك مسجد الإمام مالك وتربة راحيل وقبة الشهداء. ثم يقول] وفي شرقي طور زيتا مكان للدعاء، دعا منه جميع الأنبياء. ومن هذا المكان تكلم موسى عليه السلام مع الله[81] ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾[82]. وقد وقفت ذليلاً بعد الصلاة. ودعوت إلى الله. لا يوجد في أطراف هذا المكان جبال عالية. وقد قرأت سورة ياسين على قبر جدي الذي قيل إنه دفن هنا.

وبعد نزولنا من طور زيتا حوالي ألف خطوة وصلنا إلى مكان يسمى وادي جهنم (وادي سلوان) حيث ترتفع قباب لكل من فرعون وقارون وبلعام بن باعور وشدات وبخت نصر. وقد قطعت جميعها من الحجر الأبيض، ويقال إنها خالية. والمياه القذرة التي تنحدر من المدينة تنصب في هذا المكان، ومن هذه النقطة ترى جسر الصراط. وعلى بعد

---

(78) - طه، 18.

(79) - الشعراء، 63.

(80) - مقام الشيخ محمد العلمي في الزاوية الأسعدية قرب مقام رابعة العدوية (انظر أجدادنا في ثرى بيت المقدس، ص 99).

(81) - يخلط جلبي هنا بين جبل الطور في سيناء . طور سيناء وجبل الطور (طور زيتا بالقدس)، واسم النبي موسى مرتبط بالجبل الأول بالطبع

(82) - سورة النساء، الآية 164.

خطوة من هذا المكان إلى الأسفل تقوم قرية سلوان. وهناك على منصة فيها مصلى له محراب، تاريخه 1052.

تخرج مياه سلوان من مغارة على عمق ثلاثين قدماً وهي مياه جيدة للهضم وتكسب الجسم قوة. وهي نظيرة الأكل في فائدتها للجائع. ويأتي إلى هذه المياه شتى أصناف الناس، ويقيمون عندها أربعين يوماً أو أسبوعاً يغسلون ذنوبهم بها. وقد اغتسلت أنا العبد الحقير وغسلت ذنوبي وتبت. وعلى بعد 500 خطوة تجد نبع يونس عليه السلام. وإذا شربت من مائه صباحاً فإن جسمك ينشط كأنك أكلت خروفاً. وهي تشفي جميع الأمراض الجلدية. وحين رأى الناس هذه المعجزة من سيدنا يونس آمنوا به.

قرية النبي يونس: في هذه القرية حوالي أربعين إلى خمسين منزلاً. ويقول الذين يقيمون في هذه القرية إنهم من نسل الذين آمنوا بمعجزة نبع النبي يونس.

كنيسة هايون (ونظن المقصود صهيون): ويوجد هنا دير للراهبات. وقد تعبد السيد المسيح في هذا المكان. وهنا نزلت المائدة للسيد المسيح وأكل منها هو والحواريون...

كنيسة باتوس: أقام هنا السيد المسيح. وهناك قرب هذا المكان عدة مغارات وتجاه هذا المكان أيضاً:

مزار بناشي بن عُزا: وكان يقيم به حين فتح عمر بن الخطاب القدس. ويحضر إلى هنا مرة كل سنة القزازون والبقالون للنزهة والتسلية.

وإذا طلعت من سلوان إلى الشرق (الصحيح إلى الغرب) حوالي 100 خطوة تصل إلى باب داود.

قرية داود (وهو حي النبي داود اليوم): وهي قرية فيها مائة منزل وجامع واحد وفيها مرقد سيدنا داود الذي توفي قبل 1600 عام وسيدنا سليمان تحت قبة واحدة حولها شباك من حديد. على الجهات الأربع لكل قبر آيات كريمة. وهناك في الساحة 20 مدرسة (كتاب) تسمع منها أصوات التلاميذ. وقد قرأنا سورة ياسين وأهديناها إلى كل ولي ونبي.

داخل مدينة القدس

تبدو مدينة القدس وكأنها مدينة صغيرة لكن فيها 240 محراباً و7 دور حديث و10 دور للقران و40 مدرسة و70 زاوية لسبعين طريقة، أكبرها زاوية عبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي والرفاعي والمولوي. وفي القدس ستة خانات، وستة حمامات هي حمام السيدة مريم وحمام السلطان وحمام الشفاء وحمام العين وحمام الصخرة وحمام

البطرك... وفيها 18 سبيلاً كتب على كلا منها سنة (947). وهناك غير ذلك 77 صهريجاً وشاذروان. وقد عمل على جلب المياه لهذه الصهاريج سليمان خان حيث أنشأ قنوات لإيصال الماء إليها من ميزانية مصر. وتمتد هذه القنوات مسافة يقطعها الماشي في أربع ساعات. وحسب سجلات المحتسب هناك 2045 دكاناً، والطرق المؤدية إليها مرصوفة وبيضاء... وفي المدينة كنيسان لليهود وكنيستان للأرمن وثلاث كنائس للروم. وكنيسة القيامة الرومية بناها الإسكندر اليوناني. وقد نقش على بابها تاريخ إنشائها باليونانية. وفي يوم عيد (البيض الأحمر) - ولعله يقصد أيام عيد الفصح - يجتمع هنا الآلاف من (الكفرة). وفي هذه الأيام يحضر أيضاً الباشوات والقضاة وأعيان الولاية مسلحين لكي لا يستولي على كنيسة القيامة (الكفرة) - يعني المسحيين - ثم يدعو القيم على كنيسة القيامة للسلطان ويدعو أكثر للكفرة (أي المسيحيين). ثم يفتح الباشا والملأ (القاضي) باب الكنيسة. ويحتشد بداخلها آلاف الناس من جميع الشعوب ومئات القساوسة. وباب الكنيسة وشبابيكها لا نظير لها في العالم. وهناك على الجانب الأيسر من الباب، غرفة عليها قبة يقال لها قبة قسطنطين. وقد بلط المدخل بالرخام.

مباني القدس كثيرة وهواؤها لطيف وماؤها عذب وبها 700 قاضٍ. عدّ جاوش زاده محمد باشا سكان المدينة فبلغوا 46 ألف رجل. وكان جاوش زادة يوزّع الصرّة على ألف رجل بمن فيهم الأصدقاء المقربون وأهل الذوق وأصحاب الأحوال. أغنياؤهم يلبسون السمور والقنباز المصنوع من الجوخ الممتاز. وفقراؤهم يلبسون العباءة والقنباز المصنوع من الصوف الأبيض، ونساؤهم محتشمات يلبسن على رؤوسهن طاقيات مصنوعة من الذهب والفضة. ويلتففن بالملايات البيض، ويحتذين الأحذية المقفولة المعروفة بالجزمة. بعد انتهاء الزيارة رافقني 26 شخصاً مسلحاً إلى الخليل، وخرجنا من باب الخليل باتجاه القبلة ومررنا بصحراء البقمة، وفيها 43 ألف كرم. وأهل القدس يأخذون عائلاتهم ويسكنون فيها 3 أشهر. وخرجنا من هناك وذهبنا إلى كنيسة مار الياس.

غزة عام 1648م

... استأنفنا السفر جنوباً حتى وصلنا إلى مدينة (غزة الهاشم) التاريخية. إن هذه المدينة واقعة على حدود عسقلان في منطقة جاسان (؟)»[83]

خان الزيت ـ من أملاك آل رضوان

«فما كدت أهبطها حتى توجهت إلى منزل حاكم الولاية حسين باشا. فسلمت عليه، وقدمت له احترامي. ثم ناولته رسالة مولاي مرتضى باشا[84] والثياب الحريرية والهدايا الفاخرة الأخرى التي أحملها إليه منه. فسر بها كثيراً». وقال:

«أجل. إنه لفرض علينا إن شاء الله. ولا بد أن نرسل معك من يساعدك في تحصيل البقايا، وأن ندفع نحن ما علينا من دين».

«ولم يضن الباشا عليّ بشيء من لطفه وكرمه. فأعدّ لي منزلاً خاصاً من منازله نزلت به. وقضيت الوقت كله معه في حديث وبحث وتدوين. فأيقنت أن الباشا صديق صادق قولاً وفعلاً».

«إنه خفيف الروح، لطيف المعشر، أكرم من حاتم طيء، أديب، شاعر، ومؤرخ. وعندما علم الباشا أنني ميال للأسفار جمعني مع عدد كبير من علماء المدينة ومؤرخيها. فقضينا الوقت كله، ليلاً ونهاراً، في تتبع آثار المدينة وأخبارها. وعلمت منهم أن مدينة غزة أيضاً كانت إحدى المدن التي عمرت وازدهرت بعد الطوفان. فقد ذكرها ابن صولاق، وواضع خطط القضاعي، ومؤلف التجويد في الصحافة، والذهبي، فقالوا أن أول من بناها (مرشم) (؟) ابن سام بن نوح عليه السلام! وإن هذا بنى، على بعد ثلاثة أميال منها، مدينة أخرى

---

[83] - ترجم هذا النص عن الانكليزية الأستاذ عارف العارف عام 1943 عن نسخة من رحلة اوليا جلبي وجدها في المتحف الفلسطيني بالقدس مترجمة إلى الإنكليزية عن التركية باسم مصلحة الآثار وقد ترجمها الأستاذ حنا اسطفان

[84] - يظهر ان هذا كان رئيس الوزراء في ذلك العهد

أسماها (مرمش)؟ وقد خربت هذه وهجرت منذ أيام نبوخذ نصر. إلا أن بقاياها تدلنا على ما كانت عليه من عظمة في العهود الغابرة».

«وأن الطبيب المشهور غالينوس زار تلك المدينة في عهد ازدهارها ومات فيها».

وأما الآن فإن غزة عامرة، ولها مستقبل زاهر، فقد انتقلت عام 922 للهجرة من يد السلطان الغوري إلى يد السلطان سليم الأول. وهي الآن مركز لسنجق غزة التابع لولاية سوريا. والضرائب الأميرية المعينة لأمير اللواء فيها هي (508328) من الفضة. ولها سبع زعامات، ومئة وسبع تيمارات (؟)، وفيها، بموجب القانون، 1150 عسكرياً بينهم من يحملون رتبة (جبه لو). كما أن الباشا (والآلاي بك) فيها يسيران تحت لوائها.

وأما منصب القاضي، ذلك المنصب النبيل، فقد خصص له ثلاثمائة من الفضة. وعلاوة على هذا فإن مبلغاً قدره أربعة آلاف قرش يجمع من قراها لأجل القاضي، وآخر قدره ثمانون ألفاً لأجل الباشا.

إن هذا السنجق مأهول بالسكان، ومزدهر بالعمران. وهناك شيخ للإسلام ملم بالفقه على المذاهب الأربعة الكبرى، ونقيب للأشراف، وأعيان، ونبلاء عظام، ورجال أفاضل، وكوكبة من السباهي المحترمين، ورجال ماهرون في مختلف الحرف والصنائع.

وهناك، فضلاً عن ذلك، نائب المدينة، وصوباشي، ومحتسب، وياجدار؟ ولما كانت هذه المدينة قد منحت منذ أيام السلطان سليم الأول إلى حسين باشا وأولاده من بعده وأسرته على مدى الحياة فإن جميع الضرائب التي تجنى فيها شخصية تخص الباشا.

إن قلعة غزة التي بنيت في العهود الغابرة دمرها نبوخذ نصر. وأما حصنها الحالي فقد بني في وقت بعد ذلك التاريخ، إنه لحصن صغير، مربع الشكل، مبني من الحجارة الرملية في وسط الرمال على مسافة ساعة من شاطئ البحر للشرق. وقد شيدت جدران هذا الحصن على ارتفاع عشرين ياردة من الأرض. وله باب من حديد متجه نحو القبلة. ويترتب على الدزدار والجنود أن يظلوا دوماً مرابطين في الحصن على أهبة الاستعداد. إذ أنه حصن من الخطورة بمكان لوقوعه على تخوم المشائر والقبائل البدوية. والأعداء كثيرون. وأن السلع القيمة، والأشياء الثمينة التي يقتنيها الوجوه والأعيان بوجه خاص، وسكان المدينة بوجه عام، تحفظ في داخل القلعة. وفيها أيضاً منازل الجنود، مستورة بالتراب. وفيها أيضاً مسجد، وعنابر للحنطة ولسائر أنواع الحبوب والمؤن، ومخازن للأسلحة والمهمات الحربية. كان أن فيها مدافع ملكية من الطراز البديع، مجهزة بكل ما تحتاج إليه من ذخائر ومهمات. إن الناحية المواجهة للقبلة من نواحي القلعة شبيهة بمدينة

كبرى. وأمام مدخل القلعة من الناحية الأخرى من الشارع، مسجد يصلي الناس فيه الأوقات الثلاثة في النهار. ويؤم هذا المسجد عدد كبير من المصلين.

غزة مدينة تاريخية قائمة فوق سهل وسيع منبسط. وله ستة أحياء. وفيها ألف وثلاثمائة منزل. وجميع منازلها مبنية من الحجر. وأسطحتها مستورة بالطين والكلس. وفيها عدة سرايات وقصور، وأن اللسان ليعجز عن وصف سراي حسين باشا. هذا الباشا الكريم الذي يزوره لا يقل عن مئتين من الضيوف في كل ليلة بين مشاة وفرسان.

وفي المدينة سبعون مسجداً ذوات محاريب. وفي أحد عشر مسجداً تقام صلاة الجمعة. وفي القرب من السوق مسجد يقال له (مسجد الجمعة)، ويصلي فيه حاكم الولاية حسين باشا، وهو يتسع لعدد كبير من المصلين. وإنه لبناء جديد وجميل. ليس له نظير. إذ تسابق البناؤون والمهندسون من القاهرة ودمشق والقدس الشريف فأبدوا كل ما لديهم من فن ومقدرة، وأبدعوا في بنائه ما شاء الإبداع أن يكون. والبناء الخبير الذي تولى بناء هذا المسجد بنى له في الوقت نفسه مئذنة عالية متقنة الصنع، لها أروقة ثلاثة، بشكل منقطع النظير. حتى إن مسجد الجمعة الذي بناه سنان باشا فاتح اليمن لم يكن على هذه الدرجة من الإتقان. وفي وسط المدينة تكية عبد العظيم، وبالقرب منها تكية مرغان، وفيها مئتا سبيل يرتوي من مائها العطشان.

ولما كانت المدينة واقعة على طرف البادية فليس فيها أنهار جارية. وكل ما هنالك مياه أرضية. إن ماء الحياة يحمل إليها من الخارج على ظهور الإبل.

ومن الحمامات العمومية الكائنة في غزة يجدر بنا أن نذكر حمام الباشا، وحمام العسكر، فإنهما لطيفان ومنعشان للغاية.

وفي غزة ستمائة دكان. وهي وإن لم تكن ميناء بكل ما في هذه الكلمة من معنى إلا أنها مدينة تجارية تستطيع أن تجد في سوقها بضائع وأشياء ذات قيمة. وأن مصانع الزجاج والسروجية فيها رائجة. كما أن سوق التجار المبني من الحجارة مزدهر للغاية.

لسكان غزة نوع من الخال يعرف (بخال غزة هاشم). وهو طريف للغاية ويليق بهم جداً، وهم يلبسون السمور والفراجية وثياب أخرى غير مزخرفة. وأما الطبقة الوسطى فإنها تكتسي ثوباً بسيطاً أبيض اللون. وأما العمال والطبقة الفقيرة من السكان فإنهم يلبسون (سرتية كراكة؟) ولهذا الثوب أشكال مختلفة. وهؤلاء يلبسون أيضاً العباءة. والغزيون بوجه الإجمال بيض الوجوه، ذوو حواجب قاتمة وهناك فئة منهم سمر اللون كأنهم مدبوغون بالشمس.

إنهم ذوو عزم وإحساس ونشاط، وهم أحرار وكرام ومحبون للضيف، ولا سيما إذا كان هذا غريباً. يعيشون على التجارة والأعمال اليدوية.

وللمدينة جو بديع وهواء عليل، وهي واقعة في الإقليم الرابع. تكثر فيها الحنطة. وهذه معروفة ببياض لونها، وكبر حجمها، ويسمونها (سن الجمل).

وأما شعيرها فإنه مشهور، وكذلك قل عن قطنها، وحريرها. والكراكة التي تصنع من الصوف في غزة، وكذلك المحارم، والبشاكير، والفوط الصغيرة والكبيرة، فإن هذه كلها تصنع في غزة وهي مشهورة.

وفيها سبعة آلاف كرم يغرس فيها العنب. وعنبها مشهور. وكذلك قل عن زيتونها، وتوتها، وليمونها، وكبادها، وتينها، وشمامها، ورمانها، وبلحها، وعن فواكهها الأخرى، فإنها مشهورة في أسواق العالم. إن زيتها يصدر لمصر محملاً على مئات من الجمال. ويروج في أسواق مصر رواجاً غريباً لجودة صنعه.

إن (عين السجان) إحدى المحلات التي يطرقها الغزيون للنزهة؛ بالقرب من غزة وفي مكان يدعى (إبلة) حيث ينبسط سهل غير متسع، فيه خمسة ينابيع جارية. منها (عين السجان). التي يزداد ماؤها في فصل الشتاء، ويقل في فصل الصيف. والمياه التي تنبع منها تجري على وجه الأرض، ثم تغور في حفرة من الأرض. لو شرب جيش برمته من ماء هذه القرية وظل يفعل ذلك مدة عشرة أيام وعشر ليال متواصلات لما نقصت كمية المياه التي فيها. والغريب في الأمر أن ماءها لا يفيض، ويعتقد الأهلون أنه إذا شربت الطيور والحيوانات الداجنة والوحوش من مائها فإن شعرها ووبرها يزول فوراً. وأما الإنسان فلا. إنه (أي الإنسان) إذا شرب من مائها يجد فيه العلاج الشافي للكثير من أوجاعه وآلامه».

رحلة الخياري إلى فلسطين عام 1671م

زار الرحالة إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري، المدني الشافعي[85]، المتوفى سنة 1083 هجرية/ 1672 ميلادية، فلسطين، سالكاً الاتجاه المعاكس لرحلة أوليا جلبي، أي من دمشق إلى فلسطين، وقد قدم وصفاً للمناطق التي زارها يبين أن السلطة العثمانية كانت حقيقية في فلسطين، حيث أن القافلة كانت تسير محمية من قبل جنود لدفع غائلة اللصوص وقطاع الطرق، كما أنه يشير إلى أن التكايا والخانات التي أنشئت في عصر السلطان سليمان القانوني على طريق دمشق فلسطين كانت عامرة لم تصبها يد الخراب، وهو ما نلمسه بعد سنوات، وخصوصاً في الرحلات الآتي ذكرها.

والخياري ابن لعلامة مصري استوطن المدينة المنورة حيث ولد عام 1037 هجرية/ 1627 ميلادية. تولى رتبة الخطابة في المسجد النبوي الشريف، ونجح خصومه بإزاحته عن منصبه فسافر إلى اسطنبول ليسترد حقه.

استغرقت رحلة الخياري عامين، وكانت قد بدأت عام 1080 هجرية/ 1669 ميلادية، وسلك فيها طريق الحاج الشامي إلى دمشق، ومنها إلى اسطنبول، وبعد حوالي العام سلك طريق العودة نفسه ولكنه زار هذه المرة فلسطين، قبل أن يصل إلى مصر ومن هناك عاد إلى المدينة، وسرعان ما وافته المنية عام 1083 هجرية/ 1672 ميلادية وقد يكون مات مسموماً كما ذكر المحبي.

ما يهمنا في رحلة الخياري، المعنونة بـ(تحفة الأدباء وسلوة الغرباء)، والتي طبعت في بغداد بثلاثة أجزاء بين عامي 1969 و1980 ميلادية، طريق العودة، وقد توقف في الرملة وأخذ عن الشيخ خير الدين الرملي، ثم سار إلى القدس والخليل وزار مواضع الزيارة فيهما وقدم وصفاً مختزلاً لهاتين المدينتين، نستفيد منه أن الوضع العلمي فلسطين، لم يكن بهذا السوء الذي سنلاحظه خلال الرحلات القادمة.

---

[85] - تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، مقدمة السامرائي خلاصة الأثر للمحبي 1/25-28

وخلافاً للرحالة الآخرين لا يزودنا الخياري بتواريخ دقيقة لتنقلاته في رحلته في فلسطين، ولكنه كما يبدو رجل يتحرى الدقة فيما يروي، ولا تأخذه الروايات الضعيفة أو غير المسندة، فهو يحكم عقله ويقول هكذا أخبرونا والعهدة على الراوي.

وعلى العموم فإن رحلة الخياري تعطي صورة لفلسطين في مطلع العصر العثماني، حيث كانت عناية السلاطين بها على ما يرام، وخصوصاً طرقها والخانات المبنية عليها لخدمة المسافرين.

تحفة الأديب وسلوة الغريب

إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني

[من دمشق إلى القدس]

ثم لم نزل مقيمين بها مدّة زورة طيف أو رؤية سحابة صيف، مدّة لم تفِ بمعياد الكليم بل استوفاها القلب وهو جريح كليم، قدرها أربعة وعشرون يوماً بيومي الدخول والخروج، وكانت مفارقتنا يوم السبت الخامس عشر من رجب الفرد الحرام من ذلك العام، وخرجنا منها قاصدين البيت المقدس والمقام الأنفس، فمررنا بعد مفارقتها على بساتين ذات الشمال واليمين وقد ذهبت أوراقها، وراق للأعين إشراقها.

وقد سمعت من بعض فضلائهم أنهم يسمون هذه الأيام أيام الذهبيات لاصفرار أوراق الأشجار بها فلم نزل سائرين، قاصرين للخطو عادّين عمدنا في مفارقتها من السهو، نقدم في البعد عنها رجلاً ونؤخر أخرى، نرى أن المقام بها للصبر وأحرى لما جذبني من لطف شمائل أهلها، ودعاني لعلّ مياهها بعد نهلها، إلى أن وافينا أول المنازل من تلك الجهة المقصودة المسمى:

داريا :

فإذا هو منزل عامر، به البساتين النواضر الزواهر، ومعنا جماعة من الفضلاء، وجم من الظرفاء النبلاء، آنسونا بحلاوة ألفاظهم وأذواقهم، وسحرونا بسحر ألحاظهم وأحداقهم، ثم ودّعونا للفراق أثناء الليل، خشية أن نسير في باقيه ونضمّ الذيل، فألفنا لفقدهم السهاد، وذقنا لبينهم مرارة البعاد، وزرنا بهذا قبوراً به شهيرات منها قبر العبد الصالح الذي هو أبو سليمان الداراني أحد المشاهير من رجال الرسالة القشيرية، فتبركنا بزيارته وقرأنا عنه ما تيسر ودعونا بما تسنى وتسهل، ومنها قبر الرجل الشهير وهو أبو مسلم الخولاني أحد التابعين أو هو أخوه أو إدريس على خلاف في النقل، ورجح الثاني بأن

الأول بمحل يقال له غباغب بالقرب من محل يسمّى الصنمين تمرّ به الحجاج عند دخوله إلى الشام وبها قبر ثالث يتبرك بزيارته أيضاً يقال إنه قبر نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له حزقيل زرناه أيضاً ودعونا عنده كالأولين ثم لم نزل بها بائتين وعندنا من الشوق المقعد المقيم إلى أن ذهب ثلثا الليل، ثم عكمت الرحال، ووجب الترحال، فسرنا في أمان الله وحفظه نطوي من الأرض أماكن ذات مياه وأطيان ووحول تؤذن بالمشقة وتُلزم المقر بالسهولة النكول، إلى أن قارب وقت الظهر فوصلنا للمنزل الثاني المسمّى بـ:

سعسع :

فإذا هو منزل مخضر الأكتاف به خان عامر ومسجد حسن قائم بناؤهما فائق وضعهما، وتكية عامرة جار لها بعض المرتّب ويتبطن المنزل نهر عذب، يتلوه في غضونه فمن ثمّ يسمى الأعوج، وهو مشهور بطيب الماء وعذوبته حتى ينقل منه لبعض رؤساء الشام ماء للشرب، فلم نزل به كذلك إلى أن كاد الفجر أن يهتك حجاب الظلماء، وتبدو عيون الزهر بالنهر أنجما، فأخذنا في الرحيل، وسرنا نطوي من الأرض أرضاً ذات أحجار كبار، يصعب السير فيها بكل اعتبار، حتى لو كانت من الذهب المسكوك لعزّ على سالكها السلوك، ترتعش فيها الجمال وعليها الأحمال، وقد سلمنا الله تعالى ولطف بنا من وقوع المطر فإنه يقال إنّ هاتيك المشقة بها تتضاعف وإن أطيانها تتكثّف، وأن لا عاصم من الوقوع إلاّ لطف الله فلم نزل كذلك إلى أن قطعنا نصف الطريق، ثم سهل الأمر بعض السهولة، فوصلنا إلى المنزل المقصود المسمّى بـ:

القنيطرة :

فوصلناه بعد وجوب فرض الظهر بنحو ساعة فإذا منزل متسع الجهات مخضر العرصات، به مسجد عامر، وخان قائم البناء، ظاهر السناء، ولكنّا لم ننزله كالذين قبله لنزولنا بالخيام، وأقمنا به والنفوس منشرحة بفسيح رحابه وامراع جنابه والأعين لاحظة ذلك المرأى الحسن، مستعذبة نسيمه العليل الداعي للوسن، إلى أن طلع الفجر فأدّينا فريضته ثم استمررنا إلى أن بدا حاجب الشمس، ثم سرنا غير بعيد فإذا جبل عال وفي أعلاه قبة مرتفعة على يمين المار، يقال إنها قبر رجل من أهل البيت يقال له أبو الندى يتبرك بزيارته، ويقال إنه عليّ رضي الله عنه وأنه أضفي بتكنيته بذلك. ثم سرنا في طريق سهل ساعة أو ساعتين، ثم عاد لنا طريق صعب أنسانا ما قاسيناه أمس من المشقة فإنه

ذو منعطفات مرضوم بالحجارة الكبار، المؤذنة بالوقوع والعثار، ولا يستطيع المشي فيها إلاّ كل قوي من الرجال والجمال، طريق ما أصعبه من طريق ومشق يفارق فيه شقيقه الشقيق، به رسوم من الخراب، ونوء نعب بها للبيت غراب، يقال إنها منازل بني إسرائيل غادرها الدهر أثراً بعد عين.

ولم نزل إلى أن وجب فرض الظهر وإذا عقبة مفروشة بالحجر المنحوت يزيد طولها على المعتاد من العقبات ويقال إن الذي فرش ذلك الحجر بها هو رضوان بيك[86] أمير الحاج المصري سابقاً، فلم نزل ننحط من أعاليها في هبوط إلى أن وافينا أسفلها، فإذا نهر جار عليه كبري [جسر] مستطيل بعض الطول يقال له على ألسنتهم نهر يعقوب هذا هو والد سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويقال إن هذا النهر ينصب في بحيرة طبرية وبالقرب منه الجبّ اليوسفي الذي ألقي فيه سيدنا يوسف، وعند هذا الجسر ينزل المسافرون، وبه نزلنا وأقمنا إلى أن بقي نحو ثلث الليل.

ثم سرنا أرضاً صعبة المسلك قريبة المهلك، أحجار كبار، وزلق من آثار أمطار، والسماء تجود بوبلها، ثم تعقبه بطلها، ثم بعقبات تشبه عقبات الطريق الرومية حتى لاح لنا الخان القائم البناء، المشرق السناء، وإذا عند بابه على يمين داخله الجبّ اليوسفي مبني بالحجارة المنحوتة «خال سفله مقام على قعود» وفي أعلاه قبة مرتفعة ذات أركان أربعة وأبواب، ماؤة بدلو هناك فشربنا منه ماء عذباً حلواً بارداً، وبجانب البئر مسجد لطيف والخان الملاصق لذلك فيه أماكن خربة، وبالقرب من ذلك محل يقال إنه قبر الذي أخرج سيدنا يوسف من الجب. والبلاد جميعها بلاد كنعان[87] وبعد مجاوزة الجبّ مررنا بأماكن صعبة وبها عقبة كؤود، جاوزناها سائرين وانتهينا بعدها إلى المنزل المقصود المسمّى بـ:

المنية :

فإذا هو منزل مخضر الجهات والأنحاء، يعذب فيه المقام ويطيب الهواء، وهو بشاطئ بحيرة طبرية بحرة كبيرة متسعة الجهات لا يحيط البصر بأطرافها، ينصب فيها على ما بلغني أنهار كثيرة لا تظهر فيها بسبب ذلك زيادة ولا بانقطاعها نقص، ويبرز منها

---

(86) - بهامش د الورقة 194 التعليق التالي: «ليس الفارش لها رضوان وإنما الفارش لها مصطفى باشا أبو النور أولا ثم زاده حسين باشا ابن جان بلاطه»

(87) - وادي الأردن يسمى وادي كنعان انظر المقدسي البشاري في احسن التقاسيم

نهر يمرّ على الخان الأحمر الذي يمر عليه من يتوجه للحج من نابلس إلى المزيريب[88]، ويمرّ على الفور وينصب ماؤه ببحيرة لوط في مقابل المزيريب، ومن وقف على جبل موسى رأى تلك البحرة، وبينه وبينها نحو اليوم. هكذا أخبرني بعض من يعرف ذلك ممّن هو في ركبنا، وبالمنزل وقبله كثير من أشجار السدر وبعض النخل وكان وصولنا لها بين العصرين.

وأقمنا بها إلى أن تناصف الليل ثم سرنا فمررنا على شاطئها تارة بمرتفع وتارة بمنخفض ونخوض بعض أطرافها في بعض المرات، وتارة نعلو فنراها في وهاد من الأرض، ثم سرنا بعد ذلك شيئاً يسيراً فإذا عقبة مرتفعة غاية الارتفاع هي من تلول التراب، قد أصابها الندى والمطر فصارت شديدة الزلق لا تثبت فيها الأقدام ولا الخفاف والحوافر فشق المرور منها، فكم جمل وقع حمله، وإلى جانبها مهواة سقط فيها بعض الجمال وسلم من سلّمه الله تعالى من ذلك الحال، ثم سرنا بعدها في منبسط من الأرض بين أحجار كبار إلى أن لاح لنا المنزل المقصود نزوله المسمّى بـ:

عيون التجار :

فإذا منزل متسع الأكناف مخضرها به قلعة عامرة على تل مرتفع مقابلها صورة سور محيط، مشتمل على جامع حسن بمنارة مرتفعة وبعض بويتات وماء عذب يستقي النازلون به منه، وعلى كل فهو عذب الهواء لطيفه، أقمنا به يومنا يوم الخميس إلى أن أظلتنا ليلة الجمعة فبتنا به عازمين على السير صباحاً فإذا مطر شديد يمنع السير فأقمنا به وصلينا الجمعة بالجامع الكائن وسط الخان مع خطيبه فإذا هو يؤدي خطبة غريبة الأوضاع غير مُراع فيها النغمة كالعادة الرومية، بل يؤديها على الوضع العربي من حيث اشتمالها على كثير من المواعظ العربية والأحاديث، إلا أنه ما سلم من اللحن والتحريف فأذهب بذلك رونقها ولم يؤدّها حقّها، مع أنها في ذاتها من أحسن الخطب، واستمرت السماء تجود علينا بوبلها وطلّها، وتجعلنا كرهاً في هذه البلدة من أهلها، فأقمنا بها أيضاً السبت والأحد وعيون السماء لا تكفل دموعها بل تجود على أراضيهم بممنوعها، وقد علم أن سفر بنقطة سفر. فكيف إذا زادت عن العد وخرجت عن الحد، ولقد قلت غلط من سمّى المنزل وحرّف بعيون التجار وإنّما هو عيون البحار. ويوم الأحد انجلت بعض الانجلا، وتركت كل قلب خشية أن تعود وجلا، فبتنا بها ليلة الاثنين عازمين على السفر صبيحتها بعد أن تحوّلنا من الخيام للخان

---

[88] - خطأ، لأن المزيريب في حوران وهي أهم محطة على طريق الحاج بعد دمشق، ولا علاقة لطريق نابلس بها.

بعد الإقامة بها أربعة أيام وثلاث ليال، لا يكف فيها دموع السماء على خدود الرياض، فلما أن وصلنا بها الصبح مسفرين وتجلّى لنا ابن ذكا خرجنا منها سائرين، والأرض ذات زلق تزل فيها الأقدام، وتذهل الأحلام فلم نزل سائرين هنيّة فإذا عقبة صعبة بعض الصعوبة، لا تستطيع سلوكها المركوبة، فقطعناها ثم دخلنا في بغاز[89] ضيّق مشتمل على أشجار على اليمين واليسار تارة وتتكشف عنّا أخرى ويسمّى هذا المضيق عندهم نقب دبُوريا، رأينا بعض المشقة في سلوكه، ثم بعد مجاوزته سلكنا أرضاً يضلّ فيها الخرّيت الماهر لولا ما بها من الجواد والمآثر، ويسمّى هذا المحل:

مرج دابق[90]:

بالقاف أو دابغ بالغين آخره، وقد سمعتهم ينطقون به بالوجهين، وكان أهل الركب الذين معنا – ولهم ترداد عليه – حاسبين حسابه، خائفين عقابه وشدة ما به من الوحل، الذي ربّما عمّ فوصل الرحل، فأدركنا فيه لطف الله الذي لم يزل يشملنا، وفضله الذي يحقق لنا مدلول «لا تحزن إنّ الله معنا» فلم نر الوحل به إلاّ في مواطن يسيرة سهّل الله سلوكها ولم نزل كذلك إلى أن قارب دخول وقت العصر، وثبت لنا عن السير وبه الجمع والقصر، فإذا أعلام المنزل المقصود المسمّى ب:

اللجون :

فإذا المنزل كالمرج المذكور قبله مخضر الرياض، سائل الأنهار، ولا أقول الحياض، بها المياه العذبة والنباتات المستحسنة الرطبة، وهو مشتمل على خان على بابه منارة مرتفعة بعض الارتفاع، وأخبرني بعض من لقيت أنه يحيط بأطراف المرج المذكور ضيعات بالغ عددها مبلغ الكثرة، ولا بدع، وأقمنا بقية يومنا وبتنا به إلى أن بقي ثلث الليل الأخير، ثم حملنا الأحمال وسرنا، وإذا مضيق مشتمل على حجارة وصعود وهبوط مقدار نحو الساعة، ثم بعده بيسير مررنا بسبيل ماء على قارعة الطريق وعلى يمين مارّها أيضاً ضيعة تسمّى عاره وعلى يساره أخرى تسمّى عرعره فمررنا بينهم ثم لم نزل سائرين في مخضر من النبات، يكفر بلطفه ماضي الطريق هاتيك السيئات، إلى أن لاحت أعلام المنزل المقصود المسمّى:

---

[89] - بوغاز: بالتركية تعني مضيق

[90] - خطأ، لأن مرج دابق يقع في شمال حلب اما هذا المرج فهو مرج ابن عامر

قاقون :

فإذا هو منزل من فسيح من الأرض مشتمل على قلعة على تل على يسار المار وخان كبير الوضع على يمينه، ومضرب الخيام خضر نضر، فيه للنفوس ما تؤمله من الراحة وتنتظر، أقمنا به بقية يومنا بعد أن دخلناه قبيل الظهر، ولم نزل به إلى أن أدّينا فريضة العشاء وسرنا في أمان الله وحفظه فمررنا بأشجار كثيرة بالطريق ومررنا بقلعة يقال لها قلعة القلنسوة، بها واقعة شهيرة، ومنها قرية يقال لها جلجوليا وصلناها ثلث الليل الأخير فوجدنا بها جماعة يسمون الغفرية لأخذهم له يوقفون المارّين من التجار، فبركوا سائر المارّين، إلى أن طلع النهار فسومح غير التجار وأخذ من التجار معتادهم، وسرنا بعد ذلك إلى ضحوة النهار فمررنا بمحل به قلعة عامرة على يسار الطريق يقال لها راس عين. وقد ذكرها العلامة السبكي في قصيدته التي ضمنها معاني العين كلها وسرنا بعدها إلى أن قارب الظهر فمررنا بقرية يُقال لها:

اللدّ :

عذب هواها، مخضرة أنحاؤها، ورباها فمررنا بها ولمّا أقبلنا عليها متقدمين على الخيل ظنناها الرملة فأخبرنا بها وأنها غيرها مقدمة لها، ثم سرنا عنها متجاوزينها نحو الساعة فإذا نحن بـ:

الرملة :

قرية سامية، عامرة البنا، ظاهرة الإشراق والسنا، بها المساجد العامرة، وبها بركة عظيمة عند منزل الحجاج تمتلئ من ماء المطر لها مزيد شبه ببركة تصطنع بطريق الحجاج الشاميين ومنزل الحجاج خضر نضر، وقد كان ما وجد من المبادرة على ظهورها الجياد، طلباً للمسارعة إلى بلوغ المراد من رجب المراد، وهو ضالتنا المنشودة، وتحفتنا المودودة، ألا وأنه شيخ المسلمين والإسلام، علامة المؤمنين بل وسائر الأنام، المعمّر الصالح ملحق الأحفاد بالأجداد، العامر البيت العالي الأسناد، مولانا وسيدنا وشيخنا الشيخ خير الدين بن أحمد الرملي الأزهري اشتغالاً، الحنفي مذهباً، المولود بالرملة في رمضان سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة، ثم سافر منها إلى مصر لطلب العلم بها فاشتغل بالجامع الأزهر، وكانت رحلته إليها سنة سبع بعد الألف وأقام بها سبعاً من السنين أيضاً، وكان اجتماعي بالمذكور يوم الأربعاء السادس عشر من رجب الفرد من شهور إحدى وثمانين

وألف، فأسمعته من حفظي الحديث الأول من الجامع الصحيح لإمام المحدثين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري فأجازه إليّ جميعه، وجميع ما تجوز له روايته وثبت لديه درايته من الأحاديث وغيرها، وأجاز بجميع ما أجازني به ولدي النجيب – إن شاء الله تعالى – أحمد الخياري، وأخبرني أنّ مشايخه كثيرون فمن أجلّهم شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن أمين الدين محمد ابن عبد العال عن والده المذكور عن شيخ الإسلام أبي زكريا يحيى، وعن بدر الدين عن محمد الشهاوي عن شيخ الإسلام والشيخ عبد الله النحريري عن والده عن شيخ الإسلام، وعن محمد بن محمد عن سراج الدين الحانوتي عن شيخ الإسلام بأسانيد الإسلام الشهيرة بين الخاص والعام، وأنشدني من شعره المقول في زمن الصِّبا قوله: [من الخفيف]

عنـدما جـدّ بالحبيـب عـذار ... أظهـرت لامـه لفتـك البريـه

قالـت النـاس عنـد ذلـك فيـه ... قمـر تلـك لامـه القمريـه

وأنشدني أيضاً لنفسه قوله في تشبيه الزنبق ولله درّه فيما أبدعه: [من الطويل]

وزنبقـة قـد أشـبهت كـأس فـضة ... بـرأس قـضيب مـن زمـردة عَجَـبْ

سداسـي شـكل كـل زاويـة لـه ... على رأسها الأعلى هلال من الذهبْ

قلت: وقد جاريت شيخنا في ميدانه وإن لم يدرك ظالعي شأو ضليعه فتبعته في بيتيه الأولين، فقلت ومن بحره اغترفت وبفضله اعترفت: [مجزوء الرجز]

لام بخـد ظهـرت ... فأشـغلت منـي النظـر

لا منكـر ظهورهـا ... فإنّهـا لام القمـر

وقلت في ضد معناه:

مـذ لاح حبّـي أمـردا ... والـلام منـه مـا اشـتفت

فقلـت شمـس وجهـه ... لا بـدع إنّ فيـه اختفـت

وقلت مجارياً لشيخنا في بيتيه الأخيرين: [من الطويل]

وزنبقـة بيـضاء لاحـت لنـاظري ... بـرأس قـضيب قـد حـلا مـن زمـرد

فقـل كـأس بلّـور بـدالي مـشرقاً ... فـشنفت الآذان منـه بعـسجد

هذا ومن ضمّه مسجد شيخنا المشار إليه فأشرقت أنواره لائحة عليه فاحتج بي بمنزله لديه، الشيخ الفاضل، العالم الكامل الشيخ محمد ابن الشيخ تاج الدين ابن أخت الشيخ خير الدين وشمس الدين ابن الشيخ نور الله ابن الشيخ شمس الدين شقيق شيخ

الإسلام خير الدين الرملي، والشيخ الفاضل الفائق الكامل، المفنن الأديب، المكمل الأريب، الشيخ إبراهيم بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الجينيني تلميذ الشيخ وجامع فتاواه، فإنها الآن جمعت حتى صارت مجلداً ضخماً، فاقت استنباطاً وغزرت علماً وولداً مولانا الشيخ خير الدين فالذي لصلبه نجم الدين وَوَلَد ولده محيي الدين بن بهاء الدين وولد الشيخ محمد وهو أبو الهدى، فقرأ عليّ بعض من ذكر وسمع بعضهم شيئاً من الجامع الصحيح وغيره من الكتب واستجازوني فأجزت الجميع بما تجوز لي روايته حسب روايتي لذلك من طرق أعلاها وأولاها روايتي لذلك عن شيخي ووالدي بإسناده المشهور إلى الحافظ ابن حجر.

ثم أقمنا بقية يومنا في الرملة إلى تناصف الليل فعزمنا على المسير على ظهور الخيل وتركنا الأمتعة والأسباب في حفظ ربّ الأرباب عازمين لقضاء ما قصدته النفس من الأوطار عند مفارقة الوطن والدار، وهو زيارة البيت المقدس، والمسجد الأقصى الأنزه الأنفس، فسرنا على اسم الله تعالى معنا جمع من الركب وجملة صالحة من الصحب، وتركنا من بقي منا في الرملة، فأقاموا بها بعدنا يوم الخميس، أيضاً ثم ساروا منها بعد نصف ليلة الجمعة إلى محل يسمّى سدود يوم الجمعة، وأقاموا به ثم ساروا منه إلى أن أصبحوا بفزة يوم السبت فأقاموا بها يومهم ذلك وناموا ليلتهم، واستمروا بها إلى ما بعد العصر يوم الأحد هذا.

وكان مسيرنا من الرملة مقدار ساعة أو ساعتين معنا من عسكرها غفر يهدوننا الطريق ويدفعون قطاعه إلى أن وصلنا إلى جبل شامخ، ذيل أصل راسخ، فقطعناه سائرين منه في منعطفاته ومنفرجاته نصعد فيه فنرى أبواب السماء، ونكاد أن نطرقها استفتاحاً لها ونعده مغنماً.

قلت: ولا بدع في عروجنا في هذه الليلة إذ هي ليلة السابع والعشرين التي كان في مثلها معراج سيد المرسلين، وصفوة الله من الخلق أجمعين مما أشار الله تعالى إلى قصته في غير ما آية من كتابه المبين بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[91].

تنبيهَ نبيه: تقرر أن الله تعالى لم يجمع لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا صلّى الله عليه وسلم فقال: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾[92] وقال في حقه صلى الله

---

(91) - سورة الإسراء، الآية 1.

(92) - سورة الحج، الآية 65.

عليه وسلم: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[93]. فأفاد شيخنا أبو السعود الشمراني أطال الله في حياته أنه استنبط له صلّى الله عليه وسلم اسمين آخرين شارك بهما الباري جلّ وعلا وهما السميع البصير، وهما في هذه الآية فإن الضمير في أنه عائد على النبي صلّى الله عليه وسلم باتفاق فيكون الضمير في أنه عائداً إليه لأنه أقرب مذكور، قال: وهذا ما خطر لي وسررت باستنباطه.

قال: ثم بعد مدة رأيت بعض المفسرين ذكره فحمدت الله على الموافقة. ثم أعلم أن الواقع لنا من منة الله تعالى ولطفه علينا وبنا هو من غريب الاتفاق التي ما كان الدهر يسمع به لشذاذ الاتفاق فالحمد لله على تيسيره لهذا الفقير ومن في صحبته وإن ذلك لمن لطف الله وعظيم منته، ووافق سيرنا ليلاً ولم يكن الليل كله وهذا كما قيل: وكأن الحكمة في تنكير الليل في الآية فإنه مقصود به التعليل فلم نزل سائرين فيه ولمناسبة الواقع والحال أقول صاعدين على النمط المشروح وحتى لاح الفجر فأدينا فرضه في الطريق، ثم سرنا فإذا قرية عامرة تسمى: قرية العنب فسرنا عنها مفارقين لها نازلين من جبال صاعدين في أخرى ترفعنا مرة وتضعنا أخرى.

قلت: ولقد ذكرت عند سلوك هذه المسالك الصعبة قول الحافظ ابن حجر فإنه ممّا يزيد في الزيادة رغبة، ولفظه: [من الوافر]

إلى البيت المقدس جئت أرجو	وما بعد العقاب سوى النعيم
قطعنا في مسافته عقاباً	جنان الخلد نزلاً من كريم

ولم نزل كذلك سائرين حتى لاحت تبعد الونا، وإدراك كثير من المشقة والعنا، أعلام المحل المقصود ذي الشرف المأثور والفضل المشهود، وعلمت إذ رأيت هاتيك المشقة التي اجتمعت من بعد الشقة، معنى حفت الجنة أو حجبت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات ألا وأنه المسجد المقدس والحرم الذي عزّز الحرمين وقبل أحدهما تأسس، فقلت: [من الكامل]

قرب الديار يزيد شوق الواله	لا سيّما مذ لاح نور جماله

[بيت المقدس]

فلم نزل ندنو بأشواق كاملة، وجياد ناصبة عاملة، حتى لاح سور البلد فإذا هو سور عليه بهجة ونضارة، وإشراق حوى إتقان عمارة، وباب سامي الذّرا يسمّى باب الخليل

---

(93) - سورة التوبة، الآية 128.

وعلى دائر السور من خارجيه يمين الباب ويساره خندق للماء، وبعد دخوله على يمين داخل البلد قلعة شامخة مرتفعة حسنة الوضع، محكمة البناء والرفع، ثم بعد مجاوزتها أسواق قائمة بها الناس على سوقهم، بها كل ما يحتاجه الناس لاستيفاء أوفى حقوقهم، حتى آل بنا سيرنا فيها لخان عامر يأوي إليه الصادر والوارد من كل مسافر فأويناه ريثما يعقد شسّع أو يحل نسع، ثم أخذنا في أسباب الطهارة فتوضأنا ثم سرنا منه آمين المسجد الأقصى، ذا الخصائص والمزايا التي لا تُعدّ ولا تَستقصى، فلما وصلنا بابه، فإذا باب عليه مهابة ومحلّ أعزّ الله جنابه. فلما دخلناه قائلين اللهم افتح لنا أبواب رحمتك، وأجرنا من عذابك ونقمتك، فأول ملحوظ لنا القبة الشامخة ذات القواعد الراسخة التي انطوت على الصخرة المقدسة أضلاعها، وكان على تلك الدرّة اليتيمة والقبلة القديمة انجماعها، فإذا هي قبة تأخذ بالأبصار وتقضي لرائيها بالاعتبار، مفشاة بالقيشاني الحسن الألوان والإبداع، الكامل في حسن الصناعة والارتفاع، وهي كما أخبرني بعض من لقيته من بناء عبد الملك بن مروان، وأمّا القاشاني فمن عمل السلطان سليمان وكذلك ما تحته مفشى به القبة من الرخام الأبيض العريض القطع فمن عمله أيضاً وأنه كان ببعض الكنائس فأخذه ونقله إليها فيا له من مخفوض ارتفع بالنصب بطرف هو ذلك المكان، وظرف هو في الصناعة والاتقان، ومكتوب على دائرها من الخارج سورة «يس» بعمل القاشاني بالخط الثلث المحكم وهو عجيب في وصفه وصنعه.

وقبل الوصول لبابها صعدنا عشرين درجة من الرخام الأبيض ينتهي أعلاه أربعة عقود كأنها أبواب أربعة متلاصقة من الرخام الأبيض ما قبلها خال وما بعدها كذلك لكنه مبسوط به قطع الرخام الأبيض التي لها وبيص وميض، فانتهينا إليها إذ كانت أول مرآى لنا بالجامع فبعد الدخول إليها فإذا محل عليه مهابة وجلالة، وفضل يجب للسائل عن فضله سؤاله، مسدس الجهات، محرر الأوضاع، مستحسن السمات، وإذا يحيط بمحل الصخرة أربعة أركان من البناء المحكم بين كل ركنين ثلاثة عواميد من الرخام، وبداخل القبة معاليق، وبها غير ذلك قناديل أربعة ثلاثة منها من الذهب واحد من الخشب وأمّا ما يظهر من الصخرة أي من ظهورها فإنه في الطول نحو الثمانية والعشرة من أذرع العمل تقريباً والعرض قريب من ذلك أو هي مربعة أو متفاوتة الجهات، وهي إلى الاستدارة أقرب وفي ظهرها، أي وهو في أحد الجانبين أقرب احديداباً كأنه ضلعان انطبقا أو كأنه مركب انقلب على وجهه ويحيط به دريزان من الخشب يخيل لرائيه أولاً أنه تابوت لبعض الأموات ويحيط بها بعده بين العواميد والأركان مشبك من حديد يمنع المرور دون الرؤية،

ويهذا المشبك ثلاثة أبواب: باب من جهة القبلة في مقابلة المحراب الذي يصلي فيه إمام السادة الحنفية، فإنه يصلّي فيه الصلوات الخمس مختصاً به دون باقي أئمة المذاهب الأربعة، وباب في المشرق وباب في المغرب وكل من هذه الأبواب الثلاثة يقابله باب من أبواب القبّة فإنها أربعة والرابع منها يستقبله مستدير القبلة وحول هذه الدائر المسجد المعدّ للصلاة، وهو متسع بعض الاتساع وبه كثرة من الرباع والمصاحف المعدّة للقراءة، وبه يقرأ بعض المدرسين وبعض الذاكرين ليلة الجمعة ويومها، ويقابل المحراب باب في جهة القبلة ينزل إليه بدرجات يسيرة وهو ما تحت الصخرة التي صارت الصخرة سقفاً له، فإذا محلّ مرخّم وبه على يسار داخله صورة محراب من الرخام وعلى اليمين مثل ذلك، وحائط الصخرة كائنة على أطراف كأنها محمولة عليه لكن الحِس قاضٍ بأن مثل هذا الحائز لا يقبل مثلها، وقد اشتهر أنه بني لما كانت الصخرة مرفوعة بين السماء والأرض لا على حائز ولا حامل من جدار أو عماد، فكانت مرفوعة بين السماء والأرض لا على حائز ولا حامل من جدار أو عماد فكانت الحامل إذا مرت تحتها أسقطت فصنع ذلك ستراً لسرّ القدرة وسبحان الفاعل المختار، بأنّ الله يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبه على شمال الصخرة قبة يقال إنها محلّ المعراج الشريف والمحراب الشرف الذي أمّ النبي صلّى الله عليه وسلم الأنبياء في ذلك المقام المنيف فرأيت أن أنشد ما قاله بعض أهل التوفيق عند سلوك هاتيك الطريق شعراً: [مجزوء الكامل]

إن كنت تسأل أين ... قدر محمد بين الأنام

فاصغ إلى آياته ... تظفر بريك من أوام

أكرم بعبد سلمت ... تقديمه الرسل الكرام

في حضرة التقديس ... وافاها بعزم واهتمام

صفّوا وصلّوا خلفه ... إن الجماعة بالإمام

للشهب نور بيّن ... والفضل للقمر التمام

سلك النبوة باهر ... وبأحمد ختم النظام

هذا كتاب دلالة ... يبقى إلى يوم القيام

شهدت له من بعد عجز ... ألسن اللّد الخصام

خير الورى وأجل ... آيات له خير الكلام

فعليـــــه مـــــن رب الــــورى	أزكـــى الـــصلاة مـــع الـــسلام

وفي وسط الصخرة ثقب متسع كالمنور يزيد على دائرة القمر نحو المرتين به قنديل معلق مسروج دائماً ولم أدرِ أهذا هو الذي خرقه جبريل عند ربط البراق أو غيره ولم أزل أسأل عن الخرق الذي حصل بإصبع جبريل عليه السلام ولم أرَ له أثراً نافذاً غير المذكور، ولكني رأيت في أحد جوانبها من الأعلى ثقباً يدخل فيه الإصبع إلا أنه غير نافذ، فالله أعلم بحقيقة الحال. ويزعمون أن أثراً بها في أحد طرفيها هو موضع قدمه صلّى الله عليه وسلم.

تتمة تتضمن فوائد مهمة، جرّها ذكر الأثر فكانت خير خبر:

قال الإمام أبو بكر العربي في شرح موطأ مالك فيما نقله شيخ شيوخنا العلامة الحلبي: «صخرة بيت المقدس من عجائب قدرة الله تعالى، فإنها صخرة (قائمة) شعثاء في وسط المسجد الأقصى قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه في أعلاها من جهة الجنوب قدم النبي صلّى الله عليه وسلم حين ركب البراق، وقد مالت عن تلك الجهة لهيبته صلّى الله عليه وسلم، وفي الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها لمّا مالت ومن تحتها المغارة التي انفصلت من كل جهة، أي فهي معلقة بين السماء والأرض. قال: وامتنعت (لهيبتها من) أن أدخل من تحتها لأنّي كنت أخاف (أن) تسقط عليّ بالذنوب، ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجاب تمشي في جوانبها من كل جهة فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شيء ولا بعض شيء، وبعض الجهات أشدّ انفصالاً من بعض. قوله حين ركب البراق مبني على أنه عرج به على البراق وفيه خلاف، وقوله إنّ قدمه أثّر في صخرة بيت المقدس وأن الملائكة أمسكتها لما مالت. يوافقه ما نقله مؤلفو الخصائص النبوية لكن بلا سند، أما نظماً فقد قال البوصيري: [من الخفيف]

ليتـــه خـــصّني برؤيـــة وجـــه	زال عـــن كـــل مَـــن رآه الـــشقاء
أو بلـــثم الـــتراب مـــن قـــدم لا	نـــت حيـــاءً مـــن مـــسّها الـــصفواء

وقال الإمام المجتهد السبكي في تائيته: [من الطويل]

وأثــر في الأحجـــار مـــشيك ثـــم لم	يـــؤثر برمـــل حـــلّ بطحـــاء مكـــة

وأمّا نثراً فقد قال الجلال السيوطي في الخصائص له مما أورده عن رُزين أنه صلّى الله عليه وسلم: كان إذا وطئ على الصخر أثر فيه. وفي المواهب اللدنية: كان إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه، كما هو مشهور قديماً وحديثاً على الألسنة، ونطق به

الشعراء في منظومهم، والبلغاء في منثورهم، مع اعتضاده بوجود أثر قدم الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في حجر المقام المنوّه به في التنزيل في قوله تعالى: ﴿فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم[94]﴾ البالغ تعيينه وأنّ أثره مبلغ التواتر القائل فيه أبو طالب، ووطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل، وبما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً «عن تأثير ضرب موسى في الحجر» ستاً أو تسعاً إذ فرّ بثوبه لما اغتسل، إذ ما خصّ نبيّ بشيء من المعجزات والكرامات إلا ولنبيّنا مثله، كما نصّوا عليه، وإلى غير هذا من النقول، وحاصل جميعها الاعتراف بأن ذلك لا سند له، وأنّ مبناه على مجرد الشهرة وهو غير كاف في إثبات ذلك له صلّى الله عليه وسلم، والخصوصية لا تثبت بالاحتمالات لأنها من الأمور السمعية المحضة التي لا مجال للعقل فيها بنفسه.

فما وجدناه نصاً نتحدث به ونعتقده، وما لا نصّ فيه فكل علمه إلى الله تعالى وإلى رسوله، ولا نتكلم فيه لا نفياً ولا إثباتاً، لعدم استقلال العقل فيه بنفسه دون نص، بل لا بد من وجود رواية ولو من طريق ضعيفة فإنه قد يكتفى بها في الرقائق دون الأحكام كالفضائل، فلو وجدت رواية لأمكن أن يستأنس بها في ذلك في الجملة لوجود نظيرها في حجر المقام وحجر موسى عليه الصلاة والسلام، لكنهم نصّوا على أنه بلا سند، والسند هو الذي عليه الاعتماد.

وقد نصّ الأئمة الحفاظ نقّاد الحديث والأثر على ردّ كل ما شاع واشتهر من إلانة الصخر والحجر، فمنهم العلامة ابن تيمية والجلال السيوطي وتلميذه العلامة الشامي صاحب السيرة والعلامة شهاب ابن حجر الهيتي ثم المكي في فتاواه، وكثير من كتبه، ولا ينافيه ما تقدم عن السيوطي في الخصائص فإنه ناقل له عن غيره، ولا يلزم من نقله له القول به. ورأيت شيخنا العلامة المتقن المفنن الفهّامة، خزانة العلوم وعلامة المفهوم، الشيخ شهاب الدين أحمد العجمي القاهري ألّف في الآثار الموجودة مؤلفاً جمع فيه وأوعى، فتحلى به جيد العصر وأجاب واعيه سمعاً وطوعاً، وسمّاه: «تنزيه المصطفى المختار عمّا لم يثبت من الآثار» والحق في ذيله سؤالاً، ساله وأجاب عنه والحال هنا محتاج لنقله لأنه أتى بوبل ذلك المؤلف أو بطله، ولفظ السؤال: هل قول العلامة كانت تفوص قدمه صلّى الله عليه وسلم في الحجر، هل في ذلك نص صريح وهل فيه خلاف، وهل يكفر منكره أو مثبته وهل يكفر المثبت للنبي معجزة لم تكن له وهل على القول بعدم

---

[94] - سورة آل عمران، الآية 97

كفره، وهل يكفر من كفّره، وهل كانت تغوص قدماه معاً أو إحداهما وهل كان فيهما نعل أو لا؟ والجواب قال: هو ما ذكرته في هذا المؤلف وحاصله أنه قد اشتهر قديماً وحديثاً. ذلك وأن قدميه الشريفتين غاصتا في الحجر في لفظ قدمه بصيغة الإفراد، وممن ذكر ذلك القاضي أبو بكر العربي والحافظ شمس الدين الدمشقي، والإمام شرف الدين الأبوصيري والإمام المجتهد تقي الدين السبكي، وعدّه ابن القيّم من خصائصه، وكذلك تلميذه السرّمرّي والعلامة الشهاب القسطلاني ونقله الجلال السيوطي عن رزيني وصاحب الصحيح. لكنه قال في فتاويه إنه لم يقف على أصل ولا سند ولا رأى من خرّجه في شيء من كتب الحديث وتبعه على ذلك العلامة ابن حجر في فتاويه، وكذلك العلامة المتقن الشيخ الشامي، فقال: «ذكر كثير من المدّاح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى على الصخر غاصت قدماه فيه ولا وجود لذلك في كتب الحديث البتة، وقد أنكره الإمام برهان الدين الناجي بالنون، وكذلك الشيخ يعني الجلال السيوطي، وقال إنه لم يقف على أصل ولا سند ولا رأي من خرجه في شيء من كتب الحديث وناهيك باطلاع الشيخ رحمه الله تعالى.

قال وقد راجعت الكتب فلم أرَ من ذكر ذلك، وشيء لا يوجد في كتب الحديث والتواريخ كيف تسوغ نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم، انتهى. يعني أنه لا يسوغ ذلك لما تقرر أن الخصوصية لا تثبت إلا بدليل. ولم يوجد، ولكن الأئمة المذكورون ثقات وأثبات لا يقولون ما لا يعملون، حاشاهم الله من ذلك كيف، وقد قال شيخ الإسلام النووي، رحمه الله تعالى، «لا فرق في تحريم الكذب عليه صلى الله عليه وسلم بين ما كان في الأحكام، وما لا حكم فيه، كالترغيب والترهيب، وغير ذلك، فكله حرام، من أكبر الكبائر، وأقبح القبائح، بإجماع المسلمين الذين يعتدّ بهم في الإجماع»، ثم إن تعمّد الكبيرة لا يقتضي الكفر إلا إن استحله، فلو تاب وحسنت توبته.

قال الإمام النووي فالمختار بصحة توبته بشروطها المعروفة، فعلم مما تقرر أنه لا إثم بالكلية على مَن أنكر هذه الخصوصية، ولا على مَن اثبتها فضلاً عن كونه حراماً، فضلاً عن كونه كبيرة فضلاً عن إكفاره، لاختلاف الأئمة المذكورين فيها نفياً وإثباتاً، ولأنها ليست من الأمور المجمع عليها المعلومة من الدين ضرورة وإكفار المسلم بغير مكفّر مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة كفر، وكذا مَن اثبت معجزة للنبي صلة الله عليه وسلم لم تكن أصلاً أو نفى عنه معجزة ثابتة متعمداً الكذب عالماً بتحريمه مستحلاً له، فإنه يكفر أيضاً فتجب عليه التوبة فوراً بالنطق بالشهادتين والتبري مما صدر منهما مع الندم عليه

والعزم على عدم العود أبداً، ويجب على الحاكم الشرعي إذا رفع هذا الأمر المحرّم بالإجماع الحكم بما يقتضيه مذهبه من الأحكام المقررة باستتابة وحقن دم وتعزير شديد، وغير ذلك من الأحكام الشرعية الزاجرة عن الخوض في ذلك ممّا يفضي إلى خطر عظيم وعذاب أليم وأعاذنا الله من ذلك بمنّه وكرمه.

ولم أرَ مَن تعرض لكون قدمه الشريف في نعل أم لا، والله أعلم بالصواب. وقال في خاتمة ذلك المؤلف ولا يخفى على ذوي البصائر أنّ ما ذكر آنفاً جميعه من عدم ثبوت نسبة جميع تلك الأحجار المعيّنة بمصر وغيرها إنما الغرض منها تنزيه الجناب الرفيع الأعلى، والمقام الكريم الأسنى، عن أن تنسب أي تلك الأحجار المشهورة بمصر وغيرها إلى حِماه الأحمى فإنها لم تثبت عنه أصلاً ولا ورد قولاً ولا فعلاً. فلا يتوهم عاقل البتة من نفي ذلك نقصاً، معاذ الله حاشا وكلاّ، بل ذلك يقتضي زيادة رفعته العظيمة، وإنافة منزلته الكريمة، بحيث لا يُحام حول ذلك الحمى الأعظم، إلا بما ورد عنه صلّى الله عليه وسلم، ونصّ على ثبوته من يوثق به من الأئمة الحفّاظ الأعلام جهابذة الإسلام.

تذييل: ثبت تسليم الحجر عليه صلّى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وَصَحّ أيضاً أنه قال إني لأعرف حجراً كان يسلّم عليّ بمكة. وقد تطابق الخلف على أنه الحجر البارز الآن في زقاق المرفق، كذا قيل. ولكن العلامة النووي لم يتعرض لتعيين الحجر الأسود في شرحه لصحيح مسلم، ولا عرج على ما اشتهر، على أن في الشفا قيل إنه الحجر الأسود، ونسب ذلك الشمس الشامي إلى الهيلي. قال بعض شرّاح الشفا وهو المأثور. قال العلامة ابن حجر في شرح الشمائل وهذا الحجر قيل الأسود، وقيل الذي بزقاق المرفق المشهور. هذا وإلى جانب القبة حذاء الباب الذي يكون على يسار مستقبل القبلة بها قبة مرتفعة بها محراب حسن الوضع، وباطنها مرخّم، وظاهرها مفشى بالقيشاني. ويقال إن هذا المحل الذي هي به هو الذي كانت به السلسلة المعلقة من السماء في زمن سيدنا داود على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، وإنها كانت يتصل بها المظلوم وترفع عن الظالم حتى تعلّم الناس الحيلة فجاء مُدّعٍ ومُدّعى عليه بمال فوضع من الدنانير بقدر المال الذي عليه لذلك المدّعى في قصبة شبه المكاز الذي يعتمد عليه فصار المدعي يمدّ يده إلى السلسلة فتصلها لأنه محق في دعواه فإذا أراد المدّعى عليه إمساكها كذلك دفع العصاة المشتملة على الدنانير في يد المدّعي فيصير قابضاً لحقه الذي هو يدعي فتتصل يد المدّعى عليه بها أيضاً، لبراءة ذمته من ذلك الدّين فمنذ ذلك أوصي إلى سيدنا داود شأنهما ثم رفعت.

ومكتوب على ذلك الحجر: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾[95].

وبعد رؤيانا ما ذكر استقبلنا المسجد الأقصى الذي تعمل إليه اليعملات وخداً وذميلاً وعنقاً ونصاً، ذا الفضل السامي الذي هو ثالث المسجدين في الفضل، والجاري على نمطهما في جواز شدّ الرحل، والفضيلة في إتيانه وإن الصلاة فيه بخمس مائة صلاة، أو ألف صلاة، وإنّه بقعة من بقع الجنة كما أثبت له مَن رواه، فإذا هو مسجد كامل الصفات، مستحسن الأوضاع والسمات، في صدر الحرم الوسيع الأكناف، المنبسط الأنحاء والأطراف في جهة قبلته وهو إلى الطول أقرب، يشتمل على رواق في الوسط زائد العرض جداً في مقابل الباب إلى المحراب مؤزر بالرخام الملوّن ذي الأصباغ والألوان العجيبة والذهب اللماع والفسيفساء وبه المحراب الفائق في الوضع، الحسن الإبداع والرفع، والمنبر من الخشب المحكم من عمل المرحوم السلطان نور الدين الشهيد، ومن غريب الاتفاق الذي يعدّه أهل تلك البلدة قصداً، وإنه جرى من صانعه عمداً أنّ باطن ذلك المحراب اشتمل على أضلاع من الرخام هي سبعة عشر ضلعاً ثمانية بيض وأربعة حمر وثلاثة سود واثنان خضراوان فزعم بعض من لقيني متكرراً من أهل البلدة بأن الثمانية البيض إشارة إلى عدد صلاتي الظهر والعصر لأنهما نهاريتان وأنّ الأربعة الحمر لصلاة العشاء لأنها تجب بمغيب الشفق الأحمر والثلاثة السود لصلاة المغرب لأنها تجب عند أول الظلام والاثنتان الخضراوان لصلاة الصبح. قلت: ولو كان المخبر حمصياً لكان ذلك لجريانه على الأصل مقبولاً، ولكن هكذا جرى وكان أمر الله مفعولاً، ولقد حقّ أن أنشد البيت الشهير الذي آخره:

جسم البغال وأحلام العصافير.

وعلى يمين المحراب بجانب المنبر مقصورة لطيفة معدّة لمصلّى الخليفة إذا كان أو للخطيب ليبرز منها للمباشرة لقرب المكان، وبمحاذاتها مكان مستطيل على عقود متعددة يقال على ألسنتهم إنه الجامع الأقصى القديم. هكذا أخبرني بعضهم وفي طرف الجامع المذكور على يسار داخله محل محوط له باب من جهة القبلة لا غير هو مصلى الناس في يوم الجمعة والعيد ونعم ذلك الصنيع فإنّ فيه عدم اختلاط الرجال بالنساء المنهي عنه شرعاً فإنّ صلاة المرأة في المسجد وبروزها إليه حكمُه عندنا جواز ذلك للعجائز حيث لا

---

[95] - سورة ص، الآية 26

يتاب شهرة من أحمر وأصفر ولا طيب مع إذن الزوج. فإن وجدت الشروط جميعها جاز بروزهن وإلاّ امتنع وعبارة العلاّمة ابن الوردي في بهجته: «وتخرج العجوز». قلت: بإذن زوجها يجوز وإن يكن لباسها مشهوراً، أو صحبت طيباً فلا حضور أو على ما إذا حصلت هذه الشروط حُمل ما ورد في الحديث من قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» وعلى ما إذا فقدت أو بعضها قول سيدتنا عائشة رضوان الله تعالى عنها وعن أبيها : لو علم النبي صلّى الله عليه وسلم ماذا أحدث الناس بعده لمنعهنّ المساجد .

هذا وأما أبواب الجامع الأقصى المشتمل على المنبر والمحراب فعشرة أبواب: سبعة في جهة القبلة وواحد في جهة الشرق ويسمّى باب الخَضِر وواحد في جهة الغرب والباب الثالث لجهة الأقصى العتيق، وبين أبواب هذا الجامع السبعة والصخرة بحرة، ماء عذب، بها كأس من الرخام الأبيض، حسن الوضع والصنع، ممتلئ دائماً من الماء يتدفق من أطرافه، محمول على عمود من الرخام، كذلك قائم وسط البحيرة المستديرة حوله من الرخام أيضاً . وتقول المقادسة بين الأقصى والصخرة، الكأس وسط البحرة، ويحيط بالبحرة أحجار تشبه الكراسي من الرخام، موضوعة للمتوضئين، وينصرف فاضل مائها بمصارف من تحت الأرض، وما حول هذه البحرة مفروش بالرخام أيضاً الناصع بحيث أنّ المتوضئين لا يحتاجون ما يلبسونه بعد غسل أرجلهم من نعل أو شبهه، بل يمشون حفاة فوق ذلك الرخام إلى أيّ محل من الجامع شاؤوا .

هذا ويصلى بمحراب الجامع الأقصى إمام السادة الشافعية خاصاً بهم خمس الصلوات كما اختصّ السادة الحنفية بالصخرة كما تقدم، والسادة المالكية بمحل بركن الجامع الأقصى منفرد من خارج مصلّى الشافعية، في محل يخصهم بباب واحد، أي من داخل الجامع الكبير في صحنه، وكما اختص السادة الحنابلة بمدرسة تسمى السلطانية، يصلّي بها إمامهم فبكل من هذه المواطن يلي إمام من أئمة المذاهب الأربعة ويتقدم أولاً إمام المالكية ثم الشافعية، ثم الحنفية، ثم الحنابلة، وأخبرني بعض من لقيت من خدام الأقصى أنّ سبب تقديم المالكية على غيرهم أنهم كانوا المقدّمين حالة فتح بيت المقدس أي الثاني عند استنقاذه من أيدي الكفّار أهل الضلال، وأنّ الملك لحسن بلاهم منّاهم فتمنّوا تقديم جماعتهم على غيرهم من الأئمة فأنعم عليهم بذلك.

قلت: ولأنّ الجزاء من جنس العمل وكذلك بالمسجد الحرام بمكة إذا صلّى الأئمة الأربعة أيام الحج فإنه يتقدم بها إمام المالكية فيلعلم أيضاً . وأمّا الجمعة فإنها تقام بالمسجد الأقصى بمحل صلاة إمام الشافعية لا غير.

هذا وأمّا الحرم – أعني صَحْنَه – وما أحاط بالأقصى والصخرة وقبتها، فالأمر العظيم سعة ونضارة وإشراقاً بحيث لا يوجد له نظير فيما علمناه تحت الخضراء ولا أقلّت مثله في تلك الأوصاف الغبراء، فهو الجامع الفرد عديم النظير، وحائز الشرف الأثيل الخطير وبالمسجد مهد سيدنا عيسى «عليه السلام» ينزل إليه بدرجات في ركن المسجد على يسار مستقبل القبلة في الأقصى فإذا صورة مهد من الرخام وإلى جانبه على يسار المستقبل فيه أيضاً صورة محراب لطيف، يقال: إنّه محل تعبّد سيدتنا مريم، ومحل بركته، يقال: إنه محل سيدنا جبريل، وبه أي محل المهد باب يُتوصل به إلى ما تحت الأقصى، فإنه مرفوع على عمد من الحجر الأسود، مربع الأوضاع، كل عمود له غلظ زائد، مبني من ثلاثة أحجار أو أربعة، ركّب بعضها فوق بعض بإحكام الالصاق، وبكل عمود حجر مخروق، يقال: إنّه من وضع سيدنا سيلمان نبي الله، وأنّ هذه الأخراق هي التي كان يصفّد فيها الجان عند عمارة المسجد المشار إليها بقوله: ﴿والشياطين كلّ بنّاء وغوّاص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾[96] والمحل ذو منَاوِرَ، تعطيه بعض النور، نزلته، ومشيت في جهاته للإحاطة فإذا علو زائد نحو عشرة الأذرع أو دونها وقيل لنا إن الجامع «جميع رحابه» وصحنه معلق على مثلها، ولكنّ الذي تقضي به الرؤية والمشاهدة إنّ ذلك خاص بالمسجد الأقصى مصلّى الشافعية. وبعد البروز منه تمشي إلى محل مرتفع به درجات في جدار الجامع بها عمود من الرخام الأبيض ممتد إلى خارج المسجد، يزعمون أنّه محل الصراط وامتداده، وتحته قبور اليهود، ويزعمون أيضاً أن ذلك المحل محل جهنم، والصراط يمتد عليه، والعلم عند الله سبحانه وتعالى، مع تسليم أنّها أرض المحشر والمنشر وفي أمام باب الصخرة من جهة القبلة محراب ومنبر من الرخام الأبيض، يقال إنه يُصلّى به يوم العيد، وأيام الصيف، وإنّ محلّ محرابه يوضع الميزان يومَ القيامة. وفي أطراف المسجد أماكن من المدارس والأوضات التي يسكنها طلبة العلم، وبه حول البحرة والكاس أربع أشجار من السرو، وفي جهاته أشجار زيتون وتين وعنب. وأما أبوابه الموصلة إليه من الخارج فهي باب المغاربة، باب البراق، باب السلسلة ومنه كان دخولنا إليه لقربه من منزله وهو يتصلب به سوق البلد، وباب السكينة، وباب المتوضئين، وباب القطانين، وباب الحديد، وباب الناظر، وباب الغوانمة، وباب حطّه، وباب إلى جانبه لم أعرف اسمه، وباب الرحمة.

والحاصل أنه في العظم والكبر لا يقاس ولا يسامى، ولا يستطيع القلم أن يحيط

---

[96] - سورة ص، الآية 37

ببعض أوصافه وإن هو على الطروس ذات السطور تَرامَى، فلنثن عنان القلم، ونرى أن الاختصار ألزم، وقد أقمنا به بقية يومنا يوم الخميس السابع والعشرين إلى أن أظلتنا ليلة الجمعة، فبتنا به وصلينا العشاء مع الإمام الحنفي بجامع الصخرة، بعد أن كنّا صلّينا العصر والمغرب بالأقصى مع إمام الشافعية، فإذا ليلة مشرقة الأنوار، يلحظ الإنسان بها ما يدهش الأبصار.

وفيما تحت الصخرة التي هي سقفه من الخشوع والخضوع ما يؤذن الدّاعي بالإجابة، ويقضي بحصول الإثابة، وقد كنا بها إذ ذاك، ودعونا بما تسنّى وتيسّر هناك، ويعملون بالمسجد مَحْيًا يذكرون الله تعالى فيه وحداناً وجماعات، وبتنا بمحلنا ليلة عذبة الموارد، حسنة المصادر، ثم لما كاد أن يلوح الفجر، فجر يوم الجمعة، ذهبت لبعض حمّاماتها مغتسلاً بها، دافعاً للدرن، محصّلاً ثواب غسل يوم الجمعة الذي ندب إليه الشارع، لكن بلفظ الوجوب وسنّ، ثم ذهبت بعد الفجر لأداء فرض الصبح فأدّيته بمسجد الصخرة، ثم لاح ابن ذُكا والحف الجو الضيا، فذهبت للمنزل لتجديد الطهارة فجدّدتها، ثم عدت للأقصى مبكراً للجمعة، ناوياً به الاعتكاف لأكون ممّن بكّر، وحاز الثواب وجَمَعه، وفي خلال هذه المدة وأنا ألتمس بجدٍ واجتهاد طلباً للعلم وعلو الإسناد عالماً يصلح للدراية، أو راوياً تؤخذ عنه الرواية، فأعياني ذلك الطلب وأكدى سعيي دون أن يعلق بمرامي سبب، وعُيّن لي شخصان فرأيتهما لتبليغ مرادي لا يخلصان، فأعرضت إعراض مَن مُنع الورود ولم يَفُز من الروض المسجود باقتطاف الورود، فأقمت بالمسجد معتكفاً تالياً تارة وذاكراً أخرى، حتى حانت الصلاة، ووجب استماع ذكر الله، وقد انتظم شمل الجمع، وصُلّي على النبي صلّى الله عليه وسلم إيذاناً بخروج الخطيب بحَسَن الصوت، وكمال الرفع، فبرز الخطيب في هيئته يتهادى بين عصبته، ويعتمد على عُصَيّته، فصعد في تؤدة وأناة، واستقل بذروة منبره وأجال ببصره أنحاءه، ثم أذّن المؤذّنون بين يديه، وروى المرقى الحديث المطلوب روايته لديه، فاستفتح على الوضع العربي من غير تفنٍ ولا نغم، وأتى بخطبة تتضمن فضل المسجد الأقصى وبعض ما اختصّ به فخصّ وعم، وأنه وإن كان في الفضل بعد مسجدي البلدتين فقد اختصّ بأنّ صخرته أولى القبلتين، وإنه بقعة من بقاع الجنة، وأنّ النبي سار إليه فعظمت عليه المنّة، وأنّ الصخرة منها ينفخ في الصور، وما يضارع ذلك من المنقول والمأثور، وفضل زيارته وشدّ الرّحل إليه، وما يقتضيه المقام ويدلّ الحال عليه، فناسب فيما أتى به مقتضى الحال، ولكنّه أكثر اللحن والتخليط في خطبته وما قاله، فقلت قد يغتفر هذا لذاك، وإياك الاعتراض إياك.

ثم بعد إتمام الصلاة ودّعنا المسجد بركعتي الوداع، وانطلقنا في الأرض مجدين بكمال الإسراع، عازمين بعد قضاء هذا المهم الذي أنعم علينا الكريم المنعم على إعمال الجياد واستصحاب الخفير والدليل لزيارة أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل، ففارقنا بيت المقدس بعد صلاة الجمعة، طاوين في ذلك النهج أنجاداً ذات ارتفاع وسعة، وقبل ذلك مررنا على يسارنا بمحل لم نصل إليه، يُقال إن به قبر رابعة العدوية وعين سلوان وجبل الطور الذي كانت عليه مناجاة موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، والعهدة في ذلك على الناقل.

وسرنا إلى أن وجب فرض العصر فصليناه جماعة بالطريق ثم سرنا إلى أن كاد أن يجب المغرب، وتذهب الشمس وتحتجب، فوصلنا قرية يسمونها:

بيت لحم :

وبها محل يقولون إنه مهد سيدنا عيسى وإلى جانبه كنيسة للنصارى، ومحل المهد هذا ينزل إليه بدرجات فإذا المحل به رخام أبيض، وفيه موضع منخفض، فيه على الرخام صفائح الذهب مرصعة بالفصوص، وقد غشّوا المكان بستور الحرير وما يناسب ذلك، ثم بتنا بخان في تلك القرية إلى أن كاد يبقى ثلث الليل الأخير أو بعده بقليل فسرنا إلى أن وصلنا عند طلوع الفجر إلى قلعة شامخة تسمّى: قلعة البِرَك وإلى جانبها بركة عظيمة، ويقال إن قريباً منها بركتان أخريان وأنّ ماء بيت المقدس ينصرف إليه من هذه، فصلينا الصبح جماعة بمسجد على طرف البركة مهيأ للصلاة، ثم سرنا بعده نطوي أنجاداً ذات أحجار إلى أن كاد أن ينتصف النهار، ونحن نمرّ بأشجار الزيتون الكثيرة، ولا بدع فهذه الأرض منابت الزيتون كما هو مشهور معلوم، إلى أن لاح لنا بارق تلك القباب، ذات الهيبة والرفعة وعلو الجناب، ألا وأنه المقام الرفيع الجليل، المنسوب لسيدنا أبي الأنبياء الخليل، نبي الله ورسوله وأبي نبيّه وحبيبه وخليله، ولله درّ القائل: [من البسيط]

كم من أبٍ قد سما بابن ذرا شرف ... كما سمت برسول الله عدنان

[الخليل] :

فدخلناه فإذا بلدة قائمة البنا، ظاهرة السنا، قابلنا منها بساتين أكثر ما فيها أشجار العنب وهو الكَرْم ولمناسبة من حللت حماه. أقول: الكَرَم فإنه الخليل أبو الأضياف، والمشهور بالرأفة والإسعاف، وقد ورد أنه كان يتطلب الأضياف إلى أميال، فنزلنا عند

الخليل بمحل على صورة مسجد مقدار ما حدّدناه الطهارة، وحسّنا الهيئة والشارة، وهذا المحل به أشجار مظلة أغنتنا بظلها عن الخيام وبين يديه بركة تمتلئ ماء من المطر إذا سال السيل، وينزل لها بدرجات. ثم توجهنا إلى المسجد للزيارة فإذا هو محل سامٍ حسّاً ومعنى، فائق رفعاً ووصفاً وحسناً، وعلى يسار المتوجه إليه قلعة البلد، وهي محكمة البناء عالية في السماء، ثم صعدنا درجات عاليات صعوداً تدريجياً لطلب الوصول للمسجد والمدفن المشار إليهما، المدلول بهذا الخطاب عليهما، فإذا على يسار حالة الصعود جدار محكم البناء جداً بأحجار من الحجر الأسود، طول الحجر الواحد خمسة أذرع أو ستة وما دونها، وعرضه الذراعان أو الذراع والنصف، ويسمّى ذلك البناء الحائز.

ويقال إنّ هذا البناء الموجود بهذه الأحجار من بناء الجان بأمر سيدنا سليمان – على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام – لأمر الله تعالى له ببناء هذا الحائز. وهكذا نقل لي بعض مَن لقيت هناك والعهدة عليه في ذلك. فلم نزل كذلك صاعدين حتى انتهينا لباب محلّه، فإذا هو بادي السنا، عليه مزيد جلالة ومهابة وبهاء، فدخلناه ومعنا بعض أهل البلدة يدلنا. فأول ما بدأنا به بعد صلاة التحية زيارة سيدنا أبي الأنبياء، وسند الأصفياء خليل الرحمن نبي الله إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم، وعند زيارته ذكرت ما أنشده العلامة ابن مطروح عند زيارته، قلت: وما أنسبه بحالي، وأعذب إنشاده بذلك المقام العالي: [من الوافر]

خليل الله قد جئناك نرجو	شفاعتك التي ليست تُرد
أنلنا دعوة واشفع تُشفّع	إلى مَن لا يخيب لديه قصدُ
وقل يا رب أضياف ووفد	لهم بمحمد صلة وعهد
أتوا يستغفرونك من ذنوب	عظامٍ لا تُعَدّ ولا تحدُّ
إذا وزنت بيذبُلَ أو شَمَام	رجحن ودونها رضوى وأحدُ
ولكن لا يضيق العفو عنهم	وكيف يضيق وهو لهم مُعَدّ
وقد سألوا رضاك على لساني	إلهي ما أجيب وما أردُ
فيا مولاهم عطفاً عليهم	فهم جمع أتوك وأنت فرد

فإذا محله الخاص به من الظاهر بابه من الفضّة المشبكة، ثم تدخل فإذا القبر مغشى بالحرير، زرناه وتبركنا، وقرأنا عنده ما يسّره الله، ودعونا بما تسنى، وتسهل وتيسر لنا ولأحبابنا، ويقابله بمحل خاص أيضاً قبر زوجته سارة، زرناها أيضاً، ثم زرنا

سيدنا يعقوب نبي الله، ثم زرنا سيدنا يوسف نبي الله، ثم زرنا سيدنا إسحق بن إبراهيم، وكل في تابوت يخصه ويحويه، وتذكرت عند ذكر أسمائهم، والتمسك بعقد حبهم وولائهم، قوله صلى الله عليه وسلم المزري بالعقد النظيم، فيما ثبت في الصحيح: الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم: [من الكامل]

نسب كأنّ عليه من شمس الضحى   نوراً ومن فلق الصباح عموداً

وزرنا زوجاتهم أيضاً «لدفنهن قريباً» منهم كما نقل لنا، فزوجة يعقوب ليقا وزوجة يوسف زليخا وزوجة إسحق ربقا. ثم رأينا باب السرداب الذي يجمع هؤلاء الأنبياء ونساءهم، فإذا هو محل بابه مستدير كالبئر المطوية، على بابه المذكور من الرخام الملون ما يشبه الدائرة عليه صفائح من الفضّة المطلية، وغلقه – أعني الباب الذي يفتح إذا أريد النظر فيه – من النحاس الأصفر المشبك، فإذا رُفعَ نظر الناظر ذلك السرداب الذي يحوي هؤلاء المذكورين. وبه أربعة قناديل مدلاة معلقة بسلسلة تسرج ليلاً ونهاراً، وسألت هل يمكن الدخول لذلك السرداب؟ فأخبرت أن الدخول الآن قد تعذّر. وقد كان له قبل هذا الزمن وقبله بأزمنة باب يتوصل إليه منه ولكن وقع في بعض الأزمان أنّ شخصاً دفع لبعض الخَدَمة مالاً جزيلاً وأنه أنزله إلى ذلك من الباب الذي كان موجوداً أي أنزله إلى الطبقة الثالثة السفلى، فإنه ثلاث طبقات: الطبقة العليا التي يراها الناس حالة الزيارة وتحتها طبقتان أخريان، وإنّ ذلك الرجل لما دخل رأى الأنبياء على أماكنهم، ورأى سيدنا إبراهيم بهيئته ونعته، وأنّه أراد التوجه إلى جهة أخرى فصاح به سيدنا إبراهيم تَنَحَّ عن الحريم، أو إيّاك والحريم، وانطفت الشمعة التي كانت بيده، وأنه أخرج بعد ذلك ميّتاً، وأنّ الخادم الذي دخل معه عَمِي. هكذا نقل لي بعض من لقيته هناك، وهو مشهور عندهم ثم سُدّ ذلك الباب بعد هذا الواقع فلم يفتح إلى الآن، وأنه كان محلّ ذلك الباب في محاذاة المحراب الذي يصلّي فيه إمام السادة الشافعية، وقد كنا زرنا في الطريق قبل الدخول للبلد سيدنا يونس نبي الله في قرية يقال لها حلحول، وسيدنا عيسى[97] أيضاً بقرية يقال لها سعير. هذا وأمّا المسجد الذي تلك الضرائح في جانب منه فهو مسجد نضر تنشرح فيه النفس، مؤزّر بالرخام الملون، عليه بهاء وإشراق ونضارة، صلّيت به مع إمامه الظهر والعصر كلاً في وقته، واجتمعت فيه بعين أهله، والمخصب لمحله، بل المحيي لسنة الخليل ولا بدع فمن خليل لخليل عند خليل ولله در الحريري حيث يقول: [من الرجز]

---

[97] - خطأ، لأن سعير تضم قبر العيص

فسنة إبراهيم جارية متّبعة، وطريقته محمودة متسعة، الا وأن المشار إليه صدر الفضلاء الكرام، والنبلاء ذوي الاحترام، الشيخ إبراهيم بن شهاب الدين المرواني شيخ الشافعية والمحيا بذلك المقام.

ولما حضرت مجلس درسه قبيل العصر أمسك عن الإقراء، وطلب منّي إقراءه من محلّ قراءته، وكانت بالجامع الصغير من حديث البشير المنير للعلامة السيوطي من حرف الميم من مادة: مَن، فقرات إجابة لملتمسه أحاديث على سبيل الدراية، تكلمت على معانيها بحسب ما اقتضاه الحال، وجادت به القريحة، فشملتني بركة صاحب المقام، وتشرفت بإملاء ذلك بمرأىً منه ومسمع. ثم قرأ هو عليّ بعضاً من ذلك ليجمع بين نوعين من طريق الأخذ في فنّ الحديث، واستجازني فأجزته برواية ذلك عنّي بسندي إلى مؤلّفه.

ثم ودّعت الأنبياء والجامع، وعزمنا على المسير بعد صلاة العصر مع إمامه، وتوجهنا ففارقنا المحل المبارك بين العصر والمغرب، فلم نزل بعد مفارقته نسير بوادٍ بين جبلين عاليين، كثيرة أشجارهما، غزيرة مياههما، من ذلك الوقت حتى كاد أن يمضي ثلث الليل الأول، فوصلنا منبسطاً من الأرض بعد تلك المعالجة فلم نزل كذلك حتى انتهى بنا السير، وقد كلّت الركبان لا المشاة لا غير، لمحل يُقال له بيت جبرين أو قلعة جبرين فإذا هي قرية بها قلعة وخان خَرِب فدخلنا الخان بائتين به نحن ومَن معنا من المشاة والركبان، ليلة عدمنا فيها لذيذ الكرى لأذى البقّ والبرغوث والناموس، فلم يزل كلٌ وله إلى الأجساد جاسوس، إلى أن اصبحنا فأدّينا الفرض، وسلمنا ما لزم النفوس من القرض، ثم سرنا في بسيط من الأرض،نطويه بالطول والعرض، حتى ارتفعت الشمس تمام الارتفاع فإذا قرية بالطريق أهلها ذو كرم على التحقيق، على أنا ما خرجنا من حكم الخليل ذي القدر الجليل فالتمسنا منهم ما يباع مما يحتاجه المسافر مع الأزواد خوف الضياع، فتمرّوا من ذكر البيع وقالوا ما منا من يبيع ذيّاك، بل إن نزلتم عندنا وجدتم الضيافة وحبّذا ذاك. فقلنا: سمعاً وطاعة، وأجبنا إشارتهم بالاستطاعة. وقلنا: لا بدع فقد تقرر عند ذوي الأدب أنّ الكرم من شأن العرب، وكان في صحبتنا بعض أهل الروم فاستغربوا منهم ذلك لكونه عندهم غير معلوم، فأنزلونا على الرحب والسعة، وقدموا لنا ما يقدم للضيف الطارق من الخبز وما يسيغه معه فتناولنا منه حتى شبعنا ورأينا من كرمهم عياناً ما كنا سمعنا.

ثم فارقناهم سائرين تخفضنا الأرض وترفعنا أخرى حتى دخل وقت الظهر فأدّيناه بالطريق، وسألنا الله تعالى الإعانة وعدم التعويق، ثم سرنا حتى وجب فرض العصر، ووجب عن المسير القصر، فإذا أعلام المنزل المقصود المخصوص بالمعزة المسمّى بين البلدان:

غزّة :

فإذا بلدة تدعو بساتينها قبل دخولها الأضياف للقرى وتلقاهم بوجه ذي نبات نضر، فيحلو للرائين وإن كان المحمود من الوجوه ما كان مقمراً، فلم نزل كذلك حتى دخلناها أيضاً على أنضاء وقد كلّت الجياد لبعد المراد، وأثر ألم السير حتى في الأكباد فإذا هي بلدة معالمها عامرة ومحاسنها شهيرة ظاهرة، وإذا منزل ركبنا منها رحب وقد نزلوا بالخيام فبادرنا إليها كما تأوي الطير إلى وكرها فإذا الخيام مشرعة الأبواب، والنفوس قد طلبت المقام وملّت الذهاب، وذلك في يوم الأحد غرة شعبان المعظم فبتنا بها أعذب مبيت لطيب النفس بما حازته من الثواب، وجمع ذلك العقد بعد التشتيت فلما أصبحنا دخلنا لداخل البلد للقاء عين العلماء الأعلام، وصدر الفضلاء النبلاء الكرام، شيخ الوقت والطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، الجاري في منهج التقوى على أقوم سَنن، والمالك للنفس فألزمها فعل الفرائض وكملها بإتباع السنن، مولانا وشيخنا الشيخ عبد القادر الغزّي ابن الحاج أحمد الغُصَين: ولد الشيخ المذكور بغزّة سنة ثلاث عشرة وألف، وأخذ العلم بالقاهرة عن جماعة كثيرين فمن أجلّهم الشيخ إبراهيم اللقاني المالكي والشيخ أحمد المقرّي المالكي والشيخ علي الحلبي والشيخ محمد البابلي، والشيخ محمد المناوي، وقد قرأت عليه الحديث الأول من البخاري فأجازني به جميعه وبجميع ما تجوز له روايته من الحديث وغيره، وقد أجاز بجميع ذلك ولدي النجيب – إن شاء الله تعالى – أحمد الخياري أنشأه الله نشوءً صالحاً، فالأول يروي عن الشيخ سالم السنهوري بأسانيده المعلومة وكان اجتماعي به صبيحة يوم الاثنين ثاني شعبان بمنزله العامر ببلدته غزّة فحمدت الله تعالى بعد لقاه على ما يسّره من إحسانه وأولاه.

ثم لم نزل مقيمين بها يومنا ذاك إلى أن طلع الفجر فأدّينا فرضه، ثم عُكمت الرحال، وشُدّت الأحمال، فبادرنا المسير عند طلوع الشمس، وذهاب اللبس، ثم لم نزل سائرين في بسيط من الأرض، آمنين بعد الرفع من الخفض، برياضٍ ما أشبهها بالجنان خضرة وبالفياض في تمام النضرة، إلى أن تعالى النهار ووجب فرض الظهر فوصلنا إلى المنزل المقصود المسمى بـ:

خان يونس :

فإذا محل به خان عامر ومسجد وسوق. أمام الخان وبويتات منزوله إلى جوانبه ومحط الرحال كان بعد مجاوزة ذلك في مخضر من الأرض به تل مرتفع نزلناه كأصحابنا المسافرين وأقمنا به إلى أن وجب فرض العشاء فأدّيناه في أول وقته، ثم سرنا مبادرين راجين فضل الله آمنين مقته، نطوي مهاداً من الأرض رملة، وتلولاً من الرمال تظهر من كل عامل ناصب عمله، وخده أو ذميله أو رَمَله إلى أن وصلنا إلى منزلى تسمى الزّعقا منزل يعتاد المسافرون نزوله فلم ننزله ونحن ولا مَن معنا بل سرنا عنه مدلجين للسّرى هاجرين الكرى إلى أن وصلنا لمحل أسفر فيه النهار ولاحت الأعلام للأبصار فأدّينا فريضة الصبح آملين تمام النجح، ثم سرنا حتى تعالى النهار فوصلنا للمحلّ المقصود نزوله المسمى بـ:

العريش :

الذي هو من الجهة المصرية أول الشام، كما نصّ عليه عند ذكر المواقيت علماؤنا الأعلام، فإذا منزل مخضر به خان عامر ومسجد ومنارة وبيوت حول ذلك وبساتين كثيرة النخل وقد رأيناه بهذه البلاد العربية عند دخول غزّة وفيها وبعدها وبهذا المنزل، وجيء لنا برطب منه فأكلنا ذاكرين بلدتنا طيبة التي وصفت له صلّى الله عليه وسلم عند الهجرة بأنها أرض ذات نخيل ولكن شتّان بين التمرين، وأين مثل ذلك أين، ونزلنا منه بعد مجاوزة البلد منزلاً مرتفعاً رَملاً مقابلاً للبساتين، أقمنا به يومنا يوم الأربعاء وبتنا به ليلة الخميس ونحن مجاورون للبحر نسمع له زئيراً كزئير الآساد في أغيالها، إذا فقدت عظيم أشبالها، وأصبحنا به يوم الخميس مقيمين به إلى أن صلّينا الظهر ثم سرنا في رمل من الأرض نحو ثلاث من الساعات، ثم في أرض سبخة كالكف في الملوسة لا شجر ولا حجر نحو الثلاث ساعات أيضاً في رمل كالأول وأشق...

رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي الثانية
إلى فلسطين عام 1693م

يعد الشيخ عبد الغني النابلسي من أعظم الوجوه الصوفية التي شغلت بشخصيتها وتآليفها بلاد العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري، وتركت مؤلفاته وآراؤه وسيرته أكبر الأثر على أجيال المتصوفة التي أتت بعده، كما كانت رحلاته وسياحاته مصدراً مهماً من مصادر معرفة البلدان في بلاد الشام ومصر والحجاز.

ولد عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل الكناني الحموي الأصل المقدسي الشهير بابن النابلسي، بدمشق يوم الأحد الرابع من شهر ذي الحجة سنة 1050 للهجرة، الموافق للسابع من آذار من عام 1640للميلاد[98].

وتوفي في دمشق أيضاً بعد مرض ألمّ به في الرابع والعشرين من شعبان سنة 1143 هجرية الموافق لعام 1739 ميلادي.

وتعود أسرة الشيخ عبد الغني النابلسي بأصولها إلى حماة، فإن جدّه الثاني عشر برهان الدين إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة ولد بحماة سنة 596هـ، ثم انتقل إلى دمشق ليتلقى العلوم على علمائها، وفي سنة 675 قصد بيت المقدس لزيارته، فمات بعد وصوله بأيام، فبقيت أسرته في بيت المقدس، ودرس أولاده فيها، وتعلموا في مساجدها، وعلى مشايخها، ثم تولّوا بعد ذلك خطابة المسجد الأقصى وغيره.

وأول من انتقل إلى دمشق منهم جد النابلسي الرابع إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم برهان الدين، وليس بين يدينا ما يدل على سبب هذا الانتقال.

---

[98] - اعتمدنا في ترجمة الشيخ النابلسي على مقدمة الحقيقة والمجاز لرياض عبد الحميد مراد، ومقدمة أكرم العلبي في رحلة (الحضرة الأنسية للرحلة القدسية)، وترجمته المختصر في كتاب أحمد الايبش وقتيبة الشهابي دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، و(سلك الدرر) للمرادي، 3/ 30-38 وهي معظمها مأخوذة من ترجمته التي وضعها كمال الدين الغزي بعنوان (الورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمة العارف عبد الغني النابلسي)

وقد ترجم للنابلسي كثيرون منهم كمال الدين الغزي المتوفى سنة 1214هـ/ 1799م الذي سمى كتابه (الورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمة العارف عبد الغني النابلسي) ويحوي هذا الكتاب على ثلاثة عشر باباً ومقدمة وخاتمة. ويلي هذا الكتاب أهمية في ترجمة النابلسي تلك الترجمة التي سطّرها له المرادي في سلك الدرر، لما تحويه من تعداد لأساتذته، ولما فيها من قائمة طيبة لمؤلفاته مع ذكر لتصوفه وولادته ووفاته. وبعدها تأتي الترجمة التي أودعها النبهاني كتابه «جامع كرامات الأولياء»، فهي ملخصة علماً في السلك، مع ذكر تفصيلي ومن دون اختصار لمؤلفاته وكتبه ورسائله.

وأفرد له المحبي في نفحته عدة صفحات ترجم فيها لأسرته بدءاً من جده ثم ترجم لأبيه ثم له، ويؤخذ عليها أنها تراجم أدبية مسجّعة على طريقة يتيمة الدهر للثعالبي ولكنه بث فيها مختارات من أشعارهم.

وما أورده ابن شاشو في تراجم بعض أعيان دمشق لا يختلف كثيراً عما أورده المحبي.

وكذلك فإن الجبرتي قد ذكره في تاريخه في حوادث سنة 1143هـ وذكر سنة ولادته ووفاته وبعضاً من كتبه.

وله ترجمة كذلك في كتاب الباشاة والقضاة ضمن كتاب ولادة دمشق في العهد العثماني.

وفي العصر الحاضر ترجم للنابلسي خير الدين الزركلي رحمه الله في أعلامه، وكحالة في معجم المؤلفين، وذيّل كحالة ترجمته بقائمة طيبة للمصادر تضم المصادر العربية المخطوطة، والمطبوعة، والمصادر الأجنبية، ثم المجلات العربية.

بدت على النابلسي منذ صغره ملامح الذكاء، مما دفع الأب إلى أن يميزه على إخوته بعناية خاصة، فختم القرآن وهو في سن الخامسة، وحفظ الألفية والشاطبية والرحبية والجزرية وهو في سن العاشرة، بل قال الشعر في رثاء والدته التي توفيت سنة ش(1062) وسنه إذ ذاك اثنتا عشرة سنة.

ونتيجة لهذا النبوغ المبكر، فقد بدأ بالإنتاج مبكراً، فما بلغ سن العشرين حتى باشر بإلقاء الدروس وتصنيف الكتب.

ومنذ صغره أدمن على قراءة كتب المتصوفة كابن عربي وابن سبعين والعفيف التلمساني، فعادت عليه بركة أنفاسهم . على حد قول سبطه الغزي - فأتاه الفتح اللدني.

وتروي الكتب أنه دخل الخلوة ولزم العزلة في داره قرب المسجد الأموي سنة 1091هـ، وظل في هذه العزلة بعيداً عن الناس، لا يكلم أحداً، ولا يخرج إلا لحاجة، وترك الأكل والشرب إلا ما يقيم أوده، وداوم على الذكر والصلاة ودراسة القرآن الكريم، وبعد سبع سنين خرج من خلوته بعدد من كتبه المعروفة، وصار بعد هذه الخلوة أحد أعلام التصوف في العالم الإسلامي.

وبعد هذه الخلوة أكثر من التردد على ضرائح الأولياء، وقبور الصالحين، يزورهم، ويبحث عنهم، ويقرأ سيرتهم، ومؤلفاتهم، وأقوالهم، ويدافع عنهم ضد المنكرين عليهم، ويمدحهم نثراً وشعراً وحين بلغ هذا المبلغ صار يقرئ الناس التصوف في دروسه شارحاً لهم كل أفكارهم بالتفصيل للخاص والعام.

ونقل لنا في رحلته - كتابنا هذا - طريقتيه في التصوف ومشايخه فيهما، وهاتان الطريقتان هما طريقة السادة النقشبندية وطريقة السادة القادرية، ولكل من الطريقتين طريقان أحدهما في الباطن والثاني في الظاهر.

وذكر النابلسي في اليوم العاشر من رحلته هذه أنه تلقى الطريقة النقشبندية عن الشيخ أبي سعيد البلخي الذي زار دمشق عام 1087، كما ذكر في اليوم الثاني عشر أنه تلقى الطريقة القادرية عن الشيخ عبد الرزاق الكيلاني في عام 1075 في زيارته لحماة أثناء رحلته إلى الروم.

ووضع في التصوف كتباً كثيرة أورد بعضها في فهرسه الذي سيمر معنا في رحلتنا هذه. منها ما هو نثر، ومنها ما هو شعر. وجمع شعره الصوفي في ديوانه المطبوع المسمى «ديوان الإلهيات».

انتخبه أهل دمشق في عام 1135 مفتياً لدمشق بعد وفاة مفتيها محمد ابن إبراهيم العمادي فرفض ولكنهم ألحوا عليه فقبل، فكتبوا إلى الدولة العلية فجاء الأمر بتولية خليل بن أسعد الصديقي.

رحلاته

كان النابلسي من المغرمين بالرحلات والتي بلغت خمس رحلات، أربع منها في حوالي اثني عشر عاماً، وقد كان هدفه من هذه الرحلات، زيارة الأولياء الصالحين والتبرك بقبورهم ليرضي الجانب الصوفي في نفسه، وهدفه الثاني من رحلاته الاجتماع بأهل الصلاح والدين ليرضي الجانب الديني في نفسه، وثمة هدف ثالث هو

التباحث مع علماء هذه الأمصار ليرضي الجانب العلمي في نفسه، والهدف الأخير هو الاستمتاع بالتنزه في البساتين والفيطان وذلك ليرضي ميله الفطري إلى التمتع بجمال الطبيعة.

قام النابلسي بعدة رحلات أو سياحات على عادة المتصوفة وسجل مجريات رحلاته ومشاهداته فيها في عدة كتب مهمة وصلت إلينا، وهي:

الرحلة الأولى:

قام بها إلى دار الخلافة في الأستانة سنة 1075، وهي الرحلة الوحيدة التي لم يسجل عنها ملاحظاته وانطباعاته وخط سيره.

الرحلة الثانية:

قام بها إلى لبنان سنة 1100. وكانت وجهته فيها سهل البقاع وجبل لبنان وسماها (حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز) نشرها الأستاذ صلاح الدين المنجد بالتعاون مع المستشرق الألماني شتيفان فيلد في كتاب رحلتان إلى لبنان للنابلسي والعطيفي وصدر ضمن منشورات المعهد الألماني للابحاث الشرقية في بيروت عام 1979م.

الرحلة الثالثة:

إلى فلسطين وقام بها سنة 1101. وقصد فيها زيارة بيت المقدس وبلد الخليل ووصف رحلته في كتاب سمّاه (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) وطبعت في مطبعة جريدة الإخلاص في القاهرة عام 1902م بعناية ديمتري نيقولا، وأعادت طبعها مكتبة القاهرة بالصناديقية بالأزهر بعنوان رحلتي إلى القدس، ثم أعاد نشرها وتحقيقها الأستاذ أكرم حسن العلبي وصدرت عن دار المصادر في بيروت عام 1990م.

الرحلة الرابعة:

قام بها سنة 1105 وهي رحلتنا هذه. وطاف فيها على بعض مدن الشام ومصر والحجاز وهي رحلته الكبرى، وصف أخبارها في كتاب بعنوان (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) وطبعت هذه الرحلة في عام 1299 هـ [1881- 1882م] ثم بالقاهرة عام 1324هـ [1906م]، وقد صدرت منها قبل سنوات طبعة مصورة عن إحدى نسخها المخطوطة، أعدها للنشر وقدم لها الدكتور أحمد عبد المجيد هريدي عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة عام 1986م، كما قام بنشرها محققة رياض عبد الحميد مراد وصدرت عن دار المعرفة بدمشق عام 1989م، وقد اعتمدنا على هذا التحقيق

بشكل رئيس من بين جميع الطبعات التي ظهرت لهذه الرحلة، والتي تحتل أهمية خاصة تمتاز فيها عن سواها من رحلات الشيخ فهي أبعدها مدى، أكبرها حجماً.

الرحلة الخامسة:

إلى طرابلس وقام بها سنة 1112. سمأها (الحلة النابلسية في الرحلة الطرابلسية) وقام بنشرها هيربيرت بوسه، وصدرت ضمن منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت عام 1971م.

لقد ترك النابلسي تراثاً كبيراً في أدب الرحلات أو السياحات الصوفية، ونهل منه كثيرون وحاولوا أن ينسجوا على منواله ولكن لم يصل أي منهم إلى ما وصل إليه الشيخ النابلسي، الذي كان بالإضافة إلى مشاهداته، يغني نصوصه بالمصادر الجغرافية والبلدانية الشهيرة، ويحاول أن يناقش معاني الأسماء وتحقيقها، وتُعد رحلاته مرآة لعصره فهي تبين بأمانة متناهية الأوضاع التي كانت سائدة في الأماكن التي كان يزورها، وهي مرحلة حساسة مثلت بدايات انهيار السلطة المركزية العثمانية في بلاد الشام التي بدأت منذ ذلك الوقت تعاني من الفوضى وسيطرة اللصوص وقطاع الطرق، وهو ما خلف الخراب في بلاد الشام، والذي استمر أكثر من مئتي عام بشكل متواصل.

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز

للشيخ عبد الغني النابلسي

اليوم الثامن والأربعون

1105/2/19هـ = 1693/11/17م

ثم لما أصبحنا في يوم الثلاثاء الثامن والأربعين، التاسع عشر من صفر ركبنا وسرنا نحن والإخوان، في أتم راحة وأكمل أمان؛ حتى مررنا على قبر شمعون الصفا، ونحن في غاية المَسَرَّة والصفا؛ وقبره على جبل عالٍ، وهو مشهور بين أهل تلك البلاد، أنه من الأنبياء أولاد يعقوب عليهم السلام أو من الأحفاد؛ وعندنا في دمشق الشام في القرب من مقبرة باب الصغير بين البساتين من جهة محلة الشاغور قبر كبير، يقال إنه قبر شمعون الصفا، والله أعلم بمن ظهر من ذلك ومن اختفى.

وفي كتاب الزيارات للهروي في أوله عند زيارات حلب قال: والصحيح أن شمعون الصفا في مدينة رومية الكبرى، في كنيستها العظمى في تابوت من الفضة، معلق بسلاسل في سقف الهيكل والله أعلم انتهى.

وفي القاموس: الهَيْكَلُ بيتٌ للنَّصارى فيه صورةُ مَرْيَمَ عليها السلام وديرهم والبناء المشرف. انتهى.

فوقفنا بالقرب من ذلك ودعونا الله تعالى بعد قراءة فاتحة الكتاب، وإهداء ثوابها لذلك الجناب؛ ثم قلنا من النظام، في رفيع ذلك المقام: [من الوافر]

بِشَمْعونِ الصَّفا زادَ الصَّفاءُ ... وَأَكْمَلَتِ المَسَرَّةُ والهَناءُ

وَأَشْرَقَتِ المَعالِمُ والرَّوابي ... وَذاكَ القصر طاب لـه الوَفاءُ

عَلَى الجَبَلِ العَظيمِ عَظيمُ نُورٍ ... بِقَبْرٍ ثَمَّ زَوْرَتُهُ شِفاءُ

مَرَرْنا في الطَّريقِ عَلَيْهِ حَتَّى ... تَبَدَّى مِنْهُ لِلعَيْنِ الضِّياءُ

فَأَهْـدَيْنا الـسَّلامَ وكـانَ منّـا — لَـهُ مَـدْحٌ وفي المَـدْحِ الثَّنـاءُ
سَـقَى الـرَّحْمَنُ مَرْقَـدَهُ غمامـاً — يُريـكَ الـصُّبْحِ ذلـك والمَـسَاءُ
مَـدَى الأوْقـاتِ مـا اضْـطَرَبَتْ مياهٌ — بـذاك البَحْـرِ حَيْـثُ سَـرَى الهَـواءُ

الناقورة

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى تلك العقبة الكؤدد، التي على شاطئ البحر حتى أخذنا في الصعود؛ وسمعنا صوتَ الماء والأمواج تهدرُ تحت تلك الصخور، وما تلك الناقورة وذلك النقّار إلا كما يَقْرَأ القارئُ ﴿وَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[99]؛ وفي ذلك نقول على البديهة، حيث لم نجد شبيهه: [من الخفيف]

قَـدْ مَـشَيْنا لِنَحـوِ عَكّـةَ صُـبْحاً — نَقْطَـعُ الـسَّهلَ مِـن مَدينَـةِ صُـور
وَرَأَيْنـــا نُقّـــارَ عَكّـــةَ لَمّـــا — يَهْـدُرُ المـاءُ فيـه تحـت الـصخور
قُلْـتُ للقـومِ ههُنـا هَـوْلُ حَـشْرٍ — نقـر اليـوم منـه في النـاقور

قرية زيب

ثم توجهنا إلى قرية زيب بالزاي، كما هو في القاموس[100]، وذلك مشهور على ألسنة أهل تلك البلاد، لا بالذال المعجمة، ولعله تصحيف من الأصل وعبارة القاموس، هي قوله: وتَزَيَّبَ لَحْمُهُ تَكَتَّلَ وَاجْتَمَع، والزَّيبُ قَرْيةٌ بساحلِ بحرِ الروم). انتهى. فلعلَ اسمَ القرية بفتح الزاي، وسكون الياء التحتيّة، والباء الموحدة، كما رأيته مضبوطاً كذلك في نسخة القاموس بقلم بعض العلماء، واشتقاقه من تَزَيَّبَ لحمُه: اجتمع، لاجتماع الناس فيها. ونُطْقُ أهل البلاد بكسر الزاي، فلهذا قلنا: لعله تصحيف من الأصل. وسميت باسم الذّيب بالذال المعجمة، وإبدال الهمزة ياء تحتية. وفي القاموس الذّئب بالكسر، ويترك همزة: كلب البر. انتهى. وهو اسم الحيوان المعروف لوجوده فيها، أو لكثرة أكل أهلها كأكله، أو لشبه أرضها بلون الذئب، أو لأنّ طبع أهلها الافتراس، أو لغير ذلك.

وقد نزلنا في هذه القرية عند المشايخ الكرام، أولاد الشيخ سعد الدين المشهور

---

(99) - سورة المدثر 8/84.

(100) - انظر القاموس (زيب).

بالولاية والحال التام، في ذلك القطر بين الأنام، فحصل لنا منهم غاية الاعتناق والاحترام، وقد قلنا في ذلك من النظام: [من السريع]

وقَرْيَــةُ الـذِّئْبِ لـدى عَكَّـةٍ	قـدْ جِئْتُهـا وَازْدادَ تَرْحِيـبُ
كَـمْ يُوسُـفٍ فيهـا بُحسْنِ النـدى	لكِـنْ لـه لَـمْ يَأكـلِ الـذِّيبُ

وقلنا كذلك في مثل ذلك: [من السريع]

مِـنْ صُـورٍ قـد قُمْنـا إلى عَكَّـةٍ	وَنَحْـنُ في أنْـواعِ تَرْحيـبِ
وَأهْـلُ ذاكَ القُطْـرِ في فِتْنَـةٍ	وفي جَهـالاتٍ وَتَغْليـبِ
حَتّـى نَزَلْنـا عنـدَ أهْـلِ التُّقـى	مِـن بَيْـتِ سَـعد الـدين في طيـبِ
والسَّـعْدُ وافانـا عَلَـى وَهْلَـةٍ	بكُـلِّ إنعـامٍ وَتَرْغيـبِ
وَلَـمْ نَخَـفْ مِـن أسـدٍ يَعْتَـدي	مـع أنَّنـا في قريـةِ الـذيبِ

اليوم التاسع والأربعون

20/2/1105هـ = 18/11/1693 م

بلدة عكة

فلما أصبحنا في يوم الأربعاء التاسع والأربعين، العشرين من صفر سرنا على بركة الله تعالى في ذلك الطريق السهل، على ساحل البحر المالح الذي لا يصلح للعلْ ولا للنَّهل؛ حتى وصلنا إلى بلدة عكة، وهي بلدة خراب مُنْدَكّة؛ قد تهدَّمت أسوارُها، وانكسر سوارها؛ وانقلعت عين قلعتها، وخفيت بدائع صنعتها؛ ولم يبق منها إلا القليل من البيوت، والأخصاص من العيدان التي ليس لها ثبوت.

وكان افتتحها سابقاً من يد الفرنج السلطان الملك الظاهر بيبرس، وعمر فيها برجاً عظيماً لا يوجد له نظير، وقد اندرس الآن وتنكر رسمه الشهير.

فلما وصلنا إليها، وحللنا لديها؛ نزلنا منها في سرايا شاه وردي، في مكان مستقل نحن وجماعتنا نعيد ما نجده من السرور ونبدي؛ وحصل لنا أنواع الصفاء، وكمال المحبة ما بيننا والوفاء، ولكن تلك البلاد وخيمة المطاعم، ردية الهوى خشنة العيش لا يمكن فيها النعيم ولا الحال الناعم؛ وقلنا في ذلك من النظام، على حسب المقام: [من الخفيف]

عَكَّنا الشَّوْقُ للأحبَّة عَكَّهْ ... حينَ جئْنا إلى مدينة عَكَّهْ

وَرَأَيْنا بها السرورَ وقُلْنا ... عَكَّةُ وازَّيَنتْ لنا لفظ مَكَّهْ

فَعَسى اللهُ أن يجودَ علَيْنا ... بَعْدَ هذا بطيبةٍ وببكَّهْ

ثُمَّ بِتْنا في راحةٍ وقبولٍ ... وصككْنا في هامَةِ الهَمِّ صَكَّهْ

وَعَلَيْنا الغمامُ مَدَّ رُواقاً ... رُبَّما الغَيْثُ كانَ يَفْتَح فَكَّهْ

وإذا الوَقْتُ شَدَّ فاللهُ يُرْخي ... وإذا عَقَدَ المُعْقَدَ فَكَّهْ

واليَقينَ اليَقينَ باللهِ يا مَنْ ... في سلوكِ الطَّريقِ أكْثَرَ شَكَّهْ

وقال الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق[101]: عكا من قوله: عَكَكْتُه أيْ حَبَسْتُهُ. والعَكَّةُ شدَّةُ الحرّ. انتهى.

وفي القاموس[102]: (العكَّةُ - مثلثة - والعَكَكُ - محركة - والعَكيكُ كأمير، وكتاب: شدَّةُ الحرّ مع سكون الريح... وعكَّاءُ ممدودة بلدة) انتهى.

وأصل اسم البلدة ممدود ولكن أُبْدِل الآن من المدّ هاء السكت كما هو المشهور.

اليوم الخمسون

1105/2/21هـ = 1693/11/19م

نبي الله صالح

ثم لما أصبحنا في اليوم الخمسين وهو يوم الخميس الحادي والعشرين من صفر، ذهبنا إلى زيارة نبيّ الله صالح عليه السلام. فدخلنا إلى قراره المعمور، وعليه أنواع الهيبة والوقار والحضور؛ وهو مكان لطيف مأنوس، وعلى القبر قبة مبنية تُطَأْطِئُ من جلالتها الرؤوس. وهناك شجر التين والزيتون، فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى نحن وإخواننا الحاضرون.

وفي زيارات الهروي[103]: (أن مدينة قِنَّسْرين[104] فيها مقام صالح النبي عليه السلام،

---

(101) - انظر تاريخ مدينة دمشق 30/1 ومختصره لابن منظور 49/1.

(102) - انظر القاموس (عكك).

(103) - انظر زيارات الهروي 7.

(104) - قِنَّسْرين: قال ياقوت: (وهي كورة بالشام منها حلب، وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة

ويقال إن الناقة منه خرجت لصالح عليه السلام، وبه آثار أقدام البعير، والصحيح أن صالحاً عليه السلام كان بأرض اليمن وقبره في شَبْوَة[105] باليمن. وقيل إنه كان بالحِجْر ما بين وادي القرى والشام. وقبره بمكة. انتهى.

وفي كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي[106] قال في عكا: (ويقال إن قبر صالح عليه السلام في قبلة الجامع). والصحيح أن قبر صالح عليه السلام ما ذكرناه أولاً والله أعلم، يعني أنه بأرض اليمن، وقيل إن صالحاً بمكة، ويقولون إن في عكا قبرَ عكّ الذي نسبت إليه عكا. ويزعمون أن عكّ نبي. ودخل عكا خلق كثير، واستشهدوا في الوقائع والحروب المشهورة.

عين البقر

قال: وفي مدينة عكا عين البقر، ذكروا أن البقر خرج منه لآدم عليه السلام، يحرث عليها، وعلى هذه العين مشهد ينسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أن الفرنج عملت كنيسة، وقعد فيها قسٌ لعمارتها وخدمتها، فلما أصبح قال: رأيت شخصاً يقول لي أنا علي بن أبي طالب، قال لهم أن يعيدوا هذا الموضع مسجداً، وإلا مَنْ أقام به يهلكْ. فأخبرهم فلم يقبلوا كلامه، وأقاموا غيره، فلما أصبح وجدوه ميتاً، فتركه الإفرنج مسجداً إلى الآن، والله أعلم.

وقال ياقوت في المشترك[107]: (عَيْنُ البقر ماء قُرْبَ عَكة بالساحل، ويُتَبَرَّكُ بها) انتهى.

وقد ذهبنا إلى هذه العين، وهي عين لطيفة، فيها ماء، له نوع عذوبة، يشرب منه لأجل البركة كما ذكروا لنا أنها تُقْصَد للزيارة والتبرك.

قبر الشيخ مبارك

ثم زرنا في مقبرة تلك البلدة قبر الشيخ مبارك في داخل قبة عظيمة، وهناك قبور كثيرة لأهل الدين والصلاح. فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

حمص، بقرب العواصم) معجم البلدان

[105] - شَبْوَة: بلد من اليمن على الجادة من حضرموت إلى مكة ياقوت معجم البلدان

[106] - في صبح الأعشى 152/4 (وبها - اي عكا - مسجد ينسب لصالح عليه السلام).

[107] - انظر المشترك وضعاً 61 - 62.

قرية شفا عمرو

ثم ركبنا إلى أن وصلنا إلى قرية شفا عمرو، وهي قرية كبيرة معمورة، بالخيرات مغمورة؛ وفي ذلك نقول، ونحن في أهبة النزول: [من الطويل]

شَفَا اللهُ عُمْري في نُزولِ شَفَا عَمْرِو	وَما أنا مَعَ زَيْدٍ هُناكَ ولاَ عَمرِو
وَلكنْ مَعَ الرَّبِّ الذي قد حَمَى الحِمَى	بما شاءَهُ من مُرْهَفاتٍ وَمِنْ سُمْرِ
مَشَيْنا وَلِلْغَيْمِ اللَّطيفِ سَتائرٌ	تُمَدُّ عَلَينا كَالجُلودِ مِنَ النَّمرِ
وجئنا وَعَيْنُ اللهِ حافظَةٌ لَنا	هُناكَ بِلا نَهْيٍ لَدَيْنا ولا أمْرِ
تَؤُمُّ بِلادَ القُدْسِ والحَرَمِ الَّذي	محاسِنُه تغذي والطافُه تَمْري
وَنَرْجو مِنَ اللهِ العنايَةَ بالهُدَى	لِقَبْرِ خليلِ اللهِ ذي النّائِلِ الغَمْرِ
ومِن بَعْدِهِ نَرْجو زِيارةَ أحْمَدٍ	نَبيٍّ لِلهُدَى واقي البَرايا مِنَ الجَمْرِ
عَلَيْهِ صَلاةُ اللهِ بعدَ الخليلِ ما	سَقَى الريحُ للأغصانِ كاساً مِنَ الخَمْرِ
فمالَتْ بِهِ سُكْراً وَغَنَّتْ حَمامَةٌ	على الدَّوْحِ والشَّحرورُ يَصْرَخُ بالزَّمْرِ

واجتمعنا تلك الليلة برجل من الأجناد في زي الدالتية[108]، مع جماعة منهم يحافظون في القرية المذكورة، فإذا هو من العلماء، الصالحين، له كلام نافع، ونصائح إيمانية، وإشارات إلهية؛ ففرحنا به، وجرى بيننا وبينه مسامرات علمية، ومذاكرات توحيدية؛ باللغة العربية.

اليوم الحادي والخمسون

22/ 2/ 1105هـ = 2/11/1693م

حتى أصبحنا في يوم الجمعة الحادي والخمسين، وهو اليوم الثاني والعشرين من صفر، سرنا على بركة الله تعالى نحن والإخوان، نَتَنَقَّلُ من مكان إلى مكان.

صَفّوريا

حتى وصلنا قُبَيْل الظهر إلى قرية صفُّوريا[109]، من قرى بلاد صَفَد، وبها تم سيرنا

---

(108) - الدالتية، والدالاتية او الدلاة: طائفة من الجند انظر حوادث دمشق اليومية 19هـ 2

(109) - قال ياقوت: (صَفُّورِيَة: بفتح اوله وتشديد ثانيه، واو، وراء مهملة، ثم ياء مخففة: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي بقرب طبرية)

من جهة تلك الغابة ونَفَد؛ فنزلنا بها على سادة كرام، فأضافونا بما تيسير لنا من الزاد مع الإعزاز والإكرام؛ وفي ذلك نقول: [من السريع]

صَفَقْتُ إخْلاصاً بحَرْبِ الهَوَى ... وَعَمنْكَر العُذّالِ صَفْوَاريا

[88/ب] وحينَ هاجَ الشَّوْقُ بي في الفَلاَ ... جئتُ شَفَا عمرٍو وصَفُوريا

سؤال في الوديعة

وقد سألونا سؤالاً، وقع لهم، وكتبوه لنا، وطلبوا منا أن نكتب لهم فيه وصورته:

ما قول شيخ الإسلام، عفَا عنْه الملكُ العلام في رجل أودع عند رجل في قرية مالاً، فادّعى المودَع[115] بأن قريته نُهبت، وذهبت تلك الوديعة مع الذي نهب، وكان ذلك النهب معروفاً مشهوراً عند أهل تلك القرى، فهل يقبل قوله في تلفها، ويصدق من غير إقامة بينة في تلفها أم لا؟ افتونا مأجورين.

فكتبنا لهم الجواب هكذا: الحمدُ لله، نعم يقبل قوله في تلفها ويُصَدَّقُ في ذلك من غير إقامة بينة لأنه أمين، وإن شك في قوله يلزمه اليمين على التلف، والله أعلم. كتبه الفقير عبد الغني بن النابلسي الشامي.

مشهد النبي يونس

ثم سرنا في بركة الله تعالى، فمررنا على قرية اسمها مشهد النبي يونس، وإنما سميت بذلك لأن بها قبر نبي الله يونس، عليه السلام، على ما يقال، وله تابوت من الخشب. فوقفنا، وقرأنا الفاتحة أمَّ الكتاب، وَدَعَوْنا الله تعالى بما تيسر من الدعاء الذي هو إن شاء الله تعالى مستجاب، بغير ارتياب؛ وفي قبر يونس عليه السلام تردد في أماكن وعلى كلّ حال فالمكان المنسوب محسوب، والاحترام لأهله أمر مطلوب، وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى شيء تميزت به القلوب.

الناصرة

ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى قرية الناصرة، وهي قرية حولها الجبال وهي في الوسط كنقطة الدائرة؛ وإليها تنسب طائفة النصارى من أهل الكتاب.

---

(115) - يقصد المودَع عنده المال

قال الشيخ شهاب الدين القرافي[111] في كتابه (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة). بعد ذكره الأناجيل الأربعة، والإنجيل الخامس ينسب لبطرس عن مريم عليها السلام، ويذكر فيه قدوم المسيح وأمه، عليهما السلام، ويوسف النجار إلى صعيد مصر، ثم عودته إلى ناصرة قرية عند بيت المقدس، وإليها تنسب النصارى. انتهى.

وقال القلقشندي في (صبح الأعشى في كتابة الإنشا)[112]: الناصرة مدينة بها دار مريم ابنة عمران ومنها كانت النصارى انتهى.

ورأينا هناك في جبل عال مقام الأربعين، فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى بما تيسر من الدعاء. ثم نزلنا في تلك القرية، فاحتفل بنا أهلها، وحصل لنا عندهم كمال المسرّة، [89/ أ] حتى ألقى المسافر عَصَا تسياره وعرف مقرّه، فحدث أمرٌ بكبيرهم، واختبط حال صغيرهم؛ إلى أن نصر الله تعالى الكبير، ورحم الصغير؛ وقد قلنا في ذلك الحين، من لطائف التلاحين: [من السريع]

لَمـا نَزَلْنـا قريـةَ النَّاصِـرَة	للحـقّ كنّـا الفرقـةَ النَّاصـرَةْ
وَقَـدْ تَفَاءَلْنـا بنَـصْرٍ لنـا	في هـذه الـدُّنيا وفي الآخِـرَةْ
وَعَمّنـا اللهُ بمـا نَرْتَجـي	وخَـصّنا بالحالـةِ الفـاخِرَةْ
وقَـدْ نَزَلْناهـا علَـى وَهْلَـةٍ	مـن جَبَـلٍ عـالٍ إلى الـدّائرةْ
سَـفْحٌ لَطيـفٌ لبيـوتٍ بهـا	وَسْـطَ جبـالٍ أرْبـعٍ ناشِـرَةْ
حَتّـى تَرَكْناهـا لِظُلْـمٍ بهـا	مِـنْ عُـصْبَةٍ طاغيَـةٍ فـاجِرَةْ
فـاللهُ يَحْمينـا وَيَحْمـي الـوَرَى	مِـنْهم ومـن أمثـالِهم داهِـرَةْ

قرية إكسال

ثم قمنا في الحال، وصممنا على الترحال، وسرنا على بركة الله تعالى المتعال، إلى

---

[111] - هو احمد بن إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يلين، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي المصري القرافي من علماء المالكية عدّ له ابن فرحون واحداً وعشرين كتاباً منها كتاب الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على أهل الكتاب توفي بالقاهرة سنة 684هـ وكان كثيراً ما يتمثل بقول محيي الدين المعروف بحاجب رأسه: [من الطويل]

عتبت على الدنيا لتقديم جاهل	وتأخير ذي علم فقالت خذ العذرا
بنو الجهل أبنائي وكل فضيلة	فأبناؤها أبناء ضرتي الأخرى

وانظر الديباج المذهب 62 ـ 67، والأعلام 90/1، ومعجم المؤلفين 158/1.

[112] - صبح الأعشى 150/4 . 151 بخلاف في الرواية

جهة قرية إكْسال[113]، فكان طريقنا إليها من درب المشاة والأزلام، ونحن راكبون على الخيل ومعنا بعض مشاة على الأقدام، وحصل منا بالمشي غاية الإقدام؛ وتعبنا بين تلك الجبال، وخلال هاتيك الصخور المحدودبة والتلال، إلى أن وصلنا قبيل المغرب إلى قرية إكسال، بهمزة مكسورة وكاف وسين مهملة ولام، فبتنا بجامعها، وقد حصل لنا من أهلها غاية الإكرام، وفي ذلك نقول من النظام: [من الطويل]

أتَيْنا بِعَوْنِ اللهِ نَمْشي عَشِيَّةً ... على دَرْبِ أزْلامٍ لِقَرْيَةِ إكْسالِ
وبِتْنا بها في جامِعٍ جامِعٍ لنا ... ففزنا بإكسالٍ بلا ثَوْبِ إكْسالِ

اليوم الثاني والخمسون

1105/2/23هـ = 1693/11/21م

مرج بني عامر

فلما أصبحنا في يوم السبت الثاني والخمسين، وهو اليوم الثالث والعشرين من صفر سرنا على بركة الله تعالى، نحن والإخوان، وبالله المستعان؛ حتى مررنا في ذلك السهل الفامر؛ الذي هو بالخضرة عامر، في مرج بني عامر.

قرية جلَمة

فوصلنا قبيل الظهر إلى قرية جلَمة - بالجيم، وفتح اللام - بالقرب من بلدة جنين، فنزلنا هناك، وأكلنا ما تيسّر من الزاد، وأنعم الله تعالى علينا وزاد.

ثم ركبنا ومررنا من خلف بلدة جنين بالقرب منها، ولم ندخل إليها، لعلمنا بأنْ الطريق مقطوع منها إلى بلاد نابلس، فقرأنا الفاتحة لمن سكن بها من الأولياء والصالحين، ثم مضينا في ذلك الحين، فلم نزل سائرين.

قرية يَعْبَد

إلى أن وصلنا إلى قرية يَعْبَد - بفتح الياء التحتية، وسكون العين المهملة، وفتح الباء الموحدة، وبالدال المهملة - ويقال إن أصلها (معبد) بالميم لأنها كانت معبداً عبد الله تعالى

---

(113) - قال ياقوت: (اكْسَال: السين مهملة، قرية من قرى الأردن، بينها وبين طبرية خمسة فراسخ من جهة الرملة ونهر ابن فُطْرُس لها ذكر في بعض الأخبار، كانت بها وقعة مشهورة بين اصحاب سيف الدولة بن حمدان وكافور الأخشيدي فقُتل اصحاب سيف الدولة كل مقتلة).

فيها خليلُ الله إبراهيم عليه السلام، نحو أربعين سنة، كما أخبرنا بذلك. فنزلنا بها في زاوية أخينا وحبيبنا الشيخ الصالح مصلح اليعبداوي، نسبةً إلى القرية المذكورة، واجتمعنا به هناك، وكان مريضاً له أيام لم يخرج من بيته في القرية المذكورة، فلما دخلنا عليه فرح بنا وحصل له غاية السرور، وقام وذهب معنا إلى زاويته وبتنا معه فيها، وزرنا جده الشيخ نصر الله القادري المدفون في تلك الزاوية ولم نزل في مسامرات إلاهية، وإشارات ربانية.

اليوم الثالث والخمسون

1105/2/24 هـ = 1693/11/22 م

قبة محمد الغازي

حتى أصبحنا يوم الأحد الثالث والخمسين وهو اليوم الرابع والعشرون من صفر، فذهبنا وزرنا الشيخ محمد الغازي، وعليه قبة مبنية، وعمارة سنية.

غابة الخَطَّاف

وهناك غابة واسعة كبيرة، مسيرة يومين، يقال لها غابة الخطاف، يقال إنها مسكن الأولياء والصالحين، وفيها مغارة عظيمة، ذكر لنا أن فيها الشيخ محمداً شيخ تلك الغابة، وحوله الأولياء والصالحون، وذُكر لنا أنه ما من مجذوب يُجذب في تلك الأراضي إلا ولا بد من أن يأتي إلى تلك الغابة، ويزور هذه المغارة والرجال الكائنين بها، وهذه المغارة لا تظهر لكل أحد، وإنما تظهر لأهل الأحوال والكشف والقلب المستنير، فقرأنا هناك الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

ثم ذهبنا فدخلنا إلى مغارة الشيخ زايد المجذوب، وهو من السودان المجاذيب، أصحاب الأحوال، فرأيناه جالساً فيها وهو عريان وحوله النار موقدة لا تنطفئ في غالب الأوقات، وعنده الإبريق للقهوة والفناجين، وكل مَنْ دخل عليه لا بدّ أن يسقيه القهوة، وكل شيء يجعله على الطَّاجن[114] في النار، ويدقّه ويجعله قهوة فيصير قهوة. فشربنا من قهوته، نحن وجماعتنا، حتى كان معنا خادم يمسك فرسنا خارج المغارة، فقال: يدخل فلان يشرب القهوة، وذكر اسمه، فأمرناه فدخل، وقبل يده وشرب من قهوته.

وله كشوفات وكرامات، يعتقده الناس في ذلك القطر، ويزورونه وذكر لنا أنه جلس

---

[114] - الطاجن . معرب . وهو المِقْلَى، وتفتح الجيم وقد تكسر والجمع طواجن المصباح المنير (طجن)

عند تلك المغارة قبل أن ينكشف بابها على وجه الأرض نحو سنتين، وهو يقول: هنا سرايا كبيرة مرادي افتحها، ثم فتح طاقة صغيرة، ولازال يكبّرها حتى فتح لها باباً ودخل، وهي مشتملةً على خمسة عشر خلوة صغيرة فجلسنا عنده في هذه المغارة، وتبركنا به، ثم قرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

ثم خرجنا فودّعنا أخانا الشيخ مصلح، وقلنا في ذلك الشأن مقابلة للإحسان بالإحسان: [من الخفيف]:

قد أتَيْنا ليَعْبد بسرور	وَنَزَلْنا فيها عَلَى الشّيْخ مُصْلحْ
فَعَسى اللّهُ أن يجودَ بلُطْفٍ	لأهالي تلك البلادِ ويصلحْ

قرية عرابة

ثم سرنا على بركة الله تعالى حتى وصلنا إلى قرية عَرّابَة[115] - بفتح العين المهملة، وتشديد الراء المهملة، والباء الموحدة، والهاء - وكان أهلها في حروب وفتن ومحاصرة مع حاكم القدس.

لقاء الشيخ صالح

فخرج إلى لقائنا المجذوب الصالح، الشيخ صالح؛ ومعه طبل يدقُّ به، وعليه ثياب رَثّةُ، وأكياس معلقة، وهو يحمل السلاح، وله حال عظيم، ويلقب نفسه بوكيل الزردخانة[116]، ويعتقده أهل تلك البلاد. فنزلنا في تلك القرية، فأكرمنا أهلها غاية الإكرام، مع ما هم فيه من المحاصرة والضيق ومحاربة الظلمة من الحكام؛ وأخبرونا بما فعلوه معهم لأجل أخذ الأموال منهم من مقاتلتهم، ورميهم بالرصاص، وتخريب بيوتهم، فهم قائمون بالدفع عن أنفسهم، وعن حريمهم، رجاء الخلاص، ولات حين مناص.

أبو جوهر مرجان

واجتمعنا هناك بالشيخ مرجان، وهو أبو جوهر، رجل مجذوب من السودان، له إخبار بالمغيبات، وغالب أوقاته مصطلم، يعتقده أهل تلك البلاد.

---

(115) - قال ياقوت: (عَرّابة . بفتح أوله، وتشديد ثانيه: عرابة طِبْي: من أعمال عكا بالساحل الشامي).

(116) - الزردخانة: المكان الذي يحفظ فيه السلاح، أو السلاح نفسه حوادث دمشق اليومية 60/هـ

مزار نبي الله إعرابيل

وزرنا في هذه القرية مزار نبي الله إعرابيل - باللام، وبعضهم يجعلها بالنون، أحد أنبياء بني إسرائيل، عليهم السلام، وعليه قبة مبنية على جادة الطريق.

وبتنا في هذه القرية، وأهله يؤذنون للصلوات الخمس، ويقيمون الصلاة، وهم من خير فريق، وكنت أصلي بهم إماماً، وأدعو لهم الله تعالى بالنصر على الظالمين، وكف من يريد بهم انتقاماً، حتى استجاب الله تعالى دعاءنا بالنصر على الظالمين، وكف من يريد بهم انتقاماً، حتى استجاب الله تعالى دعاءنا ونصرهم بعد مدة من الزمان، والله ولي الإنعام والإحسان؛ ولنا من النظام، في هذا المقام: [من الخفيف]

قد نَزَلْنا بالسَّفْحِ من عرَابَةْ ... واللَّيالي لَحانَةٌ عَرَابَةْ

وَرَأَيْنا مكاحِلَ الرَّمْي فيها ... بَيْنَ قَوْمٍ كأَنَّهُمْ أُسْدُ غابَةْ

يَتَّقُونَ العِدا وَيَحْمُونَ أَهْلاً ... وَنُفوساً لَهُمْ بغَيْرِ إعابَةْ

أَصْلَحَ اللهُ حالَهُمْ وَحَماهُمْ ... مِنْ أَعادٍ لَهُمْ وَأَبْدى الإجابَةْ

وَأَزالَ الإلهُ باللُّطْفِ عَنْهُمْ ... فِتْنَةً تُعْدِمُ المُنيبَ ثَوابَهْ

وَحَبا المُسلمينَ رَبِّي جَميعاً ... كُلَّ خَيْرٍ وَخَصَّهُمْ بالإنابَةْ

وكَفاهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَأَخْفَى ... بَيْنَهُم كُلَّ مِحْنَةٍ وكَآبَةْ

إنَّ دِينَ الإسْلامِ دِينٌ عَظيمٌ ... أَهْلُهُ أَهْلُ نَجْدَةٍ وَمَهابَةْ

لكِنِ البَأْسُ بَيْنَهُمْ ذو اشْتِدادٍ ... حُكْمُ رب أَهْدى إليهم كتابَهْ

وَمَآلُ الجَميعِ مِنْ كُلِّ حِزْبٍ ... لاجْتِماعٍ بعد افْتِراقٍ أَصابَهْ

والَّذي جاءَ مِن قريبٍ لَهُ مِنْ ... ثِقَلِ الذَّنْبِ يَفْتَحِ اللهُ بابَهْ

اليوم الرابع والخمسون

25/2/1105هـ = 23/11/1693م

فلما أصبحنا في يوم الإثنين الرابع والخمسين، وهو اليوم الخامس والعشرون من صفر، سرنا على بركة الله تعالى في تلك الجبال الشامخات، والأودية المحدودبات.

قرية بُرْقَة

إلى أن وصلنا قريبَ الظهرِ إلى قرية بُرْقَة - بضم الباء الموحدة، وسكون الراء، وفتح القاف، وبالهاء. فوجدنا القوم المحاصرين لأهل تلك القرية الظالمين لهم نازلين هناك مجتمعين محاربين لمن يقابلهم منهم، فوقف لنا بعضهم في الطريق، وتعجبوا من قدومنا عليهم من ذلك الجانب، ودعونا إلى النزول عندهم، وسألونا فذكرنا لهم حسن حال هاتيك الجماعة، وأن مقاتلتهم ليست طاعة فذموهم، وذكروا لهم قبائح، الله أعلم بها، ثم أضافونا، ورحبوا بنا، فأكلنا عندهم ما تيسر لنا من الزاد، على حسب ما شاء الله تعالى وأراد.

وصلينا الظهر عندهم بالجماعة، واقتدوا بنا في تلك الساعة.

قرية سَبَسْطِية

ثم سرنا عنهم، وتوجهنا إلى قرية سَبَسْطِية - بفتح السين المهملة، وفتح الباء الموحدة، وسكون السين المهملة الثانية، وكسر الطاء المهملة، وياء تحتية خفيفة، قاله ياقوت في المشترك[117]، ثم قال: هي بلدة من نواحي فلسطين، قرب نابلس، بينها وبين بيت المقدس يومان، بها قبر زكريا وابنه يحيى، وغيرهما من الأنبياء والصِّدِّيقين، عليهم الصلاة والسلام. انتهى.

فنزلنا عند ذلك الجامع الذي يشعر أنه كان كنيسة في أول الزمان، ثم تبدلت ظلمته بالنور اللامع، ثم زرنا هناك نبيَّ الله يحيى ووالده زكريا، عليهما السلام في مغارة عظيمة، ذات هيبة وجلالة مقيمة؛ ينزل إليها بدرج في الحجر، وكأنما نور الصباح من هناك انفجر؛ فنزلنا إلى تلك المغارة، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى، ثم خرجنا من ذلك المكان.

وادي الزيتون

وتوجهنا على بَركة الله تعالى، نحن والإخوان، حتى مررنا على وادي الزيتون، بالقرب من نابلس المحروسة بين عيون الماء الذي هو كماء العيون، فقلنا من النظام، على حسب ما اقتضاه المقام: [من الطويل]

---

(117) - المشترك 240، وانظر معجم البلدان (سبسطية).

سَقَى اللّهُ وادي نابُلُوسَ وَمَا حَوَى ... مِن الخَيْرِ والإنسان يُدْرِكُ ما نَوَى

سَرَيْنا وأيّامُ السُّرورِ قَصيرةٌ ... إليْها على خَيْلِ المَودَّةِ والهَوَى

وَما جَبَلاها العاليانِ كلاهُما ... سِوَى جانِبَيْ سُورٍ تَوَسَّعَ فانْطَوَى

يَظلُّ النسيمُ الرَّطْبُ بَيْنَ رياضِها ... يَجُولُ عَلَى تلك الجوانبِ واللّوى

وَلِلْماءِ في تلكَ الجَداولِ رَنَّةٌ ... وَغَنَّتْ طُيورُ الدَّوْحِ بالشَّوْقِ والجَوَى

يُذَكِّرنا عَهْداً تَقَضّى بجِيرَةٍ ... هُناكَ لَنا جارَتْ علينا به النَّوَى

وأوْقاتُ أنسٍ طابَ بالقَوْمِ ذِكْرُها ... فَهَاجَ بقَلْبي حُبُّهُمْ بَعْدَ ما ثَوَى

فَقَلْقَلَتُ بالسَّيْرِ الرِّكابَ لأرْضِهِمْ ... وَأذْهَبَتُ منّي ما تَبَقّى مِن القُوَى

عَسَى وَلَعَلَّ اللّهَ يَسْمَحُ بالمُنَى ... وَمَنْ قَدْ أتَى بالداءِ يَعْطِفُ بالدوا

وَيَرْتَجِعُ الماضي مِنَ العَهْدِ بَيْنَنا ... وَيُورِقُ مِن غُصْنِ المَوَدَّةِ ما ذَوَى

هُنالكَ يَهْنَى العَيْشُ والهَمّ يَنْقَضي ... وَلَيْسَتْ دَواعي الحُبِّ في أهْلِها سَوَا

نابلُس

ثم لم نزل سائرين وعلى تلك المهمة متوجهين، إلى أن وصلنا بعد العصر إلى بلدة نابلس[118] المحروسة، حماها الله تعالى من النحوسة، فنزلنا في مكان هناك ربوعه مأنوسة، وإن كانت من تمام البنيان مدروسة. ودعانا إلى ضيافته في تلك الليلة الشيخ العالم الذي تشرق بفضائله المعالم عبد الحافظ المفتي بتلك الديار، فحصل لنا به كمال المسرة والاستبشار.

اليوم الخامس والخمسون

1105/2/26هـ = 1693/11/24م

زوار من أهل نابلس

ثم عدنا إلى مكاننا وبتنا فيه على أكمل الهنا، وأتمّ الراحة وحصول المنى، إلى أن أصبح صباح يوم الثلاثاء الخامس والخمسين، وهو اليوم السادس والعشرون من صفر.

---

(118) - انظر معجم البلدان (نابلس).

حضر عندنا أهل تلك البلاد، من السادة الأكارم الأمجاد؛ منهم: الشيخ عبد الحافظ المفتي المذكور، وولده الشيخ مصطفى والفاضل الكامل الشيخ أحمد المعروف بابن الحارثية، والشيخ أمين الدين الملقب عصفور، والحسيب والنسيب السيد مصطفى نقيب الأشراف، والسيد عبد العال الصمادي، وقاضي تلك البلدة وغيرهم وجرى في ذلك المجلس بيننا أبحاث علمية، ومسائل فقهية، وإشارات إلهية.

نسب وشعر

وقد أتحفنا في ذلك اليوم بكتاب نسبه الشريف السيد محمد ابن السيد مصطفى، من طائفة قاسم الشريف، شاويش السادة الأشراف بمدينة نابلس، وطلب منا الكتابة عليه فكتبنا عليه هذه الأبيات على البديهة مواجهة لطلعة هذه النسبة الوجيهة: [من الخفيف]

نَسَبٌ جَلَّ فَهْوَ فينا جَليلُ ... وَعَلَيْهِ من البها إكْليلُ
حَسَدَتْهُ النُجومُ فانْخَفَضَتْ عَنْ ... رِفعَةٍ فيه إذْ سَناها قليلُ
كَيْفَ وَهْوَ الذي بخير البَرايا ... ذو اتصّالٍ به الإلهُ كَفيلُ
نُورُه في الوُجودِ يُشْرِقُ حَتّى ... تَحْسَبُ النّاسُ أنَّه قِنْديلُ
وَإلَيْهِ الثّناءُ بالخَيْرِ هادٍ ... وَعَلَيْهِ فضْلُ الصلاحِ دَليلُ
أَعْظَمَ اللهُ قَدْرَهُ في البرايا ... كُلَّ حينٍ وزانَهُ التكْميلُ
وَحَبا أهْلَهُ بكلِّ فَخارٍ ... حَيْثُ فيه لنا أتى التّنْزيلُ
وَبِه العبدُ للْغَنيِّ تَسامَى ... شَرَفاً حينَ جاءَهُ منْهُ قيلُ
وَقُراهُ وَمَسّهُ فَهْوَ حَقٌّ ... وَعَلَيْهِ الإلهُ نِعْمَ الوكيلُ
حَفِظَ اللهُ مَن تَضَمَّنَ منه ... نِسْبَةً في إجْمالها التَفْصيلُ
أمَدَ الدَّهْرِ ما تبَدّى صَباحٌ ... وَتَوَلّى لَيْلٌ وَجَدٌّ أصيلُ

ثم دعانا إلى ضيافته صديقنا الفاضل الشيخ أحمد بن الحارثية المذكور، فذهبنا إلى داره مع جماعتنا، وجملة من أفضل البلد وبعض مَنْ جواره، وحصل لنا بالجماعة كمال السرور، وتمام الانبساط والحضور، ثم عدنا إلى منزلنا وبتنا في أمان وعافية إلى انبلاج الصباح وظهور النور.

اليوم السادس والخمسون

1105/2/27هـ = 1693/11/25م

فلما طلع النهار يوم الأربعاء السادس والخمسين، وهو اليوم السابع والعشرون من صفر، حضر عندنا مع مَنْ حضر الحسيب النسيب السيد حسين ابن المرحوم الكامل الفاضل السيد أحمد الحنبلي نقيب السادة الأشراف بهاتيك البلاد سابقاً، وعرض علينا إجازته المرضية، في طريق السادة الشاذلية، وطلب منا الكتابة على ذلك، فكتبنا عليها هذه الأبيات بمعونة القدير [92/أ] المالك: بسم الله، عُدَّةٌ للقاءِ الله: [من البسيط]

إنَّ الطَّريقَ طَريقَ اللهِ مَعْمورُ	وسِرُّهُ واضِحٌ في النَّاسِ مَشْهورُ
والشَّاذليَّةُ أقْوامٌ لَهُمْ شَرَفٌ	وَوَقْتُهم بمزايا قُرْبِهم نُورُ
وَبالإجازَةِ يَسْمو في طَريقَتِهمْ	مَنْ قَدْ أُجيزَ عَلَيْه بالتُّقى سُورُ
وَقَدْ رَأى مجدَهُمْ عَبْدُ الغَني وَقَدْ	أعْلَى لَه اللهُ قَدْراً فَهْوَ مَسْرورُ
عَلى مَشايخِهِم رِضْوانُ خالقِنا	في كُلِّ يَوْمٍ إلى أنْ يُنْفَخَ الصُّورُ

رجال العمود

ثم ذهبنا مع الإخوان، إلى جهة من جهات البلد ذات بهجة وافرة، وخيرات حسان، وزرنا مكاناً يقال لمن فيه رجال العمود، وعليه مهابة وجلالةٌ وآثار جود.

مُصَلَّى آدم

وزرنا مكاناً آخر، يقال إنه مُصَلَّى آدم، عليه السلام، وجلسنا هناك حصة من الزمان مع المذاكرة العلمية والمفاكرة الأدبية.

دعوتان

ثم دعانا إلى ضيافته صديقنا السيد حَسَن ابن المرحوم الشيخ الإمام، والحبر الهمام؛ أبي بكر. صاحب التصانيف الأنيقة، والكتب الرشيقة؛ منها: شرح الجامع الصغير للأسْيوطي في فن الحديث، ومنها شرح ألفية ابن مالك في علم العربية.

ثم عدنا إلى مكاننا، وذهبنا بعد أداء صلاة العصر إلى ضيافة حبيبنا الحسيب

النسيب السيد أمين الدين، وقد حضر فيها العلماء والصلحاء، وأهل الكمال من الأفاضل والأصائل في تلك البلاد ثم عدنا إلى مكاننا المعتاد.

شعر في الدخان

وقد حضر عندنا في تلك الليلة السيد حسن المذكور، ونحن في أتم الانبساط والسرور قد أنشده السيد حسن من لفظة للمولى الهمام سنان أفندي الملقب الطي برمق المفتي سابقاً بالديار الرومية قوله في شرب الدخان. وإن كان فيه مجازفة بهذا الشأن: [من الوافر]

جَهُولٌ مُنْكِرُ الدُخَانِ أَحْمَقْ ... عَديمُ الذَّوْقِ بالحَيَوانِ مُلْحَقْ

مَليحٌ ما بِهِ شَيءٌ حَرامٌ ... وَمَنْ أَبدى الخِلافَ فَقَدْ تَزَنْدقْ

ألا يا أيُّها الصُوفيُّ مَيْلاً ... إلى الدُخَانِ عَلَّكَ أنْ تُوَفَّقْ

وَلَوْ لا أنْ في الدُخَانِ سِراً ... لَما فاحَتْ رَوائحُهُ وَعَبْقْ

فَفي الدُخَانِ سِرُ اللهِ يَبْدو ... وَشاهِدُه المُحَقَّقُ الطي بَرْمَقْ

اليوم السابع والخمسون

1105/2/28هـ = 1693/11/26م

فلما أصبحنا في اليوم السابع والخمسين، يوم الخميس، هو الثامن والعشرون من صفر، ذهبنا إلى الحمام، وحصل لنا فيه كمال التنعيم والإنعام، وعدنا إلى مكاننا مع جملة من السادة الكرام، فعرض علينا صديقنا الشيخ أمين الدين عصفور المتقدم ذكره في أثناء هذه السطور، بعد أن ذكرنا أنه من ذرية الشيخ الكبير، والعارف المحقق الشهير؛ أبي يزيد البسطامي، قدس الله روحه، وقضيتّه الثابتة في يديه بتقارير قضاة الإسلام. ومن الأحكام مفوضة إليه. وطلب منا الكتابة على ذلك، أسوة بمن كتب قبلنا، وتبركاً بما هنالك؛ فكتبنا قولنا في هذا المقام، من النظام: [من البسيط]

وَقْفٌ صَحيحٌ لَه قَدْ صَحَّ تَحْرِيرُ ... وأصْلُه شَهِدَتْ فيهِ النَّحاريرُ

وَعَنْه قَدْ أسفَرَ الحَقُّ المُبين وَقَدْ ... بَدا لِصُبْحِ الهُدَى لَمْعٌ وتَنْويرُ

وَنِسْبَةٌ لإمامِ العارِفين وَمَنْ ... عَنِ القُلوبِ بِه تُمْحَى التَصاويرُ

أبـو يَزِيـدِ الـذي بـسطامُ نـسْبَتُه ... وَمَـنْ لَـهُ في كراسـي القُـرْب تَـصْدِيرُ

رَأَيْتُ ذا الطِّرسَ والأفكار فيه سَرَتْ ... في روضـةٍ منـه حَفَّتْهـا الأزاهـيرُ

وَفَـوْقَ أغْـصانه غَنَّـتْ حَمائِمُـهُ ... وَغَـرَّدَتْ فيـه بالـصبْحِ العَـصافيرُ

وَقَـدْ تَبَرَّكْـتُ لَمـا أَنْ وَضَـعْتُ يَـدي ... عَلَيْـه وانْـسَحَبَتْ فيـه التَّقـاريرُ

لا زالَ في الخَيْـرِ أقْـوامٌ بـه عُرِفَـتْ ... حَتَّـى لهـم في البرايـا منـه تَـشْهيرُ

مـا قـامَ عَبْـدُ الغَـني يُثْنـى بألفَتـه ... لَهُـمْ عَلَيْـه ولا يُثْنيـه تـأْخيرُ

وما شَدَا بُلْبلٌ في الـرُّوضِ وانْطَرَبَتْ ... فيـه العـصافيرُ غَنَّتْهـا النَّـواعيرُ

وكتب على ذلك أيضاً، بإجازتنا، وطلب من المذكور، صاحبنا الفاضل الشيخ محمد المعروف بابن الدكدكجي[119] قوله: [من الرجز]

وَقْفيَّـةٌ صَـحيحَةُ المَعـاني ... مُتْقَنَـةُ الأرْكـانِ والمَبـاني

لهـا اتِّـصالٌ واضِـحٌ مُـشْتَهَرْ ... قَـدْ جَـلَّ عَـنْ عَيْـبٍ وَعَـنْ نُقْـصانِ

لِنَسْلِ قُطْـبِ الأولياء مَـنْ هُـوَ الـ ... ـلَيْثُ الهُمـامُ كامـلُ العِرْفـانِ

أبـي يَزيـد في الهُـدَى إمامُنـا الـ ... بُـسْطامي ذي الـسِّرِ مَـعَ البُرْهـانِ

فـإنَّهُمْ سُـلالَةٌ طـاهِرَةٌ ... بنـابُلُوسَ أشْـرَفِ البُلْـدانِ

لازالَ سِـرُّ الله فـيهم ظـاهراً ... مُنْتَـشِراً عِنْـدَ القَـصي وَالـداني

مـا غَـرَّدَ العُـصْفور في الرُّبـا وَمـا ... غَنَّـتْ حَمامـاتٌ عَلَـى الأغْـصانِ

شعر في مغنٍّ

وكان يجالسنا هناك شابٌ حسنُ الصوت، بكاءٌ يستوقف به بنو الهر من الفوت؛ فعرض علينا مجموعاً له، كتب فيه طرفاً من كلامنا، وأشياء كثيرة من القصائد والأشعار الظاهرة على لساننا، وكان مُلَقَّباً بالعسلي، فكتبنا له في مجموعه ذلك، قولنا بطلب منه: [من البسيط]

---

[119] - هو محمد بن إبراهيم بن محمد التركماني الدكدكجي الحنفي الصوفي ولد بدمشق سنة 1080هـ تلميذ النابلسي ورفيقه في رحلته هذه له ديوان شعر توفي سنة 1131. وانظر سلك الدرر 21/1

وكامــل ألفتّــهُ مُقْلَــةُ الأمَــلِ صَبْري فقيرٌ وقلبي مِن هـواه مَلي

صفاتُه شَرُفَتْ والذاتُ مِن سَمَتِ فـلا يَـرى مَــنْ رآه حَالَـةَ المَلَـلِ

إذا تَغَنَّــى حَــسبْنا بُلْــبلاً وإذا ما قامَ قُلْنا عَلَى غُصْنٍ مِن الأسَلِ

يكـادُ يَقْطُـر حُـسْناً مــن لَطافتـه فما النَّسيمُ سَرَى في المُنْزِه الخَضلِ

منـه المَنابِتُ طابَتْ والأصول زَكَتْ وشاهداهُ ظهـورُ اللُطْـفِ والخَجَـلِ

أعانَــهُ اللهُ في تَيْــسير حاجَتِــه وخَـصَّه بـشَريف العِلْـم والعَمَـلِ

وَجْــهٌ مليـحٌ وفعْـلٌ منــه أملــح في كُـلِّ الفُنُـونِ لـذا سَـمَوْهُ بالعَسَلي

موشح للنابلسي

وجاء إلى مجلسنا الشيخ الصالح، والناجح الفالح؛ الشيخ منصور رئيس من يقرأ مواليد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مدينة نابلس المحروسة، وطلب منا أن نعمل له من الموشح عروض قول القائل في المديح النبوي: [من الموشح]

يــا رَسُــولَ اللهِ يــا خَيْــرَ البَرِيَّــةْ يـا شَـفيعَ الخَلْـقِ أنْـوارك مُـضيَّةْ

فعملنا له على البديهة قولنا من النظام، في هذا المقام:

أحْمَـدُ المُختـار مَحْمـودُ الـسَّجيَّةْ ألْـــفُ تَـسليمٍ عَلَيْــه وتَحيَّــةْ

دور

حُبُّــهُ فَــرْضٌ علــى كـلِّ البَرايـا وَبِــهِ اللهُ حَبانــا بالعَطايــا

صــاحب القَـدْرِ المُعَلَّـى والمزايـا مَــنْ أتانــا بالمَـضامين الخَفيَّــةْ

أحْمَـدُ المُخْتـارُ مَحْمـودُ الـسَّجيَّةْ ألْـفُ تَـسليمٍ عَلَيْــه وتَحيَّــةْ

دور

خَــصَّهُ اللهُ بــأنْوارِ الجَمــالِ وَحَبــاهُ مِنْــهُ أنْــواعَ الكَمــالِ

ولَــهُ قَــدْرٌ شـريفُ الجـاهِ عــالي نُـورُه أشْـرَقَ كالـشَّمْس المُـضيَّةْ

أحْمَـدُ المُخْتـارُ مَحْمـودُ الـسَّجيَّةْ ألْـفُ تَـسليمٍ عَلَيْــه وتَحيَّــةْ

دور

جــاءَهُ جبريــلُ بــالحقِّ المُــبينْ فَهَدَى أهْـلَ الهُـدَى أشْـرَفَ ديـنْ

قَدْ مَشَتْ أَحْبابُه ذاتَ اليمينْ | لجنانِ الخُلْدِ هاتيكَ العَلِيَّة
أَحْمَدُ المُخْتارُ مَحْمودُ السَجيَّةْ | أَلْفُ تَسْليمٍ عَلَيْهِ وَتَحِيَّةْ

دور

جاءَنا وَالشِرْكُ مثلُ البَحرْ طامي | فَمَحا بالنُورِ أَسْتارَ الظَلامِ
وَبِهِ غَيْثُ عَطاءِ اللهِ هامي | وَلَنا أَرْسَلَهُ اللهُ هَديَّةْ
أَحْمَدُ المُخْتارُ مَحْمودُ السَجيَّةْ | أَلْفُ تَسْليمٍ عَلَيْهِ وَتَحِيَّةْ

دور

صَلِّ يا رَبِّ عَلَيْهِ ثُمَّ سَلِّمْ | إنَّهُ للخَيْرِ قَدْ كانَ المُعَلِّمْ
مَنْ بِهِ يَسْمو كَلامُ المُتَكَلِّمْ | في المَعاني والنُكاتِ الأدَبيَّةْ
أَحْمَدُ المُخْتارُ مَحْمودُ السَجيَّةْ | أَلْفُ تَسْليمٍ عَلَيْهِ وَتَحِيَّةْ

دور

وَعَلى الآلِ جَميعاً وَالصَحابَةْ | مَنْ بِهِمْ عَبْدُ الغَني حازَ النَجابَةْ
ما دَعا المُشْتاقُ داعٍ فأجابَهْ | من نواحي حَضْرةِ الغَيْبِ السَنيَّةْ
أَحْمَدُ المُخْتارُ مَحْمودُ السَجيَّةْ | أَلْفُ تَسْليمٍ عَلَيْهِ وَتَحِيَّةْ

ديباجة للمولد الشريف

وطلب منا أيضاً أن نعمل له ديباجة للمولد الشريف على حسب الوقت فكتبنا له على البديهة ما صورته.

سُبحانَ من أطلعَ قمَرَ المعارفِ والعلوم من أفلاك بروج الأزل، وأظهر بوارقَ حقائقِ الغيوبِ من خلف حجب الحضراتِ الإلهية في الوحي الذي نزل؛ وكشَفَ عن أستار تجلياته الجلالية والجمالية، بإسفارِ طلعة نوره الباهرِ في الحقيقة المُحمدية؛ وَتَبارَكَ وتعالى من إله جعَل المولِد الشريف شفاء لقلوب عبادِه الأحباب، وعطيةً سَنيةً من جنابه الخطير إلى جميع مخلوقاته من أهل التباعد والاقتراب؛ وشرح بشريعته الواضحة متونَ أحكامه الإلهيةِ بين المكلفين، وقصمَ بسيوف مهابته وجلاله رقابَ أهل الزَيْغ والمعاندين؛ وقد قال الله تعالى في

محكم كتابه المبين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[120]؛ فَصَلَّى الله عليه وسلم من رسول افتخرت به قبائل العرب على غيرها من الأمم، وسلك بمن يتابعه على سبيل المنهج القويم والطريق الأَمَم؛ وقد أنزل الله تعالى عليه في محكم كتابه القديم، خطاباً لكلّ عليم من الأمة فهيم، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[121]، هذا ولما أراد الله تعالى إظهارَ هذا السرِّ الأعظم، وإبرازَ هذا الشأن الأفخم؛ وكانت الليلة ليلة الاثنين، كما وردت في الأخبار المنقولة من غير شك ولا مين.

وقد حملت به أمه الدُرة الكامنةُ، والبهجةُ النورانيةُ المسماةُ آمنةُ، التي هي من كل سوء في الدارين آمنة، كان في أول شهر من شهور حمله تزلزل قصر كسرى، إلى آخر ما يوردونه من إكمال المولد الشريف كما هو المعتاد.

ديباجتان أخريان

وقد عملنا سابقاً لبعض الأصحاب بدمشق الشام، ديباجة المولد الشريف، مشتملة على جميع سور القرآن على طريقة التوجيه[122]، بإسلوب غريب أكثر من هذه الديباجة، واصنع منها، فحفظها ولم يكتبها لأحد، واختص بها، يقرؤها للناس في وقت المولد الشريف، فيتعجبون من حسن عباراتها، ولا يسمح بها لغيره، وانفرد في دمشق الشام بين الأنام.

وعملنا له أيضاً ديباجةً أخرى جمعنا فيها أسماء الكتب من فنون شتى على جهة التوجيه بترتيب عجيب فاختص بها أيضاً، ولم يعرفها غيره ولهذا ما ذكرناهما في هذا المكان لعدم وجودهما عندنا الآن.

ضيافة

وقد دعانا إلى ضيافته بعد أداء صلاة العصر صديقنا الحسيب النسيب السيد

---

(120) - سورة الأنبياء 107/21.

(121) - سورة التوبة 128/9.

(122) - التوجيه ان يستخدم الكاتب او الشاعر عدة الفاظ متلائمة اصطلاحاً كاسماء اعلام او اسماء كتب او ما إلى ذلك، ويوجه المعنى توجيهاً مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني من غير اشتراك حقيقي، والفرق بين التوجيه والتورية:

١ً - ان التورية تكون في اللفظة المشتركة والتوجيه باللفظ المصطلح

٢ً - ان التورية تكون في اللفظة الواحدة والتوجيه لا يصلح إلا في عدة الفاظ متلائمة، وانظر شرح الكافية البديعية 132 . 136 ونفحات الأزهار 91 و188.

مصطفى نقيب السادة الأشراف في مدينة نابلس، وحصل لنا عنده غايةُ السرور والصفاء، وكمال الانبساط والوفاء.

زوار ومولد

ثم عدنا إلى مكاننا المعهود فحضر عندنا بعد العشاء جماعة من أهل البلاد للمؤانسة والشهود. وحضر الشيخ عصفور والشيخ منصور وعملوا لنا مولداً عظيماً، وأنشدت الأناشيد، فطابت ترديداً وتقسيماً.

اليوم الثامن والخمسون

1105/2/29 هـ = 1693/11/27 م

فلما أصبحنا في يوم الجماعة الثامن والخمسين، وهو اليوم التاسع والعشرون من صفر، جلسنا على عادتنا في مكاننا المعروف، نتلقى الأحباب والأصحاب بمقتضى الحل المألوف؛ ونتجاذب أطراف الكلام، من المسائل العلمية وبعض النظام.

صلاة الجمعة في الجامع الكبير

إلى أن صار وقت الظهر فذهبنا إلى الجامع الكبير، وصلينا فيه صلاة الجمعة مع ذلك الجمع الغفير.

فتاوى في الصلاة

ثم جلسنا في خلوة المفتي الشيخ عبد الحافظ المذكور نتذاكر المسائل العلمية، ونراجع في كتبه بعض الأبحاث الفقهية، وقد سئلنا عن صلاة المقيم خلف الإمام المسافر، وهل يقرأ المسافر في الركعتين الفاتحة والسورة؟

فأجبنا بما ذكره الفقهاء الحنفية في كتبهم من صحة اقتداء المقيم بالمسافر في الوقت وبعده، وقراءة الفاتحة والسورة واجبة على المسافر بلا خلاف في شيء من ذلك بين أئمتنا، وإذا قام المقيم إلى إتمام الركعتين لا يقرأ فيهما على الأصح. كذا في تنوير الأبصار.

وسُئلنا عن الإمام المسافر إذا لم يُقْصِر، وأتمَّ صلاتَه أربعَ فهل يقرأ في الركعتين الأُخْرَيَيْن الفَاتحة والسورة أو لا يقرأ؟

وهل تبطل صلاة المقتدي به المقيم لأنه بناء القوي على الضعيف أو لا تبطل؟

فأجبنا أنه إذا أتمَّ المسافر، ولم يقصر؛ وصلى أربعاً فإن: الركعتين الأخريين يقعان نفلاً في حقه، والنفل يجب فيه قراءة الفاتحة والسورة في كل ركعة. فإذا كان إماماً للمقيم واقتداء المفترض بالمتنفل، وإذاً لا يجوز.

ثم رأينا في بعض المجاميع في نابلس فائدة في صلاة المسافر إذا أكمل صلاته، وخلفه جماعة مقيمون.

قال أكمل في شرح الهداية: (وإن اقتدى المقيمون بمسافر صلى بهم ركعتين، وأتمَّ المقيمون صلاتَهم، لأن المقتدي التزم الموافقة في الركعتين وقد أدى ما التزم ولم تتم صلاته. فينفرد في الباقي كالمسبوق). انتهى. ما في شرح أكمل.

فإن قلت إذا أكمل المسافر صلاته، وتابعه المقيمون هل صلاتهم صحيحة!؟ وليس فيها بناء قوي على ضعيف!؟ وإلا باطلة وفيها ما ذكر؟! قلت: يفهم من تعليل أكمل أن الصلاة باطلة لأنه ما التزم معه إلا ركعتين وقد أداهما، وخالف بالزيادة فوق ما التزم فيه بناء القوي على الضعيف. وعبارة الهداية وشرحها تقتضي بطلانَ الصلاة. قال في الهداية: فينفرد في الباقي كالمسبوق، فيقتضى أنه يقرأ كالمسبوق، كما قال بعض المشايخ، لكن الأصح أنه لا يقرأ، لأن له شبيهين شبهاً باللاحق، وشبهاً بالمسبوق، وهذا هو المعتمد.

ويفهم منه عدم جواز الاقتداء لأن فرض الإمام المسافر تم بأداء الركعتين، فكان كإمام صلى فرضَ الظهر أربعاً، ثم قام إلى ركعتين أخريين، فاقتدى به من يريد صلاة الظهر فإن اقتداءه لا يصح.

وبعض العلماء في المدينة المنورة صنف في هذه المسألة رسالة عظيمة.

ثم رأيت في فتاوي التمرتاشي ما نصه: (الذي يظهر لي أن اقتداء المقيم بالمسافر في الأربع باطل لأن فيه بناء القوي على الضعيف من غير اعتماد على نقل صريح). انتهى.

حلقة ذكر

ثم حضرنا بعد صلاة العصر في زاوية الشيخ أحمد بن الحارثية المذكور سابقاً في داخل الجامع الكبير، وقد عقد حلقة الذكر، وحضر خلق كثير في ذلك الوقت. ثم ذهبنا إلى ضيافة الشيخ عبد الحافظ المتقدم ذكره، ثم عدنا إلى المنزل.

وقد دعانا بعض الإخوان من أهل نابلس إلى داره، وعمل تلك الليلة تهليلة عظيمة بالذكر، وقراءة القرآن وإنشاد كلام الصالحين.

أبيات في القهوة

وقد أنشدنا هناك السيد حسن المذكور لبعضهم هذه الأبيات في القهوة البنية: [من الوافر]

أتَتْنا قَهْوَةٌ من قِشْرِ بُنٍّ	تُعينُ عَلَى العِبادَةِ للْعِبادِ
حَكَتْ في كَفِّ أهْلِ اللُّطْفِ صِرفا	زِياداً ذائباً وَسْطَ الزُّبادِ
يَطوفُ بها رَشَا كالبَدْرِ لكِنْ	مَراتِعُهُ وَمَسْكَنُهُ فُؤادي
وَعاداتُ الظِّبا تأتي بِمِسكٍ	وَهذا الظَّبْيُ يَأتي بالزِّبادِ

تخميس البيتين الأولين

ثم أنشدنا من حفظه لبعضهم البيتين الأولين فقال:

وإخوانٍ سَمَوْا في كُلِّ فَنٍّ	بِدارٍ قَدْ حَوَتْ من كُلِّ حُسْنٍ
وَلَمّا أنْ دَخَلْناها بِأمْنٍ	أتَتْنا قَهْوَةٌ من قِشْرِ بُنٍّ

تُعينُ على العِبادَةِ للعِبادِ

لِقَهْوَتِنا مَعانٍ لَيْسَ تَخْفَى	وَنَكْهَتُها تَفوقُ المِسْكَ عَرْفا
وفي أقْداحِها لمّا تُصَفَّى	حَكَتْ في كَفِّ أهْلِ اللُّطْفِ صِرفا

زِياداً ذائباً وَسْطَ الزِّبادِ

تخميس البيتين الأخيرين

ثم طلب منا تخميس البيتين الأخرين لعدم حفظه لتخميسهما من كلام الغير فقلنا ذلك على البديهة:

لَقَدْ عَبَقَتْ بِنَفْحَتِها الأماكِنْ	وَحَرَّكَ لُطْفُها ما كانَ ساكِنْ
وَعاشِقُها إلَيْهِ القَلْبُ راكِنْ	يَطوفُ بها رَشَا كالبَدْرِ لكِنْ

مراتِعُه وَمَسْكَنُه فُؤادي

مَحاسِنُهُ رَمَتْ سِرّى بِهَتْكِ	وَمُقْلَتُهُ تَصولُ بِفَرطِ فَتْكِ

شَـبيهَ الظَّبْـي ذاكَ بِغَيْـرِ شَـكٍّ وَعـاداتُ الظّبا تَـأتي بمِسْـكِ

وهـذا الظَّبْـيُ يـأتي بالزبـادِ

أبيات أخرى في القهوة

وأنشدنا أيضاً من حفظه لبعضهم: [من السريع]

عَـرِّج عَلَـى القَهْـوةِ في حانِهـا فـاللُّطْفُ قَـدْ حـف بنُـدْمانِها

شـرابُ أهْـلِ اللهِ فيهـا التُّقـى جـواب مَـنْ يسـأل عـن شأنها

حـانٌ حَكَـى الجَنَّـةَ في بسْطِها وَرِقَّـةِ العَـيْشِ وإخْوانِهـا

وقهـوة لا غـمّ يَبْقَـى إذا قابَلَـكَ السـاقي بفنجانِهـا

بمائِهـا نَقْتُـل أحْزانَنـا ونحـرق الهـمَّ بنيرانِهـا

يَقـولُ مَـنْ أبْـصَرَ كانُونَهـا أفْ علـى الخمـر وأدْنانِهـا

فَهْـيَ رَحيـقٌ لَوْنُهـا خَتْمُهـا قَـدْ قـام فينـا صُـبْحُ آذانِهـا

فَاشْـرَبْ وَلاَ تَـسمعْ لقـولِ الـذي بجَهْلِـهِ يُفْـتي بِبُطْلانِهـا

وأنشدنا أيضاً لبعضهم: [من السريع]

وَقَهْـوةٍ بُنيَّـةٍ تُجْتَلَـى وَنَفْعُهـا الأكـبرُ لا يُجْحَـدُ

جامِعَـةٌ لِلقَـوْمِ أهْـل الوَفـا مانِعَـةُ النَّـوْمِ لِمَـنْ يَعْبُـدُ

كأنَّهـا والمِـسْكُ في لَوْنِهـا والمَنْـدَلُ الرَّطْـبُ بـه تُوقَـدُ

قـد ذابَ فيها اللَّيْـلُ مـن طُولِـه او حَـلَّ فيهـا الحَجَـرُ الأسْـوَدُ

وأنشدنا أيضاً من حفظه لبعضهم: [من الخفيف]

حَجَبُوهـا عَـنِ الرِّيـاحِ لأنـيّ قُلْـتُ يـا ريـحُ بَلِّغيهـا السَّلاما

لَـوْ رَضُـوا بالحجـابِ هـانَ ولكـنْ مَنَعُوهـا يَـوْمَ الرِّيـاحِ الكَلامـا

فَتَنَفَّـسْتُ ثُـمَّ قُلْـتُ لطيْفـي وَيْـكَ إنْ زُرْتَ طَيْفَهـا إلْمامـا

حَيِّهـا بالسَّـلام سِـراً وإلاّ مَنَعوهـا لِـشَقْوَتي أن تَنامـا

اليوم التاسع والخمسون

1105/3/1 هـ = 1693/11/28م

ثم أصبحنا يوم السبت التاسع والخمسين، وهو اليوم الأول من شهر ربيع الأول.

نسب وشعر

فجاء إلينا صديقنا السيد أمين الدين المذكور سابقاً بكتاب نسبه الشرف له، وطلب منا الكتابة عليه، فكتبنا هذه الأبيات على البديهة: [من المتقارب]

تَشَرَّفْتُ في دَرْجِ هذا النَّسَبْ ... وَقَدْ كانَ لي في المَعالي سَبَبْ

وأتحفَني اللهُ أنْ نالَني ... ثَنائي عَلَيْهِ الَّذي قَدْ وَجَبْ

بَدا نُورُه باهراً للوَرَى ... وسِرٌّ حَواهُ كَمالُ الأدَبْ

وَكَيْفَ وَبالمُصْطَفَى أصْلُهُ ... أصيلٌ وَذاكَ طِرازُ الذَهَبْ

حَمَى اللهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ لِمَن ... بهِ بَيْنَ كُلِّ الأنامِ انْتَسَبْ

ذَراري تُقَى طَيِّبونَ اعتلَوْا ... كَمالاً وَنالوا عَوالي الرُّتَبْ

بِهِمْ قَدْ حَوَى العِزُّ عَبْدَ الغَني ... وَنالَ جَميعَ الذي قَدْ طَلَبْ

عَلَيْهِمْ سَلامٌ مِنَ اللهِ ما ... نَسيمُ الصَّبا غُرَّةَ الصُّبْحِ هَبْ

وَمَا فازَ صَبٌّ بأحبابِهِ ... وَمِنْ لَذَّةِ الوَصْلِ نالَ الأرَبْ

مغادرة نابلس

ثم عزمنا على المسير بمعونة الرب القدير، فتوجهنا وقد خرج لوداعنا جماعات كثيرون من أهل نابلس المحروسة، بنفوس طيبة، وأخلاق مأنوسة؛ منهم الشيخ عبد الحافظ المفتي وولده، والشيخ عبد الرحمن الخطيب، ومن يلوذ بهم من أتباعهم، ومنهم الشيخ أحمد بن الحارثية، وأتباعه ومعهم راية الطريق، وهم يتلون البردة الشريفة، والصلاة على الرسول ﷺ، صاحب الحضرة المنيفة؛ إلى أن خرجوا إلى خارج البلاد. ثم قرأ لهم الفاتحة ودعونا الله تعالى، وتوجهنا على المعتاد، وبقي معنا الشيخ أحمد بن الحارثية، وبعض جماعته يريد الذهاب رفقتنا إلى القدس الشريف، بقصد الزيارة وحصول التشريف.

قبر نبي الله يوسف عليه السلام

فمررنا على قبر في مكان صغير، عليه هيبة وجلالة وله قدر كبير، يقال إنه قبر نبي الله يوسف عليه السلام، فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

قبر الشيخ غانم وولده عبد السلام

ثم رأينا قبر الشيخ غانم، وولده الشيخ عبد السلام على جبل عالٍ فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

جامع البطم في قرية منخا

ثم مررنا على جامع البطم - بضم الباء الموحدة، بعدها طاء مهملة ساكنة، وهو جامع مبارك يقال إن فيه قبورَ رجالٍ من الصالحين، وهو في قرية يقال لها مَنْخا، بفتح الميم، وسكون النون، وبالخاء المعجمة. فوقفنا وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

كفل قلّيل

ثم مررنا على قرية من جهة الشرق، يقال لها كِفْل قِلِّيل - بكسر الكاف، وسكون الفاء، بعدها لام، وبكسر القاف، وتشديد اللام مكسورة، والياء التحتية، واللام - وهي الآن مشهورة على ألسنة الناس كفر قلّيل - بفتح الكاف، وسكون الفاء، بعدها راء، وفتح القاف، وتشديد اللام المكسورة - وفيها حجر مرصود من زمان الكفر، يقال: إنه لا يدخل الهواء الشرقي إلى تلك القرية أصلاً مع أنها مقابلة للشرق.

قرية خان اللبن

ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا خان اللُّبّن - بتشديد اللام مضمومة وتشديد الباء الموحدة مفتوحة وبالنون - اسمُ قرية هناك فنزلنا وصلّينا الظهر بجماعتنا، وأكلنا ما تيسر من الزاد.

قرية المزرعة

ثم توجهنا فسرنا، فصعدنا إلى عَقَبة اللُّبّن. ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى قرية المزرعة، فنزلنا هناك في ذلك الجامع.

اليوم الستون

1105/3/2 هـ = 1693/11/29م

وبتنا فيه مع الجماعة إلى أسفر ضوء ذلك الصبح اللامع، وكان يوم الأحد، وهو اليوم الستون، الثاني من شهر ربيع الأول.

البيرة

فسرنا على بركة الله تعالى إلى أن وصلنا إلى البيرة[123] . بكسر الباء الموحدة . فنزلنا هناك، وأكلنا ما تيسر من الزاد على وجه الاشتراك.

مدينة القدس الشريف

ثم ركبنا وسرنا في تلك الجبال العالية، والأودية الخالية؛ إلى أن أشرفنا على مدينة القدس الشريف، وقربنا من هاتيك المعاهد القديمة. بلا تسويف، فنظمنا هذه الأبيات على البديهة: [من الطويل]

دَخَلْنا بعَونِ اللهِ في حَضْرَةِ القُدْسِ ... وَقَدْ لاحَتْ الأنْوارُ من جانب القُدسِ

وَهَبَّتْ عَلَيْنا نَسْمَةٌ مَنْدليَّةٌ ... تَبُثُّ شَذا الألْطاف من رَوْضَةِ الأُنْسِ

سَقى اللهُ هاتيكَ الجبالَ التي عَلَتْ ... وفاقَتْ على الأجْيال في النَّوْعِ والجِنْسِ

وَصَحْبٍ كِرامٍ في الرِّكابِ ألِفْتُهُمْ ... يجوزُون لِينَ العُرْبِ مَعْ أدَبِ الفُرسِ

إلى الحَرَمِ القُدْسيِّ كانَ مسيرُنا ... لنُشْرِفَ مِن تِلكَ الأماكنِ باللَّمسِ

ونَحْظَى بأسْرارِ القُلوبِ ونَجْتَني ... ثمارَ الكمالِ الغَضِّ مِنْ أطيَبِ الغَرْسِ

فَجِئْنا نَؤُمُّ القَوْمَ أكْرَمَ جِيرَةٍ ... بهم يَستَجيرُ الجارُ في شِدَّةِ البَأسِ

ولِلصَّخْرَةِ الغَرّاءِ سِرٌّ عَهِدْتُهُ ... لَدَى صَلَواتِ القُرْبِ من أحمدَ الخمسِ

وَقَدْ أسْفَرَ الإسْراءُ عَنْهُ وأوْضَحَتْ ... مَعاريجُهُ ما قَدْ سَمِعْنا مِنَ الهَمْسِ

وبالمَسْجِدِ الأقْصَى بَقِيَّةُ بَهجَةٍ ... من المُصطفى المُختارِ جَلَّتْ عن الطَّمْسِ

تُشيرُ إلى المَبدا الحِجازيِّ بالَّذي ... لَدَيْها من الأنوارِ في صفحةِ الطِّرْسِ

---

[123] - قال ياقوت: البيرة بين بيت المقدس ونابلس

بـلادٌ قـديمُ الفـضلِ بالأنبيـاءِ لا ... يَجُـوزُ عَلَيْهـا مـا تَـأخُرِ بالـدَّرسِ

ولله في أرضِ الحجـازِ إشـارة ... تُخَبِّرنـا بالـسرِّ في ذلـكَ الـرَّمسِ

عـسى الله أنْ يـأتي إليهـا بنـا فَقَـدْ ... سَرَينا من الزُّلفى إلى مَطْلَعِ الشَّمسِ

استقبال

ثم لم نزل سائرين إلى أن خرج لاستقبالنا أولاد الشيخ العلمي وجماعتهم، وطائفة من الإخوان والمحبين، حتى نزلنا من تلك العقبة، وشكرنا الله تعالى حيث من الهم فككنا القرية؛ ومررنا على المدرسة الجراحية[124]، وزرنا من دفن فيها من هياكل تلك الأرواح الراضية المرضية.

ثم سرنا نَؤُمّ البيت المقدس، الذي هو على لطائف الأسرار مؤسس؛ ولله دَرُّ العلامة الحافظ بن حجر العسقلاني حيث قال: [من الوافر]

إلى البيـتِ المُقـدَّسِ جئـتُ أرجـو ... جِنـانَ الخُلـدِ نـزلاً مـن كَـريمِ[125]

قَطَعنـا في مـسافته عِقابـاً ... ومَـا بَعْـدَ العقـابِ سـوى النَّعـيمِ

المدرسة القادرية

إلى أن كان منزلنا في معدن الأرواح النورانية المسماة بالمدرسة القادرية.

زائرون

فحضر عندنا هناك شيخ الجماعة، وسليل أهل المعارف الإلهية والبراعة؛ التقيّ الصالح، والسني الفالح؛ الشيخ أبو الوفاء العلمي وأولاده الكرام الثلاثة، أهل الكمالات العلية، والأخلاق البهية؛ وحسن الدماثة:

---

[124] - قال النابلسي في (رحلتي إلى القدس) 13: (فوصلنا إلى مزار الشيخ جراح وهذا في (المدرسة الجراحية) قال الحنبلي: وهي بظاهر القدس من جهة الشمال ولها وقف ووظائف مرتبة نسبتها لواقفها الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجراحي أحد أمراء الملك صلاح الدين يوسف بن أيوبه توفي في صفر سنة 598 ودفن بزاويته بالمدرسة المذكورة).

[125] - روايته في (رحلتي إلى القدس):

إلى البيت المقدس قد أتينا ... جنان الخلد نزلاً من كريم

السيد الفاضل. مجمع الفضائل والفواضل، الشيخ مصطفى،
والسيد السامي، صاحب الفضل النامي؛ الشيخ محمد؛
والسيد الكامل، الذي هو لأنواع المحامد شامل؛ السيد فيض الله؛
والشيخ يحيى الداودي.
وأكابر تلك البلدة. وأعيانها.

صديق قديم

واجتمعنا بصديقنا الشيخ الفاضل العالم الصالح محمد البدري الدمياطي الشهير بابن الميت. وكان قدم علينا سابقاً إلى دمشق الشام في أواخر شوال سنة أربع ومئة وألف، ومعه تلميذه الشيخ الكامل مصطفى الحريثي الدمياطي وقد كتب لي هذا الشيخ مصطفى، وأنا في دمشق الشام تلك الأيام بهذه القصيدة من نظمه، وهي قوله: [من الكامل]

نطقَ الوجودُ بمدحِ روحِ الذاتِ	إنسانِ أهلِ المَحْوِ والإثباتِ
فردُ الجمالِ وَعَيْنُ أعيانِ الكَما	لِ ومنتَهى الأسْرارِ والنَّفحاتِ
هُوَ غَوْثُ أهْلِ العَصْرِ مَنْهَلُ فَيْضِهِ	بَهَرَ العُقولَ سَنا تجليّاتِ
أعْني بهِ نسرَ الوُجودِ وَواحدَ الـ	وجدانِ ذروةَ بَهْجَةِ الأياتِ
هُوَ شَمسُ رابعَةِ النَّهارِ أضاءَ في	نورِ الزُجاجةِ باهرِ المِشْكاةِ
مرقاةُ سرِّ القُرْبِ مَنْ هُو مُظْهِرُ الـ	حقِّ المُبينِ فمُجَّ بذي المِرْقاةِ
هُوَ عبدُ مولانا الغنيِّ شرابُه	من فَيْضِ بَحْرِ الأنْسِ في الحَضَراتِ
لا غَرْوَ يا قطبَ الزمانِ وَمَنْ غدا	مُتَصَرِّفاً غَيْبَ الإلهيّاتِ
أنْ تَقْبَلَ العَبْدَ الفَقيرَ على الذي	قَدْ كانَ منهُ من قَبيحَ صِفاتِ
وَبِبعضِ أبياتِ القَريضِ وغيرِها	يَحْظَى وَيُجْمَعِ بَعْدَ طولِ شَتاتِ
وبِنَظْرةٍ من فَيْضِ بَحْرِكَ سَيّدي	إنْ تَلحَظوهُ عاشَ بَعْدَ مَماتِ
إنْ لم تكونوا تَقْبَلونَ لمثلِ مَنْ	أسَرَتْهُ أهواءٌ من الحوبِاتِ
ويفقْرِهِ وبَذْلِهِ وبِكَسْرِهِ	قد جاءَ يَغْنَمُ نَيْلَ مَبْذولاتِ

ويكُمْ إليكُمْ سائلاً مُتَشَفِعاً … دونَ الوَرَى والغَيْر والشبُهات

نَسْل الحُرَيْثي مُصْطَفى طفق القفا … رَ يجوبها بالذنب والغفَلات

لا تَطْرُدُوهُ فإنَّ جاهَ المُصْطَفى … رَحْبٌ وسيعُ السُوح والهطلات

مَنْ قَدْ رقى جُنْحِ الظَّلامِ لرَبِّه … وسما مقامَ المَجْدِ والقُرُبات

صلَّى عَلَيْه مُوافياً تسليمَةً … ربُّ السماء مدبرّ الحَركات

وَصحابه مَعَ آله ما أنْشَدَتْ … نَطَقَ الوُجودُ بمدحِ روحِ الذات

رد النابلسي عليه

وكتبنا له، ونحن في دمشق الشام، سابقاً الجواب عن ذلك، بمعونة القدير المالك؛ هذه القصيدة الوافية، من الوزن والقافية؛ وهي قولي: [الكامل]

إنَّ الوَصيَّةَ أقْرَبُ القُرُبات … تَحوِي الهُدَى الماضي وما هُوَ آتي

هيَ سُنَّةٌ وسماعُها فَرْضٌ عَلَى … كُلِّ الوَرَى، قَطْعاً لِنَيْلِ نَجاتي

لاسيَّما ما نحنُ فيه من الهُدَى … عِلْم الإلهِ طريقةُ السادات

فَاسْمع مَقَالَتَنا وَعِ لِكَلامِنا … يا مُصْطَفى الأخيارِ والخيرات

يا مَنْ غَدا نَسْلُ الحُرَيْثي الَّذي … يَسْمو بنَشْأته عَلَى النَّشآت

لازالَ يُتحِفُكَ الإلهُ بكلِّ ما … تَهْوَى من الإحسانِ والحَسَنات

اعلَمْ بأنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ … ذاتٌ لها مِنْها أتم صِفات

وهي المَراتِبُ في الغُيوبِ تَرتَّبَتْ … لِلذَّات أصْلِ المَحْوِ والإثْبات

واللهُ مُنْكَشِفٌ بها في فعْلِه … للعارفينَ بمُقْتَضَى الدرجات

وهو الوجودُ حَقيقَةً مَشْهودَةً … تَوْحيدُها خالٍ من الشُبُهات

وَالكائناتُ جَميعُها قامَتْ به … مثل الظلالِ بَدَتْ عنِ الشجرات

وَهيَ الرُسُومُ بها الوُجودُ قَد انْجلَى … ببدائع الأسماءِ والحَضَرات

والكُلُّ فانٍ لا وُجودَ له سِوَى … هذا الوُجودِ الحَقِّ فَرْدِ الذَّات

فـإذا تجلّـى لاحَـتْ الأكـوان في ... أنـوار ه بالـشكْلِ والهَيْئـات

وإذا اختفـى لم يَبْدُ شَيءٌ في الـوَرَى ... قـل أمـره كـالبَرقِ في الحَركـات

وَلَـهُ التّجلـي كَيْـفَ شـاءَ وضـدٌ ذا ... لا طَبْـعَ لا تَعْليـلَ فيـه يُـواتي

فاكشفْ عن السرِّ الذي فيك اختفى ... منـه وتُـبْ عـن هـذه الغَفَـلات

وانْظُـرْهُ فيـكَ وَأنـتَ مَعْـدومٌ بـه ... لا شـيءَ غـيرَ قَـديمِ تَقْـديرات

فـإذا بَـدا لَـكَ وَهُـوَ بـادٍ لَـمْ يَـزَلْ ... فَاعْرفْـهُ في الأحْيـاءِ والأمْـوات

واحْـذَرْ تَجِـدْهُ اثْـنَين اوْ مـا زادَ قُـلْ ... هُـوَ واحِـدٌ والـشَّيءُ كـالمرآة

فـإذا تَعَـدَّدت المَرايـا هكـذا ... فيهـا التعـددُ كـان بـالنَّظرات

وَاثْبُـت علـى التَّحقيـق فيمـا نِلْتَـه ... وَافْهَـم وراقِـبْ سـائر الأوْقـات

وَاتْـرك بِغَـيرِ اللهِ شـغلك دائمـاً ... حَـسْبَ اجْتِـهادكَ فَالمُقَـدَّرُ يـاتي

وَاجْعَـلْ سُـلوكَكَ مالَـه مـن آخِـرٍ ... لا تَنْتَظِـرْ فَتْحـاً لخَـوْف فَـوات

فَـالفَتْحُ مَوْجـودٌ وَانْـتَ غَفَلْـتَ عَـنْ ... تَحقيقِـه وَشُـغِلْتَ بِاللَّـذّات

وَجميـع مـا تَرْجُـوهُ عِنْـدَكَ حاضِـرٌ ... لكِـنْ بـه عَنْـهُ اشْـتِغالُكَ عـاتي

وَاصْـدُقْ وقُـمْ بـاللهِ بَـيْنَ عبـاده ... مُتَعَرِّضـاً مِـنْهُمْ إلى النَّفَمـات

لا تَحْتَقِـرْ احـداً فأسْـرارُ الّـذي ... خَلَـقَ الـوَرَى فـيهم اجَـل هبـات

واسْـلُكْ علـى سَنَنِ الّـذين تَقَـدَّمُوا ... في الزُّهْـدِ والإخْـلاصِ والنِّيّـات

وَاصْبِرْ وَصابِرْ وَاصْطَبِرْ وَاشكُر عَلَى ... نِعَـمِ الإلـهِ الغَـيرِ منقطعـات

فـاللهُ يَجْعَـلُ بَعْـدُ عُـسْرٍ دائمـاً ... يُـسْراً ويُبْـدي النُـور في الظُلُمـات

خُـذْ مـا أتـى عَبْـد الغَـني بـه وكُـنْ ... مُتَـأمِّلاً في هـذهِ الأبْيـات

لا تَنْـسَهُ مـن دَعْـوةٍ في سـاعة ... يَـسْمو بهـا مـن أقْـرَبِ الـسّاعات

فـاللهُ يَرْزُقُنـا القَبـولَ جَميعنـا ... ويُجيرُنـا مـن سـائرِ الآفـات

بمُحَمَّـدٍ وبآلِـهِ وبـصَحْبِهِ ... والتّـابِعينَ لَهُـمُ مَـدَى الآنـات

شعر في محمد البدري

وقد طلب منا الشيخ محمد البدري المذكور عملَ أبيات له بحسب فتوح الوقت حين كنا في دمشق الشام، فأجبناه إلى ذلك وقلنا في ذلك التاريخ: [من الكامل]

خُذْها إليك لها هُدىً وبيانُ ... منّا نصيحةُ مَنْ لَهُ عِرْفانُ
مُقْرىً بحبِّ المُذعنين يَسُوقُهمْ ... للغَيْبِ منه تَحَقُّقٌ وعَيانُ
وبها يَدُ التَّوحيدِ قَدْ مُدَّتْ لِمَنْ ... حَفِظَ العُهودَ وعِنْدَهُ الإذعانُ
إنّي بحبِّكَ يا مُحَمَّدُ مُغْرَمٌ ... أنتَ البُدَيْري بالكَمالِ مُصانُ
وَعَلَيْكَ مِنْ نَسْجِ الهدايةِ حُلَّةٌ ... وَطِرازُها التَّوفيقُ والإيقانُ
فَابْشِرْ بكلِّ سَعادَةٍ وعِنايَةٍ ... وَحِمايَةٍ ومِنَ الإلهِ تُعانُ
أنتَ الحَقيقُ بأنْ يُقالَ لكَ انْتَبِهْ ... مِنْ رَقْدَةِ الغَفَلاتِ يا إنْسانُ
أعْني بذلكَ رَقْدَةَ الدِّين التي ... مَنْ كان راقِدَ ها هُوَ اليَقْظانُ
عِنْدَ العَوامِ وَعِنْدَ مَنْ هُوَ غافِلٌ ... والذِّكْرُ منه بها هُوَ النِّسْيانُ
عِلْمِ اليَقينِ فإنْ ذلكَ بَعْدَهُ ... عَيْنُ اليَقينِ لَهُ الأحبةُ دانوا
مِنْ بَعْدِهِ حَقُّ اليَقينِ وَلِلْيَقيـ ... ـنِ حَقيقةٌ لظهورِها لَمَعانُ
هي وحدة باسم الوجود تحققت ... وهي الوجود الحق والوجدان
تَنْحَلُّ فيه المُشْكلاتُ جَميعُها ... والسُّنَّةُ الغَرّاءُ وَالقُرْآنُ
وكلامُ أهْلِ اللهِ في طَبَقاتِهِمْ ... وبها يَكونُ مِنَ الشُّكوكِ أمانُ
إنَّ الوجودَ لِمَنْ تَحَقَّقَ واحِدٌ ... لَيْسَ الزِّيادَةُ فيه والنُّقْصانُ
ذاتٌ منزَّهةٌ عَنِ التَّرْكيبِ لا ... شَيءٌ يُشابِهُها لَهُ الحَدَثانُ
وَصِفاتُها في نَفْسِها هِيَ عَيْنُها ... وَكَذاكَ أسْماءٌ لتِلْكَ حِسانُ
والعَقْلُ يُدْرِكُ أنَّ ذلكَ غَيْرُها ... وَهِيَ المَراتِبُ ما لَهَا نُكْرانُ
لا عَيْنُها لا غَيْرُها فافْطَنْ هُنا ... لِيَزولَ عَنْكَ الظَّنُّ والحُسْبانُ
وَهِيَ اعتباراتٌ كَثيراتٌ وَما ... هِيَ غَيْرُ ذاتِ الحقِّ جَلَّ الشَّانُ

وَالحسُ والمَحْسوسُ قَدْ قاما بها | والعَقْلُ والمَعْقولُ يا إخْوانُ
وَالكُلُ خَلْقُ اللهِ ايْ تَصْويرُهُ | مثْلُ المَعاني تُدْرِكُ الأذْهانُ
فَانْظُرْ إلى هذا الوُجودِ مُجَرِداً | عَنْهُ تَقاديراً هيَ الأكْوانُ
ومُنَزَهاً لِجَمالِهِ عَنْ كُلِ ما | يَحْوي المَكانُ وتَجْمَعُ الأزْمانِ
فَالكُلُ مَوْجودونَ منه بهِ لَهُ | لَوْلاهُ كانَ وجودُهُمْ ما كانوا
والكُلُ مَفْقودونَ فيهِ وإنَّما | هُوَ وَحْدَه المُتَفَضِلُ المَنّانُ
وَهُوَ الذي هُوَ عَيْنُ ما هُوَ لَم يزَلْ | ما غيْرَتْهُ بخلقها الأعْيانُ
وكَذاكَ لَمْ تَتَغيْر الأعْيانُ من | عدم بها لكِنْ لها لَوَذانُ
تَبْدُو بهِ وَهُوَ الذي يَبْدو بها | كُلُ لِكُلٍ نسبةٌ وقرانُ
وهُما جَميعاً ظاهِرانِ فتارةً | خَلْقٌ يُقالُ وَتارةً رَحْمانُ
حَقٌ عَلى العَرْشِ العَظيمِ قَد اسْتَوى | وَبِهِ مَحَلُ قائمٌ ومَكانُ
سُبْحانَهُ مِنْ أنْ يَحِلَّ بِغَيْرِة | أوْ في مكانِ أوْلَهُ إمْكانُ
هُوَ أوّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظاهِرٌ | هُوَ باطِنٌ هُوَ واحِدٌ دَيّانُ
وَالكائِناتُ جَميعُها مَعْدُومَةٌ | في نُورِهِ وَلَها بِهِ إبطانُ
وَهُوَ الوُجودُ الحَقُ جَلَّ جَلالُهُ | والانْسُ قَدْ قاموا بهِ والجانُ
في المُلْكِ والمَلَكوتِ عَزَّ وجَلَّ عَنْ | مَعْنَى الشَريكِ وَما هيَ الأوْثانُ
فَالْجَأْ إلَيْهِ وكُنْ بهِ مُتَمَسِكاً | وَلْيَسْتَوي الإسْرارُ والإعْلانُ
وَاطْرَحْ قُيودَكَ في حِماهُ ولُذْ بهِ | وَلْيكثرِ التَفْويضُ والتُكلانُ
وَبِهِ فَقُمْ واقْعُدْ بِهِ وارْكَعْ بِهِ | وَاسْجُدْ إلَيْهِ بهِ لَكَ اسْتيقانُ
وَاتْرِكْ مُرادَكَ في قَديمِ مُرادِهِ | يَمْضي الفَسادُ ويَذْهَبُ الطُغيانُ
واتْرِكْ بهِ دَعْوَى الوُجودِ لَهُ وكُنْ | فيهِ بِلا كَوْنٍ يَزولُ الرّانُ
وَاجْعَلْ فَناءَكَ في هَواهُ هُوَ البَقا | إنَّ الفَنا هُوَ لِلْبَقا مَيْدانُ

وَاعْكِفْ عَلَى سَنَنِ النَّبي مُحاذِراً ... بِدعَ الزَّمانِ يَسُوقُها الشيطانُ

فالسُنَّةُ الغَرَّاءُ منهاجُ التُقَى ... تُمْحَى بها الآثامُ والعِصْيانُ

واكْفُفْ عَنِ النَّاسِ الظُنونَ وسوءها ... وَاحْذَرْ فإنَّ هُنالِكَ الحرْمانِ[126]

واتْرُكْ عَلَى العاصِينَ سِتْرَ إلههم ... وَاعلَم بأنَك كَيْفَ دنت تُدانُ

وَاكْتُمْ سَريرَتَكَ الَّتي هِيَ قَد صَفَتْ ... لَكَ مِن سِواكَ يَزينُكَ الكِتْمانِ

وَاقِمْ عَلَى نُصْحِي وكُنْ مُتَحققاً ... بمقالَتِي فمَقَالتي الفرقانُ

وأدِرِ لسانَكَ بالصَلاةِ عَلَى الذي ... غَيْثُ الهُدى ابداً بِهِ هُتّانُ

وَلآلِهِ وَلِصَحْبِهِ مِنْ بَعْدِهِ ... فَلْيَكْثُرِ التَسْليمُ وَالرّضوانُ

وَانْهَضْ بُحبِّ الصّالحينَ وذكرِهم ... فيما تَرومُ فَتَذْهَب الأحزانُ

وَلَكَ الحَوائجُ تَنْقَضي بِسهولَةٍ ... واليكَ يأتي العَفْوُ والغُفْرانُ

ويما أتى عَبْدُ الغَني فخُذْ ولا ... تَبْغي عِداهُ فإنَّهم عُميانُ

ضيوف ومباحثات علمية

ثم إن الشيخ أبا الوفا العلمي المذكور أرسل بالضيافة المحمودة، وأنواع من الأطعمة معدودة؛ حتى صلينا صلاة المغرب في مكاننا المعلوم، مع جماعتنا على وجه الخصوص والعموم؛ ثم أتى لزيارتنا في ذلك الحين، شيخ الإسلام العالم العامل الهمام الشيخ نجم الدين[127]؛ ابن المرحوم شيخ الإسلام، وعلامة الأعلام؛ الشيخ خير الدين الرملي. ومعه الشيخ شمس الدين، وحضرة الحسيب النسيب السيد مصطفى نقيب السادة الأشراف محيي بيت المقدس. وجرت بيننا وبينهم مباحثات علمية، ومذاكرات فقهية.

---

(126) - كذا في الأصل والشاعر هنا بين امرين إما أن يوافق الإعراب فيفتح نون (الحرمان) لأنها اسم إن فيكون إقواء أو أن يرفعها فيكون في البيت ضرورة

(127) - محمد نجم الدين بن خير الدين بن احمد بن علي الرملي ولد سنة 1066 وتوفي سنة 113 هـ وقيل 1121 هـ وهو من اصدقاء المحبي وترجم له في نفحته 264/2 . وله عدة مؤلفات ذكرها البغدادي في هدية العارفين 489/2 و576 وانظر معجم المؤلفين 294/9 و76/13.

اليوم الحادي والستون

1106/3/3 هـ = 1963/11/30م

ثم بتنا تلك الليلة في أكمل سرور، وأجمل حبور؛ إلى أن طلع صباح يوم الاثنين الحادي والستين، الثالث من شهر ربيع الأول.

في المدرسة القادرية

فجلسنا في المدرسة القادرية التي هي منزلنا ذات الخلوات اللطيفة، والجلوات العلية.

وقد ورد علينا أهل البلاد من الإخوان والأصحاب، وأهل المودة والأحباب؛ وجاء إلى عندنا نائب القضاء في تلك البلدة، وحضرة مفخر ذوي المكارم (علي جوريجي النابلسي)، ومن معه من أهل الكمال والنجدة، ومشايخ الحرمة القدسي، والعلماء والصالحون من ذوي المقام الأنسي؛ ومنهم الشيخ الصالح. محمد المالكي المؤقتُ بالحرم الشريف، وإمام المالكية فيه، وغيرهم من بقية الناس، من كل نبيل نبيه.

شعر في عذار

وقد طلب منا أن نعمل تأريخاً للسيّد فيض الله حلبي العلمي المذكور في طلوع عِذارٍ له واستكمال مرتبة الدكتور، فقلنا على البديهة من النظام، في ذلك المقام: [من الرجز]

بَدا عِذارُ الصالحِ الأوّاهِ	نَسلِ الكِرام ذي الجَمالِ الباهي
وفي رَبيعِ عِزِّه وَالجاه	أرِّخ حُمي كمالُ فَيْضُ اللهِ[128]

شعر في رياض القدس

وقلنا في ذلك اليوم، ونحن في رياض القدس، وقد انتبه بلبل القريحة، من النوم: [من الخفيف]

بلدةُ القدسِ وهي أشرفُ بَلدَه	أشْبَهَتْ جنّةَ النَّعيمِ وَخُلدَهْ
وعلى الكافرين فيها جحيمٌ	حَيثُ كُلٌّ منهم يُفارِقُ رُشدَهْ

---

(128) - تحديد التاريخ بحساب الجمل على النحو التالي: حُمي + كمال + فيض + الله 58 + 91 + 890+ 66 = 1105

أهلُهـا المؤمنـونَ أكمـلُ قـومٍ حَفِظوا الـودُّ أهـل فخـرٍ ونَجـدَة
وَهْـي دارُ النـدى وبيـتُ المَعـالي وَعمـادُ التُقـى وركـنُ المـودة
شـرَفٌ زَائـدٌ لهـا ومزايـا مَـنْ أتاهـا رأى هُـداهُ وسَـعْدَه
حَـرَمٌ ثالـث لمكّـةَ فـضلاً وحمـى طيبـة أتـتْ هـي بَعْـدَه
كَـمْ بهـا مـن مَـشاهدٍ شـاهداتٌ أنّـه اللهُ في تجلّيـه وَحْـدَه
وبَهـا الـصَّخْرةُ الـتي هـي نـورٌ كـلُّ نفـسٍ مـن سـرّها مُـستَمدَّه
كـان فيهـا المعـراجُ حيـثُ إليـه الله أسـرى بمـن يُـسميه عبْـده
وبهـا الأنبيـاءُ والرُسـلِ صـلّتْ خَلـفَ طَـه الـنّبيّ مـن حـاز مَجْـدَه
جئْتُهـا زائـراً فنلْـتُ ثوابـاً حَيْـثُ نَفْـسي كانـتْ لـه مُـستعدّة
مَـعَ قـومٍ لَهُـمْ مَزيـةُ فـضلٍ كُـلُّ شَـهْمٍ منـهم يُحـاول قـصدَه
فـسقى الله أرْضَـها وحماهـا مـن ديـارٍ بهـا حَـوى العَيْش رَغْـدَه

شعر لابن أبي شريف

على أننا وجدنا لابن أبي شريف أحد علماء القدس على حسب ما رأى ووجد، والأزمان تختلف كمالاً ونقصاً باعتبار من قصر من أهلها وجد؛ والجروح قصاص، ومن الله الخلاص؛ وذلك قوله: [من السريع]

إنـي أرى القـدسَ علـى فـضلها موسـوقةٌ بالجهـل أي اتّـساقِ
لا سـوقَ للعلـمِ بهـا نـافقٌ مـا نـافقٌ في القـدسِ إلاّ النّفـاقُ

ومثله في دمشق

فتذكرت بذلك قول بعضهم في بلادنا دمشق الشام، مما يناسب ذلك من النظام: [من المتقارب]

تجنّـبْ دمـشقَ ولا تأتِهـا وإنْ راقـكَ الجـامعُ الجـامعُ
فَـسوقُ الفُـسوقِ بهـا قـائمٌ وفجـرُ الفجـورِ بهـا طـالعُ

اليوم الثاني والستون

1105/3/4 هـ = 1693/12/1م

ثم أصبحنا في يوم الثلاثاء الثاني والستين، الرابع من شهر ربيع الأول.

مفتي القدس من أولاد جوى زاده

فجلسنا في مكاننا المعهود. حتى أتى لزيارتنا فخر الموالي الكرام، ذوي الكرم والجود، عطاء الله أفندي القاضي يومئذ بمدينة القدس المحروسة، لازالت شجرات الكمال في رياضها مغروسة؛ وهو من أولاد العلامة، العمدة الفهامة؛ شيخ الإسلام جوى زاده المفتي سابقاً بالديار الرومية، مقر السلطنة العلية.

واجتمعنا به سابقاً في بلادنا دمشق الشام، وأتى إلى زيارتنا هناك أيضاً بكمال الاحتشام، وجرت بيننا وبينه مطارحات أدبية، ومصاحبات عرفية، ومباحثات علمية؛ حتى انساق بنا الكلام، فذكرنا له أن بين جد والدنا الشيخ إسماعيل النابلسي الكبير، صاحب الفضل الشهير؛ المذكور سابقاً وبين جده الأعلى جوى زاده المفتي بالديار الرومية سابقاً مكاتبات ومراسلات.

شعر لجد والد المؤلف

فمن ذلك ما وجدته بخطه الكريم، أنه كتبه أيام المحنة يشكو فيها جور بعض الحكام بدمشق الشام، وأرسلها للمولى المذكور في أواخر ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وهي قوله وقد تقدم بعضها: [من الطويل]

ترفَّقْ بقَلْبٍ من تَجَنيكَ يَخْفِقُ ... وَإنْسانِ عَيْنٍ كادَ بالدَّمْعِ يَغْرقُ

وَإياكَ من ذِكْرَى محاسنِ جِلَّقِ ... وأنهارِها السَّبْعِ التي تتَدفَقُ

وَجامعِها والنَّيْرَبَيْنِ ومَرجِها ... وَمَرْجَتِها الخَضْراءِ وَالزَّهْرُ يَعْبَقُ

وَجنّاتِها اللاّتي حَوَتْ كُلَّ بهجةٍ ... حدائقُها بالنُور والنَّوْرِ تحدقُ

ووُلْدانِها من كُلِّ أهيفَ مائسٍ ... له وَجْنةٌ حَمْراءُ كالشَمْسِ تُشْرقُ

الا لا تُذكِّرني بألطافِ جِلَّقٍ ... فتُصمي فُؤادي بالتَّذكُرِ جلَّقُ

لَقدْ غالَها غولٌ وأقْفَر أنسها ... وزالَ بهاءٌ كانَ فيها ورونَقُ

وأظلمَ واديها المُقدَّسُ وانطَوتْ ... أشعةُ أنوارٍ بها تتألقُ

ولاقتْ من الجورِ المُبرّحِ وَالأسى ... وفتكِ ظلومٍ للعيونِ يُؤرّقُ

يُذكّرنا أيامَ تَيمورَ فعلهُ ... وفي سيرةِ الحَجّاجِ بالظلمِ يسبقُ

ولكنّه واللهِ أربى عليهما ... وعنه يزيدٌ ناقصٌ ليس يَلْحَقُ

تعدّى علينا واستَطالَ فَلَم يَدعْ ... فُؤادَ امرئٍ إلا من الخوْفِ يَخفقُ

وأنْشَدْتُه في حالةِ الأسْرِ والبَلا ... وشدةُ ما القاهُ مما يضيّقُ

سَلُوا أمَّ عمرو كَيْفَ باتَ أسيرها ... تُفكُّ الأسارى دُونَهُ وهو مُوثقُ

فلا هُوَ مَقْتولٌ ففي القتْلِ راحةٌ ... ولا هُوَ ممنونٌ عَليه فمُعتَقُ

ولمّا غدا في ظُلمهِ وعُتوّه ... يُقيدُ ظلماً مَنْ يشاءُ ويُطلقُ

وَيسلبُ أموالاً ويأتي مناكراً ... وَيثلبُ أعراضَ الورى ويمزّقُ

أتاهُ من المولى سهامٌ مُصيبةٌ ... تمزّقُ أوصالاً له وتُفرّقُ

فأهلكهُ في الحالِ فرْطُ عتوهِ ... وَصاحبهُ خزيٌ من العارِ يُوثقُ

وكانَ له يَومٌ عجيبٌ ومشهَدٌ ... غريبٌ وأحداقُ البريةِ تحدقُ

فيا أيها العلامةُ الحَبْرُ الذي ... هُوَ السّعْدُ والإقبالُ وَهْوَ المُوفّقُ

لكَ الفخرُ كُلُّ الفخرِ حقاً وأنعم ... بها جيدُ هذا الدهْرِ منكَ مُطوّقُ

وماذا عسى أني أقولَ ومن يضف ... إليكَ معالي الأمرِ فَهْوَ المُصدّقُ

وَأنتَ الإمامُ الفَرْدُ والعِلمُ والعُلا ... وانتَ وَحيدُ العَصرِ انتَ المُدقّقُ

وَعندي إلى رُؤياكَ واللهِ لَوعةٌ ... أرددُها بَينَ الحَشا وتَشوّقُ

وَقدْ مُلئتْ أذني ببشركَ فاغتدتْ ... مُوَلهةً والأذن كالعين تَعشَقُ

ومثلكَ مَنْ يُصغي لمثلي تكرُماً ... فيعلَم ما عندي لَهُ ويُحقّقُ

لأنّي مِنْ قومٍ كِرامٍ أولهم ... وأفعالُهم في جَبهةِ الدهرِ تُشرقُ

وفخري بنفسي إنها ذاتُ رِفعةٍ ... يَخرُ لها الطَّودُ العظيمُ ويَفرَقُ

وللنّاسِ منّي العلمُ والفضلُ والهُدى ... أبثُّ دُروساً دائماً وأحقّقُ

وأظهـرَ مكنونـاً وأوضـحَ غامـضاً ... واجْمـعَ تحريـراً بـه الـضدُّ يُـصعَقُ

ألا إنَّ دهْـراً قـدْ رمَـتْني صُـروفُهُ ... واضْحى على مثلي بِحَبْسٍ يُضيِّقُ

لَـدَهْرٌ عجيـبٌ بالفَـضائلِ جاهـلٌ ... وعـصرٌ غريـبٌ لـيسَ يفْهـمُ أحْمَـقُ

وبَعْدُ فيا مَوْلَى الوَرَى دُمْتَ في هَنا ... وعـزْ رَفيـعٍ شـأوُهُ لـيسَ يُلْحَـقُ

مَدَى الدَّهْرِ ما هَبَّ النَّسيمُ وأصبَحَتْ ... إليـك عيـونُ العـزِّ والـسَّعْدِ تَرْمُـقُ

علـى الـدَّومِ مـا غَنَّـتْ حمـائمُ أيكـةٍ ... وغَـرَّدَ قُمْـريٌّ ونـاحَ مطـوق

ولا زلـتَ مولانـا مِـنَ اللهِ في عُـلا ... وغـصنُ الأمـاني بالـسَّعادةِ مُـورِقُ

استنساخ لأحد كتبه

ثم إن القاضي المذكور طلب منا كتابنا الذي سميناه (كنز الحق المبين، في أحاديث سيد المرسلين) واستجازنا في كتابة نسخة له منه.

زيارات متعددة

ثـم قمنـا فـذهبنا، نحـن والإخـوان، إلى زيـارة الحـرم القدسـي، والمـشهد الـشريف الأنسي؛ فزرنا الصخرة الشريفة، ومسجدها المبارك، والقدم الشريف، ومحراب القبلتين، ومحراب إدريس، والبلاطة السوداء، وهاتيك الآثار المنيفة.

ثـم نزلنـا تحـت الـصخرة في ذلـك الـدرج، وزرنـا لـسان الـصخرة، ومقـام الخـضر، ومحراب داود، عليهما السلام.

ثم خرجنا فزرنا قبة السلسلة، وقبة الأرواح.

وذهبنا إلى المسجد الأقصى، وزرنا ما فيه من الأماكن الشريفة التي فصَّلنا الكلامَ عليها في رحلتنا الوسطى المسمى (بالحضرة الأنسية في الرحلة القدسية).[129]

ثم عُدنا إلى مكاننا في المدرسة القادرية، وصلينا الظهر ثم سرنا، نحن والإخوان.

التربة الملاصقة للسور

فزرنـا التربـة الملاصـقة للـسور، عنـد بـاب الرحمـة وبـاب التوبـة المـسدودين الآن.

---

(129) - انظر رحلتي إلى القدس ص 13 وما بعدها.

لكونهما يفتحان إلى الجهة الخالية من سكنى إنسان، والسلوك إلى شيء من البلدان؛ وزرنا هناك قبر عبادة بن الصامت وشداد بن أوس الصحابيين المشهورين ومن دفن حولهما من قبور المسلمين.

عين سلوان

ثم ذهبنا إلى عين سلوان. في أسفل الوادي، ولنا في ذكر هذه العين كلام منظوم ومنثور في الرحلة القدسية.[130]

جبل الطور

ثم صعدنا إلى جبل الطور.

قال ياقوت في المشترك[131] الطُور في لغة العبرانية اسمٌ لكلِّ جبلٍ، ثم صار علماً لجبالٍ بعينها، منها: طور زيتا ... جبلٌ بالبيت المُقَدّس. وفي الأثر: مات بطور زيتا سبعون ألف نبي، فقتلَهَمُ الجوعُ، [وهو شرقي وادي سلوان][132]، انتهى.

قبر رابعة العدوية

ثم زرنا قبر رابعة العدوية رضي الله عنها في جبل الطور على ما هو المشهور.

قبر الشيخ محمد العلمي

وزرنا هناك قبر الشيخ الإمام العارف بالله تعالى محمد العلمي صاحب الديوان المشهور، في داخل قبة، وعنده عمارة عظيمة، وجامع شريف، بمنارة عالية فوق الجبل. وتكية الأسعدية.

سلمان الفارسي

ثم زرنا سلمان الفارسي الصحابي المشهور في مغارة بذلك الجبل، وعنده خرنوبة العشرة على المشهور بين الناس، يعنون الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، في حديث

---

(130) - نظر رحلتي إلى القدس ص 42 وما بعدها.

(131) - انظر المشترك ص 297

(132) - مستدرك عن المشترك 297

النبيﷺ، فكأن أرواحهم رئيت حاضرة في ذلك المكان، تحت تلك الشجرة الخرنوبية، فنسبت إليهم، أو غير ذلك والله تعالى أعلم.

قدم عيسى عليه السلام

وزرنا هناك أيضاً في ذلك الجبل قدم عيسى عليه السلام أثرٌ في صخرة.

وقرأنا الفاتحة في تلك الأماكن، ودعونا الله تعالى بما تيسر لنا من الدعاء.

أولاد أبي حنيفة

ثم عدنا إلى مدينة القدس فدخلنا من باب هناك، فزرنا بالقرب منه أولاد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، رحمهم الله تعالى على ما هو المشهور هناك بين الناس، وحولهم قبور.

ضيافة عند مصطفى آغا

ثم ذهبنا إلى ضيافة مفخر الأعيان، حضرة مصطفى آغا من أعيان أكابر بلاد القدس. فدخلنا إلى داره الواسعة الأركان المشيدة البنيان فتلقانا بصدره الرحيب، ولطفه العجيب. حتى انقضى ذلك المجلس، وعدنا إلى مكاننا بالقادرية ونحن في أكمل سرور وأتم حالة مرضية.

نجم الدين الرملي ورفيقه شمس الدين

ثم بعد صلاة المغرب أتى إلى زيارتنا الشيخ الإمام الفاضل مفتي تلك البلاد القدسية، نجم الدين ابن الشيخ الكامل والعالم العامل خير الدين الرملي، رحمه الله تعالى، ومعه رفيقه الشيخ شمس الدين، فتحادثنا معه ساعة من الزمان، نتجاذب أطراف المباحث العلمية، والمسائل الفقهية.

شرح الجامع الصغير لجده

حتى ذكر لنا الشيخ نجم الدين المذكور، أنه وجد لجدنا المرحوم الشيخ الكامل والعالم العامل عبد الغني بن النابلسي شرحاً للجامع الصغير في الحديث للجلال الأسيوطي.

ديوان لوالده

وذكر لنا الشيخ شمس الدين المذكور أيضاً أنه وجد لوالدنا المرحوم الشيخ الإمام العلامة إسماعيل بن النابلسي ديواناً من الشعر اللطيف في بلاد مصر المحروسة، ولم نقف نحن على شيء من ذلك لموت والدنا المذكور رحمه الله تعالى، وأنا صغير دون البلوغ، وقد ذَهبتْ جميعُ كتبه وكتب والده وجده التي كانت عنده وهي ألوف، لا تكاد تحصى تفرّقت أدراج الرياح بعضها بالسرقة، وبعضها بالبياعات والأرياح.

شعر للنابلسي

ثم بتنا تلك الليلة في سرور وأمان. نتوارى خلف أستار الألطاف الإلهية من عيون الزمان، وقلنا من النظام، في شريف ذلك المقام: [من الخفيف]

صخْرةُ الله تتجلّى في المقامِ ... بكمالِ الوَقارِ والاحْتشامِ

وعلَيْها جَلالَةٌ وجَمالٌ ... في سَماءِ العُلاَ كَبَدْرِ التَّمامِ

نُورُ سِرٍّ فَشا منَ الغَيبِ لمّا ... كانَ في غايةٍ منَ الإكتامِ

تارةً يُبصرِ النَّواظرُ منها ... صُورةَ الصَّخرِ في عُيونِ العَوامِ

وترى تارةً لوامعَ نورٍ ... عينُ أهلِ الخصوصِ ذاتُ ابتسامِ

ثمَّ صوراً ترى ذَوو القُرْبِ مَبْدا ... كُلِّ شيءٍ بدا بغيرِ انْقِسامِ

وَتَرى أمَّةٌ تَوَهّمَ المَعاني ... دُرَّةً في عُبابِ بَحْرٍ طامي

كشفتْ وَهْيَ من أجلِ لطيفٍ ... كانَ من مَسَّ أهْلِ جهْلٍ طَغامِ

لَوْنُها أبيَضٌ وَطَوْراً تراها ... وهيَ خضراءُ مثلُ خُضْرِ الخيامِ

وهْيَ طَوراً في زُرْقةٍ أو سوادٍ ... حَسْبَ حالِ الرائي منَ الأقوامِ

وَلها قُبَّةٌ عَلَتْ وتسامتْ ... ببديعٍ منَ النُّقوشِ السَّوامي

قُبَّةٌ تحتها العواميدُ صُفَّتْ ... واقفاتٍ لها عَلى الأقْدامِ

منْ رُخامٍ ومَرْمَرٍ لامعاتٍ ... كالمرايا صَقيلَةَ الأجْسامِ

ثُمَّ من حَوْلها شَبابيكُ لاحَتْ ... من نُحاسٍ في غايةِ الإحْكامِ

وَأحاطَتْ بها شُمَيراتُها من ... خشبٍ متقنِ الصِّناعةِ سامي

قَدَمُ المُصطفى بها قد تَبدى ... واضحَ الشَّكْلِ زائدَ الإنبهامِ

لَيْسَ يخفَى إلا علَى كُلِّ غِرٍّ ... قَدْ رَماهُ الجحُودُ في الأوْهامِ

وَلَهُ قُبَّةٌ عليه أقيمتْ ... من لُجَيْنٍ صَفاؤها المَحْضُ نامي

من فَوْقها لَهُ قُبَّةٌ من ... خشبٍ زُخْرِفَتْ بحُسْنٍ قَوامِ

وعَلَيْها مَهابةٌ تَحْتَويها ... حارَ في حُسْنِها ذَوُو الأفْهامِ

قُبَّةُ الفَضَّةِ التي هُوَ فيها ... ذاتُ بابينِ تلك للإحْترامِ

وهُما مُقْفَلانِ طَوْراً وَطَوْراً ... يفتحُ القُفْلَ واحدُ الخُدّامِ

كُلُّ هذا من فضَّة قد تَصَفَّتْ ... صُنِعَتْ للإجْلالِ والإعْظامِ

حَصَّنَتْها شبابيكُ من حَديدٍ ... كي لها لا تَنالُ أيْدي اللّئامِ

وعلى الصَّخْرةِ الشَّريفةِ أيضاً ... قدمٌ للنبيِّ إدْريسَ سامي

وَلِجبريلَ فوقَها شَكْلُ كَفٍّ ... حَسبَ ما قَدْ أُشيعَ بينَ الأنامِ

وإلى القِبلَتَيْنِ مِحْرابُ قُربٍ ... ثُمَّ بالشيدِ[133] مُتْقَنٌ والرُّخامِ

وتَلاهُ محرابُ إدْريسَ فيهِ ... كُلُّ لُطْفٍ يروقُ في الانْضِمامِ

ثُمَّ من تَحْتِ صَخْرةِ اللهِ أمْرٌ ... لَيسَ يخفَى من الأمورِ العِظامِ

هَيْبَةٌ تُدْهِشُ الفَتى وجَلالٌ ... حَيَّرتْ كُلَّ فاضلٍ عَلّامِ

وَمقامُ الخَضِرِ الذي يتسامَى ... بَيْنَ كُلِّ الوَرَى أجَلُّ مَقامِ

ثُمَّ محرابُ أحْمَدَ المُصْطَفى لا ... يَخْتَفي بالجُحودِ أوْ بالتَّعامي

ثُمَّ أيضاً محرابُ داودَ أضحَى ... يَنْجلي ثُمَّ كاشفَ الإبهامِ

صَخْرَةٌ في الهَواءِ قامتْ ولكن ... سُتِرتْ والزُّهورُ في الأكْمامِ

---

(133) - الشيدُ: وهو ما طُليَ به حائطٌ من جِصٍّ ونحوه، وقول الجوهري: لا من طين او بلاط - بالباء، غلط، والصواب مِلاط بالميم، لأن البلاط حجارة ولا يطلى بها، وانما يطلى بالملاط وهو الطين القاموس (شيد).

سَتَرُوها بما بَنَوْا حَوْلَها مِن   حُسنِ بُنْيانِها الشَّريفِ النِّظامِ

غَيرةً مِن ذَوِي الغَرامِ عَلَيْها   أن يَرَى السِّرَّ غيرُ أَهْلِ الغَرامِ

وَلَدَيْها بِلاطَةٌ هِيَ سَوْدا   وَهْيَ بيضاءُ في عُيونِ الهُمامِ

نَسَبوها لَجنَّةٍ والمَسامِيرُ   بها فِضَّةٌ بغَيْرِ انْخِرامِ

ثُمَّ مِن حَوْلِ كُلِّ ذلكَ بَيْتٌ   مِنْ بيوتِ اللهِ الكبارِ الفخامِ

زُخْرِفَتْ بالرُّخامِ منه جهاتٌ   قَصْدَ إكرامِهِ لِقَوْمٍ كِرامِ

فَزَها نُورُهُ وأَشْرَقَ حتّى   لَذَّ فيه التُّقَى لِكُلِّ إمامِ

صَحْنُهُ خارِجٌ عَنِ الحَدِّ وَصْفاً   وَلَهُ بَهْجَةٌ وفَرْطُ تَسامي

واسِعٌ مِن جَوانِبٍ أَرْبَعٍ قَدْ   أَدْرَكَ الرِّيَّ فيه مَنْ كانَ ظامي

فَرَشُوهُ جَميعَهُ بِبَلاطٍ   أَبْيضٍ ناعمٍ كخَدِّ الغُلامِ

وَقِبابٍ بِهِ هُناك تَسَمَّتْ   عِنْدَ مَنْ راقها بِخَيْرِ الأسامي

قُبَّةٌ سُمِّيَتْ بِسِلْسِلَةٍ قَدْ   فَهِمَتْ سِرَّها أُولو الإلْهامِ

وَكَذا قُبَّةٌ لِمِعْراجِ صِدْقٍ   كانَ لِلمُصْطَفَى النبيِّ التِّهامي

وَلِسِرِّ الأَرْواحِ فيه لِنُورٍ   ثُمَّ خُصَّتْ بالجودِ والإنْعامِ

وَالمَوازِينُ يا لها مِن بِناءٍ   نُصِبَتْ حَوْلَ ذاك كالأَعْلامِ

دَرَجاتٌ تَحُفُّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ   لِصُعودِ الأنامِ وَقْتَ الزِّحامِ

مَسْجِدٌ راقَ بَهْجَةً وكَمالاً   وتَسامى فكانَ طِبْقَ المَرامِ

جَمَعَ اللهُ فيه فَضْلاً وَخَيْراً   لِلَّذي فيه مِن ذَوِي الإسْلامِ

لَمْ تَزَلْ رَحْمَةُ الإلهِ عَلى مَنْ   شادَهُ في الوَرَى بِغَيْرِ انْصِرامِ

مِن مُلوكٍ تَقادَمَتْ ورَعايا   وَذَوِي الإهْتِدا مِنَ الحُكّامِ

أَمَدَ الدَّهْرِ ما أقامَ مُقيمٌ   لِصلاةٍ هُناكَ طُولَ الدَّوامِ

وَمِنَ الفَتْحِ ما تَكَلَّمَ عَبْدٌ   لِغِنيٍّ بِمِثْلِ هذا الكَلامِ

أَوْتَبَدَّى الصَّباحُ واللَّيْلُ وَلَّى   هاتِكاً بالضِّياءِ سَتْرَ الظَّلامِ

اليوم الثالث والستون

1105/3/5 هـ = 1693/11/30م

ثم أصبحنا في يوم الأربعاء الثالث والستين الخامس من شهر ربيع الأول.

الشيخ أبو قاسم النجار

فأتى إلى زيارتنا الشيخ الصالح إسماعيل أبو قاسم النجار، وأتى بقصيدة من نظمه، يمدحنا بها، فقلبناها منه، وتبركنا به، وهو ممّن لم يعلّمه الله تعالى الشعر، ولا ينبغي له، لأنّها خارجةً عن الوزن، فتسلك بسامعها مسالك السهل والحزن.

زيارات الأماكن المقدسة

ثم ذهبنا، فدخلنا إلى الحرم الشريف، وزرنا قبة الأرواح، وقبة المعراج، وقبة السلسلة، والقبة التي على القطعة التي أخذت من الصخرة المباركة.

زيارة المحراب والبابين والكرسي

وزرنا محراب عبادة بن الصامت، وباب التوبة، وباب الرحمة، والمكان الذي فيه كرسي سليمان عليه السلام.

الصراط والمهد

وصعدنا على المكان الذي يسمونه بالصراط، ثم نزلنا إلى المهد، مهد عيسى عليه السلام، وفيه مقام الحواريين، ومقام الخضر عليه السلام.

محراب داود وسوق المعرفة وجامع المغاربة

ثم صعدنا وزرنا محراب داود عليه السلام، وسوق المعرفة، وجامع المغاربة.

المدرسة الفخرية

ثم دخلنا إلى المدرسة التي بجانب جامع المغاربة وهي المدرسة المسماة بالفخرية، وهي في غاية من الحسن والإتقان، وكمال البهاء، وجمال البنيان، وفيها جملة من الكتب،

ورأينا فيها ديوان أبي العلاء المعري وشرحه، ورأينا هناك مكتوباً له هذين البيتين وهما قوله: [مخلع البسيط]

قالُوا العَمى مَنظرٌ قبيحٌ ... قُلتُ لفَقْدي لكم يَهونُ

والله ما في الأنامِ شيءٌ ... تأسَى على فَقْدهِ العُيونُ

ويناسبه قوله أيضاً: [من السريع]

أبا العَلا يا بْنَ سُلَيْمانا ... إنْ العَمَى أوْلاكَ إحْسانا

لَوْ أبْصَرَتْ عَيْناكَ هذا الورى ... ما أبْصَرَتْ عيْناكَ إنْسانا

ثم خرجنا من الحرم، فزرنا مكانَ البُراق.

زيارة نبي الله داود

ثم سرنا، نحن والإخوان، إلى زيارة نبيِّ الله داود ﷺ في دير صهيون، فخرجنا من باب مدينة القدس، وزرنا الشيخ المنسي، ثم دخلنا إلى مكان الدَّير قريباً من باب المدينة، فرأينا قبر داود ﷺ، وعليه كمال الهيبة والجلال والإعظام، فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى لنا ولجميع الأنام.

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الدائم البرماوي[134] في كتابه: (سرح النهر لشرح الزهر) في تربة داود ﷺ:

داود لفظٌ أعجمي، وقال ابن عباس وغيره: نجراني، ومعناه: القصير العمر، وهو داود بن إيْشا - بكسر الهمزة، وسكون الياء المثناة التحتية، وبالشين المعجمة - من سبط يهوذا - بفتح المثناة التحتية، وضم الهاء، وبالذال المعجمة - ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. وهو أبو سليمان النبي، عليهما السلام، جمع اللهُ له بينَ النبوة والمُلك، وقد كان راعياً فأعطاه الله الملكَ بعد قتله جالوت بسبع سنين، وذلك لما استُشهد طالوت، أعطى بنو إسرائيل داود ﷺ خزائن طالوت وملكّوه على أنفسهم، ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك إلا على داود ﷺ.

---

(134) - هو محمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي العسقلاني البِرْماوي، ابو عبد الله، شمس الدين ولد سنة 763 وتوفي سنة 831 هـ محدث فقيه، اصولي فرضي، نحوي، ناظم، جاور بمكة، ثم قدم القاهرة، ثم توفي ببيت المقدس وانظر البدر الطالع 181/2، وانس الجليل 457/2، والضوء اللامع 280/7، والشذرات 197/7، والأعلام 60/7، ومعجم المؤلفين 132/10.

وفضل داود ومعجزاتُه مشهورةٌ كثيرةٌ في الكتاب والسنة: ذكره الله تعالى في اثني عشر موضعاً[135] من كتابه العزيز، قاله مقاتل، وفي البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال خُفّفَ على داود القرآن - أي الزبور - فكان يأمره بدابته تُسْرَج فيقرؤه قبل أن تُسْرَجَ.

وفي حلية الأولياء لأبي نُعَيْم قال عن داود إنه قال: إلهي كُنْ لابني سليمان كما كنت لي، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، قل لابنك سليمان يكن لي كما كنتَ لي، حتى أكونَ له كما كنتُ لك.

قال كعب ووهب بن منبه: كان داود أحْمَر الوجه أبيضَ الجسمِ طويلَ اللحية، فيها جعودة، حسنَ الصوت والخلق، طاهر القلب.

كان بينه وبين موسى عليهما السلام خَمْسُ مِئَةٍ وسبع وسبعون سنة وقيل سبع وستون، عاش مئة سنة، ويزعم أهل الكتاب أن عمره تسع وتسعون سنة، ومدة ملكه أربعون سنة.

قال كعب: والنصارى تزعم أن قبره في الكنيسة الجسمانية بالبيت المقدس. انتهى.

دير صهيون

والمشهور أن قبره في دير صهيون كما قدمناه.

ومكان هذا الدير الآن هو مسكن أولاد الدجاني، وهم خُدّام نبي الله داود ﷺ، فاجتمعنا هناك منهم بالشيخ الفاضل الكامل الشيخ يحيى الدّجاني الداودي، وأكرمَنا غاية الأكرام، وأنزلنا هناك في ذلك الرواق العالي، والقصر المتلالي، ولطيف ذلك المكان والمقام، وأضافنا بما تيسر من الزاد، وكفى الله وزاد.

ثم رجعنا إلى الحرم القدسي، والمقام الأنسي، وصلينا الظهر بجماعة في مسجد الصخرة المباركة الذي هو مهبط الملائكة.

الشيخ عيسى الكردي

ثم اجتمعنا بالشيخ الصالح عيسى الكردي وهو رجل من الأفاضل ساكن في خلوة هناك، وقد تزوج في بيت المقدس، وقطن بها يُقرئ الطلبة في بعض العلوم.

---

[135] ا - الواقع انه ذكر في القران في ستة عشر موضعاً. انظر اي فهرس لألفاظ القران

ضيافة عند عطاء الله جوى زاده

ثم ذهبنا إلى ضيافة قاضي البلدة عطاء الله أفندي المتقدم ذكره، فعمل معنا غاية الإكرام، واحتفل بنا وبجماعتنا، وعاملنا بالاحترام.

شعر للنابلسي

ثم عدنا إلى مكاننا بالمدرسة القادرية، وقلنا من النظام في تلك العشية: [من الطويل]

غرامي بهم أدْنى إليهم وَما أقْصَى ... إلى الحَرَم المَعْروف بالمَسْجد الأقْصى

وهُمْ سادَتي في كلّ أمْرٍ وحالة ... وشَوْقي إليهم لا يُعَدّ ولا يُحْصَى

رجالٌ أتيْنا زائرينَ لحيّهم ... فكدنا علَيْهم أن نَطير بهم رَقْصاً

لَوامع أنْوارٍ من الغَيْب أشْرَقتْ ... بَدائعُ أسْرار بها الخالقُ اخْتَصّا

هياكل أجْسامِ النَّبيّين أفرغتْ ... هُناكَ فلَمْ تُبْد الزيادةَ والنَّقْصا

فلاحَتْ وما لاحَتْ فكانَتْ حَقائقاً ... نُطيلُ علَيْها الحفظ بالحبُ والحرْصا

وأنْواعُ أطوارٍ من الأوْلياء قَدْ ... رأَيْنا على بادي حَياتهمُ النَّصا

شُهودٌ وإن غابوا وغابَتْ رسومُهمْ ... جناحُ العُلا منهم أريش وما قُصّا

يَطيرونُ أيّانَ اهْتَدى نُورُ سرُهم ... إلى مَنْ بهم لمّا تَجَلّى لهم خَصّا

إلى حَضَراتٍ ثُمّ بالحَقّ قُدّسَتْ ... فلا فُرطٌ تهوى للملاحِ ولا خُرْصا

حَوائمُ كالْطير العَكوف من الظّما ... علَى الماء ماء الغَيْب فارَقَت الشُّخْصا

معاني جَمالٍ أو جَلالٍ تَجَرَّدَتْ ... وَقَدْ خَلَعَتْ عنها الغَلائلَ والقُمْصا

سَرَيْنا نبيد البيدَ شَوْقاً لقُرْبها ... عَلَيْنا هَواها قَدْ تَحكّمَ فاقْتَصّا

إلى أنْ قَدمْنا حَضْرَةً وَقَفَ المُنى ... عَلَى عَتبات العز منها وما أحْصَى

وكَمْ من جباهِ للنّبيّين سُجّداً ... هُنالكَ خرّتْ أمرُها كانَ لا يُعْصَى

بهمْ أمّ طه المُصْطَفى لَيْلَة اللّقا ... وَقَدْ كانَ في سامي خواتمهم فصّا

دَخَلْنا فشاهَدْنا من النّورِ قُبّةً ... علَى جَلْوَة المحراب شاهدها استَقْصى

كَثيبٌ من الأسْرارِ في جانب الحمى ... وَمِنْبَر لُطْفٍ يُشْبهُ السّتْرَ والخُصّا

وَأعْمِـــدَةٌ صُــفَّتْ يَــساراً وَيَمْنَــةً ثَلاثُ سُقوفٍ فوقَها تُشْبه الدُّعْصا

واقصَى عَتيق جانب الغَرب سمتـه بهيبـــةِ أرْواحُ حــضور بـــه غَــصّاً

وَسَــتْرٌ قناديــلِ الزُجـــاجِ مُعَلَّــقٌ إذا أُوْقِـدتْ للعَـيْن أسْرَعت القنـصا

وَكَـــأسُ رُخـــامٍ مـــاؤُه مُتَــدَفِّقٌ بِعَــذْبٍ زُلالٍ لا حَمـــاةَ ولا حمْــصَا

سَــقى الله هاتيــك المَــشاهدَ إنَّهــا لَقَـدْ اشْـبَهَتْ في سَلْبِ البَاْبِنـا لـصّاً

اليوم الرابع والستون

1105/3/6 هـ = 1693/12/1 م

ثم أصبحنا يوم الخميس الرابع والستون، سادس شهر ربيع الأول، فعزمنا على المسير إلى حبرون، وهي بلاد الخليل، لزيارة أنبياء الله الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

فركبنا نحن والإخوان. وسرنا وسار معنا الشيخ محمد الدمياطي المذكور سابقاً، والشيخ يحيى الدَّجاني وغيرهما من الأعيان، وجماعات كثيرون من أهل بيت المقدس، وغيرهم من الأصحاب والمحبين ذوي الإذعان.

قبر راحيل

فمررنا في الطريق على قبر راحيل أم نبي الله يوسف ﷺ، فوقفنا وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى احتراماً لذلك المقام.

ثم سرنا في ذلك الطريق الوعر الذي كان سهلاً علينا متدانياً، حتى نظمنا في ذلك بعون الله تعالى هذه المواليا:

وجدت في أرضكم وعر الفلا سهلا وكـل صـعب رأينـاه بكـم سـهلا

يـا سـادة ألـف أهـلاً لي بهـم سـهلا مـن جـاءكم قـد تـسمى بينكم سهلا

البِركُ الثلاث

ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى البرك الثلاث التي يجتمع فيها الماء من السيول والأمطار، ومن عين هناك صغيرة له انبعاث، والبرك - بكسر الباء الموحدة، وفتح الراء، جمع بِرْكَة - بكسر الموحدة وسكون الراء - وهي مجتمع الماء، ثم يجري ذلك الماء في طريق

له بين تلك الجبال والأودية مغطى بالبنيان عليه، حتى يصل إلى حرم بيت المقدس، ويخرج من الكأس الرخام الذي هو لديه، وهناك قلعة لطيفة فيها بعض الناس، كأنهم لذلك الماء من العرب والفلاحين بمنزلة الحراس، وانتشينا عند ذلك، فأنشدنا من النظام، على طريق التضمين في ذلك المقام: [مجزوء الخفيف]

جَمَلُ الهَمِّ قَدْ بَرَكْ — حِينَ جِئْنَا إلى البِرَكْ
وَلَقَدْ كَانَ بَيْنَنَا — زائد الأُنْسِ مُشْتَرِكْ
صادَنا القرب عندما — وَقَعَ القَلْب في الشَّرَكْ
ثم بَيْني وَبَيْنَ ما — عاقني كانَ مُعْتَرِكْ
فاعتراني النَّشاطُ بَلْ — للسُّوَى ناظري تَرَكْ
ثُمَّ أَنْشَدْتُ قَوْلَ مَنْ — قال في الحُبِّ فاحْتَرَكْ
غابَ وردُ الرِّياضِ مِنْ — وَرْد خَدَّيْكَ وانْفَرِكْ
فَلَهُ الناسُ أَثْبَتُوا — وَنَفَوا الورد للكَرَكْ

بلاد الخليل

ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد الخليل ﷺ، وأشرقت علينا هاتيك الأنوار فقلنا من النظام، حيث تحركت دواعي الشوق والغرام: [من الخفيف]

بِمَقامِ الخليلِ مِنْ حَبِرونِ — غَلَبَ الشَّوْقُ واعْتَرتْني شُجوني
وَبَدا النُّورُ ساطِعاً مِنْ بَعيدِ — دُهِشَتْ منه ناظِراتُ العُيونِ
والفَلاَ مُشْرِقٌ بأرْواحِ قَوْمٍ — جَذَبَتْنا لهمْ حِسانُ الظُّنُونِ
فَقَطَعْنا لنَحْوِهم كُلَّ أَرْضٍ — صَعْبَةِ الوَعْرِ غِبَّ غَيْثٍ هَتُونِ
وَطَوَيْنا مَفاوِزاً وَقِفاراً — بِخُيُولٍ مُضَمَّراتِ البُطُونِ
كانَ يَوْمَ الخَميسِ يَوْمَ سَرَيْنا — بِخَميسٍ عَرَمْرَمٍ مَيْمُونِ
ثُمَّ لاحَتْ لنا الخِيامُ فطِبْنا — بِشُجَيْراتِهنَّ ذاتِ الفُتُونِ
وطَرِبْنا عَلَى السَّماعِ وهِمْنا — مِنْ لقاهم بأكْؤُسِ الزَّرَجُونِ[136]

---

[136] - الزَّرَجون، محركةً، الخمر (القاموس: زرن)

يـا سَـقَى اللّهُ أرْضَ حَبْـري ووادي	ذلـكَ الــشّعْب بغيــة المفتــونِ
وَرَعَــى ثَــمَّ مَنْــزلاً وَمَقامــاً	لخليــلِ الإلـــه ذاكَ المَـــصونِ
وَأَبُـو الأنْبيـاءِ والرُسْـلِ مَـن قَـدْ	حَـرَّكَ الوَجْـدُ في هـواهم سـكوني
سـاكني الغـارِ يـا أُهَيْـلَ غرامـي	يـا جَـلاءَ الكـروبِ للمَحْـزونِ
حُـبّكمْ مَـذْهبي وخـالصُ ديـني	واعْتقــادي ومِلّــتي فـاقْبلوني
هــذه مُهجــتي تَحِـنُّ إلـيكم	فَعَـسى بالرِّضَـا تُفَـكُ رُهـوني
إنّــني العَبْـدُ للفـني وقَـصْدي	نَفْحَــةٌ مِــن رضــاكم المكنــونِ
صَـلَواتُ الإلــه تَتْـرى علَـيْكُمْ	مَــع سـلامٍ مُرَتّــبٍ مَـوْزونِ
وَعلَـى الأنْبيـاءِ والرُسْـل جمعـاً	بَعْــدَ طــه نَبينــا المَــأمونِ
ما سَرَى الـرّيحُ في الريـاضِ وَغَنّتْ	سـاجعاتُ الحَمـام فَـوْقَ الغُـصونِ
أو بَـدا الفجـرُ بالـضّيا بَعْـدَ ليـلِ	كاشِـفاً بـالظُهورِ سـترِ الكمـونِ

ثم قبل دخولنا إلى البلد خرج إلى لقائنا أهلها منهم الشيخ أحمد بن الزرو القادري وأخوه الشيخ عمر، ومنهم الشيخ حسين من ذرية الإمام الغزالي، وغيرهم من أهل تلك البلاد.

مسجد الخليل

فأول ما دخلنا إليه مسجد الخليل عليه السلام. ووقفنا عند مزاره، نحن وإخواننا، وبقية الناس. وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى بما تيسر لنا من الدعاء.

ثم زرنا زوجة الخليل، عليهما السلام، في مزار قبالته، وزرنا قبر ابنه إسحاق الغيور، وقبر زوجة إسحاق، في مقابلته واسمها ليقة.

وزرنا مقام آدم أبي البشر عليه السلام.

ثم ذهبنا في ذلك المسجد أيضاً فزرنا في رواقاته قبر يعقوب، وقبر زوجته في قبالته، وقبر ابنه يوسف عليهم السلام.

ثم خرجنا فأنزلونا في الزاوية القادرية، وحضر عندنا في تلك الليلة جماعات القادرية، وعقدوا مجلس الذكر على عادتهم، وصار وقتاً عظيماً وحالاً جسيماً.

اليوم الخامس والستون

7/3/1105هـ=2/12/1693م

مزار علي البكَّاء

وبتنا تلك الليلة في أكمل سرور، وأتم حبور، إلى أن أصبح صباح يوم الجمعة، وهو اليوم الخامس والستون، سابع شهر ربيع الأول، ذهبنا إلى زيارة الشيخ علي البكّاء رحمه الله تعالى، فدخلنا إلى مزاره، في جامعة المعمور، وقرأنا له الفاتحة، ودعونا الله تعالى بما لنا ولإخواننا من مهمات الأمور.

مغارة إبراهيم بن زقاعة

وذهبنا إلى زيارة مغارة الشيخ إبراهيم بن زُقّاعة[137] صاحب الديوان المشهور، ويقال أنها هي المغارة التي رأى إبراهيم الخليلَ، عليه السلام، فيها ومعه أولاده والأنبياء عليهم السلام، وهم يعملون العصيدة فنظم قصيدة السينية المشهورة من بحر كان وكان لأجل ذلك التي أولها:

يا طابخين العصيدة دمعي عليكم كاللبن والقلب مني مقلّى بالهجر كالقلقاس

مغارة الأربعين

ثم خرجنا وصعدنا إلى مغارة الأربعين، وهناك شجرة كبيرة جداً، وتحتها صفّة مبنية، فجلسنا هناك حصةً من الزمان، وجاؤوا لنا بما تيسر من الزاد، فأكلنا، وشكرنا الله تعالى المنان.

صلاة الجمعة في حرم الخليل

ثم حضرنا صلاة الجمعة في حرم الخليل عليه السلام، وزرنا الأنبياء الكرام، بغاية الإجلال والاحترام، ثم أتينا إلى منزلنا، وقلنا من النظام، على حسب ما اقتضاه المقام: [من الخفيف].

---

(137) - هو إبراهيم بن محمد بن بهادر بن احمد بن عبد الله القرشي النوفلي الغزي الشافعي ويعرف بابن زُقّاعة، برهان الدين، عالم في القراءات والنجوم وطرف من الكيمياء ولد سنة 724 وقيل 745هـ وتوفي سنة 816هـ وقيل 818، له القصيدة التائية في وصف الأرض تجاوزت الف بيت، وله ديوان شعر ومؤلفات اخرى وانظر ترجمته في الضوء اللامع 130/1-134، والمنهل الصافي 152/1-157، ومعجم المؤلفين 89/1.

لا تَلُمْــــني إنْ الـــــسماعَ يُقيــــتُ وهـــو يُحْيــــي بطيبـــه ويُميـــتُ
وَهْـــوَ بـــابٌ لبيـــتِ سِــرِّ عَظِـــيمْ بيــــت حَـــقٍّ جـــدارُه التَّثبيـــتُ
نَفَحـــاتٌ مِـــن الغُيُـــوب تَبَـــدَّتْ بَــثُّ مِــسْكٍ مِنْــه لَــدَيْنا حَتيـتُ[138]
وَعَلَـــى الجـــاهلينَ ريـــحٌ كَريـــهٌ فـــائح منــــه عِنْــدَهُمْ كِبْريـــتُ
وَالَّـــذي عِنْـــدَهُ هَـــزازٌ وَنُـــومٌ لَـــمْ يُغَيِّـــرْهُ مِنْهُمـــا التَّـــصويتُ
حَيَـــوانٌ في الطَّبْـــعِ لا إنْـــسانٌ وَهْـــوَ حَـــيٌّ وفي الحقيقـــةِ ميـــتُ
حَبَّـــذا حَبَّـــذا سَـــماعُ الأغـــاني والنَّـــشيدُ الـــذي إليـــه دُعيـــتُ
تَنْثَنـــي بـــه الرجـــالُ انْطِرابـــا كغُـــصونٍ لهـــا الـــصَّبا قـــال هيـــتُ
ســـيَّما والـــدُّفوفُ مُنْطرِقـــاتٌ والمَـــزاميرُ مـــا لهـــا تَفْويـــتُ
وفَـــمِ النَّـــايِ نـــافِعٌ بِثَنايـــا منـــه لاحَ المُحْيـــي بنـــا والمُميـــتُ

مجلس ذكر للقادرية

ثم حضر عندنا جماعة القادرية وأقاموا مجلس الذكر والسماع على أتم حالة مرضية.

اليوم السادس والستون

8/3/1105هـ=3/12/1693م

ثم طلع صباح يوم السبت السادس والستين، وهو الثامن من شهر ربيع الأول، فذهبنا إلى الحرم الشريف، وصلينا صلاة الصبح مع الجماعة، وزرنا حضرات الأنبياء الكرام، عليهم السلام، وحصلنا على كمال الطاعة.

مسجد اليقين

ثم سرنا نحن والإخوان وبقية من معنا من أهل القدس والخليل، من كل محب وخليل؛ إلى زيارة مسجد اليقين خارج بلاد حبرون، فسلكنا في ذلك الطريق الوعر،

---

[138] - من (حَتَّه: إذا فركه وقشره) القاموس (حتّ).

وهاتيك الأماكن التي تسرح فيها العيون، حتى وصلنا إلى مسجد اليقين. وزرنا فيه أقدام الأنبياء عليهم السلام، وحصل لنا إن شاء الله تعالى كمال اليقين. وزرنا بنات لوط عليه السلام في غار هناك معروف.

وفي المسجد قدم إبراهيم الخليل. غائص في صخر بالبركة موصوف.

قال الشيخ الأكبر العارف المحمدي محيي الدين بن العربي قدس الله سره في رسالة صنفها في مسجد اليقين عند زيارته له، سماها (رسالة اليقين) بيّن فيها معنى اليقين في اصطلاح الأولياء المتّقين. ثم ذكر في آخرها: (إنه كان السبب في إنشائي لهذا الكتاب، أني زرت الخليل عليه السلام، ثم خرجت من عنده قاصداً إلى زيارة لوط عليه السلام، أنا وصاحبي الشيخ العارف الصوفي ضياء الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك بن مطرف المري، وعفيف الدين أبو مروان عبد الملك بن محمد ابن حافظ القيسي، فمررنا في طريقنا بمسجد اليقين موضع إبراهيم عليه السلام، فأقام الله في خاطري أن أضع جزءاً في اليقين في هذا المسجد المعروف باليقين فاستخرت الله وقيّدتُ هذا الجزء بالموضع المذكور في يوم الزيارة، وذلك يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال سنة اثنتين وست مائة، وأسمعته صاحبي بقراءتي، وصلينا الظهر في ذلك الموضع، وانصرفنا إلى لوط عليه السلام، نفعنا الله وإياهما، وجميع المسلمين بالعلم آمين. بعزته. وكان السبب الذي سمى هذا الموضع مسجد اليقين أن الخليل إبراهيم عليه السلام، كانت الملائكة التي بشّرته بإسحاق عليه السلام، قد نزلت بذلك الموضع، وأخبرته أنها تشير إلى لوط بإهلاك قومه، وأمروه بلزوم ذلك الموضع حتى يأتي إليه لوط عليهما السلام، فلم يزل بذلك الموضع حتى أبصر مدائن قوم لوط في الهواء وسمع ضجيجهم وهو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[139] فعندما أبصر ذلك سجد لله في هذا الموضع، وآثر نزوله في القفز، وقال: أشهد أن هذا هو الحق اليقين، فسمي مسجداً لأنه موضع سجدته تلك، وسمي اليقين لقوله هذا هو الحق اليقين. وفي موضع سجوده أنشأت هذا الكتاب ولهذا سميناه بهذه الاسمية ورأينا أن نتكلم فيه على اليقين دون غيره من المقامات للمناسبة التي أعطاها هذا الموضع). انتهى كلامه.

وفي قوله: (مسجد لله في هذا الموضع) و(آثر نزوله في القفر) إشارة إلى أن هذا المسجد المبني الآن لم يكن يومئذ، وإنما عمر بعد ذلك، وإنما كان في موضع قفر أي خال من البنيان إلى زمن الشيخ الأكبر قدس الله سره.

---

[139] - سورة هود 12/11/ وسورة الحجر 74/15.

وقوله: (قبل ذلك في هذا المسجد المعروف باليقين(يشير به إلى أنه كان معمراً مبنياً.

ولكن قوله (فسمي مسجداً لأنه موضع سجدته) تلك إشارة إلى أنه استمر بغير بنيان إلى زمن الشيخ قدس سره.

شعر في مسجد اليقين

وقد قلنا غِبَّ الزيارة من النظام، في الثناء والتبرك بذلك المقام: [من الرجز]

لَقَدْ أتَيْنا مَسْجِدَ اليَقينِ ... بالصِّدْقِ والإخلاص واليَقينِ

وزادنا الله به اعْتِقاداً ... من كُلِّ سُوءٍ في الوَرَى يَقيني

حَتّى دَخَلْنا مِنْه في بيتِ الرِّضا ... والعِزِّ والإنعام والتَّمكينِ

مَعَ سادَةٍ ائِمّةٍ كِبارٍ ... من كُلِّ شَهْمٍ في التُّقى أمينِ

وقد تَبَرَّكْنا بآثارٍ بَدَتْ ... من قَدَمِ الخَليلِ بالتَّعْيينِ

في صخرةٍ لانَتْ له لما دَعا ... من فَوْقِها كاللّينِ في العَجينِ

وَغارُ ريّاتِ العَفافِ والحجا ... بناتِ لوطٍ مثل صورِ عينِ

ثَوَيْنَ في ذاك المكان فامتلا ... منهن بالسِّرِّ لنا المُبينِ

والنُّور منه مُشْرِقٌ كأنَّه ... شمسُ النهارِ ليس بالضَّنينِ

وَخَصَّنا اللهُ بما قَدْ خَصَّنا ... وعَمَّنا بحفْظِه المَتينِ

وَنَرْتجي القبولَ منه كُلّنا ... في كُلِّ حالةٍ وكلِّ حينِ

ثُمَّ الصلاةُ والسلامُ دائماً ... على النَّبيِّ المُصْطَفى الأمينِ

ثُمَّ الخَليلِ والكليم بعْدَه ... وما حَواهُ الغارُ في الكمينِ

والأوليا والصالحين كُلِّهم ... أهل التُّقى والأجْتبا والدِّينِ

ما فاحَ من عَبْدِ الغَنيِّ نَفْحةٌ ... من الثَّنا كالجَوْهَرِ الثَّمينِ

وما شَمَمْنا الطِّيبَ من ذاك الفَلا ... مَعَ النَّسيم فاحَ كالنَّسْرينِ

وما تَبَدَّتِ البُروقُ بالحِمَى ... تَلوحُ في اليَسار واليَمينِ

قرية كَفْر البَرِيك

ثم سرنا من ذلك المكان، نحن ومن معنا من الأصحاب والخوان، إلى أن وصلنا إلى قرية كَفْر البريك ـ بفتح الكاف، وسكون الفاء، وفتح الباء الموحدة، وكسر الراء ـ فدخلنا إلى ذلك الجامع، الذي هو بأنوار النبيين لامع. وزرنا قبر نبي الله لوط عليه السلام، وقرأنا الفاتحة. ودعونا الله تعالى مع غاية الإجلال والاحترام؛ وزرنا الغار الذي هنا في داخل الجامع، ويقال إنه دُفن فيه أربعون نبياً على حسب ما تلقته المسامع؛ وقد أكرمنا أهل تلك القرية، وأضافونا بما تيسر مما تحصل به البغية؛ فقلنا في ذلك الوقت، مما تندفع به أسباب المقت: [من الخفيف].

زُرْ بكَفْرِ البَرِيكِ تُرْبَةَ لُوطٍ	وَتَمَتَّعْ بطيبِ ذاك الحَنُوطِ
وَتَمَسَّكْ من الرِّضا بحِبالٍ	فيه مُدَّتْ من الرِّحال خُيوطي
وَتوسَّلْ تَنَلْ به كُلَّ أمْرٍ	بشُرُوطٍ من الدُّعا مَشْرُوطِ
هذه الحَضْرةُ الشَّريفةُ قَدْراً	لَيْس فيها الجلال بالمَضْبُوطِ
تَمْلأُ الصَّدْرَ هَيْبَةً وَوَقاراً	في ذُرَى مَسْجِدٍ بنُورٍ محوطِ
كَيْفَ لا وَهْوَ نورُ لوطٍ نبيِّ الـ	ـله سِرِّ الصعودِ سِرِّ الهبوطِ
مَنْ تَسامَّ به الرحابُ افْتِخاراً	وَتَباهَتْ بعهدِهِ المَرْبُوطِ
شَرَفٌ دونَهُ الكَواكِبُ حطَّت	وعَنِ العَرْشِ ليس بالمخطوطِ
قَدْ أتَيْنا إلَيْهِ من هَضَبَاتٍ	لَيْس فيها الطريقُ بالمخطوطِ
وقِفارٍ بها مَسالِكُ وَعْرٍ	كبحورٍ مستبعدات الشُّطوطِ
ثُمَّ جئنا إلى الحِمَى وَدَخلنا	وسَعِدْنا من الحيا بالنُّقوطِ
وَامْتَلأنا تَبَرُّكاً وابْتِهاجاً	بسَنا الغارِ والْتِماسِ الخُطوطِ
وَعَلَى ذلكَ النبيِّ صَلاةٌ	مع سَلامٍ من الرِّضا مَخْروطِ
قامَ عَبْدُ الغني يُعْلِنُ منه	بِغِنا بُلْبُلِ الرُبا فَوْقَ خُوطِ
أمَدَ الدَّهْرِ ما أضاءَ صَباحٌ	وكُؤُوسُ الصبا بها الغُصْنُ عُوطي

قبر الشيخ إبراهيم الهدمة

ثم توجهنا من ذلك المكان بعد استيفاء الزيارة مع الإخوان وسرنا حتى مررنا على قبر الولي المعروف بالشيخ إبراهيم الهدمة في رأس جبل عالٍ، ورأينا كوكب سره المتلالي؛ فوقفنا وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى الكريم المتعالي.

قرية سيعير

ثم لن نزل سائرين من غير تقصير، إلى أن وصلنا عشية النهار إلى قرية سيعير . بكسر السين المهملة، بعدها ياء مثناة تحتية، ثم عين مهملة مكسورة، ثم ياء مثناة تحتية، ثم راء . قرية من قرى بلاد الخليل فاصلة بين أرض الخليل وأرض بيت المقدس. فنزلنا هناك، ودخلنا إلى ذلك الجامع المبارك بمعونة الله تعالى وتبارك.

قبر العيص أخي يعقوب

وزرنا فيه قبر العيص أخي يعقوب ابني إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، والعيص هذا هو جد الروم، كما ذكر الشيخ العيني الحنفي في كتابه: (عمدة القاري في شرح البخاري) قال: الروم هذا الجيل المعروف. قال الجوهري: هم من ولد الروم ابن عيص. وقال الواحدي: هم جيلٌ من ولد آدم بن عيص بن إسحاق عليه السلام، غلب عليهم فصار كالاسم للقبيلة إلى آخر ما ذكره.

وفي القاموس[140]: (العِيص بالكسر: الشجر الكثير الملتفّ، والجمع عيصان وأعياص.. وعيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام). انتهى.

ولنا من النظم غبُّ الزيارةِ، وحصول التبرك والاستنارة: [من الخفيف]

سكَنَ العِيصُ في رُبا سِيعيرِ	في ضريحٍ بالسرِّ ثَمَّ مُنيرِ
قريةٌ من قُرى الخليل تَسامَتْ	بمزاياهُ والمقامِ الخَطيرِ
يا بنَ إسحاقَ أيها العيص يا مَنْ	هُوَ من كُلِّ ما أخافُ مُجيري
قُويتْ عُصبةٌ أتتْكَ ضعافٌ	بمزايا كمالِكَ المُستَنيرِ
وقلوبُ الركابِ بالشَّوقِ طارتْ	من صغيرٍ لَقَدْ أتى وكَبيرِ

---

[140] - انظر القاموس (عيص)

وَالفَــلا مُــشْرِقٌ بــأَنْوارِ قُــدْسٍ　　لامعــاتٌ مــن المقــامِ الــشهيرِ

حَـضَراتٌ بهــا ذوو القُــرْبِ غابَـتْ　　بقَـــضاءِ الإلـــهِ والتَّقْـــديرِ

لَـــمْ تَـــزَلْ الملائـــكُ فيـــه　　فـوقَ ذاكَ الـضَّريحِ فـوق الـسَّريرِ

وَرَأَيْنــا شــواهدَ القُــرْبِ منــها　　مثلَ شَمْسِ الضُحَى على التَّصْويرِ

آلِ ذاكَ الخليــلِ دامَـــتْ علــيكم　　صــلواتٌ مَــعَ البَـشيرِ النَّـذيرِ

أحْمَــد المُــصْطَفَى وآلٍ وصــحبٍ　　هُــمْ مــوالي عَبْــدِ الغَــني الفَقــيرِ

مــا تَعالَــتْ مــن الخليــلِ جبــالٌ　　هَــب منــها ريــحُ القَــرارِ العَطــيرِ

أوْهَفَــتْ بينــها الــبروقُ وَغَنَّــتْ　　ســاجعاتُ الرُبــا بحُــسْنِ الهَــديرِ

ثم عدنا إلى بلاد الخليل من غير ذلك الطريق الأول، وقد نزل علينا مطر بالعشي، وهو بكل خير يتأول؛ فنزلنا في مكاننا بالزاوية القادرية، وبتنا تلك الليلة في أكمل سرور على أتم حالة مرضية.

اليوم السابع والستون

9/3/1105هـ= 4/12/1693م

ثم حتى أصبح صباح يوم الأحد السابع والستين، وهو تاسع شهر ربيع الأول، فصلينا صلاة الصبح بحرم إبراهيم الخليل عليه السلام، وزرنا قبور هاتيك الأنبياء الكرام، وودعناهم، وسرنا على بركة الله تعالى، وخرج معنا أهل البلاد للوداع، حتى قرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى، وتفرق منا ذلك الاجتماع.

قرية حلحول

ومررنا في الطريق على قبر نبي الله يونس عليه السلام في قرية حلحول من قرى بلاد الخليل، فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى، وبالقرب منه قبر والده مَتّى . بفتح الميم وتشديد التاء المثناة الفوقية مقصوراً . وقيل إن متى اسم أمه. قال الشيخ رضي الدين ابن أبي اللطف المقدسي[141] في شرح النبوية عند شرح قول الناظم[142]: [من البسيط].

---

[141] . هو محمد بن يوسف بن ابي اللطف، الشيخ رضي الدين المقدسي قدم دمشق سنة سبع وتسعين وتسع مئة وصحب الشيخ حسن البوريني فاستفاد منه وأخذ عنه وله عدة مؤلفات توفي في بيت المقدس سنة ثمان وعشرين بعد

نَبْـذاً بــه بَعْـدَ تَــسبيحٍ ببطنِــهما   نَبـذَ المُـسَبِّحِ مـن أحْـشاءِ مُلْـتقمِ

ومرقد يونس عليه السلام فيما اشتهر بقرية حلحول بالقرب من مدينة سيدنا الخليل عليه السلام، وهو مكان مانوس، مشرق بالأنوار، وبالقرب منه قبر والده متى، ولأهل ديارنا فيه اعتقاد كبير حتى إن عوام الناحية من سائر القرى إذا أرادوا تغليظ اليمين على أحد توجهوا به إلى قبره، فلا يتجاسر على الحلف، ولو على القتل لما عهدوا مراراً من إصابة البلاء لم يحلف هناك كاذباً، نفعنا الله ببركاته آمين. انتهى كلامه.

ثم سرنا إلى البرك، ونزلنا بقرب القلعة، وأكلنا ما تيسر مهنا من الزاد على وجه السرعة.

قرية بيت لحم

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى قرية بيت لحم، من أعمال بيت المقدس، وزرنا هناك في تلك الكنيسة مولد عيسى عليه السلام، وموضع النخلة والمهد، تبركاً بآثار النبي المعصوم، وتيمناً بذلك المهد، ولله درّ الشهاب الخفاجي، حيث لم يزل للرقة واللطافة يناجي؛ وهو من ديوانه المشهور، الذي هو بالفصاحة معمور، وبالبلاغة مغمور فقال: [من الوافر]

أرَى البيـتَ المُقَـدّس صـاد قَلْـبي   ومـا حـرم حـواه غـير جـسمي

فأشْـرَقِ ربُنـا مـشكاةَ نُـورٍ   بـلا نـارٍ لـه ليزيـلَ وَهمـي

وَرُوحُ القُـدْسِ فيـه لـه قـرارٌ   ومَوْلِـده بـه في بيـت لحـمِ

شعر في الأرغلا

وقد أضافنا هناك بعض الرهبان، بما تيسر من الزاد نحن ومن معنا من الإخوان، وأسمعونا فيه صوت الأرغلا، فكأنهم استنطقوا شحروراً وهزاراً وبلبلاً؛ وما أحسن في هذا المقام تشريف لساني، بما أنشده جناب العارف الكامل عفيف الدين التلمساني؛ قدس الله تعالى سره، وأعظم في الدارين مقره؛ حيث قال: [من السريع]

بِتْنـا يُغَنّينـا الهَـزارُ الـذي   يُطْـربُ بـاللّحْنِ إذا مـا تَـلا

الألف وانظر ترجمته في لطف السمر 1/164-172، وخلاصة الأثر 4/272-273، والأعلام 8/31، ومعجم المؤلفين 12/134.

(142) - هذا البيت احد ابيات البردة للبوصيري انظر ديوانه 243

وَيَجْمَــع الأنْعــامَ في صَــوْته　　كَأنَّمـا يَـستَنْطِقُ الأرْغُــلا

وقلنا في ذلك العهد من النظام، ما تتنبه له عيون الأفهام: [من الرمل]

قَــدْ سَــمِعْنا نَغَمــات الأرْغُــلا　　وَهُــوَ بــالأرْغُون يُــدْعى في المَــلا

فَــسَمِعْنا كُــلَّ صَــوْتٍ مُطْــرِب　　ضِــمن صَــوْت واحِــد قَــدْ حَــصَلا

نَغَمــاتٌ جُمِعَــتْ في نَغْمَــة　　بتَفاصِــيلٍ تَبَــدَّتْ جُمَــلا

صَــوْتُ طنبــورٍ وســنطير معــاً　　وَربــابٍ ثــم مِزْمــارٍ تَــلا

مَــعَ طَبْــلٍ ودُفــوفٍ طُرِقَــتْ　　وَصُــنوجٍ تَتَغَنَّــى زَجَــلا

آلَــةٌ تَجْمَــعُ آلاتٍ فمــا　　هُــوَ إلا عــبرة للنُّــبَلا

ولــه صــورةُ صَنْــدوقٍ بــه　　حــارت الأفْكــارُ بَــيْنَ العُقَــلا

مَجْمَــعُ الأســرارِ لا يعرِفُــه　　غــير قَلْــب بالإلــه اشْــتَغَلا

وذوو الكُفْــرِ وإنْ هــاموا علــى　　صَــوْته بالوَجْــدِ قَــوْمٌ جُهَــلا

سَــمِعُوهُ بنُفــوس طُمِــسَتْ　　وقلــوب عنــه ضَــلَّتْ خَلَــلا

عَمِلُــوا في ضَــرْبه أيْــديهمُ　　فَيَمُــدُّونَ عَلَيْــه الأنْمُــلا

وَلَهُــمْ جَــذْبٌ علــى أوْزانــه　　بيــديهم إن عَــلا أو سَــفلا

وهــو ســرٌّ مــن الســت اشْــتَمَلَتْ　　حَكمَــةٌ فيــه عَلَــى قَــوْلِ بَلَــى

قَــدْ أخَــذْنا منــه عِلمــاً رَقَّ في　　سَــمْعِنا يدريــه مَــنْ قَــد كَمــلا

وإشــارات إلى الــذات ومــا　　تَقْتَــضِي الأسْــماء مِمــا عَمــلا

كــلُّ هــذا حاصِــلٌ في زمــنٍ　　واحِــدٍ فَلْيعتَــبر مَــنْ وَصــلا

يأكُــلُ اللُّــبَّ وَيَرْمــي القَــشْرَ في　　وجــهِ مَــنْ بــاللَّهْوِ عنــه غَفَــلا

اليوم الثامن والستون

1105/3/10هـ= 1693/12/5م

مدح عطاء الله

فلما أصبحنا في يوم الاثنين الثامن والستين، وهو عاشر شهر ربيع الأول، عملنا هذه القصيدة، تمسكاً بحبال المودة العتيقة الجديدة؛ مدحاً في جناب المولى الهمام،

سليل العلماء الكرام، حضرة عطاء الله أفندي ابن جوى زاده القاضي بمدينة القدس الشريف المذكور سابقاً ودعانا فذهبنا إلى جنابه، وانشدنا هذه القصيدة بخطابه: [من الكامل]

أعْطيتَ فَضْلاً يا عَطاءَ اللهِ ... ما عنه يَوْماً ذُو حجاً بالْلاهي
وسَمَوْتَ بينَ الأكْرَمينَ مَراتباً ... وَعَلى النُّظائرِ فُقْتَ والأشْباهِ
وَبِكَ المَوالي في الورى رُفعت لها ... راياتُ طيبِ الأصْلِ فَوْقَ جباهِ
وَلَها شَواهدُ في الوَرَى وَدَلائلٌ ... من مُقْتَضَى الفعْلِ الجميلِ الباهي
لا يستطيعُ المَدْحُ يَدْرِكُ شأوَ مَنْ ... هُوَ عَنْ عُلاه لَيْس بالمُتَلاهي
رَجُلٌ إذا قابَلْتَهُ لم تدْرِ هَلْ ... هُوَ شَمْسُ أفْقٍ أمْ هِلالٌ زاهي
يَسْمُو به البيتُ المُقَدْسُ قاضياً ... بالحقِّ أشْرَفُ آمرٍ أوْ ناهي
حَصَلَتْ به البَرَكاتُ في بَلَدٍ بها ... هُو آخذٌ بيَدِ الضَّعيفِ الواهي
وَالقُدْسُ أصْبَحَ أهْلُها في فرحةٍ ... منه وَخَيرٍ ليس بالمُتَناهي
وَعَلى يَدَيْه جَرَتْ لهم أحْكامُهُ ... بالعَدْلِ لَيْسَ لَهُ سواهُ يَضاهي
لا زالَ مَحْفوظَ الجَنابِ مُؤَيَّداً ... بالعزِّ في الدنيا رَفيعَ الجاهِ
ولهُ المناصب كالمنازل في السما ... متنقلاً فيها بغير تلاهي
كالشَّمْسِ في الأفلاكِ تُشْرِقُ دائماً ... فينا عَلى مُتَيَقِّظٍ أوْ ساهي
وَبنوهُ مَحْفُوظونَ من كُلِّ الأذى ... طُولَ الزَّمانِ لَه بحفظ الله
وَدُعاءُ أهْلِ الوَقْتِ يُنْجحُ قَصْدَهُ ... بقَلْبٍ بهم أبَداً وبالأفْواهِ
وَخَواطِرُ الفُقَهاءِ ناصِرَةٌ لَهُ ... مِنْ كُلِّ صَبْرٍ صادقٍ أوّاهِ
والصَّالحونَ رَجاؤُهُم في نَيْلِ ما ... يَرْجُو وَلَونُ الحوض لون مياهِ
دَامَتْ عليه عنايةٌ من رَبِّهِ ... مَدْفوعَةً عنه جميع دواهي
والعِزُّ يَخْدُمُ بابَهُ وجَنابَهُ ... في فَضْلِ حُكْمِ أوامرٍ وَنَواهي
ما خَصَّهُ عَبْدُ الغَنيِّ بمدْحَةٍ ... غَرَّاء تُلْهي عن سَماعِ مَلاهي

أَوْ غَــرَّدَتْ فَــوقَ الغُـصُونِ حَمَــائِمٌ ... قَالَــتْ لهَــا أَهْــلُ المَحبَّــةِ آهِ

وسَرى النَّسيمُ عَلَى الرِّياضِ عَشيَّةً ... مُتحَرِّشــاً بِفَلائِــلِ الأَمْــواهِ

شوق إلى المعالم الحجازية

ثم صلينا الظهر بالحرم القدسي الشريف، وزرنا الصخرة المباركة ذات القدر المنيف؛ ودخلنا إلى المسجد الأقصى، الذي هو أبعد عنهن كل رجس وأقصى.

ثم عدنا إلى المنزل، والشوق إلى المعالم الحجازية يصعد وينزل؛ ثم بعد صلاة العصر ذهبنا إلى ضيافة قريبنا الفاضل، أكمل الأفاضل؛ الشيخ محمد ابن جماعة الخطيب، الذي يقوم على منبر المسجد الأقصى كما يترنم في عوده العندليب؛ فذهبنا معه إلى مسكنه مدرسة الجوهرية، فتلقانا بوجهه الرحيب، وكان مجلساً حافلاً بالعلماء والأفاضل، أولي الكمالات والفواضل.

ثم نزلنا إلى الحرم الشريف وصلينا المغرب بالجماعة، ثم عدنا إلى منزلنا نتقلب في ملابس العبادة والطاعة.

مكاتيب من دمشق

وفي هذا اليوم المبارك جاءتنا المكاتيب، من جهة دمشق الشام بأنواع الأخبار وغرائب الأعاجيب؛ ففرحنا غاية الفرح، وزال الهم والترح.

1 . مكتوب يوسف بن النابلسي

فمن ذلك مكتوب أخينا شقيقنا العلامة، العمدة الفهامة: الإمام الهمام، والفاضل الكامل المقدام؛ الشيخ يوسف بن النابلسي[143] الحنفي أمين الفتاوى. بدمشق الشام، عليه رحمة الملك العلام؛ وسيأتي ذكر موته في محله ثالث الأقسام، وذكر فيه أن ولدنا الشيخ إسماعيل[144] يريد أن يتوجه إلينا، فيطلب منا تعيين بلد الاجتماع، حتى كتبنا له الجواب

---

[143] - هو يوسف بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل الدمشقي الحنفي الشهير كأسلافه بالنابلسي ولد بدمشق سنة 1054هـ صار امين الفتوى عند المفتي احمد بن محمد الحلبي المهنداري مفتي الحنفية بمشق، وارتحل إلى الحجاز بصحبة اخيه الأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الكبرى . هذه . وتوفي في طريق العودة من الحج في اخر سنة 1105هـ ودفن هنالك وانظر سلك الدرر 4/246- 247

[144] - هو إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل عبد الغني بن إسماعيل، ابو الفداء، ركن الدين الدمشقي الصالحي

بأن ذلك يكون إن شاء الله تعالى في غزة المحروسة ونحن الآن في القدس الشريف خير البقاع، فإن السياحة تقتضي الجولان بالانخفاض والارتفاع.

2 ـ مكتوب صادق بن محمد الشهير بابن الخراط

ومن ذلك مكتوب ولدنا الروحاني، الفاضل الكامل الرباني، الشيخ صادق محمد ابن مفخر الأعيان، وخلاصة أبناء الزمان؛ الشيخ محمد الشهير بابن الخراط[145]، وهذه صورة ما كتبه لنا بسبب ما بيننا من الارتباط.

بسم الله، الحمد لله، يا غني يا تواب، صَلِّ على زين الأحباب؛ وعلى آله والأصحاب، وسلم تسليماً، وزِدْه شرفاً وتعظيماً: [من المتقارب]

وَلَمَّا نَأَيْتُمْ وَلَمْ أَسْتَطِعْ	أسيرُ لحضْرَتِكُمْ بالقدم
وصلت إليكم بشوق نما	وخاطبتكم بلسان القَلَمْ

وفي رواية، بحسب مقتضى الدراية؛ مكان ذلك، على قدر ما هنالك أسير لحضرتكم بالعجل، وخاطبتكم بلسان الغزل.

نفحة إيمانية وهدية إحسانية : [دوبيت]

مَوْلايَ سواكَ لَيْسَ في الوجدان	فالعالَمُ ما بدا به شَمْسان
المَيْلُ إلى سواكَ عِنْدي شِرْكٌ	يا ربُ فأبْقني عَلَى الإيمان

قال لسان الغرام، في ساعة الهيام: [من الخفيف]

يا أنيسَ القلوبِ أوْحَشْتَ حِبّاً	صَبْرُهُ مُذْ نأيْتَ عَنْه قَليلُ
غبتَ يا سيِّدي عَنِ العَيْنِ لكِنْ	في صَميمِ الفُؤاد أنْتَ نزيلُ
طِبْتَ يا سيِّدي حياةُ فَرُوحي	بعد ما غبتَ طِبُّها مُسْتَحيلُ

الحنفي المشهور كأسلافه بالنابلسي مولده في رمضان سنة 1079هـ ونشا في حجر ابيه، واقراه العلوم وكان في صحبته في الرحلة الكبرى . هذه . فاستجاز له من علماء الحجاز وحين توفي ابوه وجهت له وظائفه وله عدة مؤلفات وتوفي في اواخر سنة 1163هـ وانظر سلك الدرر 256/1، والورد الأنسي ل 240-242

(145) - هو صادق بن محمد بن حسين بن محمد الشهير بابن الخراط الحنفي الدمشقي، ابو الصدق، جلال الدين ولد بدمشق ونشأ بها واخذ عن فضلائها، وكان احد تلامذة الشيخ عبد الغني النابلسي وصهره على بنته زينب، وكان يتولى نيابة محكمة الباب، ودرس بالمدرسة العمرية مدة طويلة وتوفي في دمشق سنة 1143 في العام والشهر الذي توفي فيه الشيخ عبد الغني النابلسي وانظر سلك الدرر 192/2-199، والورد الأنسي ل: 127.

حالة المشتاق، بعد يوم الفراق: [من الخفيف].

لا رَعَى اللهُ لَفْظَةً قد تَقَضَّتْ	في كلامٍ لغيرِ ذكرك يُرْوَى
ثمّ لا سَلَّمَ الإلهُ زَماناً	يا حَبيبي بغيرِ وَصْلِكَ يُطْوَى
وَبَلَا اللهُ بالتَّقَطُّعِ قَلْباً	يا أنيسي لغيرِ ذاتك مَثْوَى

سجعت بلابل الأشواق، على فَنن قلب المشتاق؛ وصاح حادي الأرواح، لما اشتاقت إلى الأشباح؛ لقد ذبتُ من ألم الفراق والبين، فمتى تقرّ العين بالعين، وأقول عند اجتماع الأجساد، أهلاً بأهل الوداد؛ وتعود ليالينا مع تلك الأيام، التي سرت كطيف الأحلام: [من الطويل]

لَيالِيَ وَصْلٍ لَوْ تُباعُ شَرَيْتُها	بروحي وَلكِن لا تُباعُ ولا تُشْرَى

وَيَتَملّى العبدُ الذليلُ بمشاهدة السيد الجليل ويشفى بالقرب والاتحاد داء البين والبعاد؛ وتلوح تلك الأنوار، من وراء الأستار؛ وتجلى تلك الذات، الكاملة الصفات؛ فيشاهد الصب المستهام سناها، ويشرح مبدأ قصة الشوق ومنتهاها؛ ويخبر بما فعله الوجد والجوى، في أيام البعد والنوى؛ وما لقيه المشتاق، في صبيحة يوم الفراق؛ من دموع تعندَمت وحنين، وانتحابٍ ولوعة وأنين؛ حتى وصل إلى حالة تمزق القلوب، وتشق الأفواه قبل الجيوب، وما زال كذلك، يقاسي غصص المهالك؛ إلى أن سمع منشداً، من غربي ذلك الوادي؛ وهو يشدو ويقول: ما بين هاتيك الطّلول: [مخلع البسيط].

اسْتَلزِمِ الصبْرَ في التّنائي	ولا يروعَنَّكَ البعادُ
وانْتَظِرِ العَوْدَ عَن قَريبٍ	فإنّ قَلْبَ الوَداعِ عادوا

فكان ألذ من الما، على الظما؛ وأحلى من رشف اللما، حيث بشرت بالرجوع والإياب، وأنبأت عن الاجتماع بالأحباب؛ وسَكَّنَتْ روع الفؤاد، ويستخبر المتيمُ من سكرة البعاد؛ فأخذ يسأل في ذلك النادي، كل رائح وغادي؛ ويستخبر ريحَ الصَّبا والشمائل، عن حال السدي العراف الكامل؛ وإذا هو بصديق شفيق، ورفيق رفيق؛ يخبره بالسفر والرحيل، إلى حمى السيد الجليل؛ فأحبّ أن يتّبع سنن المحبين في الرسائل، لأنها لتذكار العهود وسائل؛ وإن كان الاجتماع موجود، ونور جمالكم للقلب مشهود؛ فأول ما ابتدئ به في المقال؛ بعون الملك المتعال؛ سلام تتراسل الأرواح برسائله، وتتواصل الأشباح بوسائله؛ ويستريح بهبوب نسيمه كل عاشق.

ويسكر بطيب شميمه كلّ ناشق، وتتلاقى به الأرواح والقلوب، وتتوالى به أفراح المحب والمحبوب؛ إلى حبيب هو مخطوب الأرواح، ومغني النفوس بلفظه عن شرب الراح؛ مولى حبة الفؤاد مثواه، وسيّد سويداء القلب مأواه؛ من انبت الله حبّه في أرض صفاء القلوب، وأثبت ودّه في صحف الأرواح، فاصبح للكل مطلوب؛ إمام المشرقين، وبركة المغربين؛ شيخ العارفين، ومربّي الكاملين؛ كعبة الوفاق، وجامع الفرقان؛ مدينة العلم، وباب الفتوح والحلم، غصن روضة الكمال، وزهر حديقة الجمال؛ إنسان عين الأكوان، وعين كل إنسان، من تكلّ الألسن عن مدح ذاته، وتذوب الدهور ولا تحصي كمال صفاته، صاحب المقام الأصفى، والمورد العظيم الأوفى، الغني عن الاسم بالذات، لكمال هاتيك الأخلاق والصفات: [من البسيط]

لسنا نُسَمّيكَ إجْلالاً وتَكْرِمَةً وَقَدْرُك المُعْتَلي عَنْ ذاكَ يغنينا

حرسه الله بعين عنايته التي لا تنام، في مدى الليالي والأيام؛ وجمع به شمل المحبين، عن قريب آمين.

أما بعد فقد وصل كتابكم الكريم، ومثالكم الدر النظيم، فكان أشرف وارد؛ وأصدق عدل بالمحبة شاهد؛ فاعتنقه المشتاق، ووضعه فوق الأعناق؛ وأطفأ بلثمه لوعة الفراق، وحرارة الأشواق. وكان وروده أحلى من ليالي الوصال، والطف من ليالي الوعد بعد المطال؛ وأرق من نسيم الصبا والشمول، وأطرب من كمد الرقيب والعذول؛ فحصل به السرور، والصفا والحبور؛ وجبر به القلب الكسير، وخاطر العبد الحقير؛ فلا زلتم في أتم إنعام، وصفاء دائم وإكرام؛ محفوظين بالقرآن، ومحمولين بعناية الرحمن؛ في غاية الصحة والعافية، والنعم الكثيرة الوافية؛ أنتم والأصحاب، ومن في خدمتكم من الأصحاب؛ وعليكم السلام، ما سجع الحمام؛ وإن خاطر على الخاطر العاطر بعد السؤال، عن هذا المحب الداعي في كل حال؛ فإنه على ما تعهدون من العبودية والوفا، مقيم لحضرتكم ومن يلوذ بها على وظيفة الدعاء الأصفى؛ فإنه قريب مجيب.

3. مكتوب سعودي

ومن ذلك مكتوب تلميذنا الفاضل الشيخ سعودي[146] وهذه صورته:

---

(146) – هو سعودي - وفي سلك الدرر ابو السعود - بن يحيى بن محيي الدين بن محمد بن يحيى بن عبد الحق العباسي الدمشقي الحنفي الشهير بالمتنبي الأديب الشاعر ابو الإسعاد، سعد الدين ولد بدمشق، ونشأ بها وأخذ عن افاضلها كالأستاذ وغيره، وأجازه الأستاذ النابلسي وله ديوان شعر وجده له المرادي سماه (مدائح الحضرات بلسان الإرشادات) وتوفي سنة 1127هـ وانظر ذيل نفحة الريحانة 254-271 وسلك الدرر 85062/1، والورد الأنسي ل، 124-125.

بسم الله الرحمن الرحيم

يا غنيّ يا توّاب، صلّ على زين الأحباب، مع الآل والأصحاب، ما لذّ للتالي قولك في الكتاب ﴿إنّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوَّاب﴾[147]: [من الطويل]

سَرَتْ كَعْبَةُ الذّاتِ المُعَظّمَةُ القَدْرِ	إلى ذاتِها والبَدْرُ سارَ إلى البَدْرِ
وشَمْسُ العُلا من قابِ قَوْسَيْنِ أشْرَقَتْ	ولاحَتْ ثُرَيّا من سَنا الكَوْكَبِ الدّرّيّ
فَنُورٌ على نُورٍ يُضيءُ لذاتِهِ	فَيَشْهَدُها تُجَلّى عَلَيْهِ بما يَدْري
وهذا هُوَ النُّورُ المُبينُ لأنَّهُ	أبانَ عَنِ الأنْوارِ في مَطْلَعِ الفَجْرِ
وهذا هُوَ الفَرْقُ المُنيرُ وَقَدْ بَدا	لنا يَنْجَلي في النَّيِّرَيْنِ وفي الزُّهْرِ
ألا إنَّما التّنْزيلُ عَيْنُ نُزولِهِ	لأعْيانِهِ في عالَمِ الخَلْقِ والأمْرِ
ألا إنَّما الإسْرا يُحَقِّقُ عَبْدَهُ	بِتَنَزُّلِهِ في حالَةِ العُسْرِ واليُسْرِ
ألا إنَّما أمْرُ الألوهَةِ مُطْلَقٌ	يُؤَيِّدُ مَنْ قَدْ شاءَ بالفَتْحِ والنَّصْرِ
لذلكَ مِنْ عَبْدِ الغَنِيِّ بِرَبِّهِ	تَشَعْشَعَتِ الأنْوارُ في سائِرِ القُطْرِ
وبالقرب منه وهو يوسف شامنا	عزيز بني الصديق قد فاز من مصر
عَلَيْهِ سَلامي كُلَّما لاحَ نُورُهُ	بريعِ التجلّي منه أو مَهْمَهِ السِّرّْ
وآلِ الألى آلُوا وأتْباعِ تابَعُوا	على سَيْرِهِ في السِّرِّ منه وفي الجَهْرِ

حمداً لك يا من تنزّه بالرحلة عن نزهة إطلاق غيبه إلى منتزهات قيوده المنفية في ثبوت عينه، عن أن يكون على الإطلاق والتنزيه، في الغيب مقصوراً، وتقدس بسيره في منازل تنزلات عينه إلى ثوابت الأعيان، ومراتب الإمكان، بحكم ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شأنٍ﴾[148] من أن يكون في القيود والحدود محصوراً، فهو الذي تسبحه الإطلاقات في سرائر الغيب بطوناً، وتقدسه التقييدات في علانية الشهادة ظهوراً، ﴿وَإنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[149]؛ فسبحان من تجلى بذاته لذاته، في مجالي أسمائه وصفاته؛ فأحضر في الأزل ما كان وما يكون فيما لم يزل حضوراً، وظهر

---

[147] - سورة ص 44/38

[148] - سورة الرحمن 29/55

[149] - سورة الإسراء 44/17

بها صور له، ولم يزل في كنه غيبه مستوراً، وكوّن العوالم ولم يكن سوى تجلي وجهه في مجالي أعيانه لأعيانه مبصوراً، وخلق كل شيء من ذاته فقدره بصفاته تقديراً، فهو الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكان ربك قديراً. أما بعد:

فقد تَبسَّم ثغر الذات الأقدس، فومض برق سنا ثنايا الصفات الأنفس؛ فأفاض على الوجود من الوجود نوراً، وجلا على الأعيان من مطالع الأعيان شموساً وبدوراً؛ وتجلّى على الأكوان فامتلأت بهجة وسروراً، فدارت الأفلاك نشوانه في نشأته. فأبدت في مشيتها أزمنة ودهوراً، وشيّدت منازلاً ودوراً؛ فكان كما قال، وهو رب المقال: [مخلع البسيط]

مَراتِبٌ بالوُجودِ صارتْ	حَقائقُ الغيبِ والعيانِ
ولَيْسَ غَيْرُ الوجودِ فيها	بظاهرٍ وَالجَميعُ فاني

فهو النور الأوّل، الساطع في الأزل، والسر الآخر الأبدي المتنزل، فيما لم يزل الذي به تبلج القيل السّبحاني، وتأرجح النفس الرحماني، المتجلي في الهيكل الإنساني، المتحلى بالسر الإيماني، والنور الإحساني، في المشهد الرباني، والعلم الفرقاني، والجمع القرآني؛ ألا وهو الحق الخلقي، والخلق الحقي؛ الذي أيّد ببطونه أرواحَ الروحانيات، وأمدّ بظهوره أجسام الجسمانيات، وفتق بومض برق أمره رتق العلويات والسفليات؛ ما زال في إطلاق أزله، وقيود أبده، يتبختر في رياض محاسن صفاته، ويتملّى بما تملّى عليه مراتب ذاته؛ زاهياً بحلل نفائس جماله، لاهياً بغلائل ملابس جلاله؛ فهو كما قال، بلسان الدلال: [من الخفيف]

إنَّ مـن بَعْضِ ما هي الأطوار	لي مقامٌ فيه اسمه الأغيار

فهو يظهر بمحكم آياته، في دركات أرضه ودرجات سماواته، أسأل كوثر صفاته، في جنات حضراته، من عين وحدة ذاته سلسبيلاً، ومزج رحيق ثغره المختوم من لمى درّ ثناياه مسكاً وزنجبيلاً، وشيّد بلألاء أنواره، لأعناء أسراره؛ غرفاً وقصوراً، وأبدى تثنية، على صدى مثانيه، منه له غلماناً وحوراً، وهبت نفحات لينه وعطفه، بنسائم مَنّه ولطفه، في رياض مكنون سره، ومصون أمره، فحركت غواني شجوه أوتاراً وزموراً، وأدارات ندمان أشواقه، في حانات عشاقه، من صهباء محبته عليه كاسات وخموراً، فسكر برحيق وصاله، وغرق في نور جماله، وعربد في دير دلاله، وغاب عن قيود جلاله، فابتسم ثغر كماله، فقال مترجماً عن لسان القديم، بإمداد بسم الله الرحمن الرحيم: [من الطويل]

أطوفُ عَلَى ذاتي بكاسات خَمْرتي وَأسْتَمعُ الألحانَ في حان حَضْرتي

ألا وهو محمد الحقيقة الأحمدية المصطفوية، وآدم الصفوة الأسمائية، وشيث المواهب اللدنية، ونوح الحضرة الجبروتية، وإبراهيم الخلة الاتحادية، وموسى الفهوانية اللاهوتية، وعيسى الروحانية الروحية، وهو الصديق الأكبر لأبناء رسالاته، والفاروق الملهم بتأييد فرقانه ومحكم آياته، وذو النورين المشرقين من ظاهره وباطنه في خلواته وجلواته، على غيبه وشهاداته، وهو عليٌّ بعلمه المحيط بجميع حضراته، فعله الحسن وآخاه بالإحسان من جود نواله، فهو بمصاحبته لنوره الأصلي رقى بغير اجتهاد إلى درجات كماله، فلهجت لنا به بشارة الشيخ الأكبر، كما بشّر روح الله بصاحب الجبين الأزهر، لأنه قال في واردات فتوحاته مخبراً عن مزاياه: [من الطويل]

ألا إنـني العبـد الغـني لذاتـه ولـيس سـواه والغـني هـو الله

وهو محيي الدين بفتوحات صدره العفيف عند مولانا، والغني به مما سواه لكونه لمحة من نور نبينا ومصطفانا، كما قال في قصيدة أهل الوفاء: [من المتقارب]

وَمَـا أنَـا إلا هيـولى الـوَرى وَلَمْحَـةُ نـورٍ مـن المُـصْطَفَى

فصلِّ اللهم عليه وعلى سره الجامع، ونوره الساطع اللامع، وعلى صحبه ومن له متابع، وسلم تسليماً، والسلام ثانياً، منكم عليكم، لصدوره عنكم، ووروده إليكم، وعلى نجلكم السعيد على كل حال الملحوظ بعين منكم تكلؤه في النزول والارتحال، وعلى من معكم من الرجال، ومن انتمى إلى ذلك الجناب العريض وجال في ذلك المجال، وإلى الله المرجع والمآل، ولما رأيتم منه هذا الاستعداد كان لكم منكم الإنشاء والإنشاد.

فانثنى لثنائكم في الحال، وافترّ ثغره عن در لماكم فقال: [من الخفيف]

أيطيق هـذا الوجود وصف ثناكا؟ يـا حبيبي والبـدرُ يحكـي سَناكا

وَجْهُـكَ الحـقُ والأنـامُ مرايـا أيْنَمـا شـاهد المُحـبّ رآكـا

فـشُموسُ الجَمـالِ عنـك تَبَـدَتْ مُـشْرِقاتٍ علـى الـوَرَى بـضياكا

وبـروقُ الحِمـى بَريـقُ ثنايـا ثَغْـرِكَ الـدرّ حـين تبسم فاكـا

يـا رَعَـى اللهُ حـضرةَ جَمَعَتْنـا يـا بـديعَ الجمـالِ في مَغْناكـا

حَيْـثُ شَـمْسُ المـدام يَجْلُـو كَ سـناها والـرّاح مـن معناكـا

وندامايَ كل أحور طرف ... لم يكن عرشه سوى مستواكا

وسليمى عنها اللثام أماطت ... فمحتنا وأثبتتنا هناكا

فشهدنا في ذاتنا ذات حسن ... ورشفنا من ثغرنا للماكا

يا وحيداً في ذاته أنت وتر ... وكثير بمقتضى أسماكا

عينت ذاتك الذوات لعيني ... فاجتليت الوجود في مجلاكا

ولعيني كنت الضيا فلهذا ... بك قرت وما رآك سواكا

إن أقل في الورى بأنك أني ... أنت قد قلته فإني أناكا

أو أقل لها بالشهود رياها ... فنعمنا فيها بطيب لقاكا

فالمثاني تتلو المثاني إذا ما ... كنت تصغي بمسمعي لغناكا

وفؤادي يهواك في كل قلب ... وعيوني في كل عين تراكا

وإذا ما بدا من الحسن مرآ ... ك لعيني سجدت شكراً هناكا

يا حبيباً أفنى هواه محباً ... حبذا حبذا الفنا في هواكا

أنت أنت الوجود والكل فانٍ ... يا حبيبي لك الهنا ببقاكا

مذ تجليت لي بأفق سعودي ... شمت عبد الغني بدر حماكا

شاخصاً للوجود إن شام برقاً ... من سماء الشهود طار لذاكا

قد تدانى من قاب قوسين مني ... فهو في أو بلا دنوّ رآكا

وهو مجلى الصفات والذات فرد ... حاز علماً بالإرث عن مصطفاكا

وهو في مركز الشريعة قطب ... ولعين العيان يهدي هداكا

جدد الدين بعدما مزقته ... عصبة الضلال من أعداكا

يا حبيباً أنفقت فيه حياتي ... ليتني يا مليح حزت رضاكا

دم بأوج الكمال يا نور عيني ... راقياً رافلاً بروض هناكا

وسلام عليك مني ولكن ... لم يسلم عليك مني سواكا

4 ـ مكتوب عبد الرحمن الشهير بابن عبد الرزاق

ومن ذلك أيضاً مكتوب الولد الروحي، والسر الفتوحي، مفخر الأفاضل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المعروف بابن عبد الرزاق[150]، وهذه صورة ما كتبه:

بسم الله الغنيّ الوهاب، الرحمن الرحيم التواب، المتفرّد في أحديته والمتعدد في واحديته: [من الطويل]

سَلام كعرفِ المسكِ قد فاح بالبشرِ ... وأسنا تحياتٍ تفوقُ سنا البدرِ

وأثنية وافت تتابع نشرها ... وأدعية تنمو على عدد القطر

من المغرم المشتاق من ه عبد من ... تسمى برحمن وفاز بذي القدرِ

إلى العارف المولى المحقق من غدا ... سليل ذوي التحقيق والسادة الغرّ

إلى واحد الدنيا ومن هو قطبها المدبر أمر الكون من عالم الأمرِ

إلى روح جسم العبد بل بدر أفقه ... ورب التقى والقرب علامة العصر

إلى الحرم الأمن المقدس من سما ... بفضل له زاد على الأنجم الزهر

إلى كعبة الإجلال عبد الغني من ... بأفضاله تاهت دمشق على القطر

إمام حُبي مذ كان في المهد رتبة ... من العلم لم تدرك بفهم ولا فكر

يحقق بالتفصيل تدقيق مجمل ... ويوضح صعب القول بالنظم والنثر

إذا ما بدا للفضل نور صفاته ... تراه به أضحى غنياً عن الدهر

هو الوارث الفرد المجدد بيننا ... هو العالم النحرير حقاً بلا نكر

نهاية بحر العلم مجمع كنزه ... حوى درراً تسمو على حلل التبر

منور أبصار الخليقة بالهدى ... ومغني عن المصباح والضوء في الفجر

ألا يا عزيز العصر يوسف شامنا ... ويا من حبا كل الكمالات والفخر

بعدت عن الأوطان بعد اقترابها ... وما بعدت شام وحقك عن مصر

---

[150] ـ هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن احمد الحنفي الدمشقي المعروف بابن عبد الرزاق ولد سنة 1075 وقرا العلم على جماعة منهم عبد الغني النابلسي وله عدّة مؤلفات منها ديوان شعر وديوان خطب وتوفي سنة 1138هـ وانظر في ترجمته ذيل نفحة الريحانية 206-227، وسلك الدرر 2/266-274

وخليت يعقوب الغرام بحزنه يروح بأشجان ويغدو بلا حجر

فجاءتك من شوق الفؤاد بلهفة تبث لأحزان وتشكو من الهجر

تغصّ حياءً منك في نَيْلَ دعوة أفوزُ بها يوماً ويشرح لي صدري

فقابل بجبر منك كسر قريضها واعذر لنظم جاء في مبتدا الأمر

بقيت بإنعام من الله وافر ورفع على الأعداء بالعز والنصر

ولا زلت في أوج الكمال ممتعاً وتنثر من در وتنظم من شعر

مدى الدهر ما صاح الهزار بأيكة وقد مالت الأغصان من نسمة الفجر

وما قادم في الحي وافاك قائلاً سلام كعرف المسك قد فاح بالبشر

حمداً لك يا من أظهر الكون من مطالع شمس ذاته، ونور مصابيح ذواته وصفاته، يتجلّى بدور أسمائه وصفاته، وجعل بعضاً مرتباً على بعض في البطون والظهور، وأدار الأفلاك بتوجه إرادته في الآصال والبكور، ونص على كلّ ذاك بقوله في محكم الكتاب، ﴿هُوَ الّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُوراً. وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لتعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحساب﴾[151]؛ فسبحانه من إله صور آدم على صورته، وعلمه أسماءه الحسنى وأطلعه على غيب سريرته، وحباه المقام الأسنى، وأسرى بعبده من الحرم الأقدس إلى البيت المقدس. وعرج به جبريل إلى أن انتهى، فوصل إلى سدرة المنتهى، ﴿ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى﴾[152] وخص قوماً من أوليائه وجذبهم إليه، وعرفهم به ونعمهم بما لديه، وأبدى فيهم ظهوره وبطونه، وأخبر عنهم بأنه يحبهم ويحبونه، من طافت بكعبة ذواتهم أرواح الكاملين، ولثمت أركان معارفهم أشباح السالكين، ووقفت بعرفات قربهم رجال الأعراف، واقتبست من نور تدبير أرواحهم الأوضاع والأشراف، فهنيئاً لهم بما نالوا من درجات الكمال، وتحققوا معرفة ذي الجلال والجمال، وأظهر من بين هؤلاء الأبرار والمقربين، وأكابر الأولياء والصديقين، من هو بلبل أرواح المعارف، وثمرة التحقيق على التحقيق، وعين أعيان أهل التوفيق والتدقيق، من زها بحسن منطقة العذب على الأنام، وافتخرت بعلومه السامية دمشق الشام، صاحب المقامات الإلهية، والفتوحات الربانية، مجمع البحرين من علم الباطن والظاهر، وملتقى النهرين من علوم الأوائل والأواخر، بحر

---

(151) - سورة يونس 5/10

(152) - سورة النجم 53/8-9

الهداية والعناية، ونقاية أهل النهاية، في الدراية والرواية، خلاصة أهل التوضيح والتنقيح، ومغني اللبيب عن التصريح بالتلويح، قاموس البلاغة والصحاح، وراموز الفصاحة والمصباح، من هو سلطان العارفين على الإطلاق، ومربي الكاملين في جميع الآفاق، والكرامات البهية، والمكاشفات الغيبية، من انتفع به القاصي والداني، وافتخرت بخدمته على أقراني؛ شيخي وأستاذي، وبغيتي وملاذي؛ صاحب المقام القدسي، والقرب الأنسي، سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي؛ أدام الله تعالى به النفع بين المسلمين، وحفظه من شيطان الإنس العدو المبين؛ وأمدنا بمدده الوافي، وسقانا من لذيذ شرابه الصافي، وأرانا ذلك الجناب العالي، وجماله الساطع المتلالي؛ بحرمة سيد المرسلين، محمد خاتم القرآن، المنزل عليه الإجابة، وإليه الإنابة؛ والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، المنزل عليه ﴿الرَّحْمنُ عَلَّمَ القُرآن خَلَقَ الإنْسانَ عَلَّمَهُ البَيَان﴾[153]، صلاة تليق بجنابه الشريف، وقدره السامي المنيف؛ وعلى الآل والأصحاب، والتابعين إلى يوم الحساب.

أما بعد فإن جاء السؤال عن خادم النعال العبد الفقير إلى مولاه الغني الحنان، العاجز الحقير عبد الرحمن؛ ابن المرتجى رحمة ربه الخلاق، إبراهيم بن أحمد بن أحمد عبد الرزاق، فإنه شديد الاحتراق، من كثرة الأشواق، ومكابدة ألم الفراق؛ والأقلام نواطق بذلك، والأثنية مشيرة لما هنالك؛ وإنه ولله الحمد والمنن الوافية، ببركتكم في صحة وعافية؛ متشوق إلى أخبار صحتكم بتلقي الركبان والبشائر، ويتملل بقول القائل الشاعر: [من الطويل]

وَإنْ كانَتِ الأجساد منّا تباعَدَتْ ... فإن المدى بينَ القُلوبِ قريبُ

ولا تنسوه من دعواتكم، في خلواتكم. وجلواتكم، والمقصود يا أهل العيان والشهود، إصلاح ما وقع في هذا الرقم من الخلل، والستر عما صدر من هذا العبد من الزلل، فإنكم أهل الجود والكرم، والعناية والحكم، انتهى ذلك وانقضى ما هناك.

وبقية المكاتيب، مشتملة على الأخبار وما لا يليق أن يكتب من التراتيب.

اليوم التاسع والستون

1105/3/11هـ= 1693/12/6م

ثم بتنا تلك الليلة في أكبر سرور، وأكثر حضور؛ فلما أصبحنا في يوم الثلاثاء التاسع والستين، وهو اليوم الحادي عشر من شهر ربيع الأول، ذهبنا إلى حمام الشفاء.

---

[153] - سورة الرحمن 55/1-4.

وحصل لنا إن شاء الله تعالى كمال الشفاء، وقلنا في ذلك؛ بمعونة القدير المالك: [من الخفيف]

قَدْ دَخَلْنَا فِي القُدْسِ حَمَّامَ لُطفٍ ... وَسُرورٍ وَبَهْجَةٍ وَصَفاءِ

ماؤُهُ مِثْلُ مَاءِ زَمْزَم طَعْماً ... وَهْوَ مِن تَحْتِ صَخْرَةِ اللّه جاري

حاصِلٌ منه للمريضِ شفاءٌ ... فلهذا مُلَقَّبٌ بالشّفاءِ

ثم عدنا إلى مكاننا في الزاوية القادرية، فطلب منا بعض الجماعة عمل درس في الحرم الشريف لأجل البركة، وتحصيل المزيه، فبعد أن صلينا صلاة الظهر في مسجد الصخرة الشريفة نزلنا إلى رواق الشيخ الكامل العالم العامل، منصور المحلي الصابوني روح الله تعالى روحه، ونور ضريحه؛ فجلسنا هناك في تلك الحضرة المنيفة، وقرأ المعيد حديث (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى). وتكلمنا عن ذلك بما تيسر لنا من الأبحاث، مما فتح الله تعالى به في ذلك الوقت، وحضر جماعات من العلماء وأعيان الفضلاء، وغيرهم من عامة الناس إلى أن دخل وقت العصر، فصلينا صلاة العصر في ذلك المكان، نحن ومن معنا من الإخوان؛ ثم ذهبنا إلى ضيافة الحاج علي المعروف بابن نُسَيبة بصيغة التصغير، فصعدنا إلى داره وهي بأنواع الخيرات مغمورة، وكانت مشحونة بالأفاضل والأعيان من أكابر ذلك الزمان، فحصلت أكمل الفائدة، ومدت لنا أشرف المائدة، حتى تفرق ذلك الجمع، وقد قر البصر والسمع، ونزلنا إلى صلاة المغرب فصليناها بالحرم الشريف.

المولد النبوي الشريف

وكانت تلك الليلة ليلة المولد النبوي المنيف فجئنا إلى المسجد الأقصى، الذي فضائله وبركاته لا تُستَقصى؛ وجلسنا هناك ننتظر سماع المولد المبارك، فلما أذّن العشاء مع الجماعة بمعونة الله تعالى وتبارك؛ وكانت أوقدت تلك القناديل الكثيرة، واستنارت تلك الشموع، فحيرت البصر والبصيرة، نُصب الكرسي قبالة المحراب، وصعد عليه رئيس السادة الموالدية الرفيع الجناب، وهو السيد عبد الصمد أخو مفخر الأعيان السيد عبد اللطيف أفندي، وقرأ أشياء من القرآن العظيم يعيد له ويبدي؛ وقد اجتمعت الناس على طبقاتهم من الموالي والأكابر، والعلماء والأفاضل وأئمة المحاريب والمنابر؛ والخواص والعوام من الرجال، حتى النساء ذوات الحجال؛ في ناحية من المسجد مجتمعات، ومعهن الصبيان

الصغار والبنات، ثم شرع في المولد الشريف، وحوله جماعة من المؤذنين يترنمون بالصوت اللطيف.

ثم فرقوا على جميع الحاضرين أنواع السكر والنقل وطيب الرياحين، وجاؤوا بماء الورد ومباخر العود، وكان وقتاً شريفاً حصل فيه كمال الخضوع والشهود؛ ثم بعد ذلك انصرف الناس، وتفرق ذلك الجمع باللطف والإيناس؛ وقلنا في ذلك المقام، من النظام:
[من الكامل]

قَمَرُ السَّماءِ بدا ببيتِ المَقْدِسِ	باهي الأشعةِ كالنّهارِ المُشْمِسِ
يزهو على قمرِ البلادِ جميعها	بوسامةٍ وجسامةٍ وتنفُّسِ
وقد مَشَيْنا منه في الحرمِ الذي	جَمَعَ الفضائلَ مع جلالِ مُؤنسِ
وبه حَضَرْنا ليلةً مشهودةً	هي للقلوبِ مُنيرةٌ والأنفسِ
وُلِدَ النبيُّ المُصْطَفَى فيها وقد	طابَتْ بأصلٍ في الفخارِ مُؤسَّسِ
حتّى على الكُرْسيِّ في الأقصى بدا	من نَسْلِ طه شَيْخُ فَضْلٍ اقْدسِ
يَتْلُو من القرآنِ ما هو باهرٌ	ومن المدائحِ ما يَشوقُ لمؤنسِ
وَلَدَيْه أقوامٌ بأصواتٍ لهم	أهْدَوْا إلينا رائقاتِ الأكؤُسِ
والنّاسُ قد حَفُّوا على طَبقاتِهِمْ	بالمُنْشدينَ لهم أتَمُّ تأنُّسِ
والشَّمعُ مُوقَدَةٌ وأنوارُ الحمى	زادتْ بها البيتُ المُقَدسُ مُكْتَسِي
وَبَدَتْ قناديلٌ هناكَ تَوَقَّدَتْ	تَزْهو كأمْثالِ الجواري الكُنَّسِ
والوقتُ طابَ وأذشرقَتْ أنوارُهُ	للحاضرين من المُطيعِ أو المُسي
وأتَتْ حلاوتُه تَحلّى السَّنا	للناس في شَغْشاعِ ذلك المَجْلسِ
وَمَضَى وَقَدْ قُمنا هناكَ مهابَةً	عندَ التَّمامِ وَفاحَ طَيبُ النَّرجسِ
وَكَأنَّ ماءَ الوردِ أمطارُ السما	رشَّتْ عَلَيْنا عَهْدُ ذلك لانُسي

اليوم السبعون

1105/3/12هـ= 1693/12/7م

ثم بتنا في تلك الليلة الميمونه، يحقق كل منا آماله وظنونه، ويمنع خواطره بأنواع المسرة وينزه عيونه؛ إلى أن أصبح صباح يوم الأربعاء، وهو اليوم السبعون، الثاني عشر من

شهر ربيع الأول، فحضر عندنا بعض الأفاضل من الإخوان، وتذاكرنا بعض المذاكرة العلمية مع كمال الملاطفة والأذعان؛ ثم ذهبنا عند أذان الظهر إلى الحرم الشريف، فصلينا صلاة الظهر مع الجماعة في مسجد الصخرة ذات القدر المنيف.

إقراء الدرس

وجلسنا لإقراء الدرس في ذلك المحراب تجاه الصخرة المباركة، وقد حضرنا الأفاضل والأماجد من الطلبة الذين يمشون على أجنحة الملائكة؛ ولم نزل في الدرس حتى سمعنا آذان العصر، وصلينا مع الجماعة وقد ظفرنا بكمال المثوبة والنصر.

اليوم الحادي والسبعون

13/3/1105هـ= 8/12/1693م

وبتنا تلك الليلة على أتم حالة مرضية، فلما أصبحنا في يوم الخميس، وهو اليوم الحادي والسبعون، الثالث عشر من شهر ربيع الأول، ذهبنا إلى عيادة بعض الأصحاب، وكان مريضاً أكمل الله تعالى له الأجر والثواب؛ ثم ذهبنا إلى زيارة الكامل الإمام والبركة الهمام، الشيخ أبي الوفا العلمي حفظه الله تعالى، فتلقانا بصدره الرحيب هو وأولاده الكرام، وما منهم إلا وهو فاضل نجيب، وكان هناك بعض أفاضل البلاد، ذوي الاحترام.

مسألة التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام

فجرت بيننا مسألة التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام. فسألنا الفاضل العالم، من أشرقت لكمالاته المعالم، الشيخ مصطفى بن الشيخ أبي الوفا العلمي عن النبي الأفضل بعد نبينا عليهم السلام من هو؟ فذكرنا له أنه إبراهيم الخليل، ثم موسى، ثم عيسى. ثم طلب منا تحرير ذلك في رسالة على الاستقلال، فوعدناه بذلك إذا استقررنا في منزلنا الحالي.

تكية المولوية

ثم قمنا من ذلك المجلس، وذهبنا إلى تكية المولوية نتنزه بذلك ونستأنس.

زاوية الشيخ البسطامي

وزرنا في الطريق الشيخ البسطامي في زاويته المشهورة.

قبر الشيخ حسن بن علي بن عليك

ومررنا في الطريق على قبر الشيخ حسن بن الشيخ علي بن عليل، صاحب الأحوال المنثورة، وقرأنا له الفاتحة، والتمسنا من نفحات بركاته الفاتحة.

ثم دخلنا إلى الحرم الشريف من باب حطة، وسرنا إلى منزلنا بالقادرية الذي في المحطة.

درس عام

ثم عند آذان الظهر ذهبنا إلى الأقصى المبارك، وصلينا صلاة الظهر مع الجماعة. وجلسنا في ذلك المحراب في أعمال الخير نتشارك؛ وعملنا الدرس العام، وحضر عندنا جماعات من الأفاضل ومن العوام؛ وتكلمنا على حديث (لا يزالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِل) بما تيسر من الكلام إلى آذان العصر، ثم صلينا صلاة العصر، وتوجهنا إلى منزلنا المعهود.

رسالة في التفضيل بين الأنبياء

وشرعنا في عمل رسالة في التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام، على حسب ما سبق لنا من الوعود، وكتبنا فيها ما تيسر من النقول، على مقتضى ما تقبله العقول؛ سميناها (صفوة الأصفياء في بيان التفضيل بين الأنبياء). ثم بيضها بعض الأصحاب، وأرسلناها إلى طالبها منا جناب الشيخ مصطفى العلمي كما سبق ذكره في هذا الكتاب.

مجلس ذكر وصلاة على النبيﷺ

ثم دخل وقت المغرب فصلينا في زاويتنا القادرية صلاة المغرب مع الجماعة، وجاء شيخ الزاوية، وهو الرجل الصالح الشيخ محب الله، وجاءت جماعته أهل الذكر والطاعة، وأوقدوا تل القناديل وعقدوا مجلس الذكر والصلاة على رسول اللهﷺ مع التكبير والتهليل؛ وصلينا بالجماعة صلاة العشاء وحصل الثواب؛ وكمل البسط والصفاء، وعظم السرور والوفاء.

اليوم الثاني والسبعون

1105/3/14هـ= 1693/12/9م

حتى طلع صباح يوم الجمعة الثاني والسبعين، وهو الرابع عشر من شهر ربيع الأول.

صلاة الجمعة في المسجد الأقصى

فحضر عندنا بعض الإخوان والأحباب، وتجاذبنا أطراف المسائل العلمية مما عذب وطاب؛ إلى أن دخل وقت الصلاة فذهبنا إلى المسجد الأقصى، وسمعنا خطبة قريبنا الفاضل الإمام الكامل الهمام الشيخ محمد بن جماعة، وقد أدار كل حاضر إليه أسماعه؛ وكانت خطبته في شد الرحال إلى المساجد الثلاثة، وذكر الحديث الوارد في ذلك الأمر، فحرك شوق القلب فأسرع انبعاثه.

تربة ماملا

ثم بعد انصرافنا إلى الصلاة توجهنا مع الخطيب وغيره من أهل البلاد إلى زيارة تربة مأمن الله المسماة ماملا بين العباد. فمررنا في الطريق على قبر الشيخ إباين، واغتنمنا بركة من هنالك من السر البابن؛ ثم دخلنا في تلك التربة المباركة، واستنارت قلوبنا بمطايا هاتيك الأرواح السائرة المباركة، وزرنا قبور أجدادنا أولاد جماعة.

وقبر الشيخ المسمى بجدنا.

وقبر الكمال بن أبي شريف.

وقبر الواسطي وبقية الجماعة.

مع قبر ابن الهائم

وقبر الشيخ يحيى الداجاني وقبور أولاده وذريته.

وقبر الشيخ أبي عبد الله القرشي.

وبجانبه قبر البرماوي رحمهم الله تعالى أجمعين.

ثم قرأنا الفاتحة لجميع من دفن في تلك الجبانة المباركة من المسلمين والمسلمات، ثم رجعنا فصلينا صلاة العصر في مسجد الصخرة، وكثرت إن شاء الله تعالى لنا الحسنات.

اليوم الثالث والسبعون

15/3/1105هـ= 10/12/1693م

وبتنا تلك الليلة إلى أن طلع صباح يوم السبت، وهو اليوم الثالث والسبعون، الخامس عشر من شهر ربيع الأول، فعزمنا على المسير إلى زيارة نبي الله موسى بن عمران، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في كل آن؛ فسرنا وسار معنا حضرة المولى

الهمام، المشار إليه فيما تقدم من الكلام؛ عطاء الله أفندي القاضي لمدينة القدس ذات الشرف والاحترام، والسيد الحسيب النسيب مصطفى النقيب وغيرهم من الأعيان الكرام؛ وجماعات كثيرة، فكنا جميعاً نحو المئتين من الرجال.

قرية العزيرية

فمررنا في الطريق على قرية العزيرية، وزرنا فيها نبي الله العزير عليه السلام، واطمأن بنا الحال، ويقال لها قرية العيزارية، والعازرية قال الحنبلي[154]: دفن فيها العيزار بن هارون عليه السلام، وقيل إنه عازر الذي أحياه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؛ انتهى.

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى الخان الذي في الطريق، فنزلنا ونزل حضرة القاضي وبقية الجماعة في ذلك الفيء العميق؛ فأكلنا ما تيسر من الزاد، وأنعم الله تعالى وزاد.

موسى عليه السلام

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى حضرة نبي الله موسى عليه السلام، ودخلنا في ذلك البنيان العظيم وشريف المقام؛ وشهدنا تلك الهيبة والوقار والعظمة والاحترام، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى وأنشدنا هذه القصيدة على البديهة من النظام: [من البسيط]

دَنا مِن الحقّ أهلُ الحقّ تكريماً ... وكلّم اللهُ موسى الصّدقَ تكْليما

وَأشْرقتْ من سماواتِ الغُيوب على ... أرضِ القلوبِ شموسُ الرشدِ تعليما

وغابَ كلُّ مشوقٍ بالحضورِ لدى ... سرُّ التجلّي فتَخْصيصاً وَتَعْميما

هذا مقامُ الهُدى قَدْ لاحَ في قبسٍ ... من نورِ زَيْتونةِ الأسرارِ تتييما

مُوسى النبيُّ بنُ عمرانَ الذي بَهَرتْ ... آياتُه في بَني يعقوبَ تَفْهيما

واللهُ كَلّمَه من غيرِ واسطةٍ ... مُقَدّماً صارَ بالتكليمِ تَقْديما

وقَدْ رأى في تجلّي النارِ نورَ هُدىً ... قَدْ كان أوهَمَهُ في الغيرِ تَوْهيما

حَتى انْجلى السرُّ والمحبوبُ خاطبَهُ ... يَسْقي قلوباً بكاساتِ الصّفا هيما

وانْشَقّ بَحْر حجابِ الكونِ من يدهِ ... بالضّربِ لما بها بَرْقُ الهُدى شيما

---

[154] - انظر الأنس الجليل 75/2.

وَقومـــه عَبَـــرَتْ فيـــه بهمّتـــه | وكـل فـرْقٍ غـدا كـالطَّوْد تعظيمـا
جئنـا إلى قـبره نَغْشو إليـه عـسى | نَفـوزُ منـه بنـورِ القُـرْبِ تـسهيما
ويَفـتَحُ الله أبـوابَ الكمـالِ لنـا | حتـى تُـنَعَّم بالإنعـامِ تَنْعيمـا
وحـينَ كـانَ تَجَلّـى النّـار مظهـرُهُ | في ليلـةِ القـربِ لما وَصْلها سيما
بَـدا اشـتعالٌ لأحجـارِ المقـام بمـا | لزائريـه علـى طـول المـدى شـيما
كَفَـى بـه آيـة تهـدي البعيـد إلى | أسـرارِ قـربَ التجلّـي منـه تَهْييمـا
وللملائكـة الغـرُّ النـزول بـه | أشـباحهم تـتراءى ثـمَّ ترقيمـا
في قبـةٍ رُفعـتْ بيـضاء مـشرقة | مثـلَ الغمامـة تَظْليلاً وتخييمـا
وذاكَ سـرٌ كثيـبٌ أحمـرٌ لَمَعـتْ | منـه بـروقُ التجلّـي لا تقـل فيمـا
وهـذه حـضرةٌ مَـنْ جاءهـا شَـرُفَتْ | أحوالُـه وحَبـاهُ الله تَـسْليمَا
صَلّى وسَـلَّم مولانـا الكـريمُ علـى | مـن قَـدْ هـواه هنـاك اللحد ترميما
لحد ابـن عمـرانَ مـن زادتْ مَزْيتُـه | مـن بعـد طـه رسـول الله تَفْخيمـا
مـا جاءَ في مَدْحـه عَبْدُ الغـنيِّ بمـا | بفـوقُ عقـدَ لآلي المـدح تنظيمـا
وما سَرَى من نواحي الفور ريحُ صَبا | فعَطَّـرَ الكـونَ تَطييبـا وتـشميما
وما سَجا اللّيلُ والفَجْر استتار وما | تَرَنَّمَـتْ سـاجماتُ الـدَّوْح ترنيمـا

وقد أنشد المنشد هذه القصيدة المباركة في حال زيارتنا له، حول قبره الشريف الذي هو مهبط للملائكة، وكانت الجماعة كلهم حاضرين، وحنّت القلوب لشواهد الغيوب، أكملَ حنين وثار وجد عظيم، وصار حال جسيم؛ وبكاء شديد، وشوق ما عليه من مزيد؛ ثم لم نزل في سرور واف، وكمال ارتياح وتصاف، وبتنا تلك الليلة، وبعض الجماعة يقرأ القرآن، وبعضهم يذكر الله تعالى ويسبحه بالقلب واللسان؛ وبعضهم ينشد القصائد الإلهية، وبعضهم يصلي وبعضهم يدعو الله تعالى بأنواع الأمنية.

رحلة محمد كبريت

وقال الشيخ الإمام السيد محمد المشهور بكبريت المدني[155]، رحمه الله تعالى، في

---

[155] - هو محمد بن عبد الله بن محمد بن شمس بن احمد بن قاسم الحسيني الموسوي المدني الشهير بكبريت، ولد

رحلته إلى بلاد الروم، وهي رحلة جميع لفظها منظوم؛ حين زيارته للسيد موسى عليه السلام، في سنة ألف وثلاث وأربعين هذا النظام: [من الرجز]

ثُمَّ إلى قَبْرِ الكليمِ مُوسى — سِرْنا فَشاهَدْنا الحمى المأنوسا
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنا وَسَلَّما — ما افترَّ ثَغْرُ الدَّهْرِ أوْ تَبَسَّما
وَقَدْ شَهِدْنا في حِماهُ عَجَباً — أحْجارُ واديه تُحاكي الحطبا
تَشْعَلُ بالنَّارِ كَمِثْلِ الفَحْمِ — وعنه تُغْني لِطَبيخِ اللحمِ
وَإنَّما تَشعلُ ما دامَ بها — دهينَةٌ في أصلها تُلْهِبُها
وَحَيَّرَ الفِكْرَ بِتِلْكَ القُبَّة — في أُلُقِ الشَّمْسِ أُمُورٌ صَعْبَة
يُرى بها مُخْتَلَفُ الأشباحِ — كأنَّه مِنْ عالمِ الأرْواحِ
منه خيالٌ مَعَهُ إبريقُ — وآخَرٌ لَهُ سَنا يَروقُ
وَطائفٌ بَيْنَهُم يَطوفُ — وَعاكِفٌ خَيالُهُ لَطيفُ
مِن حُمْرةٍ وصُفْرةٍ وخُضْرة — وغيرِ ذا وذي ملوكُ الرَّحْمَة
ومِثْلُ ذا بالهِنْدِ قالوا قد وُجِدْ — وَقيلَ بالمَغْرِبِ أيضاً وفُقِدْ
وَقيلَ في أعْمالِ مِصْرَ يوجَدُ — يَوْماً مِنَ العامِ وَذا لا يبعُدُ
وَبَعْضُهُمْ قد ألَّفَ الرَّسائلا — فيهِ ولكِنْ لم يفدك طائلا

ثم قال بعده عند ذكر غزة المحروسة: [من الرجز]

ثُمَّ إلى الوالي علي المليح — أكْرِمْ بِهِ مِن طيِّبِ الأريجِ
قُبَّتُهُ قَدْ أُسِّسَتْ تأسيسا — كَقُبَّةِ المَوْلى الكَليمِ موسى
وفي ذُرى القُبَّةِ أشْخاصٌ تُرَى — عَلَى خُيولٍ مثل فرسانِ الوَرَى
تطوفُ في أكْنافِها وتَنْصَرِفْ — وتَنْجَلي للطَّرْفِ ثُمَّ تَنْحَرِفْ
وَذاكَ في مَوْلِدِهِ قَدْ يُوجَدُ — حيناً وحيناً ثم حيناً يُفْقَدُ

سنة 1012هـ في المدينة المنورة، وفيها توفي سنة 1070هـ قام برحلة للروم (أي تركيا) سنة 1039 وسجلها في كتاب سماه (رحلة الشتاء والصيف) وهي غير هذه الأرجوزة وله مؤلفات أخرى وانظر خلاصة الأثر 4/355-361، والأعلام 7/188، ومعجم المؤلفين 10/240

قبر موسى عليه السلام

وفي زيارات الهروي[156]: أنَّ في بلد مآب[157]، في قرية هناك، يقال لها شَيْحان[158]؛ بها قبر بن عمران عليه السلام، وعليه قبة صغيرة من أخشاب، وحول التل جدران تحيط به، وللناس فيه اعتقاد يزورونه ويتبركون به.

وقد استوفينا الكلام على ذلك في رحلتنا الوسطى التي سميناها بالحضرة الأنسية في الرحلة القدسية[159].

اليوم الرابع والسبعون

16/3/1005هـ= 14/12/1693م

ثم أصبحنا في صباح يوم الأحد الرابع والسبعين، وهو السادس عشر من شهر ربيع الأول.

قرية أريحا

فقصدنا المسير إلى قرية أريحا، ويقال مدينة أريحا، وفي صبح الأعشى للقلقشندي[160]: والغور يقال إنه لثلاثة أقسام غور مدينة زُغَر وهي وبيئة[161] جداً. وغور مدينة أريحا. وغور مدينة بيسان. وكلها جارية في أعمال الأردن.

وذكر ياقوت الحموي في المشترك[162] أن الغَوْرَ. بفتح الغين المعجمة، وسكون الواو، والراء... غَوْرُ الأردن بالشام بين بيت المقدس وحَوْران من عمل دمشق، وهو منخفضٌ عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس، ولهذا سمي الغَوْر. طوله نحو مسيرة ثلاثة أيام وعرضه

---

(156) - زيارات الهروي 18.

(157) - في الأصول جميعاً (مارب) وما هنا عن الهروي ويبدو ان الخطأ بدا من نسخة الإشارات التي اعتمد عليها النابلسي، لأنها وردت هكذا (مارب) في مسودة المؤلف التي كتبها بخط يده وانظر معجم البلدان (مآب).

(158) - قال ياقوت: (شيحان جبل مشرف على جميع الجبال التي حول القدس، وهو الذي أشرف منه موسى عليه السلام فنظر إلى بيت المقدس) معجم البلدان (شيحان).

(159) - انظر الحضرة الأنسية المسماة (رحلتي إلى القدس) 46-48.

(160) - انظر صبح الأعشى 4/81 و89.

(161) - قال ياقوت عن زغر (وعنه في واد وخم رديء في اشام بقعة إنما يسكنه اهله لأجل الوطن، وقد يهيج فيهم في بعض الأعوام مرض، فيفني كل من فيه او أكثرهم) انظر معجم البلدان (زغر).

(162) - انظر المشترك 326.

نحو فرسخين أو أقل، وفيه قرى كثيرة. وقصبته بيسان، وفي طرفه الشرقي بحيرة طبرية، وفي طرفه الغربي بحيرة زُغَر المنتنة. انتهى.

وزُغَر - بضم الزاي، وفتح الغين المعجمة، وبالراء كزُفَر اسم ابنة لوط عليه السلام، واسم قرية بالشام لأنها نزلت بها كذا في القاموس[163].

وقد سار معنا عطاء الله أفندي القاضي. ومن كان معه من الجماعة، وقد مشينا صاعدين وهابطين على حسب القدرة والاستطاعة؛ حتى سرّحنا في ذلك الفضاء الواسع، وشرحنا صدورنا في إشراق نوره القريب الشاسع.

وقد أملينا هذه الأبيات إنشاءً إلهامياً، وإنشاداً في ذلك المهمه المبارك شوقاً غرامياً؛ حيث قلنا: [من الخفيف]

يا سَقَى الله من أراضي أريحا	جانباً مُشْرِقاً وقَفْراً فَسيحا
ورعى ثُمَّ للشَّريعة نَهْراً	بزلال المياه كانَ طفيحا
فيه للأنبياءِ أرْواحُ قُدْسٍ	واضحاتٌ لا يألفون الضَّريحا
سائحاتٌ هناك بينَ جبالٍ	عالياتٍ تَأْوي خُزامى شِيحا
قَدْ أتَيْتنا مُستَبْركين إليهم	فوجدنا السُّرورَ والتَّرْويحا
ورأينا المنى بمسّ ترابٍ	مَنْ أتاه رأى العَطاءَ المنيحا
وَعَلَينَا الإلهُ جادَ بلطفٍ	وحبانا منه الكمال الصريحا
ولدينا نسائمُ الوقت رَقَّتْ	ونرى حيث نحن وجهاً مليحا
صحبةُ الشهم شمسُ أفق المعالي	مَنْ به المجدُ يَستقلّ المديحا
بحرُ جودٍ وطَوْدُ علمٍ وحلمٍ	كُلُّ فَخْرٍ له وعزّ أتيحا
شَرَّفَ القدسَ قاضياً إذْ أتاها	فامْتَلَتْ في زمانه تَسْبيحا
وله الكلّ شاكرون نوالاً	عمّ حتى أحيا الرميم ضَريحا
ذكّرَتْهم أيّامُه والليالي	عَهْدَ حِزْقيلِهمْ وعيسى المَسيحا
لم يَزَلْ رافلاً بأثوابِ عِزٍ	فارغ البال خالياً مُستَريحا

---

(163) - انظر القاموس المحيط (زغر).

ويـواقي الـصِّحاب أهْـلِ المعـالي — مَـنْ لهـم وَشْـح العُـلا تَوْشـيحا

وأثـاب الجميـعَ أكمـلَ أجـرٍ — رَبُّنـا مُكْثِـراً لهـم تَفْريحـا

مـا أعـان الإلـه عَبْـدَ غَـنيٌّ — حـينَ يَدْعو لهـم فَيَشْفي القَريحـا

ثم وصلنا إلى قرية أريحا التي يضاف إليها الغور، فوجدناها قرية قديمة البناء غالبها الآن خراب من كثرة الظلم والجور؛ فلم نجلس بها.

عين السلطان

وسرنا إلى أن وصلنا إلى منبع ذلك النهر، والمكان المسمى بعين السلطان الزاهي بظله الوريف والزهر؛ فجلسنا هناك بقية اليوم، ونعمنا بما تيسر من الزاد نحن والقوم؛ وصلينا على شط ذلك الماء الزلال. صلاة الظهر والعصر، ونحن في أكمل السرور والانشراح والراحة والنصر؛ حتى قلنا من النظام، في ذلك المقام: [من الخفيف]

يـا رَعَـى الله عَـيْنَ مـاءٍ لطيـفٍ — مـن أريحـا بـالغَوْر في فَـيِّ أغْـصَانِ

قَـدْ جلـسنا منـها بمجلـس أنْـسٍ — وَرَأيْنـا المُنَـى بعَـيْنِ الـسُلطانِ

النهر الذي غوَّره حزقيل

وحدثنا عن أصل هذه العين النابعة في هذا المكان، ونحن في رملة هاشم، بعد سفرنا من بيت المقدس، أعزّ السادة الأعيان الفاضل الكامل الشيخ أمين الدين، المتقدم ذكره، فيما نعينه ونخصه، أنّه رأى ورقة مكتوب فيها ما نصه:

هذه صورة ما وجد في ورقة بالية، ظهرت في قبو وجد في ظهر رأس القصيلة بمحلة باب العمود، وهو أنك إذا أردت أن تعرف محل النهر الذي ببيت المقدس، الذي غوَّره حزقيل تعمد إلى رأس القصيلة من جهة الغرب نحو كذا كذا ذراعاً، وذكر عدد الأذرع، تجد طابقاً من رخام، وتحته لبابيد مملوءة بالملح، وتحته طابق آخر إلى سبع طوابق تجد النهر المذكور. وذكر أنه لما غوَّره حزقيل ظهر في عين السلطان التي بغور قرية أريحا. انتهى.

ثم عدنا في وقت العشي إلى مزار السيِّد موسى عليه السلام.

زوّار ومولد وأناشيد

وبتنا في تلك الليلة في سرور تام وقد جاء إلى عندنا الشيخ فتح الله رئيس المؤذنين بالصخرة المباركة، ومعه جماعة وقرؤوا لنا المولد العظيم، والأناشيد الإلهية المحمدية، التي

هي كالدر النظيم؛ وعقد بعده مجلس الذكر الشريف، والإنشاد اللطيف، والسماع المنيف؛ وحصل الوجد للقلوب، ولمت في تلك الحضرة بوارق الغيوب.

اليوم الخامس والسبعون

17/ 3/ 1105هـ = 12/ 12/ 1693م

ثم لما أصبحنا في يوم الاثنين وهو اليوم الخامس والسبعون، السابع عشر من شهر ربيع الأول.

قبر الشيخ الراعي

سرنا قاصدين العود إلى بيت المقدس، فمررنا على قبر الشيخ الراعي وهو قبر كبير معروف هناك. فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى.

عين العيزرية

ثم سرنا وقد نَقَّطتنا السحائب بلآلئ أمطارها. ونشرت علينا النسائم منظوم العقود من أقطارها.

إلى أن وصلنا إلى العين المسماة بعين العيزرية. فنزلنا هناك برهة من الزمان، نحن ومن معنا من الإخوان. ثم وصلنا إلى قرية العزرية[164]. وقرأنا الفاتحة لنبي الله العزير عليه السلام، بالزاي ثم بالراء على حسب ما يقال إنه مدفونٌ في ذلك المقام.

الجسمانية

ثم مررنا على الجسمانية، عمارة قديمة متينة في أسفل الوادي، فيها قبر مريم بنت عمران. فقرأنا الفاتحة هناك ودعونا الله تعالى.

ثم دخلنا إلى مدينة القدس الشريف، وقد تراسل المطر، وزاد قطره النزيف فجئنا إلى منزلنا في زاوية القادرية، وبتنا على أتم سرور، وأكمل حالة مرضية، بمعونة رب البرية.

---

[164] - يفهم من كلام النابلسي ان المدفون فيها هو (العزير)، فإن صح ذلك فمن حقها ان تكون العزيرية) ويبدو ان التصحيف بدا من اسم النبي، ففي الأنس الجليل 2/ 75 ان اسم النبي (عازر او العيزار بن هارون)، وعلى ذلك فاسم القرية عنده (العازرية) وقد تصحفت اللفظتان في هامش الإشارات 30 إلى (العذرية، والعيذر ابن هاروز أو عاذر)

اليوم السادس والسبعون

18/ 3/ 1105هـ = 16/ 10/ 1693م

فلما أصبحنا في يوم الثلاثاء، وهو اليوم السادس والسبعون، الثامن عشر من شهر ربيع الأول.

ضيافة في مزار داود عليه السلام

ذهبنا إلى ضيافة المولى الهمام عطاء الله أفندي، المتقدم ذكره في محل زيارة نبي الله داود عليه السلام، في دير صهيون، خارج مدينة القدس. فدخلنا إلى موضع المزار، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى، ثم صعدنا إلى ذلك القصر الرفيع، والجناب المحمي المنيع؛ وجلسنا نتذاكر القصص والأخبار، ونتوارد اللطائف الأدبية ورقائق الأشعار، إلى أن صار وقت الظهر، فقدمت المائدة وأسرعنا في الطهر؛ ثم دخلنا إلى الحضرة الداودية، فصلينا هناك بالجماعة صلاة الظهر، وختمنا بالأدعية السنية؛ ثم صعدنا ثانياً إلى القصر، وجلسنا كذلك إلى أن صلينا بالجماعة صلاة العصر؛ ثم قدّمت لنا المائدة، فشهدنا مواسم حاتم الطائي أو معن بن زائدة؛ ثم عدنا في العشي إلى مكاننا المذكور.

اليوم السابع والسبعون

19/ 3/ 1105هـ = 14/ 12/ 1693م

وبتنا في أكمل صفا وسرور حتى أصبح صباح يوم الأربعاء السابع والسبعين، وهو اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الأول.

الرحيل عن القدس

فعزمنا على المسير من البلاد المقدسة، إلى جهة الرملة وغزة المحمية؛ فحضر عندنا علماء البلاد، وأعيان الأكارم والأمجاد، والطلبة والأفاضل من أهل الوداد؛ لأجل حصول الوداع، وأن تقرّ بالأدعية منا ومنهم القلوب والأسماع؛ ثم ساروا معنا إلى الخارج وودعناهم.

بيت إكسال

وذهبنا في تلك الجبال والأودية بمصاعد ومعارج إلى أن وصلنا إلى قرية بيت إكسال بكسر الهمزة. فزرنا هناك قبر الشيخ شكر، وعليه حوطة من الأحجار، فقرأنا

الفاتحة ودعونا الله تعالى بذلة وانكسار؛ وقرأنا الفاتحة للشيخ إكسال، وأهدينا إليه ثوابها بصدق الأحوال.

بيت لقيا

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى قرية لقيا ـ بفتح اللام، وسكون القاف، بعدها ياء مثناة تحتية، وألف ـ ونزلنا هناك في المنزول المُعَدّ للضيفان، وقدم لنا ما تيسر من الزاد.

اليوم الثامن والسبعون

20/ 3/ 1105هـ = 15/ 12/ 1693م

وقد بتنا في مسرة وأمان، حتى أصبحنا في يوم الخميس الثامن والسبعين، وهو اليوم العشرون من شهر ربيع الأول. فقرأنا الفاتحة وأهدينا ثوابها إلى حضرة الشيخ أحمد اللقياني نسبة إلى بيت لقيا القرية المذكورة.

بيت سيرا

ثم سرنا على بركة الله تعالى، فمررنا على قرية بيت سيرا ـ بكسر السين المهملة ـ يقال إنّ فيها نبيُّ الله سيرا عليه السلام.

الرملة

ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى بلدة الرملة سقيت وابل الغمام. والرملة واحدة الرمل وبها سميت أم حبيبة زوج النبي ﷺ وغيرها كذا في القاموس[165] وفي الصحاح[166] الرمل واحد الرمال. والرملة أخص منه. ورملة مدينة بالشام انتهى. وهي المراد هنا فإنها من جملة أرض الشام.

فنزلنا في دار صديقنا الكامل الفاضل، مجمع الفضائل والفواضل، الشيخ أبي الهدى ابن الشيخ محمد، المتصل نسبة الكريم بالولي المشهور سهدي علي بن عُلَيّل باللام، أو عُلَيّم بالميم، المتصل نسبة الشريف بالصحابي الجليل المنيف، ثاني خلفاء سيد

---

[165] ـ انظر القاموس (رمل).

[166] ـ انظر الصحاح (رمل) ومختاره أيضاً (رمل).

المرسلين، أبي حفص عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، رضي الله تعالى عنه، وعن بقية الخلفاء والصحابة والتابعين لهم إلى يوم الدين. فتلقانا بصدره الرحيب، وعاملنا معاملة المحب للحبيب، وأنزلنا مع جماعتنا في ذلك القصر الذي يزهو بمكارمه. على سائر القصور، من غير قصور، وحصل لنا ولمن معنا بمجالسة أكمل الحضور، وأتم السرور. واجتمعنا هناك بصديقنا الفاضل الكامل، صاحب اللطف الشامل؛ الشيخ أمين الدين الخليلي وغيره من الأفاضل والأعيان، وأهل الصلاح والعرفان؛ وجرى بيننا وبينهم بعض المذاكرة العلمية، وإيراد المسائل والفوائد الفقهية والأدبية؛ ثم قلنا من النظام في مدح الرملة على البديهة في ذلك المقام: [مجزوء الكامل]

وَلَــرُبَّ قَــوْمٍ فــاخَروا ... في مصرَ أرْضَ القُدْسِ جُمْلَة

قــالوا كَــثيرُ الرَّمْــلِ في ... مــصرٍ بَــدًا لا تَــسْتَقِلّهْ

فَأجَبْــتُ أنَّ القُــدْسَ قَــدْ ... فاقَــتْ علــى مــصرٍ برَمْلَــة

مجموع بخط ابن الجاموس

وقد وقفنا هناك على مجموع لطيف بخط الشيخ حسن بن محمد المعروف بابن الجاموس، وفيه قال القلقشندي في صبح الأعشى في بيان الإنشا: في المملكة الشامية عمل الرملة - بفتح الراء المهملة، وسكون الميم، وفتح اللام، وفي آخرها هاء - وهي مدينة إسلامية بناها سليمان بن عبد الملك في خلافة أبيه عبد الملك قال في الروض المعطار[167]: وسميت الرملة لغلبة الرمل عليها.

وقال في مسالك الأبصار: سميت بامرأة اسمها رملة، وقد وجدها سليمان بن عبد الملك هناك في بيت شعر، حين نزل مكانها، يرتاد بناءها، فأكرمته وأحسنت نزوله، فسألها عن اسمها فقالت: رملة فبنى البلد، وسماها باسمها. وكان عبد الملك قد أجرى إليها قناة ضعيفة للشرب منها وأكثر شربهم الآن من الآبار، ومن صهاريج يجمع فيها ماء المطر. انتهى.

قلت: وقوله: (بناها سليمان بن عبد الملك) أي: جدّد بناءها، وعَمّر ما خرب منها، وإلا فهي مدينة قديمة.

---

(167) - الروض المعطار 268

قال الحنبلي في تاريخه[168]: (وأما مدينة الرملة، وهي واسطة بلد فلسطين، فإنها في أرض سهلة وهي كثيرة الأشجار والنخيل وحولها كثير من المزارع والمغارس).

ثم قال:[169] (وكانت في الزمن السالف في عهد بني إسرائيل مدينة عظيمة البناء متسعة، وكان جالوت أحد جبابرة الكنعانيين، ملكه بجهة فلسطين ونبي الله يونس عليه السلام، أقام بالرملة ثم جاء إلى بيت المقدس بعبد الله تعالى.

سورها وقلعتها

وأما صفة مدينة الرملة قديماً قبل الإسلام وبعده إلى حدود خمس المائة، فكان لها سورٌ محيطٌ بها، وكان فيها قلعة ولها اثنا عشر باباً منها باب القدس، وباب عسقلان، وباب يافا، وباب يازور، وباب نابلس.

أسواقها ومسجدها

ولها أربعة أسواق، متصلة من أربعة أبواب إلى مسجدها وجامعها، وكان لها أربعة آلاف ضيعة، والسلطان الملك صلاح الدين هدم قلعتها، وهدم مدينة له في شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمس مئة.

وأما في عصرنا فلم يبق أثر لتلك الأوصاف التي بالرملة، وقد زال سورها وأسواقها القديمة لاستيلاء الفرنج عليها نحو مئة سنة، ولم يبق من المدينة ثلثها ولا ربعها.

وبني فيها مسجد ومنارة مستجدة من زمن الملك الناصر محمد بن قلاون وبعده. والموجود الآن من الأبنية في المدينة معظمه خراب متهدم، وقد صار المسجد الجامع القديم بظاهر المدينة جهة الغرب، وصار حوله مقبرة، ولم يبق حول المسجد الجامع من الأبنية القديمة سوى حارة من جهة الشمال حكمها حكم القرى، وأما المدينة فصارت منفصلة عنه انتهى ما ذكره الحنبلي ملخصاً.

قبر الشيخ ريحان

ثم ذهبنا إلى الزيارة، وذهب معنا الشيخ أبو الهدى المذكور وغيره من الحاضرين، فمررنا على قبر الشيخ ريحان في داخل قبة، بناها الشيخ خير الدين المفتي رحمه الله تعالى.

---

(168) - انظر الأنس الجليل 2/ 67/ 68.

(169) - انظر الأنس الجليل 2/ 68.

الشيخ عيسى

ثم زرنا الشيخ عيسى من الأولياء الصالحين، وعليه قبة صغيرة.

الشيخ محمد أبو العون الغزي

ثم زرنا الشيخ محمد أبا العون الغزي، وهو في مكان مستقل، عليه قبة لطيفة، وعلى قبره هيبة وجلالة ووقار، وفي الخارج على الحائط بلاطة مكتوب عليها: (أمر شريف من السلطان الغوري، بأنه لا يتعرض أحد لأولاد الشيخ أبي العون ولا لأتباعه وجماعته وخدامه، وكل من رآهم يكرمهم ويجلّهم، وإذا احتمى أحد بحماهم فلا أحد يتعرض له).

وهذا الشيخ أبو العون هو من أجداد الشيخ أبي الهدى المذكور، ويتصل نسبه بالشيخ علي بن عليم، وكانت وفاة الشيخ أبي العون في ربيع الآخر سنة عشر وتسع مئة بمدينة الرملة.

جامع الشيخ العُلَيْمي

ثم ذهبنا فزرنا الشيخ محمد العُلَيْمي بالتصغير في جامع هناك له مبارك، وعليه قبة، وعنده منارة، وقد كان انهدام جامعة، فعمرُه الشيخ محمد والد الشيخ أبي الهدى المذكور، وعمَّر له منبراً للخطبة.

الشيخ محمد الفلاس

ثم ذهبنا فزرنا الشيخ محمد الفلاس في مكان مستقل وعليه قبة.

مزار الفضل بن العباس

ثم ذهبنا فدخلنا إلى مزار الفضل بن العباس أخي عبد الله بن عباس، عم النبيﷺ، وفيه نورانية ظاهرة وأسرار باهرة، وعنده جامع فيه خطبة.

وذكر الحنبلي[170] أنه توفي في طاعون عِمَوَاس[171] في سنة ثماني عشرة من الهجرة.

---

[170] - انظر الأنس الجليل 2/ 69.

[171] - الضبط عن معجم البلدان وله رواية أخرى وهي بفتح أوله وثانيه

وهو في مشهد يقصد للزيارة، وقد بَنَى عليه الأمير شاهين الكمالي مسجداً جامعاً، وجعل فيه منارة، ووقف عليه أماكن ورتَّبَ فيه وظائف، وكانت عمارته في سنة أربع وخمسين وثماني مئة، وقد تلاشت أحوال المشهد في عصرنا، وخرب معظم الوقت. انتهى.

قبة الشيخ زين

وقد زرنا في ذلك المكان مكاناً آخر مستقلاً في قبة صغيرة، يقال إنه مدفون فيه الشيخ زين، وهو من الأولياء في طريق الرفاعية، خرج من الشام على طريق السيارة لزيارة الأولياء والصالحين، ثم جاء إلى هذا المكان ومات ودفن فيه.

الجامع الأبيض

ثم ذهبنا إلى الجامع المبارك المسمى بالجامع الأبيض، وهو جامع كبير متهدم، شريف الآثار، تشرق فيه الأنوار؛ يقال إنّ تحته خالٍ كالمسجد الأقصى، ويقال إن نبيَّ الله صالح عليه السلام مدفون هناك.

قبر النسائي

وفي شرقيِّ المسجد مكانٌ فيه قبر الإمام أبي عبد الرحمن النسائي[172] صاحب السنن أحد الكتب الستة. فوقفنا هناك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى.

وذكر الحنبلي[173] أن هذا الجامع بناه سليمان بن عبد الملك بن مروان من الخلفاء الأمويين لما ولي الخلافة في سنة ست وتسعين من الهجرة [الشريفة][174] وهو جامع [متسع][175] مأنوس عليه الهيبة والوقار والنورانية، ويعرف في عصرنا هذا وقبله بالجامع الأبيض، وفي صحنه السماوي مغارة تحت الأرض مهيبة يقال إنه دفن فيها سيدنا صالح النبي عليه السلام ثم جُدِّدَت عمارة الجامع الأبيض في زمن الملك صلاح الدين على يد

---

(172) - اسمه احمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي ولد بنَسَا سنة 215 وتوفي بفلسطين سنة 303 وانظر الأنساب 559، والمنتظم 6/ 131 . 132، ووفيات الأعيان 1/ 77 . 78 وتهذيب التهذيب 1/ 36 . 37، وسير اعلام النبلاء 14/ 125 . 135.

(173) - الأنس الجليل 2/ 69.

(174) - عن الأنس الجليل

(175) - عن الأنس الجليل

رجل من دولته اسمه الياس بن عبد الله في سنة ست وثمانين وخمس مئة، ثم لما فتح الملك الظاهر بيبرس يافا، وذلك في سنة ست وستين وست مئة عمّرا لقبة التي على المحراب، وعمّر المنارة بدل تلك المنارة التي كانت قد تهدمت. انتهى[176].

قبر خير الدين الرملي

ثم خرجنا وجئنا إلى مكان قبر الشيخ الإمام قدوة فقهاء الإسلام خير الدين الرملي[177]، رحمه الله تعالى، وهو في داخل جنينة لطيفة، وعليه قبة منيفة، وقد أخبرونا أنه هو الذي عمّر مزاره هذا في حياته، ثم دفن فيه بعد وفاته، وكانت وفاته في سنة إحدى وثمانين وألف.

شعر للصفدي والنابلسي

وقد وقفنا على تاريخ موته لصديقنا المرحوم الفاضل الكامل الشيخ أحمد الصفدي وذلك قوله: [من السريع]

إنْ لم نَـذُبْ بالـدَّمْع أجفانـا ... مـا أرْأفَ الأعـدا وأجفانـا

وَالقَلْـبُ إنْ جـدنا بـه جَزَعـاً ... يَـوْمَ النّـوى مـا كـانَ أوْلانـا

أوّاهُ أطْـلالُ العُلـومِ عَفَـتْ ... وَأوْحَـشَ الأُنْـسَ الـذي كانـا

وَروحُ فَتْـوَى العَـصْرِ عاطِلَـةً ... قَـدْ أصْـبَحَتْ تَحتـاجُ جُثْمانـا

مـِن بَعْـدِ مـا كانـت مُنَظّمَـةً ... أجْيادَهـا دُرّاً ومرجانـا

سَـألْتُ هـل شَـمْسُ العُـلا أفَلَـتْ ... أمْ حَـيْنُ خـيرِ الـدّين قَـدْ جانـا

فقـالَ علْـمُ الفِقْـهِ لي أرّخ ... مـاتَ أبـو حَنيفَـةَ الآنـا[179]

وقلنا نحن في وقت زيارتنا القبر الشريف، وتمتعنا بإشراق نورانية ذلك المزار اللطيف: [من الكامل]

---

[176] - ينقل النابلسي عن الحنبلي بتصرف فيختصر حيناً ويحذف حيناً آخر، ويهمل بعض الألفاظ، ويضيف غيرها.

[177] - اسمه خير الدين بن أحمد علي الأيوبي العليمي الفاروقي الرَّمْلي ولد في الرملة سنة 993هـ وفيها توفي له الفتاوي الخيرية مطبوعة في مجلدين وديوان شعر مخطوط على حد قول الزركلي وانظر ترجمته في خلاصة الأثر 2/ 134، الأعلام 2/ 374 ـ 375، ومعجم المؤلفين 4/ 132.

[179] حسابها على النحو التالي: مات ابو حنيفة الآنا 441 + 9 + 548 + 83 - 1081هـ

إنْ رُمْتَ أنْ تَحْظَى بخيرِ الدِّينِ ... فاقْصدْ لقبرِ الشَّيْخِ خَيرِ الدِّينِ

وادْخُلْ هُنَاكَ إلى مَزارِ مُشْرِقٍ ... بمعالمِ التَّحقيقِ والتَّبْيينِ

شَيْخُ الشُيوخِ وَمَنْ سَما بُعلومِه ... ما بينَ أهْلِ الفَضْلِ بالتَّعيينِ

قَدْ كانَ في فِقْهِ الشَّريعةِ كاملاً ... تَعْنو إليْهِ أشِمَّةُ المرْنينِ

وَهُوَ الذي في مَذْهَبِ النّعمانِ لا ... تلْقَى لَهُ مَثلاً أجَلَّ أمينِ

طَوْدٌ من الحِلْمِ الرَّفيعِ جَنابُه ... بالعزِّ والإيقانِ والتَّمكينِ

رَحِمَ المُهَيْمنُ رُوحَهُ مِن ماجِدٍ ... كالشَّمْسِ يُشْرِقُ نُورُه في الحينِ

وَحَباهُ في الفِرْدَوسِ أرْفَعَ مَنْزِلٍ ... ما بينَ ولدان وحورٍ عِينِ

ما جاءَهُ عَبْدُ الغَنيِّ مُتَمَسِّكاً ... منْهُ بحبلٍ في الوداد متينِ

يَرْجُو بزَوْرَتِهِ القَبولَ وَمَا شَدَتْ ... ورقُ الحمامِ بأطيبِ التَّلحينِ

وقد اتفق أننا لما دخلنا إلى مزاره المذكور، وجدنا على قبره شيئاً من البلح الأصفر الحلو، فقلنا للجماعة: هذه ضيافتنا من هذا الشيخ المزور، عليه رحمة الرب الغفور.

قبة حليمة السعدية

ثم خرجنا وزرنا هناك في قبة صغيرة قبرَ حليمةَ مرضعةِ النبي ﷺ على ما يقال، والله أعلم بحقيقة الحال، وقال بعضهم إنها حليمة اسم امرأة من الصالحات.

الولي عبد الله البطايحي

ثم زرنا الشيخ الولي عبد الله البطايحي، رحمه الله تعالى، وذكروا لنا أنّ الدعاءَ عند قبره مستجاب.

نسبه وشعر

ثم رجعنا إلى المنزل، وما نحن عن المسرة والحضور بمعزل؛ فعرض علينا الشيخ أبو الهدى المذكور نسبته إلى الشيخ علي بن عُلَيِّم فوجدناها نسبة شريفة، عليها خطوط

العلماء والأولياء والصلحاء، ذووي الأقدار المنيفة، ومن جملة من كتب عليها الحافظ ابن حجر العسقلاني[180]، والشيخ محمد الرملي[181]، والشيخ نجم الدين الغَيْطي[182]، وأمثالهم وطلب منا الكتابة على ذلك، فكتبنا هذا النظم على البديهة سلوكاً في هاتيك المسالك وهو موقد لنا وهو قولنا: [من الرمل]

قَدْ تَشَرَّفْنا بهذا النَّسَبِ ... فَرَأَيْناهُ طِرازَ الذَّهَبِ

وَعلَيْنا اللهُ قَدْ مَنَّ بِما ... مَنْ مِن إشْراقِ تلكَ الرُّتَبِ

وَبَدَتْ أسْرارُهُ ما بَيْنَنا ... فَهْيَ تحكي نَيِّراتِ الشُّهُبِ

نِسْبَةٌ لابنِ عُلَيْمٍ ظَهَرَتْ ... بَيْنَ شَرْقٍ في الوَرَى والمَغْرِبِ

فَتَراها بأبي حَفْصٍ سَمَتْ ... عُمَرَ الفارُوقِ زاكي الحَسَبِ

شَهِدَ القَوْمُ بها في مَلأٍ ... خَيْرِ مَوْلودٍ لَهُ خَيْرُ أبِ

وَذَوُو العِلْمِ عَلَيْها كَتَبُوا ... برقومٍ هي أقْوَى السَّبَبِ

فَتَشرَّفْتُ بها ثُمَّ عَلَى ... مَشْيِهِمْ لي كَمْ مَشْيَ الخَبَبِ

وَتَبَرَّكْتُ بما قَدْ جَمَعَتْ ... مِن جُدودٍ هُمْ رجالُ الأدَبِ

أرتجي النَّفْحَةَ مِن أسْرارِهم ... وقَبولاً هو أسْنَى الطَّلَبِ

وَأَنا عَبْدُ الغَنِيِّ والَّذي ... نابُلُوسٍ نِسْبَتي لَمْ تَخِبِ

عامَ خَمْسٍ بعدَ ألفٍ معها ... مِئَةٌ أرَّخْتُ ما قَرَّ بي

حامِداً للهِ رَبِّي شاكراً ... مُثْنِياً خَيْراً على خَيْرِ نَبي

بِصَلاةٍ وَسَلامٍ أبَداً ... ما شَدا الطيرُ بأعلى القُضُبِ

أوْ هَفا البَرْقُ بأكْنافِ الحِمَى ... فانْثَنَى الصَّبُّ بخمْرِ الطَّرَبِ

---

(180) - اسمه أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني توفي سنة 852هـ وانظر الضوء اللامع 2/ 36، والبدر الطالع 1/ 87، والأعلام 1/ 173 ـ 174 وكحالة 2/ 20

(181) - هو محمد بن أحمد بن حمزة شمس الدين الرملي ونسبته إلى رملة المنوفية بمصر توفي سنة 1004هـ وانظر خلاصة الأثر 3/ 342، والأعلام 6/ 235، ومعجم المؤلفين 8/ 255 ـ 256

(182) - اسمه محمد بن أحمد بن علي السكندري الغَيْطي الشافعي أبو المواهب نجم الدين توفي سنة 910هـ الكواكب السائرة 3/ 51 ـ 53، والأعلام 6/ 234، ومعجم المؤلفين 8/ 293

شعر في الرملة

ثم إنه حضر عندنا في تلك الليلة من أفاضل البلاد جملة، يتواردون على مناهل الأدب مثنى وآحاد، حتى قالوا: لم نسمع في مدح الرملة غير بيت أبي الطيب المتنبي وهو قوله: [من البسيط]

إذا السَّحابُ زَفَتْه الرِّيح مُنْهَملاً ... فَلاَ عَدا الرَّمْلَةَ البَيْضاء من بلدِ

ثم طلبوا منا أن نزيد على البيت تذييلا، ونضمنه فيما هو الطف إشارة وأحسن قيلاً؛ فقلنا على البديهة في ذلك الحين بطريق التضمين: [من البسيط]

عَرِّجْ عَلَى الرَّمْلَةِ البَيْضاءِ بالرَّغَدِ ... يا أخْضَرَ العَيْشِ وَاصْبِر ثمَّ وَاتَّئِدِ

وَأنْتَ يا حَظُّ كُنْ طِبْقَ المُرادِ لمن ... هُناكَ من والدٍ سامٍ ومن وَلَدِ

وَانْشُر ضياءَكَ يا بَدْرَ الكَمالِ عَلَى ... سَماءِ تِلْكَ النَّواحي الغُرِّ واتَّقِدِ

فَإنَّ لي جيرَةً فيها لهم شَرَفٌ ... وَلَمْ أزَلْ من عُلاهُمْ واصِلَ المَدَدِ

قَوْمٌ كِرامٌ شَهِدْنا مِنْ مَآثِرِهِمْ ... عَلَى ضَرائحِهِمْ عِزّاً إلى الأبدِ

لَمّا أتَيْناهُمْ نَبْغي زِيارَتَهُمْ ... وَنَرْتَجي من هُداهُمْ عالِيَ السَّنَدِ

أرْواحُهُمْ مُشْرِقاتٌ في مَقابِرِهِمْ ... وَطالَما أشْرَقَتْ منهم على الجَسَدِ

قَوْمٌ كِرامٌ لَهُمْ فيما يَرَوْنَ يَدٌ ... من المَعارِفِ تَعْلُو فَوْقَ كُلِّ يَدِ

فَإنَّهُمْ أوْلِياءُ الله قَدْ ظَهَرَتْ ... أسْرارُهُمْ كَشُموسِ الأفْقِ بالرَّصَدِ

وَالسَّعْدُ ساعَدَهُمْ في كُلِّ ما طَلَبوا ... من الإلهِ وَلَمْ يَلْوُوا عَلَى أحَدِ

ما بَيْنَ صَحْبٍ كِرامٍ للنَّبِيِّ سَمَوْا ... وَأوْلياءَ بِأكْفانٍ لَهُم جُدُدُ

وَصالحِين كِبارِ القَدْرِ قَدْ ظَهَرُوا ... قامَتْ عَلَيْهِمْ خِيامُ الفَضْلِ كالعُمُدِ

بِهِمْ فِلَسْطينُ في عِزٍّ بِرَمْلَتِها ... إن رمته في سواها لم تكد تجد

وَمِنْهُمُ ابنُ عُلَيْمٍ من بِنِسْبَتِهِ ... أبُو الهُدَى الشَّهْمُ محفوظ بلا أمد

حاوي الفَخارِ بِأجْدادٍ له سَلَفوا ... يَصولُ بَيْنَ البَرايا صَوْلَةَ الأسَدِ

فَيَا لَهَا نِسْبَةً غَرّاءَ واضِحَةً ... من لم يردها إلى العَلْياءِ لَمْ يَرِدِ

جِئْنا إلى حَيِّهِ نَبْغي زِيارَتَهُ ... وَقَدْ خَلَعْنا ثِيابَ الهَمِّ وَالنَّكَدِ

وَقَـدْ بَـدَتْ بَرَكَـاتٌ منـه تَـشْمَلُنا بِـسِرِّ أَسْـلاَفِه تُنجّـي مِـن الكَمَـدِ

فيـا رَعَـى الله ذاكَ الحـيَّ مِـن أُفُـقٍ أقْمـارُهُ لمْ تَـدَعْ للـصَّبِّ مِـن جَلَـدِ

يَقُـولُ مَـنْ قَـدْ رَآهُ بَيْـتَ ذي أَدَبٍ دَعَتْـهُ بـالمُتَنَبّي عُـصْبَةُ الحَـسَدِ

(إذا الـسَّحابُ زَفَتْـهُ الـرِّيحُ مُـنْهَمِلاً فَـلاَ عَدا الرَّمْلَـةَ البَيْـضاءَ مِـنْ بَلَـدِ)

اليوم التاسع والسبعون

21/ 3/ 1105هـ = 16/ 12/ 1693م

ثم أصبحنا في صباح يوم الجمعة التاسع والسبعين، وهو اليوم الحادي والعشرون من شهر ربيع الأول. فحضر عندنا الفاضل الكامل الشيخ أمين الدين المذكور، والسيد خليل، والشيخ خليل، وولده الفاضل الشيخ أحمد، وغيرهم من أهل الرملة.

مجلس علم وإجازة

وقرأ عندنا الشيخ أبو الهدى المذكور حديث (إنّما الأعمالُ بالنّيات) فتكلمنا لهم عليه بمقتضى فتوح الوقت، من معاني الحضور، وأحكام المطلوب والمحظور؛ وطلبوا منا الإجازة في رواية الحديث، ومالنا روايته من قديم وحديث؛ فتلفظنا بذلك عند ختم المجلس، ثم كتبنا لهم ما تيسر من الأسانيد على حسب طريقتنا المتأسس؛ ثم حضر وقت صلاة الجمعة فذهبنا مع الجماعة إلى الجامع الكبير، وصلينا هناك مع الجم الغفير، وكان الخطيب هو الشاب الفاضل الشيخ محمد أخو الشيخ أبي الهدى المذكور؛ فتح الله عليهما فتوح العارفين أهل النور.

سؤال في الطلاق وجوابه

ثم عدنا إلى منزلنا المعهود، فعرض علينا هذا السؤال رجل جاء به وهو عنده مقصود؛ وصورته:

ما قول شيخ الإسلام، عفا عنه الملك العلام؛ في رجل ضرب زوجته، فاحتمت برجل أجنبي، فقال زوجها لذلك الرجل: إن كان لك غرضٌ فامرأتي طالق، ثلاثاً. فقال الرجل: لا غرضَ لي في ذلك. فهل لا يقع الطلاق لكونه علّقه على شرط لم يوجد [ذلك الشرط] والحالة ما ذكر أم لا؟

وطلب منا الكتابة على ذلك. فكتبنا أنه لا لا يقع الطلاق المذكور، لأنه علّقه على شرط لا يعلم إلا منه، وقد أخبر ذلك الرجل بعدم الشرط، فصدق في عدم وجوده، فلا يقع الطلاق المذكور. كتبه الفقير عبد الغني بن النابلسي الحنفي عفي عنه.

والأصل في هذا الذي ذكرناه ما نقل في الفتاوي الظهيرية في نوع تعليق الطلاق بالمشيئة، إذا قال لامرأته أنت طالق، إذا شاء فلان، أو إن أحب فلان، أو إن أراد فلان، أو إن أراد فلان، فبلغ ذلك فلاناً، فله مجلس علمه ثم قال.

والحاصلُ أنْ تعليق الزوج طلاقَ المرأة بصفة من صفات قلب غيره تفويض وتمليك معنى فيقتصر على المجلس وتعليقه طلاقها بصفة من صفات قلب نفسه ليس بتفويض وتمليك بوجه من الوجوه ولو قال لها أنت طالق إن لم يشأ فلان، فقال فلان في المجلس: لا أشاء، طلقت، وتمامه هناك. والمسألة في المتون والشروح، بما تنبسط له القلوب وتنسر الروح.

ضيافة ومسائل علمية

ثم ذهبنا إلى ضيافة صديقنا الشيخ أمين الدين المذكور، فدخلنا إلى داره الواسعة البركات التي هي أشرف الدور؛ وقد حضرت الأفاضل والأعيان، وحصل البحث في المسائل العلمية والفوائد الفقهية والأبيات الشعرية الحسان؛ إلى أن أبدى كل منهم فرائده، ثم بسط البساط بالانبساط، ومُدَّتْ المائدة، وجاؤوا بماء الورد والبخور.

اليوم الثمانون

22/ 3/ 1105هـ = 17/ 12/ 1693م

ثم عدنا إلى مكاننا، وبتنا في أتم سرور، حتى طلع فجر يوم السبت، وهو اليوم الثمانون، الثاني والعشرون من شهر ربيع الأول، سرنا من الرملة، عازمين على زيارة الولي الجامع، والسر الإلهي اللامع؛ الشيخ علي بن عليم قدس الله سره.

قال الحنبلي في تاريخه[183] هو علي بن عليل بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن عبد الرحمن بن السيد الجليل الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب خليفة رسول الله ﷺ. وضريح علي بن عليل رضي الله عنه بشاطئ البحر المالح بساحل أرْسُوف[184]،

---

[183] - انظر الأنس الجليل 2/ 72.

[184] - ارسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيْسارية ويافا. كان بها خلق من المرابطين (معجم البلدان، ارسوف).

وعليه مشهد عظيم مأنوس له منارة مرتفعة وأهل تلك النواحي بأسرها في حضرة وبركة سره. ومن مناقبه أن الفرنج يعتقدون فيه، ويعترفون بصلاحه. وقد أخبرتُ أن الفرنج إذا أقبلوا على ضريحه، وهم في البحر كشفوا رؤوسهم ونكسوها نحوه، رضي الله عنه، وكانت وفاته في يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وسبعين وأربع مائة.

ولما نزل الظاهر بيبرس لفتح يافا وأرسوف زاره، ونذر النذور والأوقاف، ودعا الله تعالى عند قبره بفتح البلاد، وفي كل سنة له موسم في زمن الصيف، يقصده الناس من البلاد البعيدة والقريبة، وينفقون الأموال الجزيلة، ويقرؤون عند قبره الورد[185] الشريف.

وفي عصرنا ولي عليه النظر سيدنا وشيخنا ولي الله تعالى قدوة العباد، والزهاد، الشيخ شمس الدين أبو العون محمد الغزي القادري الشافعي، رحمه الله تعالى، فعمر المشهد وأقام نظامه وشعائره. وصنع فيه آثاراً حسنة منها: الرخام المركب على الضريح عمله في سنة ست وثمانين وثماني مئة. وكان قبله مجمولاً من خشب وحفر البئر الذي بصحن المسجد حتى وصل إلى الماء المعين، ثم عمر برجاً على ظهر الإيوان من جهة الغرب للجهاد في سبيل الله تعالى ووضع فيه آلات الحرب لقتال الفرنج. وكانت عمارته بعد السبعين[186] وثماني المائة. انتهى.

وسار معنا صديقنا الشيخ أمين الدين المذكور، والشيخ أبو الهدى المتصل النسب بهذا المرور وهو خادم تلك الحضرة، ونفحة طيب هذه الزهرة، وغيرهم من الإخوان والأصحاب والأصدقاء والأحباب.

قبر الشيخ أحمد القبي

فمررنا في الطريق على قبر الشيخ احمد القُبّي بضم القاف، وبعضهم يكسرها، وبتشديد الباء الموحدة، فقرأنا له الفاتحة ودعونا الله تعالى

بلدة اللُد

ثم سرنا حتى وصلنا إلى بلدة الله بضم اللام وبالدال المهملة المشددة.

---

(185) - في الأنس (المولد)

(186) - في الأنس (التسعين)

حديث الدجال

وقد روي في الحديث عن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال فقال يقتله عيسى بن مريم بباب لُد.

ففي هذا الحديث فضيلة لأهل تلك الأرض المقدسة، لأنهم يقاتلون الأعور الدجال مع نبي الله عيسى عليه السلام.

وكانت لد في الزمن السالف مدينة، وكانت تنزل بها القافلة الواصلة من مصر إلى الشام، وصارت الآن قرية كبقية القرى ولكنها حسنة المنظر وظاهرها بهج ذكره الحنبلي[187].

قبر عبد الرحمن بن عوف الصحابي

وقد زرنا بها عبد الرحمن بن عوف[188]، رضي الله عنه، الصحابي المشهور، في داخل مكان هناك قديم بناؤه، متهدّم آثاره واعتلاؤه. وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى بأنواع الأدعية الصالحة.

قال الحنبلي[189]: وبظاهر لُدّ من جهة الشرق مشهدٌ يقال: إن به قبر أبي عبد الله عبد الرحمن بن عوف الصحابي، رضي الله عنه، ووفاته في سنة اثنتين وثلاثين، وإنما توفي بالمدينة. وقبره في البقيع انتهى.

وهو أحد العشرة[190] المبشرين بالجنة.

وجزم النووي في تهذيب الأسماء واللغات[191] أن قبره في البقيع وهو المعروف لا غير.

وقلنا في ذلك على حسب ما هنالك: [من الخفيف]

قَدْ مَرَرْنا بالحيِّ من أرضِ لُدٍّ ... فانعشي يا زيارتي لي ولُدِّي[192]

---

[187] - انظر الأنس الجليل 2/ 71.

[188] - ترجمته في التاريخ الكبير 5/ 240، والجرح والتعديل 5/ 247، وحلية الأولياء 1/ 98 . 100، والاستيعاب 6/ 68 . 84، وأسد الغابة 3/ 485، وتهذيب الأسماء واللغات 1/ 300 . 302، وتهذيب التهذيب 6/ 244، والإصابة 6/ 311 . 313، وسير اعلام النبلاء 1/ 68 . 92.

[189] - انظر الأنس الجليل 2/ 71.

[190] وهم: الخلفاء الراشدون الأربعة، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد. وانظر سير اعلام النبلاء 1/ 5 . 144.

[191] - انظر تهذيب الأسماء واللغات 1/ 302

[192] - من قولهم لَدَّهُ اللَّدود . كصبور . إذا سقاه الدواء في أحد شقي الفم انظر القاموس (لدد) وأساس البلاغة (لد)

مِـنْ فِلَـسْطِينَ قُـرْبَ رَمْلَـةِ قُـدْسٍ　　بلـدة أهْلُهــا لَهُــمْ صُــدْقُ وُدٌّ
وَقُبُــوراً هُنَــاكَ زُرْنَــا لِقَــوْمٍ　　مِــن صِــحابِ الـنَّبيِّ أرْبـابِ رُشْــدِ
قَبْـرِ عَبْـدِ الـرَّحمنِ مِـنْ بـابْنِ عَـوْفٍ　　قَـدْ دُعــي قِيـلَ إنَّــهُ ضِـمْنُ لَحْـدِ
ثُـمَّ قَبْـرِ المِقْـدادِ أشْـرَفِ شَـهْمٍ　　خَـصَّهُ اللهُ في الأنَــامِ بِمَجْــدِ
وَبَــواقي أمـــاكن وَجِهـــاتٍ　　تَجْمَـعُ الـصَّالحينَ مِـن أهْـلِ وَجْـدِ
بَلَـــدٌ صـــالِحٌ وَأسْـــرارُ حَـــقٍّ　　ظـــاهِراتٌ مـــا إنْ تُعَـــدُّ بِعَـــدِّ
وَأراضِــــي لَطيفَــــةٌ مُــــستَنيرٌ　　جَوُّهـــا للتُّقَـــى وللخَيْـــرِ تَهْـدي
فَعَلَـــى أهْلِهـــا الـــسَّلامُ كَـــثيراً　　مـــا تَبَـدَّى بَـرْقُ الغُـوَيْرِ[193] ونَجْـدِ

نهر العوجا

ثم لم نزل سائرين إلى أن نزلنا في مكان هناك تحت الأشجار، وأكلنا نحن والإخوان ما تيسر من الزاد وكان ابتداء النهار؛ ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى الطواحين والنهر المسمى بنهر العوجا، وكان الربيع هناك مقبلاً في غير أوانه فوجاً فوجاً؛ ولله درُّ الشاعر ابن نباته حيث قال في هذا المقام مُعَرِّضاً بنهر العوجا[194] هذا، ونهر الأعوج[195] عندنا في بعض قرى دمشق الشام: [من الطويل]

وَهُنِّيـــتُمُ في أرْضِ جِلَّـــقَ مَـــنْهلاً　　زُلالاً عَلَيْـــــه للثُّلـــــوجِ مُعَـــرَّجُ
وَإنْ قُلْـــتُمُ إنَّ المَناهِـــلَ كُلَّهـــا　　سَــواءٌ فَهــذا القَــوْلُ بــالغِشِّ يُمْــزَجُ
وَمــا كُــلُّ هَيْفــاءٍ لهــا الأخُ أهْيَــفٌ　　وَلا كُــلُّ عَوْجــاءٍ لَهَــا الأخُ أعْــوَجُ

عجائب نهر الأعوج

ومن عجائب نهر الأعوج عندنا في أراضي دمشق الشام، بأراضي القرى التي يمرّ فيها أنّ سيره متعوّج في الأرض، يذهب شمالاً ثم يذهب يميناً، ثم يذهب شرقاً، ثم غرباً.

---

(193) - الغُوَيْرُ: قال أبو عبيد السكوني: الغوير ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة معجم البلدان ولعله قصد هنا مكة بذاتها أو الأراضي المقدسة وكذا قصد بنجد

(194) - قال ياقوت (العَوْجاء: نهر بين أرسوف والرملة من ارض فلسطين من السواحل) معجم البلدان

(195) - هو من انهار سورية ينبع من جبل الشيخ ويتجه شرقاً فيمر بالكسوة لينتهي في الغوطة

والسواقي الجارية منه رأيناها تذهب كذلك في الأرض، ثم تنحرف، وترجع في طريق آخر إلى قرب مبدئها، ثم تعود في ممر آخر، ولم ندر أن سبب ذلك الإعوجاج في طبع الماء، أو في طبع الأرض، لأنها هشّةٌ رخوة، وقلنا في نحو ذلك، نشير إلى النهرين وما هنالك: [من السريع]

هـــذا زَمـــانٌ أهْلُـــه غالبـــاً	تَعَوّجـــوا عَـــنْ واضـــحِ المَـــنْهَجِ
حَتّـــى مـــن الأنهـــارِ عَوْجـــاء في	أرضِ فِلَـــــسْطينَ لَمُـــــسْتَنْهجِ
والـــشّامُ في قِبْلَتِهـــا أعْـــوجٌ	نَهْـــرٌ جَـــرَى مُـــسْتَعذَب المَخْـــرجِ
يـــا أيهـــا الأقْـــوامُ قُومـــوا بنـــا	نـــزوِّجُ العَوْجـــاءَ للأعْـــوَجِ

وقلنا كذلك مَوَّاليا:

متى تكون استقامت نفسك العوجا	وإن من بعض أسماء النسا العوجا
حتى الفواكه يرى من بعضها العوجا	والأعـــوج النـــهر لا تتـــساه

نهر العوجاء

وذكر القلقشندي في صبح الأعشى، قال: نهر العَوْجَاء ـ بفتح العين المهملة، وسكون الواو، وفتح الجيم، بعدها ألف: ويسمى نهر أبي فُطْرُس بضم الفاء، والطاء والراء والسين المهملات: وهو نهر شمالي مدينة الرملة من فلسطين، ومنبعه من تحت جبل الخليل عليه السلام، مقابل قلعة خرابٍ هناك تسمى مجدل اليابا، ويجري هذا النهر من الشرق إلى الغرب، ومن منبعه إلى مصبه، دون مسافة يوم.

قال في العزيزي: وما التقى عليه جيشان إلا غلبَ الغربي، وانهزم الشرقي انتهى. وقد نزلنا هناك على حافة نهر العوجا مع بقية الإخوان، وأكلنا ما تيسر معنا من الزاد ولنا الأرض خِوان.

مقام علي بن عليم

ثم لم نزل سائرين إلى أن أشرفنا على مقام سيدي الشيخ علي بن عليم قدس الله سره، فدخلنا إلى مكان المبارك، وهو ساحة واسعة تحيط بها جدران أربع، ولها باب مُقَفَّلٌ في غير أيام الزوار. فلما جئنا فُتح لنا البابُ، وأشرقت الأنوار، فدخلنا بسم الله، وإذا بالقبر الشريف مبنيٌ بالرخا، وحوله تأزير منيف، في جانب من تلك الساحة السماوية، وفي

قبلتها عقد من القبو غرباً بشرق، فيه المحراب المملوء بالأسرار الخفية والجلية. فوقفنا قبالة القبر، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى فشممنا للقبول رائحة فائحة.

وكان من جملة دعائنا لولدنا إسماعيل الذي فارقناه من صيدا، ورجع إلى دمشق الشام لأجل خاطر والدته والاجتماع بها، لتحصيل البر التام، بأن الله تعالى يحرك خاطره للرجوع إلينا، وإدراك فرض الحج الشريف معنا ولدينا، فكان ذلك اليوم بعينه هو يوم خروجه من دمشق الشام، وتوجهه إلى جهتنا كما أخبرنا هو بذلك عند اجتماعنا به بعد ذلك بأيام.

وكان من دعائنا أشياء أخر وجدناها متيسرة بإذن الله تعالى من غير تأخير، والله على كل شيء قدير.

وقد وجد بعض أصحابنا على قبل الشيخ علي بن عليم قدس الله سره ورقة مكتوب فيها: مرحباً بكم وأهلاً وسهلاً أنجح الله تعالى مقاصدكم، وقضى حوائجكم، وحملكم بالسلامة، في السفر والإقامة. وكلام آخر. والورقة أخذها الشيخ أمين الدين الخليلي حفظه الله تعالى، وقرأنا علينا، وهذا ما حفظناه منها، والله أعلم بحقائق الأحوال.

وذلك المزار بعيد عن العمران، منفرد في ساحل البحر وليس يوجد هناك أحد من النساء والرجال، ونحن جئناه على غفلة، وطرقنا تلك الأماكن في وهلة؛ ومما يدل على بعد العهد بالزوار، أنا وجدنا الصندوق الذي عند رأس الشيخ لوضع النُّذرِ ممن يرد على تلك الديار، قد دخل من ثقبه النحل، وعمل فيه أقراص العسل، فقلنا لهم: هذا إكرام لنا بالفعل أيضاً بعد القول من إشارة الشيخ، حتى قوي النشاط وزال الكسل، وقد أكلنا من ذلك الشهد فحصلت لنا البركة وزال الجهد.

وقد جلسنا هناك بعد أداء ركعتين في المحراب للتحية، وشرعنا في نظم هذه الأبيات على البديهة وإملائها للكاتب بهمة علية، وهي قولنا: [من الطويل]

سَقَى ابْنَ عَلَيْلٍ من شَرابِ الرِّضا ساقي	فَزَوْرَتُهُ شَدَتْ لنَيْلِ المُنَى ساقي
وَأَورَثَتِ الإقْبالَ في دَوْلَةِ الهَنا	وكانَ بها اللهُ الكَريمُ لَنا واقي
سَرَيْنا إلَيْهِ والصَباحُ كَأنَّهُ	عَلَى رَوْضَةِ الجَوِّ المُضي ماء رَقْراقِ
وللأرض اثوابٌ مِن النَّبْتِ دُبِّجتْ	بألوانِ زَهْرٍ مُشْرِقٍ أيّ إشْراقِ
وَنَهْرٌ لَطيفُ الماءِ يدَفَّقُ في الرُبا	فَلِلَّهِ مِن نَهْرٍ هنالِك دَفّاقِ

جلَسْنا علَى الشّاطي الّذي امتدّ أخضَراً … كمِثْـلِ لـواءٍ في هـوَى الجـوّ خفّـاقِ

وَذاكَ النّسيمُ الرّطْبُ يَنْشرُ طيبَهُ … علَيْنا وَمَا للشّمْسِ نيرانُ إحْراقِ

إلى أنْ دَعا داعي الزّيارة مُعْلِناً … بِشارَتَهُ فينا على أوْجِ آفاقِ

وَقُمْنا نَظُنُّ البيدَ تُطْوَى بِسيرنا … لِمَنْ قَدْ قَصَدْناه بلِينٍ وإرْفاقِ

وَهبّتْ عَلَيْنا مِن شَذا نَفَحاتِه … رَوائِحُ قُرْبٍ يَسْتَلِذُّ بها الرّاقي

وَجادَ عَلَيْنا الله بالحالَةِ الّتي … تُثيرُ فُؤادَ المُستهامِ باشْواقِ

وَأتْحفَنَا المَوْلَى بأنْواعِ لُطْفِه … وَدارَ لنا كأسُ الفنا من يد الباقي

الا يا عَليُّ الاسمِ والقَدْرِ في الوَرَى … ويا بْنَ عُلَيْلٍ مَنْ تَسامَى بأعْراقِ

إلى عُمَرَ الخَطّابِ نِسْبةُ جَدِّهِ … إلى ذلِكَ الفارُوقِ حجةُ خَلاّقِ

خليفةِ طهَ سَيّدِ الرُسْلِ كُلِّهم … وحامي حمَى الإسْلامِ منه بامحاقِ

ومن طيبِ هاتيكَ الجُدودِ تَعَلّمَتْ … فروعٌ لَهُمْ تُولي العَطايا بإغْداقِ

رَعَى الله بَحْراً عند بَحْرٍ من النّدا … حمايَتُهُ مَعْروفَةٌ بَيْنَ أرْفاقِ

كَريمُ السّجايا مِلءُ تربته هُدىً … لَهُ شَرَفٌ بالحقّ من يومِ ميثاقِ

كَرامَتُهُ في النّاسِ مَشْهورةٌ لها … يَرضى كُلّ ذي عَقْلٍ فيا طيبَ أخْلاقِ

وَيَقْصدهُ الحاني فَيُغْفَرُ ذَنْبُهُ … لَدَى كُلِّ إرعادٍ يكونُ وإبْراقِ

وما أزْمَةٌ مَدّتْ إلى العَبْدِ باعَها … وَوافاهُ إلا آبَ منه بأرْزاقِ

يَظَلُّ عَلَيْه النُورُ يُبْدي رُواقَهُ … بغَيْثِ قبولٍ من سما الغَيْبِ مهراقِ

وَأوْصافُه جَلّتْ واحْوالُه جَلَتْ … غُيومَ غُيومٍ عن أضالِعِ مُشْتاقِ

الا يا كَبيرَ الأوْلياءِ وَمَنْ لَهُ … مَزيّةُ قُرْبٍ لا تُنالُ بإلْحاقِ

اتَيْنا إلى أبْوابِ عِزِّكَ نَلْتَجي … لأرْوَعَ شَعْشاعِ العمامةِ سَبّاقِ

وَرَكْبٍ صَحِبْناهُمْ إليكَ أعِزّةٍ … لَهُمْ مِنَنٌ فينا تُناطُ بأعْناقِ

جَهابِذَةٍ غُرٍّ أئمّةِ مَعْشَرٍ … لهم تَنْطُرُ العَلياءُ لكن بإطْراقِ

لَدَى كُلِّ شَهْمٍ في الكمالِ مُهذّبٍ … يَتيهُ بوَجْهِهِ في المَفاخِرِ بَرّاقِ

إلى أنْ وصَلْنا والنهارُ كأنّه مُحَيّا جَميلٍ في مَلاَحَةِ أحْداقِ
فَجئْنا وَسَلّمْنا علَى الحَضْرَةِ الّتي يحقُّ لَدَيْنا أنْ تُداسَ بآفاقِ
وَقَدْ لاحتِ الأسْرارُ من جَنَباتِها فهامَتْ بذكراها قُلوبٌ لعُشّاقِ
وَجادَ بما جادَ الإلهُ وأسْفَرَتْ وجوهُ الأماني عن سنا طَلْعَةِ السّاقي
فلازالَ رضوانٌ من اللهِ دائماً على ابنِ عُلَيْلٍ بَعْدَ عَفْوٍ واشْفاقِ
على أمَدِ الأيّامِ ما لَوْعةُ الجَوَى بَعبْدِ الغَني قَدْ هاجَها فَتْحُ إغْلاقِ
وما جَدَّتِ الذكرى بصوتِ حَمامةٍ تُغَنّي عَلَى تلكَ النّواحي بأوْراقِ
وَما لاحَ صُبْحٌ والظّلامُ مَضَى وَما بُروقُ الحمى فاهَتْ بألْسُنِ إنطاقِ

ومما اتفق لرجل من إخواننا أن نسي دواةً له من النحاس بين الحشيش، وفي الطريق ونحن ذاهبون إلى زيارة الشيخ علي ابن عليم، قدس الله سره، فما تذكُرها حتى وصلنا إلى المزار الشريف، فيئس منها في نفسه، ثم قال: يا سيدي علي بن عليم تضيعُ لي هذه الدواة، وأنا جئت إلى زيارتك، وفي حماك، ثم إننا ذهبنا إلى مصر المحروسة كما سنذكره إن شاء الله. فاجتمع برجل هناك، فقال له خذ هذه دواتك ووصلت إليه دواته ببركة الشيخ المذكور قدس الله سره.

اليوم الحادي والثمانون

23/ 3/ 1105 = 18/ 12/ 1693م

ثم بتنا تلك الليلة في أتم سرور، وأكمل حضور، ونحن تحت الرواق بين البحرين، بحر الماء، وبحر الهدى والندا، ونحن في العين، إلى أن أصبح صباح يوم الأحد الحادي والثمانين، وهو اليوم الثالث والعشرون من شهر ربيع الأول، فجلسنا تحت تلك الحضرة المباركة، نحن وبقية من كان بيننا وبينه في الزيارة مشاركة، إلى أن صار وقت الظهر، فأكلنا ما تيسر لنا من الزاد، ثم صلينا بالجماعة صلاة الظهر، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى بإتمام المقصود والمراد.

ثم ركبنا وسرنا نحن والإخوان، في أتم عافية، وأعم أمان، وكان النهار فاختي اللون، ووجه الشمس تحت جلباب الغيم من الصون، فأنشدنا الشيخ أمين الدين المذكور سابقاً هذا البيت، من جملة قصيدة لأخيه الشيخ بشير المقدسي، رحمه الله تعالى، وذلك قوله: [من الخفيف]

سُتِرَتْ فيه شَمْعَةُ الشَّمْس خَوْفاً ... مِن هُبوبِ الصّبا بفانوسِ غَيْمِ

ومن تلك القصيدة قبل ذلك البيت قوله:

ربَّ يومٍ تمازَجَ الحَرُّ والبَرْ ... دُ به فاغْتَدَى كَطَبْعِ السَّلِيمِ

وقلنا نحن من النظام في هذا المقام: [من الوافر]

وَيَومٍ فاختيَّ الجَوُّ كُنّا ... نَطيرُ لَهُ بأجْنحةِ السُّرورِ

شَرِبْنا فيه كاساتِ التَّصافي ... وَطِبْنا في الزِّيارَةِ بالمزورِ

لدى ابنِ عُلَيْلِ السّامي نَزَلْنا ... هُنالِكَ بَينَ ساميةِ القُبورِ

وبالبحرين بحرِ الماءِ فُزْنا ... وَبَحْرِ فائِقٍ بينَ البحورِ

مَعَ القَوْمِ الكِرامِ أجلِّ قَوْمٍ ... فَحُزْنا للكَمالِ وللأجورِ

وَزادَ اللهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْنا ... وقَدْ قُضِيَتْ لنا كُلُّ الأمورِ

فَحَيّا اللهُ ذاكَ اليومِ عنّا ... وَذاكَ الدَّهْرَ مِن بينِ الدُّهورِ

ثغر يافا

ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى ثغر يافا المحروسة، فنزلنا هناك في دير الأرمن، مع جماعتنا المأنوسة؛ وهو مكان يشبه القلعة المتينة، ذات الأبراج الحصينة؛ وحصل لنا هناك بإخواننا، ومن كان معنا كمال السرور، وأتم الصفاء والحبور؛ فقلنا من النظام، حيث كان لجمعنا انتظام: [من الخفيف]

قَدْ أتَيْنا نَسْعَى إلى ثَغْرِ يافا ... ثُمَّ قُلْنا يا فارِغَ البالِ يافا

وَدَعا بَعْضُنا بِذاكَ لِبَعْضٍ ... حَيْثُ رَبّي لنا مِن الهم عافى

وبها البحرُ والمراكبُ فيه ... فنقالاً بما حَوَتْهُ خفافا

وبأعلى الدَّيرِ الذي ثُمَّ بِتْنا ... وعَلَيْنا كأسُ المَسَرَّةِ طافا

مَعَ صَحْبٍ حازوا الكَمالَ ذَواتاً ... وَتَرَقَّوْا عَلَى الوَرَى أوْصافا

كُلُّ شَهْمٍ على الوِدادِ تَوافَى ... وعَلَى الحُبِّ والخُلوصِ تَصافَى

سادةٌ كلُّهُمْ أجلَّةُ قَوْمٍ ... جَمَعَ اللهُ فيهمُ الألطافا

ثُــم بِتْنــا هُنــاكَ خَيْــرَ مَبيــتٍ	حَيْــثُ وَجْــهُ الــسُرورِ بــالعزِّ وافَــى
ثُــمّ لمــا بــدا الــصبَّاحُ وَوَلَّــتْ	أَنْجــمُ اللَّيْــلِ بالــضيا تتنــافى
هَــبَّ داعــي الرَّحيــلِ يُعْلِــنُ فينــا	فَرأيْنــــاهُ للمُنَــــى إســــعافا
وَنَـسيمُ الـصبَّا عَلَـى البَحْـرِ يَمْـشي	ســـاقَ مـــن جُنْـــدِ مَوْجِـــه آلافـــا

اليوم الثاني والثمانون

24/ 3/ 1105هـ = 19/ 12/ 1693م

وبتنا هناك، وقد تولت الأحلام والأحلاك؛ ونحن في أتم صفاء وأعم وفاء. وقد طلع صباح يوم الاثنين الثاني والثمانين، وهو اليوم الرابع والعشرون من شهر ربيع الأول. فسرنا على بركة الله تعالى مع جماعة الإخوان، نسحب ذيول الأماني في رياض الأمان.

قبة سلمة بن الأكوع

حتى رأينا في الطريق من بعيد قبة مبنية بالأحجار والشّيد، فإذا هي قبة فيها قبر سَلَمَة بن الأكوع الصحابي الجليل، رضي الله عنه.

وفي مختصر أسد الغابة في أسماء الصحابة[196] قال: سَلَمَة بن الأكْوَع، وقيل: سَلَمة ابن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع: سِنان بن عبد الله وكنية سلمة: أبو إياس، في الأكثر، وقيل: أبو مسلم، وقيل: أبو عامر، بايع تحت الشجرة [مرتين][197]، ثم سكن بالرَّبَذَة[198].

قال ابنه إياس: ما كذبَ أبي قطُّ. وعاد إلى المدينة قبل وفاته بليال.

وتوفي فيها سنة أربع وسبعين، وهو ابن خمس وثمانين سنة[199]. انتهى.

---

(196) - انظر اسد الغابة 2/ 422.

(197) - عن اسد الغابة

(198) - الربذة من قرى المدينة على بعد ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز؛ إذا رحلت من فيد تريد مكة (معجم البلدان)

(199) - في الاستيعاب 2/ 369 سنة اربع وسبعين وهو ابن ثمانين وفي اسد الغابة 2/ 424 سنة اربع وسبعين وهو ابن ثمانين سنة وقيل توفي سنة اربع وستين وفي سير اعلام النبلاء انه (توفي سنة اربع وسبعين قلت وكان من ابناء التسعين) ويحرّر ابن حجر المسألة على النحو التالي في إصابته 2/ 67: (مات بالمدينة سنة اربع وسبعين على الصحيح،

وذكر الهروي في كتاب الزيارات[200] له أن جملة من الصحابة رضي الله عنهم، دفنوا في البقيع بالمدينة. وذكر منهم سلمة بن الأكوع فقبره في المدينة لا هنا.

والربذة - بالتحريك،وبالراء، والباء الموحدة، والذال المعجمة، والهاء، موضع قرب المدينة.

قرية صرفند

ثم مررنا على قرية صَرْفَنْد[201] - بفتح الصاد المهملة، وسكون الراء، وفتح الفاء، وسكون النون، بعدها دال مهملة - فجلسنا هناك تحت ظل شجرة، وأكلنا ما تيسر لنا من الزاد ببركة الصالحين البررة.

لقمان الحكيم

وقد أخبرنا أن لقمان الحكيم عليه السلام، مدفون هناك في داخل مكان، وعليه قبة ذات هيبة ووقار ونورانية ولمعان.

وفي كتاب الزيارات للهوري[202]: (ومن شرقيّ بُحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم، وابنه. وقبره أيضاً باليمن بجبل يقال له لاعَة [عدن][203] وذكر[204] في محل زيارات اليمن قال: (لاعة[205] عدن، عندها جبل عليه قبر لقمان الحكيم). انتهى.

عود إلى الرملة

ثم دخلنا الرملة، فنزلنا في ذلك المنزل الأول، وهو منزل صديقنا الشيخ أبي الهدى الذي هو روح جسد ذلك القطر وعليه فيه المعول.

وقيل مات سنة اربع وستين وزعم الواقدي ومن تبعه انه عاش ثمانين سنة ومن يكون في ذلك السنّ لا يبايع على الموت ثم رأيت عند ابن سعد انه مات في آخر خلافة معاوية) (اي سنة 60).

[200] - انظر الإشارات 94.

[201] - في معجم البلدان: (صَرَفَنْدُ: قرية من قرى صور من سواحل بحر الشام).

[202] - الزيارات 19.

[203] - عن الزيارات 19.

[204] - الزيارات 97.

[205] - في معجم البلدان: (لاعةُ: مدينة في جبل صَبِر من نواحي اليمن إلى جانبها قرية لطيفة يقال لها (عدن لاعَة)

اليوم الثالث والثمانون

25/ 3/ 1105هـ = 20/ 12/ 1693م

وبتنا تلك الليلة في حماه المنيع، فكانا نرتع من بدائع آدابه في رياض ربيع، إلى أن طلع صباح يوم الثلاثاء وهو اليوم الثالث والثمانون، وهو اليوم الخامس والعشرون من شهر ربيع الأول، فعزمنا عل السير وخرجت معنا الإخوان، إخوان المودة والخير، يقصدون الوداع، حيث دعا إلى الفراق داع؛ منهم الشيخ أبو الهدى المذكور، والشيخ أمين الدين والسيد محمد جلبي الفلاقنسي، ناظر أوقاف الخليل إبراهيم عليه السلام، والشيخ شمس الدين، وجماعة آخرون ممن كانوا عندنا يجتمعون. ثم قرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى لهم ولنا، وعادوا إلى الإقامة، وسافرنا بالسلامة.

قبر الشيخ قَنْدَه

حتى مررنا على قبر الشيخ قَنْدَه ـ بفتح القاف، بعدها نون ساكنة، ثم دال مهملة مفتوحة، وهاء ـ فقرأنا له الفاتحة.

قبر النبي روبين

ثم أشرفنا على قبة النبي روبين عليه السلام.

قرية يُبْنى

ولم نزل سائرين، مع جماعتنا الحاضرين؛ إلى أن وصلنا إلى قرية يُبْنَى ـ بضم الباء المثناة التحتية، وسكون الباء الموحدة، ونون مفتوحة، وألف مقصورة.

وقال الأسيوطي في شرحه على سنن ابن ماجة الذي سماه (مصباح الزجاجة) في باب الجهاد: أُبْنَى هي بضم الهمزة، والقصر: اسم موضع في فلسطين بين عسقلان والرملة، ويقال له: يُبْنَى بالياء انتهى كلامه.

فاسم القرية أُبْنَى ويُبْنَى بالهمزة وبالياء في أوله مقصوراً.

فجلسنا هناك حصة من الزمان، وأكلنا ما تيسر لنا من الزاد مع الإخوان.

قبر أبي هُرَيْرة

ثم زرنا قبر أبي هريرة[206] الصحابي الجليل رضي الله عنه، في مكان كبير، واسع الأطراف والجوانب، داخله بناء عظيم، من عمارة الملك الأشرف، مكتوب ذلك على بابه، وعليه قبة، في المكان مهابة وجلال، والله أعلم بحقيقة الحال.

واختلف في اسم هُرَيْره رضي الله عنه: فقيل عبد الرحمن بن صَخْر، وقيل عبد الرحمن بن غَنْم، وقيل عَبْد شَمْس، ويقال اسمه عبد الله، ويقال يزيد بن عِشْرِقَة، ويقال سُكين ابن روية، ويقال عبد الله بن عبد شمس، ويقال عامر.

وعنه أنه قال: كان اسمي في الجاهلية عبد قيس، فسميتُ في الإسلام عبد الرحمن، وإنما كنيت بأبي هريرة لأني وجدت هرةً، فحملتها في كمي، فقيل لي ما هذه؟ فقلت: هرة. قال: فأنت أبو هريرة.

وروى عنه أنه قال: كنتُ أحمل هرةً يوماً في كمي فرآني رسول الله ﷺ فقال: ما هذه؟ فقلت: هرة فقال: يا أبا هريرة.

وقد اختلف في اسم هريرة اختلافاً كثيراً، لا يحاط ولا يضبط في الجاهلية والإسلام. والذي اعتمدت عليه طائفة ألفت في الأسماء والكنى أن اسمه عبد الرحمن بن صخر.

سكن المدينة، وبها كانت وفاته في سنة سبع وخمسين، وقيل: تسع وخمسين، وقيل إنه مات بالعقيق. وصلى عليه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان، وكان أميراً يومئذ على المدينة. كما حررت ذلك بالنقول المعتمدة في كتابي زهر الحديقة. في ذكر رجال الطريقة.

وذكر الهروي في كتاب الزيارات أن يُبْنَى بلد بين يافا وعسقلان، بها قبر أبي هريرة رضي الله عنه انتهى.

ثم نظمنا في هذه القرية على البديهة قولنا: [من الخفيف]

قَدْ أتينا نَؤُمّ قَرْيَةَ يُبْنَى	ولنا حصنٌ منه الله يُبْنَى
قَرْيةٌ في طَريقِ غَزَّةَ لاحَتْ	جَمَعَتْ بَهْجةً ولُطفاً وحُسْنا
وقُبورٌ للصّالحينَ مُنيرا	تٌ دَعَوْنا هُناكَ رَبّي وزُرْنا

[206] - انظر ترجمته في طبقات ابن سعد2/ 362 . 364 و 4/ 325 . 341، والاستيعاب 4/ 1768، وحلية الأولياء، وأسد الغابة 6/ 318، وتهذيب 12/ 262 . 267، والإصابة 4/ 202 . 211، وسير أعلام النبلاء 2/ 578، 632.

والرُبـا مُطلَـق الجَوانـب غَـضٌ	بخَريـف لَفْـظُ ربيـعِ مَغْنَـى
وَحَمَـدْنا الإلـهَ سِـراً وَجَهْـراً	وَامْتَلأنـا برَحْمَـة اللهِ أمنـا
وَمَكـانِ أبُـو هُرَيْـرةَ فيـه	صـاحبُ المُـصْطَفى إليـه دَخَلْنـا
في رُواقٍ وجـامعٍ وقبـاب	كـلُ مَـنْ جـاءَهُ بـه قـد تَهَنَّـى
وَعَلَيْـه مَهابَـةٌ وَجَـلالٌ	وَهُـوَ مـن بَهْجَـة الكَواكـب أسْنَى
خَـصّهُ رَبُنـا بـشُؤْبوبِ عَفْـوٍ	وبرضْـوانه فُـرادَى وَمَثْنَـى
أمَـدَ الـدهْرِ مـا النّـسَائم هَبّـتْ	فَأمالَـتْ هُنـاكَ غُـصناً فَغُـصْنا

قرية سُدود

ثم قمنا من ذلك المكان، وسرنا نحن ومن معنا من الإخوان؛ في ذلك الطريق السهل، وبالعلم به نفينا عنا الجهل؛ إلى أن وصلنا إلى قرية سُدود . بالسين المهملة المضمومة، والدالين المهملتين، بينهما واو ممدود . ونزلنا هناك حصة من الزمان، وصلينا صلاة الظهر بجماعة الإخوان.

سلمان الفارسي

وزرنا هناك سلمان الفارسي الصحابي، رضي الله عنه، في مغارة ينزل إليها بدرج، وعليه قبة عظيمة، وذلك المكان طيب الأرج.

وذكر النووي في تهذيب الأسماء واللغات[207] قال: ونقلوا اتفاق العلماء [129/ ب] على أن سلمان الفارسي عاش مئتين وخمسين سنة، وقيل ثلاث مئة وخمسين سنة... وتوفي بالمدائن سنة ست وثلاثين، وقيل سنة خمس وثلاثين. انتهى.

وفي كتاب الزيارات للهروي[208] قال: المدائن بها قبر سلمان الفارسي.

وفي القاموس[209]: المدائن، مدائن كسرى: قرب بغداد . سميت لكثرتها . انتهى.

فلعلّ هذا القبر الذي يقال إنه قبر سلمان الفارسي في قرية سُدود هو غير الصحابي المشهور.

---

(207) - تهذيب الأسماء واللغات 1/ 227.

(208) - انظر الإشارات 76.

(209) - القاموس (مدن) وفيه: (المدائن مدينة كسرى)

قبر إبراهيم المتبولي

ثم زرنا بجانبه قبر الولي الكامل الشيخ إبراهيم المَتْبولي، قدس الله سرُّه، في جامع كبير هناك، وعليه قبة ومهابة وجلالة.

قال المناوي في الطبقات: إبراهيم بن علي بن عمر الأنصاري المَتبولي[210] الأحمدي الصوفي. قدم من بلدة مَتْبول إلى مصر وصار يبيع الحِمّص[211] المصلوق. ثم قام بزاوية بدرب السر، ثم تحول لزاوية بقرب درب السباع، وصار الفقراء يَردُون عليه فيها، وقصدَتْهُ ا لأكابر والأعيانُ لزيارته والتبرك به، وخرج إلى القدس، فمات في الطريق، فدفن بسدود، عند سلمان الفارسي سنة نيِّف وثمانين وثمان مئة، عن نحو ثمانين سنة وقيل: إنه عاش مئة وتسع سنين. انتهى.

وقد قلنا في ذلك، بحسب ما هنالك: [من الخفيف]

إنَّ بَحْـــرَ المَعـــارِفِ المَتْبـــولي ... في ســدودٍ ذاتِ الفُتــوحِ المَهــولِ

ضَـيْعَةٌ مـن ضِـياعِ غَـزَّةَ تَحْـوي ... كــلُّ خَيْــرٍ بســرِّهِ المَــأمُولِ

قَــدْ دَخَلْنــا إلى حِمــاهُ وَزُرْنــا ... وَابْتَهَجْنـــا بنـــورِهِ المَقْبـــولِ

وَهْــوَ إبْـراهيمُ الـذي ذِكْـرُهُ قَـدْ ... شــاعَ بالـدِّينِ والتُّقـى والوُصــولِ

ويقُــرْبٍ منــهُ لِســلْمانَ قَبْــرٌ ... وَهْــوَ سَـلْمانُ فـارِسٍ في النُّقــولِ

هكَـذا قيـلَ عِنْـدَنا مـن أُنـاسٍ ... ثُــمَّ فاسْتَمْـسَكُوا بهـذا المَقُــولِ

لَهُمـــا اللهُ لَـمْ يَـزَلْ راحِمـاً ... كُـلَّ وَقْـتٍ بِعَـرْضِ عَفْـوٍ وَطُـولِ

مـا تَمَـشَّتْ عَلَـى الرُّبـا نَـسَماتٌ ... سـاحِباتٌ بهـا فُـضولُ الـذُّيولِ

وقد ترجمه السخاوي في الضوء اللامع، وذكر أنه توفي ليلة الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثماني مئة.

وقلنا أيضاً كذلك، بمعونة القدير المالك: [من الوافر]

نَزَلْنـا سـاعَةً فيهـا وسِـرْنا ... وَطالِعُنـا عليــه بَــدا الـسُّعودُ

لِغَـزَّةِ هاشِـمٍ نُـسِبَتْ فَأضْـحَتْ ... تُقـامُ بهـا عَلَـى الهَـمِّ الحُـدودُ

---

[210] - انظر الضوء اللامع 1/ 85، وجامع كرامات الأولياء 1/ 243 . 246، والأعلام 1/ 47.

[211] - الحِمّص: على وزن حِلِّز وقِنَّب انظر القاموس (حمص) وحاشيته

هُنَالِـكَ تَزْدَهِـي الفَلَـواتُ لُطْفـاً بمـا فـيهنَّ مـن غَيْـثٍ يَجُـودُ
وَقَـدْ بَـسَطَ الخَريـفُ بـساطَ نَبْـتٍ يَفُـوحُ بـه لنـا مـسْكٌ وَعُـودُ
فمـا زَمَـنُ الرَّبيـعِ وَمَـا سَـنَاهُ إذا مـا اخْـضَرَّ بَـيْنَ الـرَّوْضِ عُـودُ
وَلِلنَّـسمَاتِ هَبَّـاتٌ لِطَـافٌ خـلالَ البيـد تَعْرِفُهـا الوفُـودُ
فحيَّـا اللهُ ذاكَ العَهْـدَ منَّـا إذا نُـسيَتْ لِمَـن يَهْـوَى عُهُـودُ
وَلازالَ الحَيَـا الوَسْـمِيُّ يَـسْقِي رُبَـا ذاكَ الفَـلا وَلَهـا يعُـودُ
عَلَـى طُـولِ المَـدَى مـا لاحَ نَجْـمٌ وَقَـدْ ضَـاءَتْ ليـالٍ منـه سُـودُ

قبة أبي الجَهْم

ثم لم نزل سائرين إلى أن نظرنا إلى قبة الولي الصالح شيخ الصالحين أبي جَهْمٍ - بفتح الجيم، وسكون الهاء، في آخره ميم، فقرأنا له الفاتحة ودعونا الله تعالى بقلب سليم.

قرية حمامة

ثم إننا سرنا إلى أن وصلنا إلى قرية حمامة، وقد أثار كل منا بذكراه شوقه وغرامه.

قبر إبراهيم أبي عرقوب

وهناك قبر الشيخ إبراهيم أبي عَرْقُوب ابن الشيخ علي بن عليم لصلبه، أو هو من ذريته. فرأينا قبته، وقرأنا له الفاتحة، ودعونا الله تعالى. وفي ذلك نقول ومن الله القبول:

[من الوافر]

مَرَرْنَـا بالعَـشيِّ عَلَـى حَمَامَـة وَلَـمْ نَـسْمَع غنـاءً مِـنْ حَمَامَـة
فقُلْنَـا هَـلْ أَبُـو عَرْقُـوبَ فيهـا هُـوَ ابـنُ عُلَـيْمٍ الـوافي الـشَهَامَة
فَقَـالُوا يُغَنِّـي طَيْـرُ أَرْضٍ إذا مـا سـاقها الـسَّامي أسـامَةْ
حَمَـى جَنَبَاتِهـا مَـنْهُ يـا عَـذُولي لِهَـذا النَّـاسُ سَـمُّوْها حَمَامَـةْ

قرية مجدل عسقلان

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى قرية مَجْدَل عَسْقَلان، فنزلنا هناك.

ليلة برغوثية

وبتنا تلك الليلة مع الإخوان، في سرور وابتهاج وأمان؛ وكانت ليلة بُرْغوثية، نرتجي فيها همَّةَ كُلِّ بَرْغوثِيَّة، فتذكرنا قول أبي الحجاج يوسف بن أحمد المعروف بابن عتوم: [مجزوء الكامل]

أشْكو البَراغيثَ التي ... أضْحي لها جَسَدي مُباحا
أكَلُوا اللحومَ وَخَلَّفوا ... في كُلِّ جارِحَةٍ جراحا
والليلُ زادَ تَطاولاً ... أتُراهُمُ أكَلوا الصَّباحَا

وقوله أيضاً: [من الكامل]

أشْكُو إلى اللهِ البَراغيثَ الَّتي ... لَيْلي بها عن صُبْحه لا يُسْفِرُ
لَولاَ دَمي ما أصْبَحَتْ مُحمَّرةً ... وَعَلى الحقيقةِ فهْي مَوْتٌ أحْمَرُ

حتى قلنا في ذلك، مما هناك: [من الوافر]

وَمَجْدَل عَسْقَلان وَمَا حَواهُ ... مِنَ البُرْغوثِ في لَيْلٍ طَويلِ
بِهِ بِتْنا وَمَا نِمْنا لأنَّا ... رَأيْنا الوَخْزَ مِن خُرطومِ فيلِ
أكَلْنا مِن طَعامِ القَوْمِ لكن ... لنا بُرْغُوثهم كَهِزَبْرِ غيلِ
لَهُ أكْلٌ كَثيرٌ كانَ منا ... وكَيْفَ يُرَى الكثيرُ مِن القليلِ
وَحاصِلُهُ بأنَّا قَدْ نَقصْنا ... عَنِ المُعتادِ في الوَزْنِ الثَّقيلِ
وإن شِئْتُمْ سَلُوا عَنَّا أناساً ... برملَةَ للرَّسُولِ أوْ الوكيلِ
أوْ الخَيْلِ الَّتي جِئْنا عَلَيْها ... فتُخْبِركُمْ بنا بأنَّمْ فيلِ

ومن هذا القبيل قولُ شرف الدين أبي المحاسن محمد بن نصر الله بن عُنَيْن[212] صاحب الديوان المشهور حيث قيل[213]: [من المتقارب]

حديث المُبارز مني اسألوا ... إذا شِئْتُمْ عَنْ أحاديثِهِ
نَزَلْنا عَلَيْهِ فَلَمْ يَقْرِنا ... وَبِتْنا قِرَى لِبَراغيثِهِ

---

[212] - توفي ابن عنين سنة 630هـ انظر معجم الأدباء 19/ 81 . 92، ومرآة الزمان 8/ 696، 698، ووفيات الأعيان 5/ 14 . 19، والعبرة 122 . 123، وسير اعلام النبلاء 22/ 363، والنجوم الزاهرة 6/ 82 و93 . 95.

[213] - البيتان في ديوان ابن عنين . تحقيق خليل مردم بك . دار صادر 222 بزاوية فانبئكم باحاديثه

وقال غيرُه في هذا المعنى: [من السريع]

أَنْزَلَنـا الـدَّهْرُ عَلَـى معـشر ... تَقُـرُ بالنّـاسِ أحـاديثُهمْ

فَمـا أَكَلْنـا مِـنْ ضِـيافاتِهمْ ... مـا أَكَلَـتْ مِنّـا بـراغيثُهُمْ

وكان الإمام العالم الشاعر، برهان الدين البوصيري. سافر إلى عند بعض الناس، فاستضافه، وكأنه قَصَّرَ في خدمته، وحصل له عنده براغيث كثيرة، فقال في ذلك بيتاً مفرداً وهو: [من المتقارب]

فَمَـا ضَـيَّفونا ولكـنَّهُمْ ... بَـراغيثُهُمْ ضَـيَّفُوهُمْ بنـا

قال الشيخُ ناصر الدين الفارسكوري فجعلت له أولاً فقلت: [من المتقارب]

مَرَرْنـا بقـومٍ نَـرومُ القِـرى ... بُلِينـا بكَـرْبٍ عَلَـى كَرْبِنـا

فَجـاؤوا بِفَـرْشٍ كُوِينـا بـه ... فَـلاَ الأكْـلُ طـابَ ولا شُـرْبُنا

فَمَـا كَـانَ أَطْوَلَهـا لَيْلَـةً ... نُرَجّـي الإقالَـةَ مِـن رَبِّنـا

فَمَـا ضَـيَّفونا ولكـنَّهُمْ ... بـراغيثهم ضَـيَّفُوهُمْ بنـا

اليوم الرابع والثمانون

26/ 3/ 1105هـ = 21/ 12/ 1693م

ثم أصبحنا يوم الأربعاء الرابع والثمانين، وهو اليوم السادس والعشرون من شهر ربيع الأول.

مدينة عَسْقَلان

توجهنا إلى مدينة عسقلان وسار معنا قاضي المجدل وحاكمها وأناس من أهلها كثيرون.

وقال ياقوت في المشترك: عَسْقَلان ـ بفتح العين المهملة، وسكون السين المهملة، وفتح القاف ـ ويقال لها عروس الشام.

وقال الحنبلي في تاريخه[214]: عَسْقَلان كانت من أحسن المدن وقد خَرّبها الملك صلاح الدين في شهر شعبان سنة سبعٍ وثمانين وخمس مئة، واستمرت إلى يومنا، ولم

---

[214] ـ انس الجليل، 2/ 74.

تُعمَّر وبها مشهدٌ عظيمٌ بناه بعض الفاطميين من خلفاء مصر على مكان، زعموا أن به رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما. وبعسقلان أماكنُ تقصد للزيارة، وهي على شاطئ البحر المالح [وقد ألف الحافظ ابن عساكر جزءاً[215] في فضلها][216]. انتهى.

وهناك رملٌ كثيرٌ، غابت فيه القبور، واندرست الآثار، وهو مشهد الشهداء عند باب المدينة، ويسمُّونه وادي النمل،وهو الذي صارت فيه المعركة والجهاد.

وقد دخلنا إلى داخل المدينة، وأسوارُها متهدمةٌ، وأبراجها واقعةٌ، وقد اتخذوا غالب أماكنها بساتينَ، وغرسوا فيها أشجار الفواكه والأعناب والليمون، حتى وصلنا إلى المكان الذي يسمُّونه بالخضراء على شاطئ البحر المالح، وهو مكان مبارك عليه نورانية، وفيه أنس وروحانية، وليس في المدينة بأسرها أحدٌ من الناس، غير من يعالج بستانه، أو يحرسه، لا يقصد الاستئناس؛ ثم إننا قلنا في ذلك من النظام، على مقتضى فتوح الوقت في ذلك المقام: [مخلع البسيط]

أسِفْتُ في ثَغْرِ عَسْقَلان ... كأنما اللعَسُ قد[217] قَلاني

عَلَى حُصونٍ هُنَاك كانَتْ ... مَتينَةِ السُّورِ والمَباني

دِيارُ قَومٍ بها أقامُوا ... لَدَى قَديمٍ مِنَ الزَّمانِ

وَأصْبَحوا الآن في قُبورٍ ... هناكَ والكُلُ صَارَ فَاني

مدينةٌ طالما أحاطَتْ ... ببَهْجَةِ الأوْجُهِ الحِسانِ

وَطالَما حَلَّ ذُراها ... أصيلُ قَومٍ كَبيرُ شانِ

وَأقْفَرَتْ بَعْدَهُمْ فَصَارَتْ ... رِياضَ زَهْرٍ وارغوانِ

فهِيَ البَساتينُ للأقاصي ... مِن جملةِ النَّاسِ والأداني

وَقَدْ دَخَلْنَا بها وزُرْنا ... للشُهدا سادةِ الطِّعانِ

وكَمْ وَليٍّ هُنَاكَ ثاوٍ ... في التُّرْبِ والرُوح في الجنانِ

وَلاحَ للنَّمْلِ ثَمَّ وادٍ ... أسْرارُهُ طَلْقَةُ البَيانِ

---

(215) - انظر هدية العارفين 1/ 701 وابن عساكر في ذكرى مرور تسع مئة سنة على ولادته 464.

(216) - ما بين المعقوفتين من الأنس الجليل

(217) - اللعس وهو سواد مستحسن في الشفة (القاموس، لعس)

قُبُورُهُ النَّيِّراتُ تَحْوِي ... ذَوِي الكَمالاتِ والعَيانِ

مِنْ أَوْلِياءِ الإلهِ قَوْماً ... قَدْ أَدْرَكُوا غايَةَ الأَماني

وَقَدْ رَقُوا بالجهادِ فيما ... يَرَوْنَ عِزّاً بِلا تَواني

والآنَ في الرَّمْلِ قَدْ تَغَطَّتْ ... قُبورُهُمْ عن فَتىً يُماني

وَساحلُ البَحْرِ في انْبِساطِ ... هُناكَ في أَشْرفِ المكانِ

أنْعِمْ بخَضْراءَ قَدْ تَسَمَّتْ ... عَظيمةً جَمَّةَ المَعاني

وكم بتلكَ الرِّحابِ أُنْسٌ ... يكونُ آناً مِنْ بَعْدِ آن

وَلَمْ تَزَلْ رَحْمَةٌ تَوالى ... عَلَى حِمَى أَرْضِ عَسْقَلانِ

تَعُمُّ تلكَ الرِّحابَ منها ... ما مالَ في الرَّوْضِ غُصْنُ بانِ

وَما شَدا فَوْقَهُ هَزارٌ ... مُشابِهاً نَغْمَةَ المَثاني

ثم قرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى، وودعنا تلك الأقوام، ورجعوا إلى أماكنهم بتحية وسلام.

قرية بَرْبَرا

وسرنا نحن والإخوان، إلى جهة غزة المحروسة في عافية وأمان؛ حتى مررنا بقرية بَرْبَر - بفتح الباء الموحدة، وسكون الراء، وفتح الموحدة الثانية، والراء - فدخلنا إليها.

قبر يوسف البربراوي

وزرنا فيها قبرَ الوليِّ الصالح الشيخ يوسف البَرْبَراوي، رضي الله عنه، في داخل مكان هناك، وعليه عمارة وقبة، وعلى قبره مهابة ونورانية، وهو رجل من المغاربة، سكن تلك القرية. ومات فيها فنسب إليها.

قرية بيت حانون

ثم سرنا فرأينا من بعيد قريةَ بيت حانون - بالحاء المهملة والنونين - وقد دفن فيها على ما يقال نبيُّ الله حانون، فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

ثم سرنا، فقبل وصولنا إلى بلدة غزة المحروسة بنحو ساعة، خرج إلى لقائنا

قاضيها الفاضل، حاوي الفضائل؛ أحمد جلبي ابن البهنسي الشامي الدمشقي، حبيبنا وعزيزنا، وكان قد اشتغل علينا في طلب العلم مدة من الزمان ببلادنا دمشق الشام، وخرج معه مفتي الحنفية بتلك الديار الفاضل الكامل الشيخ صالح بن أحمد بن محمد ابن صالح بن محمد الغزي ا لعمري الحنفي مصنف (تنوير الأبصار وجامع البحار) في فقه الحنفية، والشيخ الصالح نسل ذوي الكمال محمد بن الشيخ عبد القادر الشهير بابن القُصَيِّن - بالتصغير، والشيخ الكامل علي بن الشيخ عمر المشرقي، وكان والده الشيخ عمر مفتياً بالديار الغزيّة؛ والشيخ محيي الدين بن الشيخ شمس الدين القدسي الساكن بغزة، والشيخ الفاضل علي الضرير الشافعي المشهور بالبدوي، والشيخ علي بن الشيخ محمد بن الشيخ محيي الدين شيخ الإسلام، المفتي سابقاً بالديار الغزية، وغيرهم من العلماء والأفاضل والأعيان.

فجئنا إلى أن نزلنا في دار صديقنا الشيخ محيي الدين القدسي المذكور فتلقانا بصدره الفائق على الصدور؛ ووجهه الذي هو بهجة السرور.

اليوم الخامس والثمانون

27/ 3/ 1105هـ = 22/ 12/ 1693م

ثم بتنا تلك الليلة في أتم صفاء، وأعم وفاء؛ إلى أن أصبح صباح يوم الخميس الخامس والثمانين، وهو اليوم السابع والعشرون من شهر ربيع الأول.

فحضر عندنا علماء تلك البلدة وأكابرهم وصلحاؤها وأفاضلها من المذكورين وغيرهم بقصد الزيارة في ذلك الحين، وحصل بيننا وبينهم بعضُ المذاكرة العلمية والمسائل الفقهية.

شعر في غزة

وقلنا في النظام بحسب ما اقتضاه المقام: [من الطويل]

سَقَى الوابلُ الوَسْميُ غَزَّةَ هاشِمٍ ... فكَمْ لعِبَتْ فيها خُيولُ النَّسائمِ
وفاحتْ بها الأزهارُ بين حدائقٍ ... وغنَّتْ على الأغْصانُ ورْقُ الحمائمِ
إذا بكتِ الأرضَ السماءُ بغَيْثِها ... لـه ضَحِكَتْ تلك الرُبا بالمباسمِ
يقومُ بها النَّخْلُ الذي هو باسقٌ ... على قَدَمٍ يَدْعُو بأيْدٍ نواعمِ

إذا بَسَطَ البَحْرُ الخِضَمُّ بساطَهُ ... رَأيتَ بهِ للمَوْجِ رَقْمَ الأراقمِ

وللسُفُنِ الغَرّاءِ صورةُ قائمٍ ... على الماءِ يَعْلوهُ بغيرِ قوائمِ

رَعى اللهُ ذاكَ الشَّطَّ منها فإنّهُ ... إذا شَطَّ مَنْ أهْوَى تَداني لهائمِ

نَزَلْنا أناساً أرْضُ غَزَّةَ دارُهُمْ ... فقاموا لِلُقْيانا قيامَ الأكارمِ

وَبَشُّوا بهاتيكَ الوُجوهِ التي سَمَتْ ... على البَدْرِ حُسْناً في ملاقاةِ قادمِ

وكَمْ مِن هُمامٍ بَيْنَهُمْ زادَ فَضْلُه ... فماذا إياسُ الحِلْمِ ما جُودُ حاتمِ

حَمَى اللهُ أرْضاً هُمْ حمائمُ دَوْحِها ... تَغَنَّوْا بأنْواعِ الكَمالِ المُلائمِ

ويا حَرَسَ الرَّحْمنُ صَفْوَةَ مائهِمْ ... وَحَيّا وُجُوهاً لُحْنَ تَحْتَ العَمائمِ

وَلا زالَتِ الأيّامُ تَسْخُو بِرَوْنَقٍ ... عليهم بميثاقٍ، لَهُمْ مُتَقادمِ

فإنَّ لنا فيهم وَديعةَ مُغْرَمٍ ... تَعَلَّمَ تَعْليقَ الرُّقى والتَّمائمِ

وَما هُوَ إلاّ مَنْ به هَبَّ مَجْدُهُمْ ... يُصافِحُ في لُقْياهُ غِيلَ الضَّراغمِ

فَتًى هُوَ في العَلْياءِ أحْمَدُ نائلٍ ... وفي الدِّينِ والإصْلاحِ أحْمَدُ حاكمِ

نَشَا في دِمَشْقَ الشّامِ نَشْوَ مُهَذَّبٍ ... على دينهِ يَقْظانُ لَيْسَ بنائمِ

لَهُ حَفِظَ المَوْلَى الكَريمُ بلُطْفِهِ ... مَدى الدَّهْرِ ما سَحَّتْ عُيونُ الغَمائمِ

وَما لَمَعَ البَرْقُ الحجازيُّ بالحمى ... فَشَقَّ لَهُ حَبَّ الجَوَى عَنْ كمائمِ

وما هاجَتِ الذِّكرى بعَبْدِ الغَنِيِّ مَنْ ... أهَيْلَ النَّقا عند اقترابِ المواسمِ

بلدة غزة

وقال ياقوت في المشترك: (غزة ـ بفتح الغين المعجمة، وتشديد الزاي ـ: بلدٌ مشهور بالشام، بينه وبين عسقلان نحو فرسخين، من أعمال فلسطين، وتُعرف بغزّة هاشم، سُمّيت بذلك لأن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ مات بها، وكان جاءها تاجراً. وبها ولد الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رضي الله تعالى عنه).

وقال القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشا[218]: غزة ـ بفتح الغين

---

(218) ـ انظر صبح الأعشى 4/ 98

المعجمة،وتشديد الزاي، في آخرها هاء:وهي مدينة من جند فلسطين، ذات جوامع ومدارس وزوايا وبيمارستانات وأسواق، صحيحة الهواء، ويشرب أهلها من الآبار، وبساحلها البساتين الكثيرة، وأجل فاكهتها العنب والتين، وبها بعض النخيل.

انتهى.

شعر في غزة

وقلنا من النظام المستطاب، في شأن هاتيك الجوانب والرحاب: [من الخفيف]

غَزَّ في القبض فارسُ البَسْطِ غَزّة ... حينَ جئْنَا إلى مَدينةِ غَزّة

وَنَزَلْنا عَلى صِحابٍ كِرامٍ ... سادَةٍ في الوَرَى تُقاةٍ أعِزّة

وَدَخَلْنا مَنازِلاً مُشْرِقاتٍ ... كُلُّ نَفْسٍ بِلُطْفِها مُسْتَفِزّة

وَرَأَيْنا حَدائِقَ النَّخيلِ قامَتْ ... بقَوامٍ يهتَزُّ بالرِّيحِ هِزّة

وَدَواعي السُّرورِ نادت ببشرى ... فَسِواها قُلوبُنا مُشْمَئِزّة

في خَريفٍ لَهُ اعْتِدالُ رَبيعٍ ... يَذْكُر الشّام طيبه والمِزّة

يا سَقى الله عَهْدَهُ من زمانٍ ... نَشَرَ النَّبْتُ في مَغانيه بِزّة

وَرَعى ثَمَّ مَنْزِلاً فيه كُنّا ... وَحَماهُ من مَنْزِلٍ ما أعَزّه

حَبَّذا نَفْحَةُ النَّسائِمِ منه ... أزّت[219] الغُصْنَ في الحَدائِقِ أزّة

والرُّبا ألْبِسَتْ من النَّبْتِ وَشْياً ... نَقَشَ الزَّهْرُ منه في الصُّبْحِ خَزّة

وَفَهِمْنا إشارَةَ الوَقْتِ لمّا ... طابَ داعي الهَنا وَحَلَّلَ رَمْزَه

وَرَوَيْنا عَنِ البِلادِ حَديثاً ... قَدْ أشارَتْ بِهِ إلَيْنا بِغَمْزَة

وَسَلَكْنا إلى المُنَى في طريقٍ ... وَفَتَحْنا من حَضْرَةِ الغَيْبِ كَنْزَه

وَقَرأنا من الحَقائقِ حَرْفاً ... لَيْسَ إلاّ - نَراهُ في الخَلْقِ - هَمْزَة

ثم قمنا عند أذان العصر، وصلينا في الجامع الكبير، وهو مكان مشرق منير، ويقال إن أصله كان كنسيه، ولكن ببركة الطاعة يجد فيه القلب من الوحشة تأنيسه.

---

[219] أزه: حركة شديدة (القاموس: ازز).

قبر الشيخ عبد القادر الفُصَيْن

ثم ذهبنا إلى زيارة قبر الشيخ عبد القادر الفُصَيْن . بالتصغير . عليه رحمه الرب القدير، وهو مدفون في مدرسته، مع أولاده وذريته، فقرأنا له الفاتحة، ودعونا الله تعالى بنية صالحة.

وجلسنا عند أولاده في تلك المدرسة المذكورة، ننظر الكتب التي عندهم، ونتذاكر معهم في المسائل المسطورة.

ثم عدنا إلى المنزل المعهود، والناس بين صدور إلينا وورود؛ يأتون بالموائد، على مُقْتَضَى جَرْيِ العوائد؛ وحضرت الأفاضل والأعيان، وسهروا عندنا تلك الليلة مع جملة الإخوان؛ وقام المنشدون، وصار السماع المطرب على الآلات بالقانون؛ ثم انصرفوا وقد طاب الحضور، وزاد السرور.

اليوم السادس والثمانون

28/ 3/ 1105هـ = 23/ 12/ 1693م

إلى أن أصبح صباح يوم الجمعة، وهو اليوم السادس والثمانون، الثامن والعشرون من شهر ربيع الأول. فصلينا صلاة الجمعة في الجامع الكبير، وحصلنا إن شاء الله تعالى على الأجر الكثير.

قبر الشيخ فرج

ثم ذهبنا فزرنا الشيخ فرج، في مكان واسع، عليه قبة لطيفة، وهناك عمارة منيفة، فدخلنا إلى ذلك المكان، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى لنا ولجميع الإخوان.

قبر الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي

ثم ذهبنا إلى مكان آخر هناك مشهور فيه جنينة لطيفة محفوفة بأنواع الزهور. وفيه قبر الشيخ عبد الرحمن ابن الأوزاعي.

قبر السلطان الغوري

وبجانبه قبر السلطان الغوري، رحمه الله تعالى على ما يقال، والله أعلم بحقيقة الحال؛ فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى ببلوغ الآمال.

مغارة هاشم جد النبي ﷺ

وفي هذا المكان مغارة، يقال إنه مدفون فيها هاشم جدُّ النبيِّ ﷺ الذي تنسب إليه غزة، ويقال إن هذه المغارة متصلةٌ بمغارة سيدنا الخليل إبراهيم وأولاده الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

قبر الشيخ علي بن مروان

ثم خرجنا وزرنا في تلك الجبّانة التي هناك قبر الشيخ علي بن مروان، وعليه قبة مرفوعة، وعمارة موضوعة، وله كرامات مذكورة، وخوارق مشهورة. فقرأنا الفاتحة هناك وجعلنا ثوابها له ولمن دفن في تلك الجبانة من المسلمين من مملوكين وملاك.

الشيخ عبد الرحمن بن عيسى السنجاري :

ثم زرنا الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن علي بن سلطان السنجاري ثم الغزي الشافعي الولي الكامل صاحب الكرامات، وقبره في مكان مستقل، عليه قبة وعمارة، وهناك أنس وبهجة واستنارة.

وله ديوان شعر اطّلعنا عليه فيه غزة، فتح فيه خبيئة المعاني وأنفق كنزه، روح الله روحَهُ وَنوّرَ ضريحَه.

ومن شعره هذا التخميس للأبيات الثلاثة المشهورة، المطوية هنا المنشورة: [من الطويل]

لِعَبْدِكَ يا رَبَّ العِبادِ سَريرَة ... مُطَهَّرَةٌ عَمّا سِواكَ مُنيرة

وَأَدْمُعُه تَجْري عَلَيْكَ غَزيرة ... فَلَيْتَكَ تَحْلُو والحَيَاةُ مَريرَةٌ

وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأنامُ غِضابُ

ويا لَيْتني عَنْ ساقِ عَزْمي شامر ... ويا لَيْتَ غُصْني بالتَّواصلِ ثامرُ

وَيالَيْتَ لي في كُلِّ وَقتٍ مسامرُ ... وَلَيْتَ الَّذي بَيْني وَبَيْنَكَ عامِرُ

وَبَيْني وَبَيْنَ العالمينَ خَرابُ

أيا مَنْ رِضاهُ يُذْهِبُ الهَمَّ والعنا ... وَيَحْصَلُ منه الخَيْر والسَّعْدُ وَالغنا

وَتَأتي بِه كُلُّ المَسَرات والهَنَا ... إذا صَحَّ منكَ الوُدُّ يا غايةَ المُنى

فَكُلُّ الَّذي فَوْقَ التُّرابِ تُرابُ

ولنا نحن سابقاً تخميس هذه الأبيات، وذلك قولنا مما هو موجود في ديوان الإلهيات: [من الطويل]:

أيا مَنْ لَهُ الأشْواقُ منّي كثيرة ... وَيا مَنْ دُموعي يَوْمَ بانَ غَزيرة

وَيا مَنْ لِقَلْبي في هَواهُ سَريرة ... فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحيَاةُ مَريرة

وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأنامُ غِضابُ

خَيالُكَ في قَلْبي لقَلْبي مُسامرُ ... وَحُبُّكَ لِلعُشّاقِ ناهٍ وآمِرُ

فيا لَيْتَ غَيْثَ الوَصْلِ لي منك غامرُ ... وَلَيْتَ الَّذي بَيْني وَبَيْنَكَ عامِرُ

وَبَيْني وَبَيْنَ العالمينَ خَرابُ

وَأنْتَ هُوَ الوَجْودُ حَقاً ولا أنا ... إذا صَحَّ منكَ الوُدّ يا غايةَ المنى

فَكُلُّ الذي فَوْقَ التُّرابِ تُرابُ

جامع شهاب الدين أحمد بن عثمان :

ثم جئنا إلى الجامع المشهور بجامع شهاب الدين أحمد بن عثمان، وهو جامع مبارك عظيم الجوانب والبنيان؛ فرأينا هناك حلقة ذكر في طريقة المطاويعة، ورأينا الفقراء يذكرون الله تعالى بأحوال قوية؛ فلم نزل إلى أن صلينا صلاة العصر بالجماعة في ذلك الجامع المعمور، وقد حصلنا إن شاء الله تعالى على أكمل الأجور.

الشيخ مجاهد :

ثم خرجنا فزرنا في الطريق الشيخ مجاهد في مكان له مستقل.

قبر الشيخ محمد العجان :

وزرنا بجانبه قبر الشيخ محمد العجان، ولي من أولياء الله تعالى، صاحب كرامات مشهورة عند أهل البلاد.

جامع الجاولي :

ثم ذهبنا إلى جامع الجاولي، وهو جامع كبير واسع، جميعه مبني بألواح الرخام،

وأحجار السماقي في أول الزمان، وهو خراب الآن؛ والرخام ساقط حول جدرانه وفي صحنه الخارج من عدم تقيد النظار عليه بعمارته ومرمته.

ترجمة الجاولي :

والجاولي هذا ذكره الحنبلي في تاريخه[220] وهو الأمير الكبير علم الدين أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولي الشافعي. ولقد بآمد[221] ثم صار لأمير من الظاهرية يسمى الجاولي، ثم انتقل بعد موته إلى بيت المنصور، وانتقلت به الأحوال إلى أن صار مقدماً بالشام. وفي زمن الملك المنصور قلاوون. ولي نظر الحرمين الشريفين، ونيابة السلطنة بالقدس الشريف، وبلد سيدنا الخليل عليه السلام. وولي نيابة غزة، وبنى عند مسجد سيدنا الخليل عليه السلام المسجد المعروف بالجاولي، وهو في غاية الحسن عمره من ماله حين كان ناظراً، وعمر جامعاً بغزة، وخانقاه بظاهر القاهرة، ومدرسة بالقدس الشريف، وهي التي صارت في عصرنا سكناً لنواب القدس الشريف، ووقف أوقافاً كثيرة، وكان له معرفة بمذهب الإمام الشافعي، وكان رجلاً فاضلاً يستحضر كثيراً من نصوص الإمام الشافعي رحمه الله تعالى توفي سنة خمس وأربعين وسبع مئة بالخانقاه التي أنشأها بالقاهرة. انتهى.

والجامع الذي عمره غزة هو هذا الجامع الذي ذكرناه هنا، وأنه خرب اليوم. وهو منفصل عن العمران، وقد ردموا بابه، واستغنى الناس عن الصلاة فيه.

مدرسة الطواشي :

ثم مررنا بعد ذلك على مدرسة الطواشي، وهي الآن مسكن قضاة غزة، وموضع حكمهم، فتلقانا أحمد جلبي المتقدم ذكره، النائب في الحكم يومئذ، وجلسنا عنده هناك حصة من الزمان. ثم عدنا إلى منزلنا مع من كان معنا من الإخوان.

اليوم السابع والثمانون

29/ 3/ 1105هـ = 24/ 12/ 1693م

ثم بتنا تلك الليلة، فأصبح صباح يوم السبت السابع والثمانين، وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر ربيع الأول.

---

[220] - ظر الأنس الجليل 2/ 271 ـ 272.

[221] - الأنس الجليل (سنة ثلاث وخمسين وست مئة).

مكتوب وجوابه :

فأرسل إلينا حضرة المولى الهمام عطاء الله أفندي، قاضي القدس الشريف المتقدم ذكره مكتوباً هذه صورته:

جناب شيخ الوقت على التحقيق، مالك ممالك التحقيق والتدقيق، درة عقد العلماء ذوي الطريق، غرة وجه المحدثين أولي الهداية والتوفيق؛ العالم النحرير، المحقق الشهير، حضرة الأستاذ الشيخ عبد الغني أفندي، كان الله له، آمين: بعد لثم تلك الراحة المنيفة، وإهداء ما يليق بتلك الذات الشريفة، الطلعة الأنيسة اللطيفة؛ من درر وتحيات، قدسية عبقرية النفحات، وغرر تسليمات، سنية عطرية النسمات؛ وسلام أبهى من عقود الجمان، وثناء أزهى من الدرر في أجياد الحسان، ودعاء يرجى به القبول من الملك المنان؛ نخص به ذلك الإمام الألمعي؛ الزاهد المفضال اللوذعي وجناب المشار إليه، أسبغ الله جزيل النعم عليه، ونظر بعين عنايته إليه، والسبب الداعي لتحرير أحرف المحبة والوداد :

أولاً: كثرة الأشواق لرؤيا ذاتكم المأنوسة، لا برحت بملائكة الرحمن محروسة.

ثانياً: أننا، والله الحمد . والمنة، بخيرة وعافية، ونعمة وافية، ونرجوه سبحانه وتعالى أن يكون عوناً لكم في جميع الأمور والأحوال آمين.

والمرجو من الجناب المنير، أن لا تخرجونا من الخاطر المستنير، ولا تنسونا من الدعاء الصالح، بعد فراغكم من قراءة الدروس والذكر والعبادات، وفي أوقات الخلوات والجلوات، وفي مواطن الإجابات، فهذا غاية القصد والمرام، بلغنا الله وإياكم زيارة المظلل بالغمام، عليه أفضل لصلاة والسلام.

انتهت صورة المكتوب.

جواب الكتاب

ثم إننا كتبنا له الجواب عن ذلك، وأرسلنا به إليه وهذا صورة ما هنالك:

روائح حظيرة القدس، ولوائح حضرة الأنس؛ تهبُ من قبة سلسلة الأشباح، وذلك الصحن المبارك من قبة الأرواح؛ فتلين له صخرة القلب الأقصى، وتفيض عين سلوان السلوان على بئر أيوب البلاء المستقصى؛ فينفتح له باب عمود الأشواق، وباب حطة الهموم من باب غوانمة قلوب العشاق؛ ويدور بها الكأس، بأنابيب المودة والإيناس؛ على طور الإدراك والإحساس، فيطيب به حمام الشفاء للناس، ويكمل به أبو الوفاء على ارتفاع ذلك العلم، وينعم بإشراقه عفيف العبد للرحمن بمنبره الذي ما اندهم، ولا زال ابن جماعة المفاخر، يحيا بمقام داود الأوائل والأواخر.

ومضمون ذلك التحيات السلطانية، والأثنية النائبة عن مرسلها إلى الحضرة العلية، في الدولة العثمانية؛ رفع الله رملة شرفها بين رمل الأشراف، وحسن أمانة أمينها الذي هو أبو الهدى والدلالة على العدل والإنصاف، ببركة ابن عليل المقامات السنية، وزيارة هاتيك الجهات التي لا تنال ولا بالأمنية، إلى الجناب الخطير، والشأن الكبير، جناب شيخ الإسلام، وابن شيخ الإسلام، الذي أظهره الله تعالى من حسنات الليالي والأيام، حضرة المولى والله المولى، الذي هو بكل كمال أحق وأولى؛ شمس المعالي، وبدر السادة الموالي؛ حضرة المشار إليه، أعزه الله تعالى ببلوغ المرام، وجعل الحل والعقد في يديه، والذي ننهيه إلى الجناب السامي، والمقام الأظهر النامي، بأننا ولله الحمد في أكمل صحة وعافية، ونعمة من الله تعالى وافية؛ نحن وجميع من معنا من الإخوان، في أتم نعمة وأشمل امتنان.

وقد توجهنا بشريف همتكم إلى زيارة الولي الكامل، والعالم العامل؛ الشيخ علي ابن عُلَيْل، قدس الله سره، وأعلى في درجات القُرْب مقرَّه؛ وحصل الابتهاج والسرور، وكمال الأنس والحبور؛ وذهب معنا جميع الإخوان والمحبين، وسليل الأماجد الأكرمين، حضرة الشيخ أبي الهدى، وقد أنزلنا عنده في مقام أمين، وحضرة مفخر العلماء الكرام الشيخ أمين الدين، مع بقية أتباعهما وإخوانهما من الأماجد المكرمين. ودعونا الله لكم ولأولادكم في هاتيك الأماكن المباركة؛ بما هو محمول إن شاء الله تعالى إلى حضرة العلي الأعلى على أجنحة الملائكة؛ ثم توجهنا إلى قرية المجدل وبتنا بها إلى الصباح، بعد زيارتنا أبا هريرة والشيخ إبراهيم المتبولي، وسلمان الفارسي، وبقية قبور أهل الدين والصلاح؛ وكمال الدعاء لكم حتى ذهبنا إلى عسقلان، وزرنا ما فيها من المشاهد وشهدنا هاتيك الأسرار الحسان، ثم توجهنا إلى غزة المحروسة، ونزلنا في دار صاحب الأخلاق المأنوسة، والكمالات الظاهرة، الدالة على طيب الأعراق الطاهرة، جناب الشيخ محيي الدين أفندي، الذي لا زال في عناية المعيد المبدي؛ ونحن الآن في ظل مكانه المعمور، في أكمل إعزاز وأشمل سرور؛ وتلقانا جناب ولدنا نائبكم الكامل الأخلاق، والشريف الأصول والأعراق، قرة العيون، الذي بفضله تفتخر أهل الكمالات والفنون، أحمد أفندي البهنسي، وحمدنا سيرته الفاضلة، وسريرته الكاملة، من جميع الوجوه والجهات، ونحن الآن عند أهل البلاد في أكمل الحالات، وقد شهد معنا هذه المشاهد كلها تابعكم المشكور، في سعيه المبرور؛ وكيف ونحن في صحبة خضر المشهور، [وكذلك السيد محمد الذي بشرفه شملنا في جميع الأمور خطيب الشيخ واكد، الذي لا يزال يحافظ على مروءته ويواكد.] وقد وصل إلينا من جنابكم المكتوب الشريف، والمرسوم المنيف؛ فسررنا بكمال الصحة والعافية، وتمام الحظوة الوافرة الوافية. ونحن مواظبون لكم

ولأولادكم. ولأتباعكم على وظيفة الدعاء الصالح في كل صباح ومساء، والسلام على الدوام. انتهى. [وإن شاء الله تعالى نكتب لكم مكاتيب أخرى، ونعلم جنابكم بما يكون ويجري]

سبب سفره إلى مصر :

ثم ذهبنا مع النائب أحمد أفندي المذكور فاجتمعنا بالشيخ واكد شيخ العرب في هاتيك البلاد، وتكلمنا معه في الذهاب إلى بلاد الحجاز من طريق البرية، فأخبرنا أن حكمه إلى قلعة المويلح، وأنه يرسل معنا من العرب من يحملنا على جمالهم إلى قلعة المويلح، ومن هناك يبقى للمدينة المنورة نحو عشر المراحل. فقلنا له: ومن هناك من يأخذنا هذه المراحل العشر فذكر لنا أن هناك عرباً يعرفهم حاكم قلعة المويلح، ثم قال لنا: الأيسر عليكم من هذا كله أن تذهبوا إلى مصر، وهناك أمير الحاج المصري عنده مشايخ العربان كلهم، يرسلكم كيف شئتم.

فانفصل المجلس على هذا، وتوجهت همتنا عليه.

الشيخ طُطْمَاج

ثم قمنا فزرنا في الطريق الولي الصالح الشيخ طُطْمَاج . بضم الطاء المهملة، وبعدها طاء مهملة وساكنة، وألف وجيم.

الشيخ تُرْكي

وزرنا الشيخ تُرْكي . بضم التاء المثناه الفوقية، وسكون الراء، وكسر الكاف، وياء النسبة إلى الترك. وقبره في راس تل عالٍ من الرمل.

الشيخ عجلين

وقرأنا الفاتحة للشيخ عجلين من أولاد الشيخ علي بن عليل، قدس الله سرهما، وسيأتي قريباً ذكرنا لزيارة الشيخ عجلين وزيارة أخيه الشيخ رضوان رضي الله عنهما.

نزهة وشعر

ثم مشينا بين البساتين من النخيل في ذلك الرمل، ورأينا آثار الأقدام، فعملنا هذه الأبيات في ذلك المقام: [من الرمل]

عُجْ عَلَى الكُثْبانِ مِن رَمْلِ الحمى ... وَاقْرَأ الحَرْفَ الّذي قَدْ رُقِمَا

حَيْثُمَا الأقْدامُ فيه كَتَبَتْ ... في طُروسِ الأرْضِ أسرارَ السَّما

رُبَّما تَفْهَمُ أوْ تَلْمَحُ أوْ ... تُدْرِكُ المَطْوِيَّ فيه رُبَّما

إنْ هذا نَسَبٌ مُتَّصِلٌ ... مِن عُلاَ الغَيْبِ إلى أسْفل ما

يا سَقَى اللهُ حمَى غَزَّةَ مِنْ ... بَلَدٍ راقَتْ وطابَتْ كَرَما

وَرَعَى الشَّطُّ مِن البَحْرِ بها ... كُلَّما طابَ هَواهُ كُلَّمَا

قَدْ أتَيْناهُ بأقْوامٍ لَهُمْ ... قَدَمٌ في الودِّ يَعْلُو قَدَما

وَلَهُمْ فَضْلٌ وَجُودٌ وَتُقَى ... فَهُمُ السّاداتُ فينا العُلَما

وَنَعِمْنا بتَلاقيهم ولم ... نَجِدِ الأقْوامَ إلا نِعَمَا

هذه حَضْرَتُنا قَدْ شَرفَتْ ... بشَريفِ القَدْرِ أسْمَى مَنْ سَمَا

أحْمَدُ الأوْصافِ والذاتِ الذي ... ساقَ في الأحْكامِ عِلْمَ الحُكَما

وعليٌّ مَنْ بِه تَعْلو العُلاَ ... وبطيبِ المَجْدِ يَشْفي السُّقَما

والذي يُدْعَى بمُحْيي الدّين قَدْ ... عَزَّ قَدْراً وبه الفَضْلُ نَما

وكَذَا الكَامِلُ في رُتْبَتِه ... أحْمَدُ المَشْهورُ دَرويشُ الحمى

وَبَواقي الصَّحْبِ مِمَّنْ حَضَروا ... بَيْنَ مَخْدومٍ وَمَنْ قَد خَدَمَا

لَمْ تَزَلْ تَشْمَلُنا أجمعُنا ... بَرَكاتُ الوَقْتِ بَيْنَ الكُرَما

ولنا الجوُّ صَفَا رَونَقُهُ ... حَيْثُ ثَغْرُ البَحْرِ فينا ابْتَسَما

وبَساتينُ نَخيلٍ جَمَعَتْ ... كُلَّ لُطْفٍ ناشِراتٌ عَلَما

وَقُصورٌ عالياتٌ قَدْ سَمَتْ ... بشَبابيك لَهَا اللهُ حَمَى

وأدام الحظّ منها وعلى ... أهْلِها مُغْدَودِقُ الغَيْثِ هَمَا

ما دَعَا عَبْدُ غَنيٍّ رَبَّهُ ... فَحَبَاهُ منه بالقَصْدِ وَمَا

قبر الشيخ حسن الأغبر

ثم لم نزل سائرين إلى أن مررنا على قبر هناك عند البحر، فوق تل من الرمل، يقال إنه دفن فيه الشيخ حسن الأغبر بالغين المعجمة، والباء الموحدة، والراء -: وهو رجل من

أهل الجذب والصلاح. قيل له قبل أن يموت: أين تُدْفَنُ يا شيخ حسن؟ فأتى بهم إلى موضع قبره الآن، وقال لهم: أنا أدفن في هذا المكان. ثم بعد سنين لما مات حضروا له قبراً في الجبانة، عند قبر والده، فأتوا به ليدفنوه فيه، فما أمكن، وامتنع النعش، وما قدر أحد على وضعه في تلك الجبانة. وكانت جنازته حافلة بالعلماء والصلحاء، والأكابر والأعيان والخواص والعوام، فحملوا النعش به، وكان يأخذهم حتى وصل بهم إلى محل قبره الآن، فحفروا له قبراً وبنوه في تلك الساعة، ودفنوه، رحمه الله تعالى.

فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى.

قبر الشيخ رضوان بن أبي عرقوب

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى قبر الشيخ رضوان بن الشيخ أبي عرقوب بن الشيخ علي بن عُلَيل، قدس الله سرهم، فدخلنا إلى تلك الحضرة العلية، والسُدَّة العُلَيْلِية، فرأينا ضريحاً عليه المهابة والنورانية، فقرأنا ودعونا الله تعالى بحصول الأمنية، وهناك بالقرب منه بعض القبور، وذلك المكان مملوء بالبهجة والنور؛ وقلنا في ذلك المقام، من النظام: [من السريع]

لَقَدْ أَتَيْنَا نَبْتَغِي زَوْرَةً ... لِكامِلٍ سامٍ لَهُ شَانُ

بالشَيخِ رِضوانٍ دُعي في الوَرَى ... وابن عُلَيْلٍ فيه عِرْفانُ

في جَنَّةِ الخُلْدِ غدا قَبْرُهُ ... وخازنُ الجنَّةِ رِضْوانُ

وأنشدنا لبعضهم الدرويش أحمد المشار إليه سابقاً: [من السريع]

مَنْ خالَطَ النَّاسَ بِلا عِلَّةٍ ... بِنيَّةٍ صالحة والأَدَبْ

كَمَّلَهُ الله عَلَى نِيَّتِه ... وَحازَ تَفْضيلاً لأعْلَى الرُّتَبْ

ومكان قبر الشيخ رضوان مرتفع في أرض منبسطة والزائرون له يجلسون على قبره من كرم وروحانية، وجمال تجلية فيحصل لهم كمال السرور والنشاط، فامتنعنا في أول الأمر من ذلك ثم وجدنا الأذن بلسان الحال، وهو قبرواسع عال، عليه قبة بأربع عضايد منفتح الجوانب، بحيث أنه يشرف على أماكن بعيدة.

قرية جبالي

فأشرفنا منه على قرية جبالي - بفتح الجيم، بعدها باء موحدة - وهي قرية لطيفة الهواء، عذبة الماء؛ في أهلها الصباحة ومحاسن الملاحة.

شعر لعلي النخال

وقد أنشدنا الفاضل الكامل الشيخ علي النخال المذكور سابقاً هذين البيتين من لفظه لنفسه وهما قوله: [من الوافر]

وَلَمَّا أنْ أدارَ الحُبُّ كاسي ... وَمِنْ صَهْباءِ رِيقَتِهِ مَلاَلي
رَشَفْتُ رُضابَهُ وَسَكِرْت منه ... وَقُلْتُ لِصاحِبي هَذا جَبالي

وأنشدنا أيضاً من لفظه لنفسه: [من الوافر]

وَلَمَّا أنْ بَدا كالبَدْرِ وَجْهاً ... بِوَ جْنَاتٍ بِدِيعاتِ الطِّرازِ
شَمَمْتُ الوَرْدَ مِنْ خَدٍّ نَدِيٍّ ... وَقُلْتُ لِصاحِبي هذا حِجازي

ويناسبه قول الشيخ إبراهيم المعروف بابن زقاعة، رحمه الله تعالى صاحب الديوان المشهور: [من الوافر]

تَبَدَّى مُقْبِلاً فَسَألْتُ عَنْهُ ... بأي الأرْضِ يا مُشْفِي غَليلي
فَقالَ: مِن الخليلِ وتلكَ أرْضي ... فَقُلْتُ لِصاحبي هذا خَليلي

ولبعضهم من قبيل ذلك: [من الوافر]

أقولُ لِشادِنٍ أضْحَى مُقيماً ... بقَلْبي وَهُوَ مِن عربِ البَوادي
لِمَن تُعْزَى فَقالَ: إلى مُرادٍ ... فقلتُ لِصاحبي: هذا مُرادي

ولنا في نظير ذلك على البديهة قولنا: [من الوافر]

بَدَتْ ذاتُ العُقودِ عُقودِ درٍ ... وَقَدْ حَمَلَتْ عناقيدَ اللآلي
فَذقْتُ الخَمْرَ مِن رَشَفَاتِ فيها ... وَقُلْتُ لِصاحبي هذي دوالي

اليوم الثامن والثمانون

30/ 3/ 1105هـ = 25/ 12/ 1693م

ثم سرنا نحن والأخوان، من ذلك المكان؛ وعدنا إلى منزلنا المعروف، وبتنا في أتم سرور موصوف؛ حتى أصبحنا في يوم الأحد الثامن والثمانين، وهو اليوم الثلاثون من شهر ربيع الأول، فحضر عندنا الأفاضل والأعيان، من أهل تلك البلدة، وجرت بيننا الأبحاث العلمية الرقيقة الشان.

ثم بعد الصلاة الظهر ذهبنا إلى بستان لطيف، قريب من البلدة، وكان الزمان زمان الخريف؛ وخريفهم كالربيع، من كمال صنع الله البديع؛ فقلنا في ذلك، بحسب ما هنالك: [من الخفيف]

غَـزَّةُ الـشَّامِ قَـدْ زَهَـتْ بالأَرَاضِـي ... كُلَّمَـا جَادَهَـا الـسَّحابُ المُرِيـعُ

كَلَّـلَ الزَّهْـر والنَّبـاتُ حَلاَهَـا ... فَكَـأنَّ الخَرِيـفَ فيهـا رَبِيـعُ

وَتَبَـدَّى مِـن قَبْـل كـانونَ فيهـا ... زَهْـرُ لَـوْزٍ علـى الغُـصونِ لَمِيـعُ

يَلْـبَسُ الـرَّوْضُ حُلَّـةً منـه خَـضْرا ... ءَ بـأزرارِ فِـضَّةٍ فَيُرِيـعُ

أَوْ سَـماء مِـنَ الزَّبَرْجَـد يبـدو ... نُجمهـا اللابـسُ الحَرِيـرَ الرضِـيعُ

وَالرُّبـا عُطِّـرَتْ بهـا نَفَحـاتٌ ... منـه فَهْـو المِـسْكُ الفَتيـقُ المُـذيعُ

مزار الشيخ شعبان المشهور بأبي القرون

ثم بعد انصرافنا من ذلك المكان، مررنا على مزار الشيخ شعبان، وهو المشهور بأبي القرون، وذلك المزار غير زاويته، كما سنذكرها فإنه فيه مدفون، وعلى قبره عمارة ظاهرة، وهناك كمال نورانية باهرة؛ فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى.

قبر الشيخ ياسين

ثم زرنا قبالته قبر الشيخ ساين، وهو رجل من الأفاضل الصالحين.

شعر في المنشد محمد بَرُّوق

ثم عدنا إلى المنزل، وكان الهمُّ عنا بمعزل؛ وحضر عندنا السمع بالآلات الفاخرة، بعد العشاء الآخرة.

وحضر الأخلاء والمحبون، الذين كانوا إلينا يترددون؛ وكان المنشد فيهم اسمه محمد بَرُّوق ـ بفتح الباء الموحدة، وتشديد الرء مضمومة ـ ولنا في شأنه من النظام، على البديهة حيث اطرب في المقام: [من الكامل]

لِلّـهِ دَرُّكَ يـا مُحَمَّـدُ في الـذي ... تَـأتي بِـهِ مِـن لَـذَّةِ الإنْـشادِ

أذكَرْتَنـا العَهْـدَ القَـديمَ بنَغمـةٍ ... قَـدْ سـاعَدَتْنا في لِقـاءِ سُـعادِ

وَدَعَوْتَ منّا بالفناءِ ظَواهراً ... وَبَواطناً والقَلْبُ بالمِرْصادِ

وَإِذا شَدَوْتَ فَأَنْتَ بُلْبُلُ روضةٍ ... أطرَبْتَ بالترجيعِ والتَّرْدادِ

فَرَأَيْتَ كَيْفَ الأمْرُ يَنْزِلُ صاعداً ... في واحدٍ فَيَسيرُ في الأعْدادِ

حَتى إذا احْتَكَمَ الهَوَى في مَعْرِكٍ ... مَعَنا أتانا منكَ خَيْرُ مُنادي

إن كانَتِ العَشْرُ الحَواسُ تَوَجَّهَتْ ... للقائِنا منّا فَأَنْتَ الحادي

الشيخ إسماعيل الملقب بقرشت

فاجتمعنا في هذه الليلة برجل من الصالحين مؤذن في بعض المساجد هناك اسمه الشيخ إسماعيل يلقب بقرشت، يأكل أي شيء قُدّم له من التراب، أو الرمل، أو الحجارة، أو الزجاج، أو شربيات الفخار، أو الحشيش، أو الفحم، أو التبن، أو جمرات النار أو قطع الكلس، ويقول قبل الأكل: (قرشت)، ثم يأكله وكان في يدنا تفاحة، فألقيناها له، وقلنا له: (قرشت) فأكلها في لقمة واحدة، وقصدنا معه المباسطة لعلمنا بأنه يأكل ما لم يؤكل فالتفاح بالأولى.

اليوم التاسع والثمانون

1/4/ 1105هـ = 26/ 12/ 1693م

ثم أصبحنا في يوم الاثنين التاسع والثمانين، وهو اليوم الأول من شهر ربيع الثاني.

علي النخال يمدح النابلسي

فأتى إلى عندنا صديقنا الفاضل الشيخ علي النَّخّال المتقدم ذكره، وقد امتدحنا بهذه الأبيات، فجاء بها إلينا، وهي قوله: [من الوافر]

تَشَرَّفْنا بمولانا الزَّكيِّ ... إمامِ العَصْرِ عَبْدِ للغَنيِّ

هُمامٌ مالَهُ في الفَضْلِ ثانٍ ... ذَكِيُّ الجدِّ ذو قَدْرٍ عَليِّ

فَريدٌ في الوجودِ وَحيدُ دهرٍ ... لَطيفُ الذّاتِ ذو وجهٍ سَنيِّ

لهُ فَوْقَ السِّماكِ مَقامُ صِدقٍ ... يَفوقُ بهِ مَقامُ الأسْنويِّ

فيا للّهِ مِن مَوْلًى تَسامى ... بأنْواعٍ مِنَ العِلْمِ الوَفيِّ

يحلُّ المُشْكلاتِ وَلا عَجيبٌ ... عَلَى هذا الإمامِ اللَّوْذَعيِّ

تَفَرَّدَ بالكمالِ وَلَيْسَ يُلْقَى ... لَهُ نِدٌّ بإظْهارِ الخَفِيِّ

لَعَمْري إنَّهُ الكَهْفُ المُرَجَّى ... لتبيانِ المُصانِ مِنَ الحليِّ

إذا ما رُمْتَ تَسْألُ عَنْ دَقيقٍ ... تَرَى البَحْرَ المُحيطَ بكلِّ شيِّ

يُفيدُ السَّائلينَ إذا... أتَوْهُ ... بتَحقيقٍ وإيضاحٍ بَهيِّ

فما القاموسُ في تَحْريرِ لفظٍ ... لقدْ أزْرَى صِحاحَ الجُوْهَريِّ

فَنَرْجُو اللهَ أنْ يُبقيهِ غَوْثاً ... وَعَوْناً للضَّعيفِ وللقَوِيِّ

بجاهِ مُحَمَّدٍ خَيْرِ البَرايا ... شَفيعِ الخَلْقِ ذي الأصلِ الزَّكيِّ

عَلَيْهِ صَلاتُنا في كُلِّ وَقْتٍ ... مَعَ التَّسليمِ مِنْ قَلْبٍ صَفيِّ

كذا آلٌ وأصحابٌ كِرامٌ ... دواماً في الصَّباحِ وفي العَشيِّ

فعُذْراً أيُّها المَوْلَى فإنِّي ... قَليلُ الحَظِّ مِنْ هذا الرَّوِيِّ

عليٌّ عَبْدُكَ النَّخَّالُ طَبْعي ... يَميلُ إلى الغَزالِ الحاجزيِّ

وَدُمْ يا سَيِّدي كَهْفاً عَزيزاً ... قَريرَ العَيْنِ بالعَيْشِ الهَنيِّ

عَلَى طُولِ المَدَى ما لاحَ بَرْقٌ ... فَهيَّجَ لَوْعَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ

إنشاد وسماع في دار يوسف ابن الغصين

ثم بعد صلاة الظهر ذهبنا إلى ضيافة أخينا صاحب الكمال والمحامد، الخواجا يوسف الشهير بابن الغصين، فدخلنا إلى داره المشرقة الكيف الواسعة الأين، وكان المجلس حافلاً بالأفاضل والأعيان، والأحباب والخلان، فتذاكرنا بعض المسائل العلمية، والكمالات الأدبية. ثم حضر السماع وأنشد المنشدون، وحصل الطرب والسرور، فكأنما القوم في روضة يُحْبَرون، ثم بعد حصول الفائدة، ووضع المائدة، جيء بماء الورد والبخور، وقد كمل الفرح وتم الحضور... فعدنا إلى المنزل المعهود، مع بعض الإخوان إخوان الوجود، وتكلمنا في بعض الحقائق الشرعية، بعد صلاة المغرب إلى أن مضى من العشاء نحو ساعة فلكية، ثم حضر عندنا السماع، وانطربت القلوب والأسماع؛ وانصرف الحاضرون.

اليوم التسعون

2/ 4/ 1105هـ = 27/ 12/ 1693م

وبتنا تلك الليلة على أهنى ما يكون، حتى أصبحنا في يوم الثلاثاء وهو اليوم التسعون؛ وهو الثاني من شهر ربيع الثاني.

زاوية الشيخ شعبان الملقب بابي القرون

فذهبنا إلى زاوية الشيخ الولي الصالح شعبان الملقب بأبي القرون، قدس الله روحه، وَنَوَّرَ ضريحه، في ضيافة خليفته الشيخ الكامل، المشمول بالعناية الإلهية، وهو للغير شامل؛ الدرويش أحمد المتقدم ذكره، فدخلنا إلى تلك الزاوية المعمورة الجوانب والأطراف، الرحبة الأماكن والأكناف؛ وحضر عندنا هناك الأفاضل والأعيان، ونحن نتذاكر طرائف المسائل العلمية ولطائف البيان؛ ثم حضر السماع، ولمعت بوارق الألماع؛ وفي طرف البستان الذي في الزاوية مكان مرتفع وهو مطلق القياد، مشرف على جهات تلك البلاد، وكان يسميه الشيخ أحمد المذكور بالشرف الأعلى، يشير بذلك إلى مرجة دمشق الشام والشرفين، فيذكرنا قول الشاعر المنازي في المرجين والشرفين: [من الرجز]

والـــشَّرَفانِ عَقْلَـــةُ المُجْتَـــازِ   هُمـــا جَناحـــانِ لـــصَدْرِ البـــازِي

شعر للنابلسي

وفي ذلك نقول، وعلى الله بلوغ المأمول: [من الطويل]

لأحْمَـدنا الـدَّرْويشِ أحْمَـدُ جَوْسَـقِ   بـه كُـلُ إشْـراقٍ ولُطْـفٍ وَرَوْنَـقِ

وَلِلشَّرَفِ الأعْلَـى الـذي ثَـمَّ بَهْجَـةٌ   عَلَـى الشَّرفِ الأعْلَـى بمَرْجَـة جِلِّـقِ

فَـإنْ قيـلَ هـذا مـاؤُهُ دافِـقٌ فَقُـلْ   بَـدا ذا عَلَـى بَحْـرٍ بِـهِ مُتَـدَفِقِ

وقامَـتْ بـه النَّخْـلُ الطِّـوالُ كأنَّهـا   خَرائِـدُ في خُـضْرِ الغَلائـلِ تَرْتَقـي

وأنْـــواعُ أزهـــارٍ هُنـــاكَ نَـــوافح   بطيـبٍ علـى تِلْـكَ الرِّيـاض مُعَبِّـقِ

وأشْـجارُ لَـوْزٍ مُزْهِـراتٌ لهـا شَـذا   كَمِـسْكٍ فَتيـقٍ مَـعْ بَيـاضٍ لهـا نَقـي

وَعاشِـقٌ والمَعْـشوقُ يَزْهُـو بلَوْنِـهِ   إذا نـاحَ في الأقفـاصِ كُـلُّ مُطَـوَّقِ

ويـا حَبَّـذا ذاكَ النَّسيمُ الـذي سَـرَى   عَـشِيَّةَ كُنّـا بالأحِبَّـةِ نَلْتَقـي

يَهـبُ فَيـثني للغُـصون مَعاطفـاً فَـلا غُـصنَ إلا كـاسَ خمَريَـةٍ سُـقي
وَبِركَـةِ مـاءٍ سـالَ صـا في زُلالهـا بنَـوفَرةٍ بَيـضاء ذات تَـألق
وَمَجلِسِ أُنسٍ مُطلَقِ الصدْرِ مُشرقٍ عَلـى كُـلّ صَـدْرٍ في البريَـةِ ضَـيّقِ
تَحفُ بـه الأزهـارُ مـن كـلّ جانـبٍ فكَم هـاجَ مـن قلبٍ إلى الحبّ شَيّقِ
أتَيْنـا وسَـلَّمْنا عَلـى مَـنْ ثَـوَى بِـه فَبَشَّ بوجـهٍ منـه في النـاس مُـشرق
فَلِلّـهِ مِـنْ شَـيْخٍ سَـما بِمُقَيّـدٍ مِنَ العَيْنِ في وَقْتٍ عن الغَيْرِ مُطْلق
وكُنّـا ومـا كُنّـا هنـاكَ بَجْمعنـا وللفَـرْقِ منّـا قَـدْ سَـمَا كُـلّ مفـرق
وللـدف والنّايـاتِ ثُـمّ تـزاوج وللجَنْـك يَـسقي كَـاسَ راحٍ مُـرَوّقِ
وابحـاثِ علـمٍ مـع صِحابٍ أعِـزّةٍ تُـنيرُ مَعانيهـا كَـشَمْسٍ بمَـشْرِقِ
وَطِبْنا وطابَ القَوْمُ في نَشأةِ الهَوَى برِقَّـةِ ألفـاظٍ وَبَهْجَـةِ مَنْطِـقِ
إلى أنْ دَعـا التَّـسليم نَرْكَـعُ عِفَّـةً وَنَـسْجُدُ للـدّاعي بحُـسْنِ تَمَلُّـقِ
فيا طيبَ ذاكَ اليَوْمِ ما كانَ في الحِمَى ألَـذّ واشْـهَى منـه للمُتَعَلِّـقِ
وَمـا غَـزَّةُ الفَيْحـاءِ إلا كَجنَّـةٍ لَو أنَّ الذي فيها من العَيْشِ قَدْ بقي
سَقاها وَحَيّاهـا الحَيـا مـن مَدينـةٍ لفَرْطِ الهَوَى تَدْعُو وحُسْنِ التَّمشُقِ

اليوم الحادي والتسعون

3/ 4/ 1105هـ = 28/ 12/ 1693م

ثم عدنا إلى منزلنا المعروف، وبتنا تلك الليلة في أتم سرور لا يمكن تأديته بتعبير الحروف، إلى أن أصبح صباح يوم الأربعاء الحادي والتسعين وهو الثالث من شهر ربيع الثاني.

تذييل لبيت

فعرض علينا بعض الجماعة من أهل الأدب، هذا البيت المفرد من قول بعض الشعراء ولإنشاده انتدب: [من البسيط]

إنّ انتِـصارَكَ بالأجْفـانِ مِـن عَجَـبٍ فَكَيْـفَ يُوجَـدُ مَنْـصورٌ بمُنْكَـسرِ

وطلب منا أن نذيل له عليه، ونعمل له أبياتاً قبله كالمنسوبة إليه؛ فقلنا في ذلك، بمعونة القدير المالك: [من البسيط]

هاتَتْ حُروبُ الهَوَى في المعركِ العسر	والقَلْبُ صادٍ لَهُ من ثغر ألمَس ريّ
يا بَدْرَ تَمٌ تَبَدّى من سَوالفه	في جُنْحِ لَيْلٍ دَجيٍّ غير مُنْحَسِرِ
إذا تَجلّى فيا وَجْدي لديه أقِمْ	وإن تَوَلّى فيا صَبْري عَلَيْه سِرِ
عَجِبْتُ منك لخَصْرٍ كاد لَيْس يُرَى	من فاقةٍ فيه مع حُسْنٍ لَدَيْكَ سَري
غَزَوْتَنا بجُفُونٍ منكَ أسْهُمُها	لم يَلْقَ فيها خَلاصاً كل مُنْاسِرِ
ففرقت جَيْش صبري عنك وانْهَزَمَتْ	عساكرُ الجَلْدِ العاتي بِلك الجَسِرِ
إنَّ انْتِصَارَكَ بالأجْفانِ من عَجَبٍ	فكَيْفَ يُوجَدُ مَنْصورُ بمُنْكَسِرِ

الشيخ اينبك

ثم ذهبنا نحن والجماعة. وبقية الإخوان، وبعض الأصحاب والخلان؛ بقصد النزهة إلى بستان، وزرنا في الطريق الشيخ اينبك ـ بفتح الهمزة، بعدها ياء مثناه تحتية ساكنة، ثم نون مفتوحة، ثم باء موحدة، وفي آخره كاف ـ وهو في مكان مستقل، وعليه قبة وعمارة. ثم دخلنا إلى ذلك البستان، فإذا فيه شبه من حدائق الجنان. وجلسنا هناك في غاية الصفاء، وكمال المسرة والوفاء؛ إلى أن صلينا صلاة العصر مع الجماعة، وكملت النشأة بحصول الطاعة.

قبر الشيخ حياض

ثم ذهبنا، فمررنا في الطريق على قبر الشيخ حياض ـ بكسر الحاء المهملة، بعدها ياء مثناة تحتية، ثم ألف، ثم ضاد معجمة ـ وهو تحت شجرة هناك، وليس عليه عمارة. فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

تربة الدِّرارية

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى تربة الدرارية ـ بكسر الدال المهملة المشددة ـ فقرأنا الفاتحة لمن دفن فيها من المسلمين والمسلمات.

قبر التُّمُرْتَاشي

وزرنا قبر الشيخ محمد بن عبد الله[222]، مصنف كتاب تنوير الأبصار، وجامع البحار؛ وهو المشهور بالتُّمُرْتاشي - بضم المثناة الفوقية، وضم الميم المعجمة، وسكون الراء، وفتح التاء المثناة الفوقية، بعدها ألف وشين، وياء النسبة.

قال في كتاب مراصد الإطلاع في أسماء الأماكن والبقاع[223]، للعلامة أبي الفضائل صفي الدين عبد المؤمن مفتي الحنابلة بالبشيرية: تُمُرْتاش بضمتين، وسكون الراء، وتاء أخرى، وألف، وشين معجمة: قرية من قرى خوارزم. انتهى.

فلعل الأصل من بلاد خوارزم ثم سكن جدُهم الأعلى في بلاد غزة وتناسلوا فيها.

أولاد التمرتاشي وأجداده

ثم زرنا قبور أولاد التمرتاشي وأجداده في تلك التربة، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى. وكانوا في غزة يفتون على مذهب الحنفية كلهم رحمهم الله تعالى.

والد الشيخ علي النخال وأجداده وأولادهم

ثم زرنا والد الشيخ علي النخال في تلك التربة أيضاً، وأجداده وأولادهم، رحمهم الله تعالى. وكانوا كلهم مشايخ الإسلام يفتون على مذهب الشافعية.

وقد أخبرنا الشيخ علي النخال المذكور أنه رأى بخط ابن عمه العلامة شيخ الإسلام، الشيخ أبي بكر مفتي غزة. قال: أخبرني عمي شيخ الإسلام الشيخ محيي الدين مفتي غزة أن والده المرحوم شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم أخبره:

أنه كان لوالده الولي العارف، صاحب الكرامات والعوارف، الشيخ عبد الله النخال. بهيمةٌ عزيزةٌ عليه، فطلب منه ولده الشيخ عبد الكريم الإذن في ركوبها إلى الكرم، فإذن له، وشرط عليه أن لا يركب معه أحداً. فلما ركبها أردف خلفه واحداً من أصحابه، ولما عاد بها إلى البيت ربطها في محلها، فجاء الشيخ على عادته، ووضع لها العلف، فلم تأكل، فقال لها: كلي يا مباركة، فقالت له: أنت أبرك مني، ولكن ولدك أتعبني، وأردف خلفه من آذاني وضربني. فدخل إلى ولده وسأله عن ذلك، فأنكر فمسكه من يده، وجاء به إلى

---

(222) - ولد سنة 939 وتوفي سنة 1004هـ وانظر خلاصة الأثر 4/ 18 . 20، والأعلام 7/ 117 ومعجم المؤلفين 10/ 196 . 197.

(223) - انظر معجم البلدان 2/ 46 (تمرتاش).

البهيمة، وقال لها: هذا أنكر جميع ما قلته. فأخبرته بجميع ما قالته أولاً، فلما سمع الغلام كلامها وقع مغشياً عليه، فأخذته والدته إلى البيت، ومكث ثلاثة أيام، لا يعي شيئاً. ثم لما مرض الشيخ مرض الموت أوصى ولده المذكور أن البهيمة إذا ماتت يدفنها. فتوفي الشيخ إلى رحمة الله تعالى، ثم بعد مدة ماتت البهيمة، فألقاها على المزابل، ولم يدفنها، فرأى والده في المنام، وقال له: أنت لم تقبل الوصية، ونحن كفيناك مؤونتها. فلما أصبح توجه فلم يجدها ولم يجد لها أثراً.

وقد اشتهر بأن الشيخ عبد الله المذكور كان في كل سنة يرى في وقت الحج على جبل عرفات، وقد أخبر بذلك جماعة من جيرانه كانوا في الحج مراراً والله أعلم. انتهى.

مكان ولادة نبي الله سليمان

ومررنا على مكان مستقل، فيه عمارة، يقال إنه ولد فيه نبي الله سليمان عليه السلام فتبركنا به.

قبر الشيخ أبي العزم

ومررنا على قبر الشيخ أبي العزم، وهو في مكان مستقل، عليه عمارة وقبة معقودة بالحجارة. فقرأنا الفاتحة. ودعونا الله تعالى.

ثم عدنا إلى المنزل. وبتنا في كمال السرور والعافية، وتمام النشأة الوافية.

اليوم الثاني والتسعون

4/ 4/ 1105هـ = 29/ 12/ 1693م

حتى أصبحنا في يوم الخميس الثاني والتسعين، وهو الرابع من شهر ربيع الثاني، فورد علينا الوارد الإلهي من فتوح الوقت على حسب الحال، فنظمنا هذه الأبيات وعلى الله بلوغ الآمال: [من الطويل]

فَدَيْتُكَ يا مَنْ قَدْ حَفَيْتَ فَلاَهـا	وَشَوْقي إلَيْهِ لا يَـزالُ فَلاَحـا
وَلا عَجَبٌ أنْ طِرْتُ في رُؤيتي لَهُ	فَمِنْ لُطْفِهِ أنّي وَجَدْتُ جناحا
وَلَمّا بَدا وَجْهٌ لَهُ من ورا الوَرَى	رَأَيْتُ جَميعَ الكائناتِ مِلاحا
تَبارَكْتِ من سِرٍّ خَفِيٍّ عَنِ السّوى	أباحَ لَنا جَهْراً لقاه أباحا

يَقولُ لشيءٍ كُنْ وما الشيء غَيْره إذا كانَ لكن قَدْ سَتَرتْ وَباحا

وما صِبْغَةُ الأشياء إلا شؤونَهُ بها يَتَجلّى للأنامِ كفاحا

تَعالَيْتَ يا ساقي القُلوب شَرابَهُ برؤيَةِ وَجْهٍ منه ساعةَ لاحا

لَئِنْ كانَت الأكْوانَ في الناسِ ظُلْمَةً فإنّك عنْدي قَدْ ظَهَرت صَباحا

وَشَمْسُ سَماء الذات منك لنا بَدَتْ وَرَوْضُ التّجَلّيّ من صِفاتكَ فاحا

هُوَ الكُلّ إلا أنَّ صَوْلَةَ فِعْلِه حجابٌ لَهُ يَسقي البَريّة راحا

فَتُسكَرُ أرْبابَ العُقولِ فلا ترى سوى مالها منها الخبالُ أتاها

وَما الحسُّ إلا وَهْوَ للعَقْلِ تابعٌ يَرَى ما يراه قَبْضَه وسراحا

الا يا وَحيدَ الذاتِ أنتَ وجودُنا وَما نَحْن إلا الحُكْمُ منك مُتاحا

خُطوطٌ بأقْلامِ العُقولِ تَخيُّلا عن القَلَمِ الأعْلَى صَدَرْنَ صَحاحا

وما القَلَمُ الأعْلَى سوى عَنْ إرادةٍ تجلّ انبعاثاً إذْ عَلَتْ وَرَواحا

إرادَةُ غَيْبٍ من مقامِ مُقَدّسٍ ببَيْدائه فَهْم المُنَزّه ساحا

قَديمةُ عَهْدٍ والجَميعُ حَوادثٌ فَلَيْس لنا فيها الكلامُ مُباحا

ثم جاء إلى عندنا بعض الأصحاب، من أفاضل الأحباب؛ فتذاكرنا في المسائل التوحيدية، والمواجيد الربانية؛ وقرأ علينا بعض الإخوان قصيدتنا العينية، التي لنا في ديوان الإلهيات بتمامها ومطلعها قولنا: [من الطويل]

فَريدَةُ حُسْنٍ وَجْهُها البَدْرُ طالِعٌ أشاهِدُ مَغْنَى لُطْفِها وَاطالِعُ

الشيخ عجلين بن أبي عرقوب

ثم بعد صلاة الظهر. قصدنا زيارة ولي الله الشيخ عجلين . بكسر العين المهملة، بعدها جيم، ثم لام مكسورة، بعدها ياء مثناة تحتية، في آخره نون . وهو ابن الشيخ أبي عرقوب ابن الشيخ علي بن عليل. والشيخ عجلين المذكور أخو الشيخ رضوان المتقدم ذكره، وكلاهما ولد الشيخ أبي عرقوب، واسم أبي عرقوب الشيخ إبراهيم.

وقد تقدم ذكر زيارتنا لقبره في قرية حمامة قبل مجدل عسقلان، وكأنما هذا الشيخ أبو عرقوب قدس الله سره كان الله تعالى قد جمع له مقام الجمال، ومقام الجلال،

بتجليه سبحانه على نشأته الإنسانية فلما مات ورثه ولده الشيخ عجلين في تجلي مقام الجلال، وورثه ولده الشيخ رضوان في تجلي مقام الجمال، وحال كل مقام منهما ظاهر من روحانية صاحبة عند تربة قبره يشهده الزائر له، كما وجدنا نظير ذلك في مصر المحروسة، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى في محله كلا من الأخوين الشيخين الجليلين صديقنا وحبيبنا وروحنا الشيخ زين العابدين، والشيخ الكامل العارف المسمى بأبي المواهب ولدي قطب العارفين الشيخ محمد البكري الصديقي رضي الله عنهم فإن الشيخ زين العابدين نور الله سره كان أرثه من والده الجمال المحض. والشيخ أبي المواهب حفظه الله تعالى إرثه من والده الجلال وروحانية كل منهما مشمرة بذلك.

فوصلنا مع الإخوان والأصحاب، ومن كان معنا من خلاصة الأحباب؛ إلى مكان قبر الشيخ عجلين المذكور، ولمعت علينا بوارق ذلك النور؛ فدخلنا إلى مقامه المأنوس، وحرمه المحروس؛ بجانب البحر المالح، مثل قبر جده الشيخ علي بن عليل الولي الصالح؛ وهو داخل جدران أربع متسعة الجوانب، وليس عنده غيره مدفون من الأقارب والأجانب. وقبره تحت السماء في قرب الباب ليس عليه عمارة، وهناك إيوان في طرف من المكان مبني بالحجارة؛ وعلى المكان هيبة عظيمة وجلال، ففرشوا لنا في ذلك الإيوان. وجلسنا حصة فلم نستطع من هيبة الحال؛ حتى قمنا وذهبنا إلى الخارج، بعد قراءة الفاتحة والدعاء الذي هو للقبول إن شاء الله تعالى من أقوى المعارج.

جميز ونرجس مضعف

ونزلنا إلى مكان على شط البحر بين صخور، ومكثنا هناك نقابل أمواج البحر وهي تفور؛ وإذا بغلام معه قُفّةٌ من جريد النخل مملوءة من الجميز الحلو، أقبل بها علينا، ووضعها بين يدينا؛ فقلنا هذه ضيافة الشيخ عجلين جاءت إلينا، وكنا تطلبنا ذلك ممن كان معنا في الطريق فلم تتيسر. ثم أتى غلام آخر نحونا بباقة من النرجس المضعف وناولها لنا فحمدنا الله تعالى وشكرناه على كمال العافية.

قبر الولي الشيخ أحمد

ثم زرنا قريباً منه قبر الولي المشهور، الشيخ أحمد وهو تحت السماء، ليس عليه عمارة، وعليه الهيبة والوقار، ويقال إنه مدفون هناك، قبل أن يدفن الشيخ عجلين.

ثم قمنا وذهبنا إلى منزلنا المعهود، في آخر ذلك النهار المشهود.

كرامات الشيخ عجلين

وللشيخ عجلين المذكور، كرامات كثيرة وخوارق وعادات خبرها في طي هاتيك البلاد منشور؛ وحضرته من لازمها الأدب، فلا يقع من أحد سوء أدب، في حضرته ظاهراً أو باطناً إلا وتظهر في ذلك المكان الرياح والزعازع.

وأخبرنا بعضهم أن ناساً ذهبوا إلى مزاره. وذبحوا رأس غنم، ووضعوه في طنجر من النحاس على النار في جنب قبره، وألصقوا النار بقبره، ثم بعد حصة يسيرة لم يروا في ذلك الطنجرة إلا العظام، ولم يجدوا شيئاً من اللحم أصلاً. وهي من كراماته قدس الله سره.

شعر في مقام الشيخ عجلين

ولنا من النظام، في ذلك المقام: [من البسيط]

مَا مِثْلُ قَبْرِ الإمامِ الشَّيْخِ عَجْلينِ ... بَيْنَ القُبورِ ذَواتِ الماءِ والطينِ

قَبْرٌ شَريفٌ عَلَيْهِ هَيْبَةٌ وعُلاً ... لا تَستَطيعُ تَراهُ الناسُ بالعَيْنِ

وَجَدُّهُ ابْنُ عُلَيْلٍ في جَلالَتِهِ ... عَليُّ الشَّهْمُ مَنْ يَسْمُو بتَمْكينِ

وَالحِبُّ عِجْلينُ في تِلْكَ الرِّحابِ لَهُ ... سِرٌّ سَرَى بَيْنَ كُلِّ الناسِ في الحينِ

تَأتي إِلَيْهِ البَرايا في زِيارَتِهِ ... تَبَرُّكاً بزِياراتِ الأساطينِ

وَيَنْزِلونَ بِهِ مِنْ حَولِ تُرْبَتِهِ ... في دارِ عِزٍّ لَهُ تَزْهُو بتَزيينِ

فَيَجْلِسونَ حَوالَيْها عَلَى جَبَلٍ ... مِنَ الرِّمالِ عَظيمٍ في التَّلاوينِ

في مهمهٍ قَفْرَةٍ ما فيهِ مِن أحَدٍ ... يَأوي هُناكَ ولا ثاوٍ بتَدْفينِ

كَقَبْرِ موسى كَليمِ اللهِ لَيْسَ بِهِ ... حَيٌّ تَحَرَّكَ أوْ مَيْتٌ بتَسْكينِ

وَإنَّما تَقْصدُ الخُدَّامُ حَضْرَتَهُ ... وَقْتَ الزِّيارةِ في بَعْضِ الأحايينِ

بشاطئِ البَحْرِ من عَلْياءِ غَزَّةَ كَمْ ... لَدَيْهِ ثَمَّ كراماتٌ بتَبْيينِ

فإن أسا أدَباً شَخْصٌ هناك بَدَتْ ... زعازِعٌ وَأمورٌ ذاتُ تَشْيينِ

وإنْ يكنْ أدَبٌ كانَتْ مكارِمُهُ ... مَنْشُورَةَ السُّحبِ في تلكَ الدَّواوينِ

وذاكَ مِنْ غيرةٍ فيه قَدِ اشْتُهِرَتْ ... مَعَ الجَلالِ كأخلاقِ السَّلاطينِ

جِئْنا إِلَيْهِ نَؤُمُّ البَحْرَ مِن كَرَمٍ ... يَعْلُو عَلَى البَحْرِ في قبرٍ بتَعْيينِ

حتّى جلَسْنا لَدَيْه مُلْتجين به | في حَضرَة العِزّ مع صَحْبٍ ميامين
مُستَبركين به حتّى أشارَ لنا | في القَفْزِ بالأكْلِ مع بَعْضِ الرّياحينِ
فَجاءَ طفل بجُمّيزٍ به مُلِئَتْ | سَلٌ وآخرُ قَدْ وافى يُحَيّيني
بمَضْعَفِ النّرجسِ الزّاهي ولَيْسَ لنا | علْمٌ بذاكَ عَلَى بُعْدِ البَساتين
وَقَدْ دَعَوْنا هُناكَ الله خالقَنا | بما قَصَدْناهُ من حاجات مسكين
عَلَيه رحمةُ رَبّي ما شَدَتْ سَحَراً | وُرْقُ الحَمامِ بأنواعِ التّلاحين
وما سَرَتْ في رياضِ الحَيّ ريحُ صَبا | فَعَطّرَ الكَوْنَ منها ريحُ نِسرين

اليوم الثالث والتسعون

5/ 4/ 1105هـ = 30/ 12/ 1693م

ثم أصبحنا في يوم الجمعة الثالث والتسعينن وهو اليوم الخامس من شهر ربيع الثاني، فجاء إلى عندنا الشيخ محمد بن الشيخ عبد القادر الشهير بابن الغصين، وابن عمه الخواجا يوسف صاحب الفضل الباهر، والكمال الزاهر.

شعر في بني الغصين

فعملنا هذه الأبيات في مدح هذا البيت المبارك فقلنا: [من الوافر]

بَلا بلُنا بمدحِ بني الغُصَيْنِ | سَواجعُ في الرّياضِ على الغُصَيْنِ
وَنَشْأتُنا برؤيةِ خَيْرِ قَومٍ | لَهُمْ فَضْلٌ كآلِ بني الحُسيَنِ
هُمُ القَوْمُ الأكابرُ أهلُ مَجْدٍ | وَأهْلُ شَهامَةٍ من غَيْرِ مَيْنِ
عُيونُ الأكْرمينَ ذَوي المَعالي | وَمَنْ كَشَفوا لنا من كُلِ غينِ
بهِمْ يَسْمو لَهُمْ رأس وَعَيْنُ | عَلَى مَنْ كانَ ذا رَأسٍ وَعَينِ
لَهُمْ شَرَفٌ بغزةَ قَدْ تَسامى | وذلك شائعٌ بالمَشْرِقَيْنِ
وَقَدْ زادَتْ مَناقبُهُم وفاقَتْ | بِسرِّ الوالدَيْنِ الأكْرمَيْنِ
بعَبْدِ القادرِ المَشْهورِ طالوا | وَأجْدادٍ كِرامِ الجانبَيْنِ
وَفَضْلُ مُحَمّدٍ لا زالَ فيهم | بوالِدِهِ يَفوقُ النَيِّرَيْنِ

وَيُوسُــفُ بَعْــدَهُ يَزْهــو كَمــالاً	رَفيــعُ القَــدْرِ ذُو مَجْــد وَزَيْــنِ
وَبــاقي القَــوْمِ في أَفْــلاكِ عِــزّ	طوالــع لا تُــشانُ ولا بِــشَيْنِ
سُــلالَةُ أَوْليــاءِ اللهِ ســادوا	وَقَــدْ نُظمــوا كَعِقْــدٍ مــن لُجَيْــنِ
فَــلا زالــتْ تَحيــاتي إلــيهم	رَواجــعَ بَيْنَــهُمْ أَبَــداً وَبَــيْني
عَلَــى طُــول المَــدَى مــا لاحَ صُــبْحٌ	وَبَــثَّ ضِــياءَه في الخــافِقَيْنِ
وَمــا هَــبَّ النَّــسيمُ مــن الرَّوابــي	فَعَطَّرنــا بطيــبِ الــوادِيَيْنِ

مكان ولادة الشافعي

ثم لما حانت صلاة الجمعة ذهبنا إلى الجامع الكبير، وصلينا فيه صلاة الجمعة مع جملة الكبير والصغير؛ ثم خرجنا وزرنا مكان ولادة الإمام الشافعي، رضي الله تعالى عنه، فإن جمهور العلماء على أنه ولد بغزة، فدخلنا إلى مكانه. وهو على شكل المغارة فنزلنا إليه بدرج.

قبر الشيخ عطية

وهناك في داخله قبر يقال له قبر الشيخ عطية، وهو رجل من الصالحين، كان في حياته يلازم هذا المكان إلى أن مات، ودفن فيه رحمه الله تعالى، فوقفنا وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

قبر بنت الشافعي

وفي خارج ذلك المكان قبر يقال إنه قبر بنت الإمام الشافعي فقرأنا لها الفاتحة، وتبركنا بذلك.

بعض ترجمة الشافعي

وذكر النووي في تهذيب الأسماء واللغات: أن الشافعي رضي الله عنه كان مولده بغزة، وقيل بعسقلان، ثم حمل إلى مكة، وهو ابن سنتين. وتوفي بمصر سنة أربع ومئتين، وهو ابن أربع وخمسين سنة.

وفي كتاب الزيارات للهروي[224]، قال: غزة ثغر، شريف بها ولد الإمام الشافعي محمد بن إدريس رضي الله عنه. انتهى.

مزار الشيخ شعبان

ثم ذهبنا إلى مزار الشيخ شعبان، المعروف بأبي القرون، فدخلنا إلى مكانه المعمور، بأنواع الحضور؛ وعليه عمارة لطيفة، وقبة منيفة؛ فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

الشيخ علي الأندلسي المغربي

ثم ذهبنا فزرنا الشيخ علي الأندلسي المغربي في مكان مستقل، وليس عليه قبة، ولكن حوله عمارة قديمة، ويقال إنه شيخ الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قدس الله سرهما، فقرأنا له الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

زاوية الشيخ أحمد خليفة الشيخ شعبان

ثم ذهبنا إلى زاوية الشيخ أحمد خليفة الشيخ شعبان أبي القرون المتقدم ذكره. فدخلنا إلى جنينته اللطيفة. ذات المحاسن التي بها مطيفة.

ديوان إبراهيم بن الهدمة

وقد أطلعنا الشيخ أحمد المذكور على ديوان العارف بالله تعالى الشيخ إبراهيم الهدمة الذي زرناه في بلاد الخليل، فرأيناه ديواناً لطيفاً، نحو عشر كراريس، وفيه قصيدة تائية ألف بيت ومئتان وستون بيتاً، ووزنها على خلاف المعهود من أوزان العرب، ومطلعها:

سَاقي شراب وصل ناوي لهجر ذاتي ... في الصحو سكرى انظر من ذاك في الصفات

الجسم من وجودي اسم بلا مُسمّى ... مشهود أهل كشف حيًا بلا ممات

في الحب لي مقام أدنى من التداني ... ذاك العلو أعلى من حرف عاليات

إلى آخر ذلك الكلام الطويل، المنبئ عن إجمال قائله في مقام التفصيل؛ وذلك من غلبة الجذب والسكر، على الصحو ويقظة الشكر.

---

(224) - انظر كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات 33.

اليوم الرابع والتسعون

6/ 4/ 1105هـ = 31/ 12/ 1693م

ثم أصبحنا في يوم السبت الرابع والتسعين، وهو اليوم السادس من شهر ربيع الثاني، فاجتمعنا بجناب الحسيب النسيب السيد مصطفى أفندي نقيب السادة الأشراف ببيت المقدس، فإنه قدم غزة في يوم الجمعة.

ثم أتى إلى عندنا عزيزنا أحمد أفندي البهنسي النائب يومئذ بغزة المحروسة، والشيخ علي النخال حبيبنا المتقدم ذكره.

قصص من العجائب

وأخبرانا عن جماعة من أهل العريش قرب غزة أنهم رأوا يقظة من مدة ماضية بين السماء والأرض جمالاً على طريقة الهجن والأخراج عليها، وخلفهم فرس عليها راكب، والكل سائرون بين السماء والأرض في الهواء، حتى شهد بذلك جماعة منهم، وأرادوا أن يكتبوا حجة ليثبت ذلك بشهادة المسلمين، وهو من العجائب.

ويناسبه ما أخبرنا به في الرملة صديقنا الشيخ أمين الدين الخليلي المتقدم ذكره أن صاعقة نزلت من السماء، ثم صارت شجرة عظيمة.

وأخبرنا أيضاً عن رجل كان شيخ زاوية المولوية بالقدس الشريف أنه اجتمع برجل من بلاد الروم من أهل اللطف والأدب، فأخبره أنه خرج ذات ليلة في زمن الطاعون إلى الخارج بالليل، فسمع ضجة عظيمة، فظن أن الوالي أو الحاكم قادم، فخرج هناك إلى مكان عال، فلما قدم الجمع مروا به، فقالوا له: انزل، فاذهب معنا. فنزل فأخذوه معهم، وقد حصل له منهم رعب شديد، حتى تحقق بهم. فإذا هم أهل الطاعون الذين يضربون الناس، فصار معهم من جملتهم، ثم إن كبيرهم أمر كل واحد منهم أن يذهب إلى فلان ويضربه فذهبوا وأمره هو أن يذهب إلى بيت فلان، وهو من معارفه، وأعطاه ثلاث سهام، وقال له: اضرب بها أولاده الثلاثة، فذهب فانشق له الحائط، ودخل فرآهم نائمين، وفلان نائم في وسطهم، فطعنهم بالسهام، ثم أصبح فوجد الواحد منهم مات ذلك اليوم، والثاني مات في اليوم الثاني، والثالث في اليوم الثالث. ثم سلب عنه ذلك الحال فخرج يتحدث في الناس بما وقع له ولا يصدقه أحد، حتى جاء إلى ذلك الرجل الذي مات أولاده الثلاثة فقال له: أما كنت نائماً في وسطهم وقت كذا وكذا في الليلة الفلانية وقت طعنهم؟ فقال له: نعم، وقد مكث عندهم أياماً وأهله وأصحابه يسألون عنه، فلا يجدون له خبراً. انتهى.

وقد حدثني بهذه القصة غير الشيخ أمين الدين أيضاً، وذلك من العجائب.

شعر في اللف والنشر

وقد اطلعنا في بعض المجاميع على هذين البيتين لبعضهم، مشتملين على اللف والنشر في تشبيه عشرة أشياء بعشرة أشياء وهي من البديع: [من البسيط]

فَرْقٌ وَشَعْرٌ جَبينٌ نَكْهَةٌ شَنَبٌ ... خَدٌ عِذارٌ وخالٌ مُقْلَةٌ ثَغْرُ

صُبْحٌ وَلَيْلٌ هِلالٌ عَنْبَرٌ ضَرَبٌ[225] ... وَرْدٌ وآسٌ وَمِسْكٌ نَرْجِسٌ دُرَرُ

وقد زدنا نحن فنظمنا على طريقة اللف والنشر كذلك في تشبيه اثني عشر باثني عشر حيث قلنا: [من البسيط]

وَجْهٌ وَلحْظٌ شَذًا خَد لَمَى خَجَل ... شَعْر فَمٌ معطفٌ ثَغْرُ حَلَى كَفَلُ

بَدْرٌ رَشَا عَنْبَر وَرْدٌ طِلاً ونَدَى ... دُجا عَقيق قَنَى دُرٌ ذُكَا جَبَلُ

اليوم الخامس والتسعون

7/ 4/ 1105هـ = 1/ 1/ 1694م

ثم أصبحنا يوم الأحد الخامس والتسعين وهو اليوم السابع من شهر ربيع الثاني.

وقد طال مكثنا في غزة، ونحن ننتظر مجيء ولدنا إسماعيل من دمشق الشام، وكان أرسل لنا مكتوباً إلى بيت المقدس ونحن هناك أن مراده يأتي إلى عندنا، فأرسلنا إليه أننا إذ ذاك في بيت المقدس، وأننا ننتظره في غزة. فجاء مع القافلة الخارجة من دمشق، وتوجه إلى بيت المقدس يظن أننا هناك بعد، فلم يجدنا وكنا أوصينا قاضي بيت المقدس أنه إذا جاء يرسله إلينا إلى غزة، ويرسل معه من يوصله إلينا. وهو إذ ذاك رجل، ولكن لا يعرف أحوال السفر، والمخالطة مع الناس.

فقلنا في ذلك النظام، على حسب ما اقتضاه ذلك المقام: [مجزوء الرمل]

غَــزَّةُ الفَيْحــاءُ دَارٌ ... ذاتُ إكــرام وَمَلْقَــى

أهْلُهــا أهْــلُ خلــوصٍ ... لا يَــرَوْنَ الــوُدَّ مَلْقــا

عِنْــدَنا مِــنْهُمْ حَيــاءٌ ... لكِــنِ المَقْــدُورُ مُلْقــى

---

(225) - الضرب: العسل الأبيض، وبالتحريك أشهر. القاموس (ضرب).

كَـــمْ بِهــــا نَمْكُـــثُ كَـــم نَـــا   كُـــــلّ جمَيّـــــزا ونَبْقـــــا

قبر الشيخ علي المرجمي

ثم قصدنا المسير إلى بستان هناك ع الجماعة. فبينما نحن نسير في الطريق تلك الساعة، إذ مررنا على قبر الشيخ علي المرجمي ـ بفتح الميم، بعدها راء ساكنة، ثم جيم مكسورة، فمين مهملة ـ وقبره تحت جميزة هناك، فقرأنا له الفاتحة.

نزهة في بستان

وسرنا حتى وصلنا إلى البستان، وجلسنا في أرغد عيش وصفاء، وأكمل مسرة ووفاء؛ إلى أن صلينا صلاة العصر، وحصل الثواب وكمال النصر.

الشيخ محمد البطل

وعدنا فزرنا في الطريق الشيخ محمد البطل في داخل مكان هناك وعليه عمارة تحيط به.

قبر الشيخ أبي الركاب

ثم مررنا على قبر الشيخ أبي الركاب، من أولياء الله تعالى في داخل مكان كذلك، وحوله عمارة، فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى حتى وصلنا إلى المنزل.

اليوم السادس والتسعون

8/ 4/ 1105هـ = 2/ 1/ 1694م

فبتنا حتى أصبح علينا صباح يوم الاثنين السادس والتسعين، وهو اليوم الثامن من شهر ربيع الثاني.

زوار

فجاء إلى عندنا حضرة السيد مصطفى أفندي نقيب الأشراف بالقدس الشريف، وجاءت أكابر البلاد وأعاينها، ومفتي الحنفية الشيخ صالح التُمُرتاشي، والشيخ علي البدري البصير، وكان يواظب مجلسنا في كل يوم مدة إقامتنا في غزة.

شرح بديعية النابلسي

فطلب منا الإجازة في تصنيف شرح على متن بديعيتنا التي ذكرنا فيها اسم النوع البديعي، وهي مئة وخمسون بيتاً من قافية الميم المخفوضة في مدح النبي ﷺ فإننا لم نشرحها، وإنما شرحنا البديعية الأولى التي لم نذكر فيها اسم النوع، وهي على منوال البديعية المذكورة، فاسمعناه إياها جميعها وأذنا له في الشرح.

شرح بيتي الرقمتين

وقد سألنا عن معنى هذين البيتين المشهورين، وهما قول القائل: [من الوافر]

رَأَتْ قَمَرَ السَّماءِ فَأَذْكَرَتْني ... لَيالِيَ وَصْلِنا بِالرَّقْمَتَيْنِ

كِلانا ناظِرٌ قَمَراً وَلكِن ... رَأَيْتُ بِعَيْنِها وَرَأَتْ بِعَيْني

فذكرنا له أن المحبوبة نظرت إلى قمر السماء، والمحب نظر إلى وجهها وكل منهما ناظر إلى قمر حقيقي في زعمه، والأمر بالعكس عند المحب فهو الذي ينظر إلى القمر الحقيقي، وهو وجهها، وهي التي تنظر إلى القمر المجازي، وهو قمر السماء، ولهذا قال لك رأيت بعينها، أي رأيت وجهها بعينها التي رأت بها قمر السماء، فإنها رأت بعينها قمر السماء قمراً حقيقياً على زعمها عنده.

وقوله: (رات بعيني) أي: إنما هي رأت قمر السماء بعيني التي رأيت وجهها بها، فإني رأيت بعيني وجهها قمراً مجازياً على زعمي عندها، وإنما أنا الذي رأيت وجهها قمراً حقيقياً وهي التي رأت قمر السماء قمراً مجازياً على معنى قول القائل: [من الطويل]

تَراءَى وَمِرْآةُ السَّماءِ صَقيلَةٌ ... فَأَثَّرَ فيها وَجْهُهُ صُورَةَ البَدْرِ

ومن هذا القبيل قول ناصح الدين الأرجاني: [من البسيط]

لِلْبَدْرِ بَدْرٌ وَأَطْرافُ القَنا شُهُبُ ... يَجْلُوهُ فيهن مِن صدغَيْه لَيْلانِ

تَقُولُ لِلْبَدْرِ فِي الظَّلْماءِ طَلْعَتُهُ ... بِأَيِّ وَجْهٍ إذا أَقْبَلْتَ تَلْقاني

وَجْهُ السَّماءِ كَمِرْآةٍ أُطالِعُها ... والبَدْرُ وَهْناً خَيالي فيه لاقاني

لَمْ أَنْسَهُ يَوْمَ أَبْكاني وَأَضْحَكَهُ ... وُقُوفُنا حَيْثُ أَرْعاهُ وَيَرْعاني

كُلٌّ رَأى نَفْسَهُ فِي عَيْنِ صاحِبِهِ ... فَالحُسْنُ أَضْحَكَهُ وَالحُزْنُ أَبْكاني

شرح بلاغي

وذكرنا له أيضاً ما كتبناه في شرح بديعتنا في نوع الاتساع وذلك قولنا: وهذا من المبالغة حيث ادعى أن القمر الحقيقي هو وجه محبوبته، وأن قمر السماء ليس قمراً حقيقياً، وإنما أطلق ذلك عليه مجازاً لمشابهته لوجهها. وقوله: (رأيت بعينها، ورأ- بعيني) يرشد إليه، لأنه رأى بعينها التي رأت بها القمر قمراً حقيقياً. ورأت هي بعينه التي رأى بها وجهها قمراً مجازياً. على زعمها وباعتبار الظاهر.

شرح الصلاح الصفدي

وقد ذكر هذا المعنى الصلاح الصفدي في كتابه رشف الزلال في وصف الهلال، وعبارته: وأحسن ما يمكن أن يقال في هذا إن معنى قمرين: قمر حقيقي، وهو قمر السماء، وقمر مجازي، وهو وجه المحبوبة فهو يقول: هي رأت القمر المجازي، وهو قمر السماء، وأنا رأيت وجهها، وهو القمر الحقيقي، لأنها هي نظرت إلى قمر السماء، وهو نظر إلى وجهها، فصح أنه رأى بعينها، وهي رأت بعينه، وهذه مبالغة وإفراط في الوصف، وهي عادة الشعراء أن يجعلوا المحبوب هو القمر الحقيقي والذي في السماء هو القمر المجازي. انتهى.

شرح ابن اللبان

وذكر الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن بن اللبان الشافعي الصوفي: معنى هذين البيتين في بعض تصانيفه، فقال: يشير هذا الشاعر إلى قمر السماء من عشاق محبوبته، وأن محبوبته رأته ذات ليلة، فكسته برؤيتها له نور جمالها، ومحاسن صفتها، وألقت عليها شبهها، وأعارته اسمها، فأذكرت هذا العاشق بتلك الليالي التي وصلته بالرقمتين، وأنها بوصالها له أفنته عن صفاته وغلبت عليه بصفاتها حتى صارت معه كالقمر الواحد وكلاهما ينظره ولهذا قال: (كلانا ناظر قمراً) أي قمراً واحداً تعدد مظهره ولكنها تنظره بعينه، وهي عين المحبة، لأن المحب صار محبوباً، وهو ينظر بعينها، لأنها أعارته عيناً رآها بها، فكان البصير لها نفسها انتهى

وهذا من قول ابن غانم المقدسي رضي الله عنه: [من المتقارب]

وَمَخْطوبــةُ الحُــسْنِ مَحْجوبَــةٌ	فَــلا يَــألفنّ الــسّوى إلفُهــا
إذا رامَ عاشِــقُها نَظْــرَةً	وَلَــمْ يَــسْتَطِعْ إذْ عَــلاَ وَصْــفُها
أعارَتْــهُ طَرْفــاً رَآهــا بــه	فكــانَ البــصيرَ لهــا طرفُهــا

شرح صوفي للبيتين

ثم ذكرنا له معنى إلهياً من هذا القبيل أعلى من هذا الذي ذكره ابن اللبان، وتقريره يحتاج إلى تحقيق مقدمات كثيرة بنى عليها طريق المحققين، وملخص ذلك: أن عارفاً من العارفين نظر إلى السماء في القمر، وهو مستغرق في مقام فناء الوجود وتجريد الشهود، فقال رأت أي الحقيقة الوجودية هي التي رأت قمر السماء، وأنا لم أر الآن بصري، فإني مضمحل في الوجود الحق والحقيقة الغيبية الرائية من مقام كنت بصره الذي يبصر به، ثم قال: فاذكرتني أي ألقت ذكري لها الذي في علمها علي. فتذكرت ليالي وصلها، أي الظلمات العدمية من أطواري الثبوتية قبل نسبة نور الوجود إلي بالرقمتين أي الحضرتين الراقمتين لي فيهما، وهما حضرة العلم الإلهي وحضرة الكلام الإلهي، يعني تذكرت قيامي بعلمها، وقيامي بكلامها، وأنا إذ ذاك لا عين لي أصلاً غير إحاطة العلم القديم بعالم إمكاني وحقيقة ثبوتي بلا وجود، وإحاطة الكلام القديم أيضاً بي في توجهه على إظهاري، ثم قال: كلانا أنا وهي معاً معدوم الكون في وجود العين ناظر واحد قمراً واحداً في السماء، ثم فصل ذلك بقوله: ولكن رأيت أنا قمر السماء بعينها التي رأت هي بها، ورأت هي أيضاً قمر السماء بعيني التي رأيت أنا بها، فالعين الحادثة المخلوقة قائمة بالعين القديمة الخالقة والتنزيه لازم على كل حال، ولا يخرج عنه إلا من لم يعرف طريقة الرجال فإذا رأت العين الحادثة، كانت رؤيتها حاصلة بالعين القديمة؛ كقوله تعالى ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[226]، وإذا رأت العين القديمة، كانت رؤيتها حاصلة بالعين الحادثة، على حد قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[227] فالأولى باء الاستعانة أو السببية، والباء الثانية باء الملامسة والمصاحبة، والعارف يقول ذلك في كل ما يرى من كل شيء مع تحقيقه في العرفان، واتقانه مقام الإحسان.

اليوم السابع والتسعون

9/ 4/ 1105هـ = 3/ 1/ 1694

ثم أصبحنا في يوم الثلاثاء السابع والتسعين، وهو اليوم التاسع من شهر ربيع الثاني.

---

(226) - سورة البقرة 2/ 251

(227) - سورة التوبة 9/ 14.

انتظار ولده إسماعيل

ونحن في انتظار ولدنا إسماعيل، وقد جاء القفل[228] والرفقة من أصحابنا الشاميين إلى غزة، ومكثوا ثلاثة أيام، وأخبرونا أن ولدنا جاء معهم من دمشق الشام، ولكنه ذهب إلى بيت المقدس، يظن أننا هناك، وذهبت القافلة والرفقة إلى جهة مصر، ولم يأت هو من بيت المقدس، فمكثنا نحن في غزة ننتظره وقلنا في ذلك، بحسب ما هنالك: [من السريع]

في غَــــزَّةِ الفَيْحَـــاءِ قـــالوا لنــا	يَـــأتي لَــكَ الإبْــنُ فَنَادَيْــتُ أيْــنْ
إلى مَتَـــى نَبْقَـــى هُنـــا هَكَـــذا	نَـــسْتَعملُ اللَّفْظَـــةَ بـــالمعنيينْ

وأردنا لفظة (نبقى) فإنها فعل مضارع من البقاء، وهو الاستمرار، واسم أيضاً لنوع من الثمر يقال له النبق صغير حلو كنا نأكله في غزة مدة إقامتنا فيها، وقلنا كذلك في مثل ذلك: [من السريع]

طـــالَ انْتظـــاري في حِمَـــى غَـــزَّةٍ	قَـصْدَ مَجِـيءِ ابـني وَرَبِّـي مُعِـينْ
فَقُلْـــتُ حَتَّـــى النَّبْـــقُ مُـــستخدماً	إلى مَتَـــى نَبْقَـــى لَـــهُ آكلـــينْ

جنينة الدرويش أحمد بن عميرة

ثم بعد صلاة الظهر ذهبنا إلى جنينية الدرويش أحمد بن عميرة المتقدم ذكره، وهي في داخل زاوية شيخه الشيخ شعبان أبي القرون.

وصول ابنه اسماعيل

وجلسنا هناك مع الإخوان، نتذاكر أطراف المسائل العلمية في أكمل سرور وامتنان؛ إلى أن صلينا صلاة العصر هناك وهممنا بالذهاب، وإذا بولدنا إسماعيل قد قدم علينا، وحسن منه إلينا الإياب؛ وكان معه جوخدار[229] حضرة قاضي القدس الشريف فنعمنا بقدومه وزال ما كنا فيه من الانتظار والتسويف، وجاءنا بالمكاتيب من جهة دمشق الشام، ووردت علينا أخبار الأهل والأولاد على الوجه التام؛ بأنواع التحية والسلام، ثم بتنا تلك

---

[228] - قفل كنصر وضرب . قفولا: رجع فهو قافل ج: قُفال، والقَفَلُ محركة . اسم الجمع (القاموس: قفل).

[229] - الجوخدار لفظة تركية، أصلها: جوقه دار والمعنى الأصلي: فتى من فتيان القصر السلطاني، ثم أصبحت تطلق على رسول السلطان او الوالي وانظر حوادث دمشق اليومية 6.

الليلة في أتم سرور، وأكمل صفاء وحبور؛ وقد عمل لنا هذه الأبيات. صديقنا الشيخ علي النخال السابق ذكره تهنئة لنا بقدوم ولدنا إسماعيل معرضاً بذكر الشرف الأعلى المذكور حيث قال: [من الطويل]

إلى الشَّرَفِ الأعْلَى مقامٌ بفَوْزَةٍ ... برُتْبَتِهِ يَسْمو عَلَى كُلِّ رُتْبَةِ

لكَوْنِ إمامِ العَصْرِ حلَّ بهِ وقَدْ ... تَشَرَّفَ هذا القطرُ منه بزَوْرَةِ

وأَعْني به عَبْدَ الغَنِّي الذي سَمَا ... وَشاعَتْ مَزاياهُ بكلِّ قَبيلةِ

عُلومٌ لهُ تبدو بفَيْضٍ إلى الورى ... ولا غَرْوَ فهو الغوثُ مُحْيِي الطَّريقةِ

ذا ما سَألْنا عن دَقيقِ جَنابِهِ ... نَراهُ كَبَحْرٍ في المَعاني الدَّقيقةِ

فَفي كُلِّ عِلْمٍ لا نَظيرَ لفَضْلِه ... وَقَدْ حازَ أَنْواعَ العُلومِ الجَليلةِ

فيا واحِداً في الدَّهْرِ لا زلتَ مَلْجأً ... إلى عَبْدِكَ النَّخالِ نَجْلِ الأئمةِ

عليٌّ يُسَمَّى قدْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ ... بحبِّكَ يا مَوْلايَ من غيرِ رَيْبَةِ

وَيَهْنيكَ بالنَّجلِ السَّعيدِ فإنَّهُ ... سَعيدٌ بعَونِ اللهِ ربِّ البَرِيَّةِ

فلا زِلْتُما في صِحَّةٍ وسَلامَةٍ ... وعِزٍّ وإقْبالٍ وأكْمَلَ نعمةِ

بجاهِ رسولِ اللهِ أحْمَدَ مَنْ رَقى ... إلى قابِ قَوْسِ القُرْبِ عَيْنِ الحَقيقةِ

اليوم الثامن والتسعون

10/ 4/ 1105هـ = 4/ 1/ 1694م

حتى أصبح صباح يوم الأربعاء الثامن والتسعين، وهو اليوم العاشر من شهر ربيع الثاني، فأتى إلى عندنا أكابر تلك البلدة وأفاضلها، وتذاكرنا معهم حصة في أطراف المسائل العلمية وأصاب مناصلها. ثم بعد صلاة الظهر ذهبنا إلى بستان هناك بقرب البلدة لطيف وذهب ولدنا إسماعيل معنا، وحصل لنا وللجماعة كمال السرور الخارج عن التوصيف. فتأملنا المكاتيب التي جاءتنا من الشام.

مكتوب تلميذه الشيخ سعودي

وكان منها مكتوب تلميذنا الشيخ سعودي، وصورته بعد إهداء السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على الحبيب والخليل والكليم: [من الطويل]

تَبارَكَ نورٌ من سَنا وَجْهِكَ البادي شَهِدْناهُ يُجلَى في مُقيمٍ وفي بادي

وَحَيّا مُحَيّا لاحَ منكَ بطيبةٍ فَأشْرَقَتِ الأنْوارُ في ذلك الوادي

وَجَلَّ فَتًى يَجْلو عَروسَ وُجودِهِ بوادي مِنًى منه وَمَوْسمِ أعيادِ

هُوَ الفَرْدُ قَدْ وافى سُلَيْمى مَيمّماً حِماها بلا قُوتٍ سِواها ولا زادِ

الا إنَّهُ عَبْدُ الغَنيِّ وَقَدْ غدا غَنيّاً بمَوْلى واهبِ الفَيْضِ جَوّادِ

عَلَيْهِ سَلامي ما سَرَتْ نَفْحَةُ الصّبا وَما لاحَ بَرْقٌ مِن معالِمِ أجْيادِ

وَأصْحابِه والمُنْتَمينَ لَهُ فهم نُجومُ الهُدَى ما بَيْنَ غرٍّ وأمجادِ

حمداً لمن تجلّى بصفاته السنية، في حضرته القدسية؛ وتحلى بالهياكل الإنسانية، في المشاهد الإحسانية، وانجلى لأهل الكمال، بنعوت الجلال والجمال؛ فكان ظلمة ونوراً، ومد الظلال وأمد في الضلال، وعين الفرقة في عين الوصال، فلم يزل في ظهوره مستوراً، وفي ستره مبصوراً، وتبارك الذي نزل الفرقان، وجلا جماله المحمدي على الأكوان، في غره جهة عين الأعيان؛ وخلاصة أهل الشهود والعيان. عرش الاستواء للتجلّي النفسي، ومحل الاعتناء من آيات الكرسي سيدي وأستاذي، وعمدتي وملاذي، الشيخ عبد الغني النابلسي، ضاعف الله تعالى أنواره ومدده، وقدس أسراره وأبد مدده. ورقى في معارج السعادة، نجله السعيد وأدام له السيادة، من توج في ديوان الولاية بالدر والإكليل، سيدي الشيخ إسماعيل، حفظه الله تعالى بعينه التي لا تنام، في اليقظة والمنام، بجاه سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام. والسلام.

ثم عدنا إلى المنزل. وبتنا في هناء قائم، وابتهاج يوقظ النائم، ويحرك من القلوب على أغصان الأوقات شوق الحمائم.

اليوم التاسع والتسعون

11/ 4/ 1105هـ = 5/ 1/ 1694م

حتى أصبح صباح يوم الخميس التاسع والتسعين، وهو اليوم الحادي عشر من شهر ربيع الثاني فعزمنا على الترحال، وشددنا على متون الدواب أدوات السروج والرحال.

الرحيل عن غزة والوداع

وسرنا على بركة الله تعالى جهة مصر المحروسة وودعنا الرجال، وأزمعنا على مفارقة أرض الشام، والمباينة لهاتيك الأقطار المباركة بسلام، فخرج لوداعنا نائب البلدة، حضرة أحمد أفندي، والشيخ علي النخال، والشيخ محيي الدين، وغيرهم من الأعيان.

وخرجت أتباعهم وخدامهم، وبقية الأحباب والإخوان، وخرج حاكم البلاد، ومعه نحو الخمسين خيالاً من الأعوان والأجناد.

وخرج جناب صديقنا السيد مصطفى أفندي نقيب أشراف بيت المقدس، إلى أن قطعنا معهم حصة وافية من الطريق، ثم وقفنا ووقفوا، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

وذهب كل منا مع جماعته، وبقي معنا صديقنا الشيخ محيي الدين، فصحبنا إلى خان يونس، ومن هناك فارقناه بالخير.

قرية الدير

وقد مررنا معه في أثناء ذلك السير على قرية هناك معروفة تسمى بالدير، وكان أهلها كلهم نصارى في الزمان الماضي، فأسلموا كلهم إلا امرأة واحدة منهم والله عنها براضي.

مقام الخضر

وعندهم هناك مقام الخضر، فقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى.

وههنا تم منا الكلام، على القسم الأول الذي هو في الجَوَلانِ في بلاد الشام؛ وكان القياس أننا نكمل ذلك بذكر خان يونس إلى بلاد العريش، لأن ذلك حد بلاد الشام كما هو المشهور بين أهل الدراية والتفتيش؛ ولكن لما وجدنا خان يونس هو أول حكم بلاد مصر وفيه الآن جنود الغزّ والعسكر المصري وجعلنا ذلك أول البلاد المصرية وابتدأنا القسم الثاني من ذلك المكان، لأنه ابتداء حكم بلاد مصر في هذا الآن، ويقال لعسكر مصر (الغُز) ـ بضم الغين المعجمة، وتشديد الزاي ـ كما ذكر الشيخ الإمام عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي رحمه الله تعالى في مقدمة تاريخه أن الغز من أمم الترك. وقال قبل ذلك[230] إنهم الخزر، وهم التركمان، قال: ويقال لهم الخزر كأنه عرب وصارت خاؤه غيناً،

---

[230] - تاريخ ابن خلدون 1/ 129.

وشددت الزاي. انتهى. وبالله المستعان. وعليه التكلان وهو حسبي ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير.

في الإقبال على البقاع المصرية
والتيمن بهاتيك الأماكن الحسنة الإحسانية

خان يونس

ثم لم نزل سائرين مع رفقتنا من جماعتنا، لا مع أحد غيرهم من المسافرين، إلى أن وصلنا إلى أول منزلٍ من حكم منازل السفر إلى مصر المحروسة؛ دار الكمالات والربوع المأنوسة، وهي القلعة الصغيرة المسماة بخان يونس.

وقد نبهُ السيد محمد كبريت في رحلته على ذلك، وهو به من غربة السفر يؤنس، حيث قال، من نظمه العذب الزلال: [من الرجز]

مــن غَــزَّةٍ سِــرْنا لخــانِ يــونسِ	وهـــو بـــوادٍ للنزيـــلِ مُـــونسِ
ولـــيس فيـــه يـــا أخَـــيَّ خـــانُ	بــل قلعـــةٌ يزهـــو بهـــا البنيـــانُ
وإنَّـــه مـــن مُلْحقـــاتِ مـــصرِ	فيمـــا حكـــاهُ أهـــلُ هـــذا العـــصرِ

وفي داخل خان يونس المذكور جامعٌ لطيف، يصعد إليه بدرج من الحجارة، وفيه محرابٌ ومنبرٌ معمور، وقد وجدنا مكتوباً على ذلك المنبر هذين البتين، فتفاءلنا واستبشرنا في إقبالنا على مصر، والله أكبر: [من الوافر]

جميـعُ الأرضِ فيهـا طيـبُ عـيشٍ	وَجَنّـــاتٌ ورَوْضَـــاتٌ أنيقَـــهْ
ولكـــنَّ كلَّهـــا في غـــيرِ مـــصرٍ	مَجـــازيٌ وفي مـــصرٍ حَقيقَـــهْ

ورأينا هناك أيضاً في الحائط مكتوباً من النظام هذين البيتين في مدح الإمام الشافعي المدفون في مصر عليه رحمة الملك العلام. فتفاءلنا بزيارته، واستبشرنا بها، وبحصول السلامة في هذا السفر التام [من الكامل]

إنَّ المـــذاهبَ خيرهـــا وأصَـــحّهَا	مـــا قالـــه الحـــبرُ الإمـــامُ الـشافعي
فـــاخترتُ مذهَبَـــهُ وقلـــتُ بقولـــه	وجعلتـــهُ يـــومَ القيامـــةِ شـــافعي

ورأينا هناك أيضاً مكتوباً في الحائط من المقال، قول من قال [من الطويل]

أتَيْنـــا لقـــبرِ الـــشافعيِّ نـــزورُهُ	نظرنـــا إلى فُلـــكٍ ومـــن تحتـــها بَحْـــرُ

فقُلنـا: تعـالى اللّـهُ هـذي إشـارةً ... تَـدلُّ بـأنَّ البحـر قـد ضَـمَّه القَبْـرُ

وذلك لأنه فوق قبة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، التي على قبره في مصر في تربة القرافة، سفينة من الخشب، يضعون فيه الحنطة، لتأكله الطيور، كما سنذكره في محله إن شاء الله تعالى ورأينا مكتوباً في الحائط أيضاً قول القائل، وإن لم يكن تحته طائل: [من الوافر]

أتَيْنـا خـان يـونسَ في وفـاء ... وقـد بِتْنـا بـه في وسـطِ جـامعْ

كـريمٌ في هـواهُ وفيـه أنـسٌ ... وأحسنُ مـا بـه الأحبـابَ جـامعْ

وقد تذكرنا مواليا لنا سابقاً فيه أربع معانٍ من لفظ واحد:

وليلـةٍ قـد مـضتْ بـالأنس في جـامع ... درويش باشـا الـذي كل البهـا جـامع

ياجامد الفكر فرط اللطف قد جامع ... ويـا خيـال انجلـت بكـر المنـى جـامع

وجامع[231] درويش باشا هو عندنا في دمشق الشام، وقد بتنا فيه ليلة مع بعض إخواننا من السادة الكرام، ولنا في خان يونس من النظام قولنا [من الكامل]

جِئْنـا إلى الخـانِ المـضاف ليـونسِ ... والوقـتُ يُـؤْنِسُ فيـه مَـنْ لَـمْ يُـؤْنَسِ

مـن غـزةِ الفيحـا إليـه مَـسيرُنا ... في رِفْقَـةٍ مـن كـلِّ شَـهْمٍ مُـؤنسِ

حَتّى اطمـأنَّ بنـا المقـامُ على الحمـى ... وزهـت بـه منـا كُـرامُ الأنْفـسِ

للّـهِ لَيْلَتُنـا بـأعْلى جـامعٍ ... فيـه وأحْـسَن دهرنـا ذاك المـسي

وتتأبَعـتْ مـن ربِّنـا ألطافُـهُ ... ولقـد نَعمنـا بالمقـامِ الأقْـدَسِ

فـسقَى الإلـهُ هنـاك سـاحَة منـزلٍ ... غرسـتْ بـه العليـاءُ أطيـبَ مغـرسِ

قـومٌ كـرامٌ في الأنـامِ أعـزَّةٌ ... لَبِسُوا مـن الجَدْوَى ثيـابَ الـسُّنْدسِ

لا زالـت البركـاتُ في أرضٍ بهـا ... هـم نـازلونَ لـدى الجـوارِ الأقْعَـسِ

واللّهُ يُـنْعمُ بالـسرورِ وبالهَنـا ... في ظـلِّ حـصنٍ للكمـالِ مؤسـسِ

طـولَ المـدى مـا هبَّتِ النـسماتُ في ... سَـحَرٍ لنـا مـن نحـو بيـت المقـدسِ

---

[231] - جامع الدرويشية بناه درويش باشا بالمحلة المنسوبة إليه، وتم بناؤه سنة 982هـ ورتب له مدرسين احدهما حنفي والأخر شافعي، ودرس به من الشافعية إسماعيل النابلسي ثم الحسن البوريني ثم عبد الغني بن إسماعيل النابلسي ثم ولده إسماعيل ولا يزال باقياً إلى اليوم ويسمى بالدرويشية انظر مختصر تنبيه الطالب 243، ومنادمة الأطلال 376

ثم بعد صلاة العشاء الآخره، ودعنا حضرة الشيخ محيي الدين ذي الكمالات الفاخرة؛ وركبنا وسرنا على بركة الله تعالى مع جماعة من ذلك الخان، منهم رجل من عرب البوادي اسمه (حسب الله)، يدلنا على الطريق فنسير بسيره مع الأخوان.

رحلات مصطفى البكري الصديقي الخمس إلى فلسطين
1710 -1736م

يعد الرحالة والمتصوف مصطفى البكري الصديقي، واحداً من ألمع الشخصيات الصوفية في القرن الثاني عشر الهجري، والثامن عشر الميلادي، فهو الذي بعث الحياة في الطريقة الصوفية الخلوتية، وأمدها بنسغ جديد جعلها، عبر رحلاته العديدة التي كان يقوم بها في أرجاء الشام والعراق والروم، واحدة من أكثر الطرق الصوفية انتشاراً في ذلك الوقت.

وقد قام البكري الصديقي بنحو خمس رحلات إلى القدس، وأقام فيها جانباً مهماً من حياته العلمية، وكان يزور في كل عام تقريباً مقام ابن عليل قرب يافا، بالإضافة إلى باقي الأضرحة العائدة للأنبياء والأولياء الذين تعج بهم أرض فلسطين. وقد ترجم له المرادي في سلك الدرر ترجمة واسعة اعتمد فيها على ما كتبه هو عن نفسه في رحلاته.

ولد مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن محيي الدين بن عبد القادر الصديقي الحنفي الدمشقي البكري، في مدينة دمشق عام 1099هـ[1688م] قبل وفاة والده الشيخ كمال الدين بستة أشهر، فنشأ يتيماً في حجر ابن عمه المولى أحمد بن كمال الدين، وبقي عنده في داره الكائنة قرب البيمارستان النوري. والبكري الصديقي نسبة إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وعمل منذ صغره في طلب العلم، فقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن محي الدين السليمي، والشيخ محمد بن أبي المواهب الحنبلي، كان يطالع له الدروس الشيخ محمد بن إبراهيم الدكدكجي، كما قرأ أيضاً على الملا إلياس بن إبراهيم الكوراني، والملا عبد الرحمن بن محمد الكابلي، والشيخ محمد البديري، والشيخ عبد الغني النابلسي، والشيخ مصطفى بن عمر، والشيخ أحمد بن عبد الكريم الغزي العامري.

وأخذ الطريق الخلوتية عن الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي الخلوتي الذي لقنه الأسماء، وعرفه حقيقة الفرق بين الاسم والمسمى، فأقام بحجرة في إيوان

المدرسة الباذرائية لمدة عام بهدف الاعتزال والخلوة والأشتغال بالأذكار والأوراد، ثم أذن له شيخه بالمبايعة والتخليف إذناً عاماً. وبعد الوفاة الشيخ توجه تلامذته إلى الصديقي واجتمعوا عليه وجددوا له أخذ البيعة، فكان ذلك بداية شهرته كشيخ طريقة صوفية.

وعلى الرغم من انتمائه للطريقة الخلوتية، فإن ذلك لم يمنعه من الأخذ من الطرق الصوفية الأخرى، أخذ من الطريقة القادرية عن الشيخ ياسين القادري الكيلاني شيخ القادرية بحماة، وأخذ من الطريقة النقشبندية عن القطب العارف السيد مراد الأزبكي البخاري النقشبندي بعد أن لقنه الذكر على منهج النقشبندية. وكانت أول رحلة قام بها في حياته إلى بيت المقدس عام 1122 هـ[1710م] حيث مكث ثمانية أشهر من محرم [كانون ثاني] إلى شعبان [آب] قام خلالها بتدوين ورد السحر المسمى بالفتح القدسي والكشف الأنسي، الذي يقرأ آخر الليل لكل مريد من تلاميذ طريقته، وقد اتهمه خصومه بأن ذلك بدعة في الطريقة، ودافع عنه الشيخ حسن قره باش في أدرنه بعد أن عرض عليه المسألة

وفي شعبان [آب] من العام نفسه، عاد الصديقي إلى دمشق، فانتشرت طريقته وخفقت في الإقليم الشامي ألويته، وهو بين ذلك مشتغل بالتأليف والزيارات نازلاً في المدرسة الباذرائية.

وفي عام 1126هـ[1714م] قام بزيارة القدس مرة ثانية، فأقام فيها بضعة أيام بخلوة في المسجد الأقصى، ثم عاد إلى دمشق، ومنها توجه إلى حلب ثم إلى بغداد، وبقي فيها لمدة شهرين قام خلالهما بزيارة الشيخ عبد القادر الكيلاني، بعد ذلك عاد إلى دمشق، ثم قام مرة ثانية بزيارة القدس، وعمّر بها الخلوة التحتانية.

وفي عام 1129 هـ[1717م] حج مع عمه محمد البكري، وبعد عودته إلى دمشق قام في العام نفسه بزيارة القدس مرة ثالثة، فتزوج فيها، ومن هناك صحب الوزير جميل بيك إلى القاهرة. وفي بداية عام 1135هـ[1722م] ذهب إلى إستانبول عن طريق طرابلس وحماة وحلب. ولم يعد إلى القدس إلا في العام 1139هـ[1726م]. وفي العام 1145هـ[1732م] حج مرة ثانية، ثم عاد إلى دمشق، وقام بزيارة القدس للمرة الرابعة، وفي العام 1149هـ[1736م] قام بالحج مرة ثالثة، ثم عاد إلى دمشق ومنها توجه لزيارة القدس مرة خامسة، وذلك في العام 1152 هـ[1740م].

يتضح من خلال تجواله ومن خلال ترحاله بين مختلف بلدان العالم الإسلامي، أن القدس كانت المحطة الرئيسة له، وكان لذلك الأثر الأكبر في حياته وثقافته، مما دفع

الجبرتي للقول إن الصديقي على الرغم من نشأته في مدينة دمشق، نشأ ببيت المقدس على أكرم الأخلاق وأكملها.

ذكر المرادي أن عدد مؤلفات الصديقي بلغت مائتين واثنين وعشرين مؤلفاً ما بين مجلد وكراستين وأقل وأكثر، وجميعها لها أسماء تخصها مذكورة في أوائلها، كما له نظم كثير وقصائد خارجة عن الدواوين تقارب اثني عشر ألف بيت.

تناولت مؤلفاته موضوعات شتى، فمنها ما كانت صوفية مثل ألفية في التصوف وهدية الأحباب في ما للخلوة من الشروط والآداب. ومنها المقامات التي وصفها المرادي بأنها كانت في أعلى مقام البلاغة وأتم نظام الفصاحة. ومنها: الشروحات على رسائل بعض الأشخاص، ومنها أيضاً تراجم لبعض شيوخه ومن تأثر بهم مثل الكوكب الثاقب في ما لشيخنا من المناقب و الثغر الباسم في ترجمة الشيخ قاسم ومنها الأوراد مثل التوجه الوافي والمنهل الصافي و أوراد الأيام السبعة ولياليها.

وأما رحلاته، فقد ذكر المرادي منها اثنتي عشرة رحلة، كان الهدف الرئيس منها دينياً تمثل بنشر طريقته الخلوتية وجمع المريدين حوله، وهذه الرحلات هي: (تفريق الهموم وتغريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم)، (الخمرة المحسية في الرحلة القدسية)، (الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية)، (الحلة الفانية رسوم الهموم والغموم في الرحلة الثانية إلى بلاد الروم)، (الخطرات الثانية الأنسية في الرحلة القدسية)، (كشط الصدى وغسل الران في زيارة العراق وما لها من البلدان)، (الفيض الجليل في أراضي الخليل)، (النحلة النصرية في الرحلة المصرية)، (برء الأسقام في زمزم والمقام)، (أردان الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان)، (لمع برق المقامات العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال).

في أربعينيات القرن العشرين قام العلامة المقدسي أحمد سامح الخالدي بتلخيص رحلات الشيخ البكري الصديقي ودراستها، ونشر اثنتين منها في كتابه رحلات في ديار الشام الصادر في القدس عام 1946م، وهما (الخمرة المحسية) (والخطرات الثانية الأنسية)كما نشر ثلاث رحلات أخرى له في مجلة الرسالة القاهرية عام 1948م. وقد اعتمدنا تلخيص الخالدي لرحلات الصديقي، نظراً لعدم توفر نصوص هذه الرحلات بين أيدينا، باستثناء (الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية)، إضافة إلى غزارة إنتاج هذا الشيخ ولتكرار الكثير من المواضع التي يزورها والمواضيع التي يطرحها، ولأن الأستاذ الخالدي قام بتشذيب النصوص وتخليصها قدر الإمكان من ركاكتها وسجعها الممجوج.

كلمة موجزة

من محاسن الصدق أن يتميز النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري (السابع عشر) بأربع رحلات قام بالأولى منها الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي في سنة 1101 هـ - 1689م. وبالثانية الشيخ مصطفى البكري الصديقي الدمشقي في 1122 هـ - 1710م و1126 هـ - 1714م وبالرابعة الشيخ مصطفى أسعد الدمياطي سنة 1143 هـ و1730 م.

ولا ينتظر القارئ أن يقرأ رحلات كرحلة المقدسي أو ابن جبير أو ابن بطوطة لأن رحلاتنا هذه انحصر مجالها في شبه جزيرة سيناء وفلسطين ودمشق وقسم من جبل لبنان وقبرص وهي تلقي ضوءاً على حالة البلاد والأمن في هذا القرن الغامض وعلى بعض رجاله ومشاهده ومؤسساته.

(..)

وكانت فلسطين في القرن الثاني عشر الهجري تحت الحكم العثماني وكان الأتراك العثمانيون بعدما فتحوا سوريا في معركة مرج دابق شمالي حلب (922 هـ - 1517م) فقضوا على دولة المماليك الشراكسة، وقتل فيها قانصوه الغوري آخر ملوكهم، قسموا ديار الشام إلى ولايات وجعلوا على رأس كل ولاية والياً أو كافلاً من قبلهم، منها ولاية حلب، ودمشق وطرابلس الشام، ثم صيدا وغزة. وكانت القدس تتبع غزة أحياناً ودمشق أحياناً أخرى، أما البلاد فكانت تحكم بالفعل حكماً إقطاعياً، كحكم المعنيين والشهابيين في لبنان ومنطقة صفد، وآل طرباي الحارثيين في منطقة اللجون بما فيها جنين، الخ. الخ.

أما المدن فكان أكثرها مسوراً وكان في كل منها حاكم أو والٍ يعينه والي الشام أو حاكم غزة وكان بين أعيان المدن وشيوخ البر روابط تقوم في الأكثر على أساس الحزبين الأساسيين في البلاد وهما الحزب القيسي والحزب اليمني. وشعار الأول اللون الأحمر والثاني اللون الأبيض.

والمتتبع لجميع هذه الرحل، يرى أن الأمن لم يكن مستتباً خارج المدن الكبرى، وكان شيوخنا النابلسي، والبكري، والدمياطي، يتغلبون على رعبهم بقراءة الأوراد، ومع هذا فقد

كان السفر بين دمشق وبيت المقدس منتظماً، فيسافرون جماعات في قوافل أو ركب يرافقهم غفر، بل كان البريد ينقل مع هذه القوافل حتى أن الشيخ عبد الغني استلم في رجوعه إلى دمشق وهو في نابلس ثلاث رسائل.

على أن الحكام كانوا يضربون بيد من حديد على قطاع الطرق بل كان الركب يصطدم أحياناً بقطاع الطرق كما حدث مع الشيخ البكري فيتغلب عليه. أو كان المسافرون إذا علموا بكمين غيّروا الطريق أو قد ينحرفون عن الجادة العامة تحاشياً لدفع «المكس» أو «الخاوة» أو «الخفر» أو يأخذون مرسوماً من شيوخ الإقطاع للانتقال من منطقة إلى أخرى.

ومع أن الحكم كان إقطاعياً وكان الأمراء ينصرفون بالأكثر إلى منافسات، وكان حكم الدولة اسمياً، إلا أن البلاد كانت عامرة في نواح كثيرة بالرغم مما انتابها من ويلات الحروب المتتالية. فقد كانت نابلس وجبالها تشتهر بزيتونها وأترجها وخروبها والخليل بكرومها وعنبها وبيت لحم بسبحها ويافا ببساتينها اليانعة والرملة بأشجارها الباسقة الخ. وكانت الحركة العلمية متمركزة في المسجد الأقصى ببيت المقدس وما بقي حواليه عامراً من المدارس والمعاهد سواء ما انشئ في عهد المماليك كالمدرسة السلطانية والنحوية والزاوية الأدهمية والمدرسة القرقشندية والمدرسة القادرية أو ما أنشئ في عهد الدولة العثمانية كالواوية المولوية. وكانت تكية خاصكي سلطان مركزاً لتوزيع الطعام على الفقراء كما لا تزال حتى الآن.

ويا حبذا لو أن النابلسي والبكري والدمياطي وصفوا لنا البلاد وصفاً موضوعياً أكثر مما فعلوا ولكن هؤلاء الثلاثة هم من شيوخ التصوف ومن البديهي أن يقصدوا من سياحتهم الزيارة والتبرك، وإذن فقد انصرف همهم الأول إلى زيارات الأماكن المقدسة وقبور الأنبياء والصحابة والتابعين والأقطاب، حتى أنهم تجنبوا بالفعل الاتصال بالناس والتحكك بهم إلا رجال الطرق وما أشبه. فكانوا يقضون أكثر أوقاتهم في التعبد وقراءة الأوراد والاجتماع بالأقطاب والمتصوفين فقد كان هؤلاء هم قطب الرحى في ذلك القرن وما بعده.

احمد سامح الخالدي

القدس 1946م

رحلة البكري الصديقي الأولى إلى القدس [آذار 1710م]

(الخمرة المحسية في الرحلة القدسية)

يقول السيد مصطفى الصديقي الدمشقي[232] ثم المقدسي: «إنه طالما كانت تتوجه به الهمة وتقلقه الأشواق بعزمة أثر عزمة إلى زيارة بيت المقدس» فكان ذلك يوم الخميس في اليوم التاسع عشر من محرم الحرام من عام اثنين وعشرين وألف. فسمى رحلته «الخمرة المحسية في الرحلة القدسية». فتوجه ذلك اليوم مع ركب الزوار ومنهم خاله، وكان ذلك في زمان الربيع والنسيم لطيف عرفه مذيع، فساروا إلى قرية داريا . وبعد أن قرأوا الفاتحة لأبي سليمان الداراني وأبي مسلم الخولاني توجهوا إلى أن وصلوا خان الشيح، فنزلوا على شاطئ نهر الأعوج. ثم ركبوا الخيول إلى أن وصلوا قرية سعسع وتوجهوا إلى «النقار» ومازالوا يسيرون حتى وصلوا إلى القنيطرة. (بل سموها وهي به أحق لبردها بالزنيطرة) فنزلوا في خانها المعهود يقاسون من شدة بردها المشهود. ويصف الشيخ ليلته فيقول (وكنت قد مددت فيها وطاء للمنام فغبت حصة وجئت فوجدته كالمسقي بماء الغمام).

فسأل حاله فأجابه إنه من الندى. وبعد ذلك اعتلوا ظهور الدواب وساروا فنزلوا بمرج أخضر ذا عطر فائح ونوار أزهر إلى أن أشرفوا على (أبي الندى) في رأس ذلك الجبل، وقد (شاب منه الرأس لما بالثلج إنجبل). ثم ولجوا الغابة ذات الثغور المهابة واجتمعوا فيها بحاكم القنيطرة ومعه نحو العشرين من الخيالة بأيديهم الرماح الردينية الماهرة في علم السياسة والسيطرة، فرجع القفل مبدأ فأمرهم باجتماع خوفاً عليهم من غائلة البغاة القطاع. فسرنا إلى أن أشرفنا جسر بنات يعقوب ولم نزل نهبط في ذلك الجسر هبطاً في انحداراته الوعرة الصعبة خبطاً إلى أن وصلنا الخان. وقد قرب وقت

---

[232] - عمر في القدس الخلوة التحتانية تقام بها الأذكار والأوراد ولها تعيين من خبز وأكل على تكية السلطان (المرادي ج 4. ص 192).

العصر وحان. ثم خرج إلى أفناء ذلك الجسر البديع والرخص الأريض الذي لشذاه يذيع، وشرب ذلك الماء الدافق وشم عطر النسيم الذي في جنباته خافق. وصعد بعد ذلك إلى الخان وبات وهو يحيط المكان والسكان من طوارق الإنس والجان، ثم مر على ذلك الخان وقطع الجسر فوق النهر الجاري.

وسار مع الفجر يطلق الطرف في ذلك الربيع الفائح، والزهر الذي بشذاه المسكي بائح، يسبح تارة ويذكر الله أخرى، ويختم كل يوم دلائل الخيرات وغير ذلك من الأوراد، إلى أن لاح له جب صاحب الجمال الباهر السيد يوسف الصديق. وكان الجو قد أطبق بالسحاب، وفتحت للأمطار من كل جانب الأبواب، وما أدرك خان ذلك الجب اللطيف، إلا وقد عمته رحمة اللطيف. ثم صعد إلى سطح ذلك الخان، وأخذ في قراءة السور وبات في أطيب عيش إلى أن لاح الفجر، ورأى على البعد قبة يقال أن فيها رجلاً يسمى عبد الله من أهل المكانة والقربة. وفي طرف الجب على البعد بركة ماء واسعة الجوانب تنتفع بها المارة، من الأقارب والأجانب. ثم سار يقطع المفاوز والوهاد، إلى أن أشرف على المنية في أول النهار.

ومر على حافة تلك البركة فرأى حجر النملة «وهو حجر أسود قد نخره النمل يتعجب منه في الجملة. يطلع ويدخل في أوكاره».

وما زال وصحبه يقطع الفيافي إلى أن وصل عيون التجار وكان قد نعق في الخان يوم الخراب وقارب أن يساوي التراب وبداخله جامع لطيف متسع الأكناف لم يدخله في حالة الذهاب ولكن تيسر له الوقوف عليه في الإياب. وهذا الجامع والخان عمارة المرحوم سنان باشا الوزير[233]. وبات تلك الليلة ولما أصبح الصباح سار مع الركب يقطع متون الصخور وبينما كان يسير ضحى في تلك البقاع «إذا بمردف آخر من القطاع فعرف الركب أنهم طليعة فاجتمعوا واطلعوا المكارية البديعة حتى ملأوا تلك الصحراء من ضربهم واعلموا الكامنين بشدة بأسهم وحربهم». وبعد أن قطعوا ذلك المكان المخوف حمدوا الله على السلامة.

---

(233) - صاحب الآثار العظيمة في البلاد، منها جامع سنان باشا بدمشق والحمام والسوق وله مثل ذلك في القطيفة وسعسع وعيون التجار وعكة (عكا) مع خانات ينزلها المسافرون ولها ببولاق جامع عظيم ومثله باليمن والقسطنطينية وغيرها من جوامع ومساجد ومدارس، وخانات وحمامات تفوق المئة وهو أكثر وزراء آل عثمان آثاراً وأعظمهم نفعاً. ولي حكومة مصر في زمن السلطان سليم بن سليمان فتح حلق الوادي بتونس وكان الإفرنج تحصنوا فيها (981 هـ) ولي الوزارة العظمى توفي (1004 هـ)

وصل جينين (ذات القلعة والحصن غير الحصين وأطلقوا الدواب ترعى في ذلك المرعى الخصيب). ثم يقول: «ولقد أخبرنا بعض الرفاق أن الطريق في غربها قطاع تخيف فما تركنا الحصن مع المشيئة حتى ذكرنا اسمه اللطيف ستة عشر الف وستمائة وإحدى وأربعين مرة» وكان يفعل ذلك في بعض المراحل التي يخبر فيها بأنها مخوفة للنازل والراحل.

وبات تلك الليلة إلى الصبح وركب ظهر دابته يقصد نابلس بين تلك الروابي وقد فاح فيها زهور لا يماثلها نَدٌ ولا كافور.

والتقى الركب مع جماعة متوجهين إلى جينين اللماعة فانفرد منهم صبي صغير، وسلم على الشيخ سلام الرجل الكبير. فتعجب من انفراده عليه بالسلام وحمد الله العلام. ولم يزل الركب يخب الأرض إلى أن أشرفوا على وادي (الصغير) فقابلهم بعض أشخاص وطلبوا من المكارية الغفر بوجوه كلحة لا يأخذها وجل ولا خفر. فأخبروهم أنهم أعطوا ذلك لغيرهم من الغفرية. فلم يرضوا إلا بالأخذ ثانياً لشدة ما هم عليه من الحمية. ثم إنهم أوقفوا القفل مراراً وأخذوا منه على سبيل الرهينة حماراً. وأرادوا أن يأخذوا بعض أثواب من التجار، فأخذت المكارية بندقية منهم ورموهم بالأحجار، إلى أن فروا وطلبوا النجاة بالذل والصغار. وبعد حصة لحقوا بالقافلة وأتوهم بالحمار وردوا ما أخذوا من بعض الناس وأخذوا المكحلة ورجعوا بصفة الإفلاس. ولما بلغ حاكم نابلس فعلهم الشنيع أرسل إليهم بعض الجند ولم ندر بما قابلهم على ذلك الصنيع».

ثم سار حتى وصل وادي نابلس الخصيب، وشاهد ما حواه من العجب العجيب، فرأى طواحينه الدائرة ونجومه وأزهاره، ونزل مع خاله عند عين ماء كأنها زلال فشرب وحمد الله. ثم دخل بعد ما نزل خارجها وألقى السلاح والعدة. فدعاه بعض أصحاب خاله إلى دارهم فذهب. وكان مراد الركب أن يقيم في تلك الأراضي الخصيبة فوشي به للحاكم فغرموا بعض دراهم فقلقوا لذلك ورحلوا في اليوم الثاني.

ثم سار متوجهاً إلى القدس إلى أن وصل قرية سنجل فنزل في ساحة في أسفل البلد، وهي في علوة لا يرقى إليها كل أحد، فأدى فرض الوقت بالقصر. وأخبر بلصوص، ولكن لم يذهب منه ومن صحبه بحمد الله عقال، ولكن لصوصها على ما قيل كلصوص الري في المهارة ما فيهم ما يقال. ولما أصبح الصباح همت القافلة للرحيل فساروا حصة على جادة الطريق، وصلى الصبح في مرج طيب عبيق، حتى وصل قرية البيرة. ثم صعد العقبة وأشرف على بيت المقدس ونادى هناك من معه من الغلمان فرحاً بما بدا حيا الله

ما بان، فأخذ لذلك الشيخ الطرب والاهتزاز. ولما قرب الشيخ جراح قرأ له الفاتحة فلما وصل قريباً من باب المدينة وجد بعض أهلها قد خرجوا للتفرج على الركب من الباب الشامي.

ولما أرادوا دخول المدينة طلبوا الإذن ممن حلها من أهل المراتب المكينة كما هو المطلوب من كل داخل وخارج ليكون مطلبه المطلب الناجح[234]. ولما صدر الإذن دخلوا المدينة بالذل والسكينة ونزل هو وخاله في دار قريبة من الحرم عند رجل شريف من أهل الكرم، يقال له السيد محمد الطواقي.

وكان أهل بيته يكرمونه وخاله. وكان هذا المكان منزل الخال من القديم. ولما ارتاح قام وخاله لزيارة الحرم ودخل الصخرة وصلى المغرب والعشاء وعاد إلى الدار. وفي اليوم الثاني زار المسجد الأقصى. وإنه في أغلب الأوقات يجلس في الدار، يكتب تارة ويطالع فيما معه من الكتب خوف الاشتهار.

ولم يصحبه في تلك الأيام إلا «أخونا الفاضل الأديب الماهر المناضل أحد التجار المعتبرين السيد علم الدين العلمي» فكان يتردد على الخال ومنهم الشيخ السالك طريق السادة الخلوتية الشيخ يحيى الدجاني خادم نبي الله داود، وقد دعاني إلى دار الضيافة المعمورة التي بإمدادات الخليفة سيدي داود مغمورة». ولبث يتردد على هذا المقر إلى أن حان الموسم الكليمي وتوجه الركب إلى ساحته، وسبقهم إليه السيد علم الدين وتوجه الركب إلى ساحته، وسبقهم إليه السيد علم الدين ودعاه لأن ينزل في خيمته، فتوجه وكاد يطير بلا جناح، ومر على قرية سيدنا العزير أي اليعازر (العيزرية).

وسار يقطع السباسب، إلى أن لاحت قبة الضريح واعتراه صداع زائد فتلقاه صديقه وخاله السيد محمد النسيب الإمام بالمسجد الأقصى. ولما صلى الظهر وأكل ما تيسر ظل كذلك إلى أن زار المقام ورفع أطراف الستر ووضعها على رأسه فزال صداعه في الحال، ومكث في زيارة الكليم ستة أيام، قضوها في تلك المروج وفي قراءة دلائل الخيرات وكان القارئ لها صديقه السيد محمد الإمام.

وفي اليوم الثاني اجتمع بشيخه الشيخ محمد الخليلي[235] ففرقوا الربعة وقرأ دعاء

---

(234) - يستدل من هذا على أنه كان هنالك ما يشبه نظام «الجواز» في هذه الأيام [ملاحظة من تيسير خلف: يقصد الشيخ الصديقي جوازاً أو إذناً روحياً عبر إشارة من الأولياء الصالحين، وليس جوازاً مادياً كما فهم الأستاذ أحمد سامح الخالدي]

(235) - هو مفتي السادات الشافعية وصاحب الفتاوي الخليلية وصاحب قصر كرم الشيخ وزارع شجرة «القريش» الصنوبر

الختم صديقه خليل الإمام بالمسجد الأقصى. فبكى وأبكى. وكانت الفقراء بالطبول والأعلام ترد كل يوم أفواجاً على المقام.

وفي ساحة الكليم بئر ماء معدة لجمع مياه الأمطار يستقي منها الزوار، وقد سعى في تعميرها وتسليك مجاريها الشيخ محمد المكنى بأبي فردة، وله ميزات عدة منها رواق المغاربة المنتفع به الآن. وماء تلك الآبار يحرق الطعام وينفع الجرب والحكة لأن أرضه كبريتية الأجرام، وبذا أحجارها توقد ويجعل منها تنوراً فيتأجج ويتوقد. وأخبرني أي الشيخ محمد الخليلي المذكور «أن كل ما يقع في الموسم من دق ولعب مباح لا يؤاخذ به أهل الموسم، ويقع لهم بذلك السماح إلا أذى وفساد، في تلك الأغوار والأنجاد، فإنها تثير عجاجة تقلع الخيام وترمي القدور وتريق الطعام حتى أن أهل الموسم لما تكرر هذا الأمر تيقنوه حتماً، فتتصارخ الناس بالدعاء على الفاعل ويشفون غيظهم شتماً. وجيء بالخيام في بعض السنين عند هذه الفعلة المقبحة تقبيحاً من قرية بعيدة عن المقام نحو ساعتين يقال لها أريحا. ولم تقع في السنة التي كنا بحمد الله تعالى فيها. بل وقعت كما أخبرني بذلك الخال في التي تليها».

وقد أخبره السيد علم الدين كان الله له خير معين «أن بعض التقاة الأخيار أخبره أنه بعد مضي الزوار، من تل الساحة الأنيسة والبقع المباركة النفيسة تأتي طيور بيض بمناقير طوال (يقال لها الرخم) يأخذون بها القاذورات ويرفعونها من تلك المحال ويعقبه لا محالة غمامة هطالة تغسل تلك الأرض بالطول والعرض». ولما اعترى الشمس الاصفرار خرج يتهادى على ظهور تلك الجبال حتى أشرف على بركة سيدنا لوط التي خيطت جنباتها من النبات بخيوط.

ثم ذهب في اليوم الثاني لزيارة «الراعي» وأعاد له الزيارة ويقال إنه راعي الكليم. ولما أصبح الصباح تركوا المقام والعين تسح كمين، فوصلوا العيزرية ظهراً. ودخل من باب حطة. فزار الخليفة الأعظم (نبي داود) لما أشرف على قبة ضريحه، وكذلك زار جبل الطور ومريم العذراء ثم الصخرة والأقصى. وكان في أغلب الأحيان يجلس في أحد شبابيك الأقصى العتيقة المطلة على جبل المكبر[236] وحديقة الخاتونية وأنعم بها من حديقة ويستصحب معه الدواة والقلم ويكتب للتسلي. ثم ينظم الأشعار في مدح المسجد.

وكان يصلي في أغلب الأوقات مع الإمام الحنفي في الصخرة. وينزل في بعض

الحلبي. وهي موقع المتحف الفلسطيني الآن

(236) - وهو الآن موقع دار المندوب السامي والكلية العربية بالقدس.

الليالي إلى المغارة. وفي بعض الليالي لا يستطيع النزول (لثقل موارد الواردين من الفحول).
وكان في تلك الأيام يحضر درس شيخه الشيخ محمد الخليلي. ويجلس من بعيد بحيث يسمع ما الذي به يفيد، وإذا سمع الأذان بادر للصلاة وكان يصلي خلف «الشيخ المذكور الجميل في سماته محبة في تعديد أركانه وحسن قراءته وتكميل صلاته».

وكان يقرأ في تلك المدة ورد السحر للأستاذ الأفخر سيدي جلال الدين محمد البكري. وطلب منه بعض الإخوان أن يضع ورداً مناسباً للسحر. فبينا كان عند الخال في الدكان طرقه طارق في أذنه بالتأليف، فتم تسويده في أقل من ساعة، ولما ذهب للدار أعاد النظر فيه. ولما جرّده وحرّره وبيّضه ورتّبه وحبّره سماه (الفتح القدسي والكشف الأنسي) و(النهج القريب إلى لقاء الحبيب).

ثم إنه لما كان في ما تقدم مشتغلاً إذ بهواتف الزوار تهتف بزيارة الخليل. فسار مع الركب الجامع وصحبه (الغفرية) ليوصلوه إلى ذلك النور اللامع. ومر على ضريح أبي ثور وهو شهاب الدين أبو عباس أحمد بن جمال الدين بن عبد الله بن عبد الجبار المعروف بالقريش والمشهور بأبي ثور. وبها قبر ظاهر يزار وله ذرية وهم مقيمون هناك. ومما يحكى عنه أنه كان مقيماً بالقرية المذكورة وإذ قصد ابتياع شيء من المأكول كتب ورقة بما يريد ووضعها في رقبة ثور وسيره فيحضر الثور إلى القدس إلى أن يأتي حانوت رجل بالقدس كان يتعاطى حوائج الشيخ. فيقف الثور عنده فيأخذ ذلك الرجل الورقة ويقرأها ويأخذ للشيخ ما طلب منها ويحمله الثور إلى الشيخ بمكانه.

ولما وصل إلى البرك، أناخ للراحة. وهي ثلاث برك كل واحدة عليا أكبر من أختها السفلى تمتلئ إذا حمل الفحل وهو عبارة عن سيل ذاك الوادي مع السهل. وساروا والخوف يرافقهم من قطاع ذلك الطريق، وكلما قطعوا وادياً مخوفاً بكمين دفين بدا لهم آخر حتى وصلوا قوفين[237] فقرأ الفاتحة للنبي يونس، ثم أشرف بعد قليل على كروم أراضي الخليل، ووصل المدينة ونزل بالخان. ثم تحول عند بعض الخلان. ودخل الحرم، للزيارة، فزار المقامات جميعها ودعاه بعض الأصدقاء لداره وعاد للمسجد، وبات في دار مأنوسه قريبة من الحرم.

ولما أصبح الصباح بادر للمسجد وأقام به إلى المساء بلا عشاء وذهب إلى الدار الأولى وبات ليلة أنيسة. وجاءه ضحوة النهار بعض الرفاق فزار الشيخ علي البكا، والشيخ كنفوش والأربعين. وعاد إلى الجامع. فدعاه بعض العلماء لداره ورجع للمحل الأول وبات.

---

(237) - قوقين.

ثم سار بعد الوداع وما علا النهار حتى علت الزوار متون الدواب فرافقهم وقد لاحت لوائح الفرقة والاكتئاب، والسبب ترك صلاة الجمعة وسلوك هذه المسالك والخوف من أهل البادية الذين لا يرهبون اقتحام المهالك.

ولم يزل يسير حتى وصل إلى البركة المعهودة الحصينة والنفس على فوات الجمعة في تلك البقعة حزينة. وفي ثاني يوم عند الوصول إلى الديار ورد الصديق السيد محمد نجل السيد عبد الله السلفيتي للسلام. وما كان يعرفه إلا من ذكر شيخه قاسم بن سعيد المغربي له. فعرفه بنفسه والحال. فوقعت الألفة الجنانية في الحال وامتدت أغصان شجرتها وتفتقت كمائم ثمرتها إلى أن صارت محبة ونسباً[238]. لما اتبع في المواصلة سبباً.

فسار معه إلى زيارة النبي (شمويل) ورفقتهم فتح الله الدجاني ونور الدين السعدي فصلى المغرب وصعد إلى سدة رفيعة بنيت بالأحجار. فطلبوا قراءة ورد العشاء والذكر ففعل. وفي الصباح ركبوا الخيل وعادوا للقدس. وفي الليلة الثانية اجتمعوا في خلوة الدجاني في الحرم يتذاكرون فيها ولما مضت مدة فروا من المحل لغيره خوفاً من الاشتهار. وطلب بعد ذلك السيد محمد الطريق فأدخله على الاستخارة. وتبعه نور الدين في طلب الوصيلة بالطريق فامتنع خوفاً من عدم القيام بالشروط، وفرقاً من حل عقدة العهد المربوط، فأجاب بقبول الشرط والنهي والأمر. فأمرهما بالتكتم دون الإشاعة وأوصاهما بحفظ ناموس الطريق وعدم الإضاعة.

ثم جاء السيد مصطفى بن عقبة وأخوه عبد الله وطلبا الاندماج في هذا المنهج فحصل لهما ما طلبا. وسبق الأول وانقاد الثاني وكذلك السيد داود وعبد الله المصري سليمان من أهل بيتونيا. وكان يجتمع معهم في الخلوة النحوية ويقرأ الأوراد.

أما ورد السحر فكانوا يقرأونه بعد غلق الأبواب. ثم عمل رياضة معهم تنوف على العشرين، وأراد تكميل الأربعين فعاقه عن ذلك بعض المعينين. وكان يقرأ لهم شرح الحكم للتعزي حتى بلغ قريباً من النصف فمرض المعيد السيد محمد. ومكث في تلك الخلوة ثلاثة أشهر وأيام، لم يكحل عينه بمنام.

وكان يتردد هو وجماعته على مقام النبي داود أو طور زيتا وكان يبيت في الأسعدية، التي بناها جناب المرحوم أسعد أفندي مفتي ديار الروم باسم الشيخ محمد العلمي المدفون فيها. ثم يذهب لزيارة سلمان الفارسي فيزور رابعة، فباب الرحمة، ويخص شداد بن أوس

---

(238) - في المرادي ان الشيخ مصطفى تزوج في القدس وخلف بنتاً توفيت فيما بعد ويظهر انه تزوج بنت الشيخ عبد الله السلفيتي وذلك سنة 1131 هـ وأرخ زواجه (زفت الزهراء للقمر)

وعبادة بن الصامت. وذهب معهم إلى زيارة العزير عليه السلام (العيزرية) وبات عنده ليلة بدرية، ورافقه المحب المجذوب الشيخ عبد الله القريب الحنبلي، وشرعوا في الذكر. «وكان بعض أوباش القرية الجالسين في صف النعال، مرادهم الأذية بأنفس دنية، ولو بسرقة النعال فدفعهم الله بحوله وقوته عن الاغتيال، ولم يثبت إذ غلب النعاس معي في السهر إلا الأخ السلفيتي، ونور الدين السعدي. ثم عادوا للقدس. وتوجه لزيارة سيدي شمويل (النبي صموئيل) مرة أخرى على الأقدام وخلع النعال للأدب والاحترام، من نصف الطريق إلى ذلك المقام، وبات عنده ليلة. وقصد بعد ذلك زيارة (رأس أبي زيتون) وسار راكباً متن الخيل فلما وصل بيتونيا أكرموه غاية الإكرام لأن أولاد الدجاني صحبوه للدلالة على المقام. وهذه القرية وقف للصخرة ذات الاحترام ولهم فيها شركة عن جدهم.

وزار والدة أم الشيخ أحمد الدجاني. وصعد إلى المرقد الذي حلت فيه. ورأى عندها عبداً أسود من المجاذيب ينفر عن الناس نفار الوعل أو الذئب، وأخبر أنه يوقد النار حتى تعود جمراً وينام فيها حتى تخمد بنفسها ولا يألف زيداً وعمراً. وأقاموا في المقام وعزموا على البيات. ويقول «لما أوى الليل كبيت وفقدنا من لوازمنا الزيت» فدار الإخوان على كيزان النذور فلم يجدوا فيها ما به يستصبح. فقال أعيدوا النظر عسى الفتاح يفتح فوجدوا إحداها ملآناً بالزيت الطفاح. فأوقدنا منه حتى لاح الصباح. ثم عادوا للربوع القدسية.

وكان قد وضع رسالة في أدب الخراقة سماها «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية» وبقيت في المسودة يرجو بياضها في الشام لما يحل غياضها. وسود وقائع شيخه المرحوم الشيخ عبد اللطيف وسماها «الكوكب الثاقب في بعض ما لشيخنا من المناقب».

وعزم على زيارة الإمام الهمام علي بن عليل فصلى العصر في الحرم وسار مع عشرة أنفار فوصل في الليل (بيت أكسا) فقابلهم أهلها بالإكرام. وكان أحد مشايخ فقراء هذه البلاد قد سبقهم لأجل القرى وتحصيل الزاد ومعه المزاهر والأعلام بقصد الشهرة والإعلام.

وبات في ناحية وهم في أخرى، وجاء في الصباح يسأله عن أحوال السكوت عنها أحرى. فأخذ السيد محمد يذكر عن كيفية إرشاده فقال: «طريقتهم إذا جاءهم فقير وأخذوا عليه العهد الخطير يقول له النقيب اجلس مريداً وقم نقيباً فيفعل ثم يقول له اجلس شيخاً وقم خليفة فيفعل ثم يدقون الطبول على رأسه ويقرؤون له الفواتح ويجيزه

الشيخ بالإرشاد . فهل لهذا الفعل من سند معتمد؟، وقد جاءه فقيه بيت اكسا بمجموع رسائل فإذا هي تأليف سيدي عبد الوهاب الشعراني في الكلام على أرباب الطبول والأعلام والكشف عن أحوالهم وبيان زائف أقوالهم.

ولما أصبح الصباح أكلوا ما تيسر وأخذوا يقطعون السهل الأغبر، ذا الوجه الأخضر، والزهر الأحمر والأصفر وعزموا على المبيت في قرية (سلفيت). ولما تراءت على البعد للعين وصلوا ساحة تلك العين فشربوا من مائها الفائق ماء العين، وقبل الوصول إليها زاروا الشيخ تقي الدين صاحب القدر السامي المكين. وجاءهم جميع الأحباب ونزلوا في جامعها . وكان الشيخ قاسم المغربي المقدم أقام في المسجد مدة أشهر. وباتوا تلك الليلة يتلون الأوراد وساروا في الصباح على الخيل العراب يقطعون تلك المهاد حتى مروا على قرية (عورتا) فزاروا فيها قبر السيد المفضل وعليه شجرة خروب، فأكلوا منها تبركاً وزاروا سيدنا المنصور وهو داخل مسجد مهجور. ثم أموا جهة (جماعين).

ونزلوا في دار أعدها أهلها للضيافة فإذا الصديق الشيخ يحيى الدجاني وباتوا في دار واسعة الأكناف، وقرؤوا الأوراد، وأطلعه الصديق المشار إليه على كتاب كان بين يديه فيه ذكر رحلة الشيخ أيوب، فسر به كثيراً. وما علا النهار حتى هان صعب ووصل بمن معه إلى أراضي بني صعب. ونزلوا ليجتمعوا بالشيخ مقلد[239] في قرية حجة، من أجل أخذ مرسوم لأهل الطيبة كالسند الحجة يأمرهم فيه بأن يوصلوهم إلى الحرم (سيدنا علي) بن عليل فأجاب إلى المطلوب، وسأل عن أحوال كان منها على رجة، لسبب خوف عم الجوف فأورث الفم فيه زجة. وهي توفر دواعي الأخبار، أن الوزير نصوح باشا[240] (والي الشام) قامع الفجّار، قد حاصر قلعة الكرك ذات الحصن الشامخ المنيع، الأسوار، فقال الشيخ مقلد إن فَتَحَ هذه القلعة بعد هذا الحصار، فإنه لا يعوقه شيء في البلاد الشامية. وكان معهم الشيخ عبد الله القربي وكان من عادته أن يقصد الشيخ مقلد، فسأله عن عمره وهل هو أكبر منه، فأخبره أنه تجاوز الخمسة والثمانين على الظن منه لا التعيين. وفي الصباح حركوا الركاب إلى (الطيبة) ونزلوا في جامعها وعرضوا عليهم مرسوم الشيخ (مقلد الجيوسي)، فأجابوا من غير توقف بالسمع والطاعة ومشى معهم بعد العشا ثمانية أنفار ليقطعوهم الغابة[241] فلما قطعوا أكثر من ثلثي الغابة، أخذوا يسمعون دوي البحر،

---

[239] - الجيوسي والد الشيخ حسن، حج معه مؤلف الرحلة سنة 1145 هـ

[240] - توفي 1123 هـ

[241] - يستدل من هذا ان الساحل بين الطيبة وسيدنا علي كان غابة كثيفة الأشجار.

فنزلوا يستريحون وقاموا بعد غفوة حتى يدركوا صلاة الصبح في الحرم. ثم لاح الفجر فما كان إلا قليل بعد المسير الجميل حتى سمعوا صراخاً فحصل اضطراب ثم تبين أنهم من أهل النزلة أصحاب، ولم يطل سيرهم وهم يسمعون هدير البحر يزيد حتى أشرفوا على ذلك المربى الزاكي والمرتع الخصيب المريع البديع الذاكي. فأسرعوا للصلاة عقب الزيارة. وجلس الشيخ إلى الشباك المطل على البحر الزاخر يمتع نظره ثم نزل إلى الشط وهو في غاية الانشراح. ثم زار أهل التربة ثم تربة أخرى قرب السور.

وكان الظهر قد دنا وإذا بوراد يحثّون بغال خيولهم الأرض حثاً، وكانوا قد جاؤوا من زيارة النبي روبين وأخبروه أن وراءهم ركباً، ومعهم الشيخ نجم الدين (الخيري) مفتي الرملة. وغب قليل تتابعت الزوار من كل جليل وأجل حتى غصّ بهم المحل. ونصبت الخيام واصطف أهل المزاهر والأعلام واجتمع بجناب الشيخ نجم الدين نجل العلامة خير الدين مفتي الرملة حالاً. وبعد التحية والسلام بقليل جاء إليه بزنبق برّي طيب الرائحة فقال إن الوالد الأسبق قد صرح بتشبيه هذا الزنبق وأنشد: [من الطويل]

وزنبقة قد أشبهت كأس فضة	برأس قضيب من زمردة عجب
سداسي شكل كل زاوية به	على رأسها الأعلا هلال من الذهب

وأقام في تلك الرحاب إلى العشاء. وبعد الصلاة قاموا ليقطعوا الغابة ليلاً فاعتلوا خيولهم فأتى دولاباً يملأ كيزاناً[242] واكواباً فأقاموا عنده. وقطعوا ما بقي من مروج تلك الأرض حتى وصلوا نابلس المحروسة ذات الربوع الطلول المعمورة المأنوسة، ونزل خانها المعهود، المعدود قديماً لأهل الورود. وأقام أربعة أيام، يزور الصالحين الكرام ويتنزه في رياضها فيتذكر الشام وقد هزه الشوق فقال: [من الكامل]

شوقي يزيد لكم أهيل ودادي	ويثير حر الحب بعد النادي
يا من رحلنا عنهم جسماً بلا	قلب وقد نزلوا صميم فؤادي
إن غبتم عن ناظري ما بنتم	عن خاطري أبداً ليوم معادي

ثم عاد إلى القدس وأقام في خلوته على العادة، وجاءه صديقه الشيخ محمد المكي أبو فردة، تلميذ الشيخ علي عزّون، تلميذ الشيخ قاسم السفياني بللوشا. وسبب تكنيته أنه كان يلبس فروة على ظهره.

---

[242] - يستدل من هذا على وجود «البيارات» فقد كانت هذه الدواليب تدار في بادئ الأمر على كيزان ثم صارت (قواديس) من حديد او خشب

ودعاه الأخ نور الدين السعدي، وأدخله التكية المولوية، وكان ممن أخذ الطريق وانتسب لهذه الطائفة العلية، الحاج علي شعال السلطانية، وطبّاخ التكية الخاصكية، كان يبتدئ بالوِرد من دار الاشتغاله بالشغل والطبخ ويختمه وهو مشتغل بأطواره. وكنت أرى عليه أثر المحبة غير أن همّ العائلة أتعب قلبه. وكان الشيخ قد شرع في شرح «المنبهجة في الطريقة المنبلجة» وفي النية شرح الورود.

ثم عزم على الرجوع إلى دمشق، وطلب الإخوان وصية، فكتبها لهم وأسماها «الوصية الجلتية للسالكين طريقة الخلوتية». وممن أخذ الطريق في الجملة، الحاج محمد بن نسيبة. وتخلّف خاله، فودّع الصخرة والأقصى وسار معه إخوانه إلى رؤوس المشارف وكادت تطير القلوب فرقاً عند الوداع، فبكى الشيخ بعد أن ودّعهم مراراً بدموع مدرارة وسار يقطع الفيافي بركب صغير إلى أن دخل الشام ليلة النصف من شعبان. ولم يطل مقامه في دمشق حتى عمر الخلوة الثانية في المدرسة البادرائية، وبعد العمارة ألّف فيها «الدرّ الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق» وأرسل للإخوان في القدس نسخة منها. وأرسل له الشيخ مصطفى بن عقبة كتاباً يطلب فيه رسالة توضح شروط الخلوة ولوازمها فأجابه الشيخ لطلبه. وبعث إليه برسالة أسماها «هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب». فيكون قد أقام في رحلته هذه الأولى نحو سبعة أشهر.

◆ ◆ ◆

رحلة البكري الصديقي الثانية إلى القدس [آب 1714م]

«الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية»

وبعد أربع سنوات حنّ الشيخ إلى ربوع القدس ثانية فعزم على الزيارة مرة ثانية. وأسمى الرحلة القدسية هذه ذات العيون النرجسية (الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية). وقبل المسير، جاء الخبر أن عرب الصقر أهل الضرر منعوا السبيل السلطاني، فتوجه إلى زيارة الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين البدر كياني والنجم الشمشماني وجلس عند ضريحه «وعرضت عليه ما سمعته آذاني ففاحت رائحة عطر سيسباني»، ففهم إشارة شيخه أن الطريق فيه أمان. فودع أهله وتوجّه في أوائل شعبان المبارك سنة 1126 هـ. ورافقه في هذه السفرة الحاج إبراهيم بن حسن الذكاني والولد الأنجب الأرشد إسماعيل بن رجب وكل منهما حرستاني. (وحرستى) هذه بلدة الصاحب الثاني لإمامنا الأعظم مملي القناني.

وكان مؤجر البغال للركوب وحمل الأثقال رجل يقال له العرمان فتوجهوا معه إلى قرية عرطوز «القصد أن يجوز إلى مجتمع القفل، كي للصفا نحوز». ولما واجه السيد حسن الراعي قرأ له الفاتحة. ونزل في القرية السائلة المياه لا المحصورة، واجتمع لديه نفر من القافلة.

وبات يتسامر مع الإخوان. وعند الصباح تحرك الرفاق إلى الرحيل وحملوا وتشاوروا ونحو الجبل وجهوا وجه التعويل فشاورني العرمان في سلوك الطريق السلطاني والتحويل على السبيل الفوقاني، لأنه متعب لكنه بالأمان يرغب. فقلت ولو لم تسر مع الرفاق وتأمن في سيرك من الإشفاق، فقال أنا متوقف على أمرك الآن فقلت لما رأيته متوكلاً على الرحمن، سر يا عرمان مصحوباً بالسلامة والأمان. فوجه وجه بغاله ومسك الجادة السلطانية، ولم يلحقنا إلا نفر يسير لا يعد في العير ولا النفير. وفي «أم الشراطيط» التي لا تسلم غالباً من التخبيط، واجهه ثانياً حسن الراعي فقرأ له الفاتحة، فوصل

سعسع فارتاح قليلاً، وسار في نصف الليل على الطريق الوسطي الاعتدالي إلى القنيطرة، فإذا خانها خالي، فعمد إلى المنصورة، وقد عراهم التعب، فأخبر أن عين البلدة قبل قدومه استقى منها أحد عشر فارساً وأنهم من الصقور، وقد سلكوا النهج السلطاني، فجاء رجل لم يدره وقال للعرمان، إنه يعرف طريقاً ثانياً فأتاه العرمان وأخبره. فأشار على العرمان باتباعه. وسار إلى أن وصل الجسر فوجد فيه جنداً شيطانياً يتسلطون على المارة فهم أهل أذى عدواني، فتعدى الجسر إلى سهل لدى قرية يرتقيها العاني، فاشترى منها ما يلزم ويات هو وجماعته في أرض صفد. واستمروا في السير إلى الجب اليوسفي فلحقتهم القافلة وساروا جميعاً إلى المنية، ومنها إلى عيون التجار، فجنين، ومنها إلى نابلس المحروسة، ومنها إلى البيرة المطموسة. وسبق أشخاص إلى المدينة وأعلموا بعض الأخوان، فخرج جمع منهم عند رؤوس المشارف للاستقبال، فزار الشيخ جراح، وسعد سعيد، وأستاذه صاحب البلدة سيدي داود، والتأييد عليه وعلى ولده الرشيد. وسأل ممن وفد عمّن تخلّف وما قصد فقيل إنهم تألفوا على الفير ولذا تخلفوا.

وكان السيد أحمد القادري البغدادي نزل الخلوة الرصاصية، التي كان نزل فيها في الخطرة الأولى، فكثرت الورّاد وزاره السيد أحمد، ورد له الزيارة. وممن جاء للسلام مع إخوته الشيخ أحمد الموقّت. ودخل شهر الصيام ودعاه بعض المحبين لضيافته في الحرم، وأكثر فيها من دعوة المشايخ وأرباب الخدم، وكان منهم الشيخ أحمد الموقت، فاختلى به الشيخ، وعاتبه على عدم مجيئه بعض يوم أو ليلة فأعلمه أن الحياء يمنعه.

وانتقل إلى خلوة السيد جار الله القريبة من مصفة العوالي، لئلا يعكّر على شيخه الشيخ محمد الخليلي المصالي، بالذكر والأوراد الصبحية فيما يستعمله من النصائح الحكمية، بعد الصلاة الفخرية، وكانوا يتعاطون أمر الزاد في دار السيد مصطفى بن عقبة. وكان خلق من الخواص والعوام يحضرون لاستماع الورد منهم الأخ الشيخ أحمد. وممن دعا الشيخ وكرّر الدعوة الشيخ نور الدين الهواري وقاضي البلدة كتخد زاده. وفي أواسط شوال قدم القدس الوزير المرجب رجب باشا والياً مدبراً[243] «وفيه توجهّنا صحبة السيد أحمد القادري المقرب إلى زيارة الكليم. وكان معي الأخ الحاج إبراهيم».

وكان الشيخ أحمد لازمني في الخلوة البيرمية الصغيرة، حين هجم البرد ودخل الشتاء. وكان الحاج محمد نبيه قد أتى من مصر فنقلنا (لدار الروضة) واقتصرنا بالناس

---

(243) - في المرادي أن الوزير رجب باشا (سنة 1131 هـ) قدم إلى مصر من جهة دمشق لزيارة بيت المقدس فزار صاحب الترجمة، وصار له فيه مزيد الاعتقاد ولما ذهب إلى مصر استصحبه معه فدخل مصر وأقام بها مدة

إلا من يقصدنا من إخوان. وممن جذبه نظره إلينا، الشيخ عبد الحق نجل الشيخ نور الله الجماعي «وغيره من إخوان وأحباب وأخدان وموقتنا والهواري لم يقطعا التردد عن داري». وتردد عليه إمام الوزير محبه إبراهيم أفندي الخطير وطلب الوزير المذكور الجمعية فأجاب بشرط أن تكون في المغارة الألمعية. ويقول الشيخ «ومنها تعلق قلبه وازداد بنا حبه».

وتشاغل الشيخ في تلك الأيام في كتابة «الضيا الشمس» وأمر الأخ الحاج سلامة بنسخ ما يكتب منه. وكان يقابل ما يكتب ليلاً ويزيد فصارت المبيضة مسودة. وكان الهواري يأتيه وربما ساعد وما تباعد. ويبض فيها «الوارد الطارق واللمح الفارق» وجمع في هذه الدار «جمع الموارد من كل شارد» وكان وهو في الديار الشامية يكتب ما عليه من أوراق والبعض يبقيه والبعض يلقيه في النار للإحراق فانتقى ما جمعه وقد توعك منه المزاج ثلاثة أيام لدم هاج، فجاء الرئيس محمد بعلاج مناسب وحصل الابتهاج. وحين اشتد البرد وامتد سح الأمطار طلب إخوان كبار وصغار دخول الخلوة. فأجابهم لذلك، مدلياً على قوس العقد الذي في إيوان الدار، وأمر الطلاب أن ينفردوا كل واحد في بيت خلوة ولو بإحرام أو إزار. وممن ترجّى الدخول الولد الملحق بأهل الشيخ عبد الحق. فأقام بيت خلوته عن يمينه وجعله خازنه وأمينه، السيد أحمد بن أبي النصر رتبه إماماً في ذلك القصر، وجعله عن يساره، وأمر الأخ الحاج إبراهيم أن يتقيد في الأوراد. وأن يغلق الباب مخافة القصاد. ولا يفتحه إلا قبيل الغروب لأجل طبخ الحريرة. وأن يحضر عقب العشاء وانفضاض الوارد عن الخلوة البيرمية ليسمعهم قصائد إنشاد. فكان يجيء ويشدو فيطرب الجماعة ويطلبون سكان العراق ونجد. وإذا راق الليل طفح من السرور الكيل.

ثم إن صديقه الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الموقت اشتهى دخول الخلوة في الأوضة الصغيرة، فتبعه الشيخ إسماعيل والشيخ نور الدين، ولم تسع الخلوة غير الأربعة، وصار البواب ابن نسيبه، ووقعت عليه في الإمامة القرعة، وكان الطالب على اليمين، ونور الدين على الشمال، والوالد إسماعيل في القرنة الثانية.

وعندما انتصف ذو الحجة توجه الوزير لمعان لملاقاة الحج المطير على طريق معان وزار في مسيره الخليل. ورأى الشيخ الوزير في المنام وقد خلع عليه ثلاث خلع عظام، فأخرج له من عبه السيوف الحداد، وأمره أن يحتفظ بها. ولما أفاق غلب على ظنه أنه يحارب (العرب) وأنه في خطرته يَغْلِبُ، فلا يُغلب، لأن السيوف صارت في يده. فكان ما ظنه الشيخ. إذ أخبر بذلك لما عاد من سفرته بعدما نزلت الأمطار وعم الربيع وجه الأرض. واخضر الغور وأزهر.

تحرك الشيخ للزيارة الخليلية صحبته رفقه، فساروا ودهمهم قطاع الطرق دهمة متعبة عند القيقبة ولكن الله سلم. ونزل في حاصل الخليل، ووضع في هذا الحاصل رسالة: «الصحبة التي تنتخبها الخدمة والمحبة» وتمت في صفر سنة 1127 هـ.

وشرع في كتابة رسالة «نظم القلادة في معرفة كيفية إجلاس المريد على السجادة» وشرع في خطبة كتاب سماه «فيض الجليل في أراضي الخليل» ورتبه على مئة وخمسين باباً ومقدمة وخاتمة، وعرض الفكرة على كبير الجماعة من أهل الخليل فأثنى عليها. وممن أخذ الطريق عنه إبراهيم الخليلي والحاج دياب والشيخ محمد القيمري والطرعاني وغيرهم. وكان يقرأ الورد السحري في الحضرة وكان الحاج إبراهيم ينشد قصيدة في حماة الفار مطلعها: [من الطويل]

أيا ساكنين الفار والمنزل الأحمى أغيثوا معي من لظى شوقه أحمى

ولم يجتمع في الخليل بالشيخ أبي زيتون بل بالشيخ محمد أبي جاعد وبعد أن ودع حماة الفار وأهل الجود والكرم بات ليلة الثلاثين في قرية سيمير (سمير) وكانوا نفراً قليلاً. ونزل على قرن البرك، وقد لطف الحق بهم دارك وأدرك. وصلى الظهر في بيت لحم ودعي إلى البيات على أرز ولحم فامتنع. إلى أن وصل القدس.

ولما نما الربيع، عزم على زيارة السيد الكليم، وكان عدد المتوجهين سبعة عشر نفراً، وخشي الصداع كالمرة الأولى فأسرع بالزيارة، وكان في خلوة تحتية ولصيقة في أخرى، الشيخ أحمد صحبة أخيه الشيخ محمد ومعهم الشيخ عبد المعطي. والسيد خليل الإمام بالأقصى في أخرى. وتأخر عنهم شيخه الشيخ محمد الخليلي وصحبهم مغربي خفيف مقري هو سيدي عبد الله الشريف. وأقاموا في المقام ثلاثة عشر يوماً وزار في رجوعه نبي الله العزير.

وبعد ليال توجه لزيارة «الخليفة» داود. وكان الوزير المشار إليه فتح باباً في الزيارة، وعمل الستارة، وأحيا وقف الخليل وأدار سماطه الجليل، وعمّر نبي الله صموئيل، وقصر من الصخرة المغارة وفرشها وأرخى عليها ستاره.

ولما دخل فصل الربيع انتقل إلى البيرمية وصار يبيت في الخلوة الصغيرة، ثم بدا له زيارة سيدي علي بن عليل، بعدما الوزير المشير قدم من سفره العطير، فعزم على السير وتوجه مع الأخ أحمد والولد الأرشد إسماعيل وإبراهيم الحادي. وكان الأخ السلفيتي قدم من الشام. واستأذن في سكنى قرية حجّه. ولما وصل إليه بمن معه سر وجمع الجمع في خلوة الجامع وتوجه الأخ إسماعيل منها إلى نابلس المحروسة.

وكان مراده الصحبة في الزيارة، ولكن خشي أن يسبقه القفل والرفاق فلا يمكن بعد سيرهم اللحاق، وأقام هناك أياماً. ثم هيأ له الأخ السلفيتي زيارة الحرم العليلي، وبينما هو وصحبته جلوس على ربوة يسرحون الطرف في البر والبحر المحروس، إذ أعلام وإشارات في السهل بادية، وخيول تتجارى، فجاء الرفاق واصطفوا للفرجة اصطفافاً، فقيل الشيخ محمد الخليل قادم للزيارة من يافا. فنزل للقائه الأكثر فرحين بقدومه. فقال إنه لما مثل له أن فلاناً هناك أسرع للزيارة. فقال الشيخ «في الخطرة الأولى اجتمعنا بالشيخ نجم الدين الخيري وفي هذه بكم، فالحمد لله المنمي خيري».

ولما زار، دعانا إلى السير معه نحو يافا فتشوق إلى ذلك الأخ أحمد وامتنعت أنا أولاً ثم وافقته وقصدنا وبتنا لدى الشيخ[244] ثم يقول «وعدت فوصلت النهر (نهر العوجا) ولم ندر مقطعه، ووقفت وقدمت الأخ السلفيتي، فكاد يغرق ثم هداني الله لقطعه من جانب البحر فرأيته سهلاً فحمدت ربي، وبعد ذلك رأينا فلكاً في البحر تجري بانحدار فخشينا لوجود «قراصنة» فيه (أي لصوص) أن تكون مملوءة بالإفرنج، فصعدنا الجبل وبعدما بعدت الفلك نزلنا الشط واجتمعنا بالإخوان الذين كانوا في مقام (سيدنا علي). وقضينا بعد ذلك اليوم حتى أتينا (كفر سابا) فزرنا سيدي بنيامين وسيدي سراقة وفي القاموس سراقه كثمامة، ابن كعب وابن عمرو وابن الحرث وابن مالك المدلجي وابن عمرو ذو النون صحابيون».

وتوجه بعد ذلك إلى (جيوّس) لدعوة فقير مانوس. وكان قد أضافهم أولاً حال الذهاب في قريته وثنّاها آخراً حالة الإياب لما عاد إلى الشام «ودخل ذو الحجة من عام 1127 فحبب لي وضع رسالة «تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة». و«ثاني يوم أتينا قرية عزون لأن وليمة عرس الأخ سلامة القوصيني بها تكون». وقلت لما نزلت تحت الزيتون مواليا»:

أهل الحمى والحيا الكل عزوني	لما تذللت في الأحزان عزوني
ومنذ تفيأت في زيتون عزون	للغان في الحال أضافوني وعزوني

وجاءنا فيها على هيئة الساعي رجل ينتمي وأخبر أن بعض الأوباش أشاع خبر أسر وأهاج القلب الظمي، وكدر عيش الإخوان وضاق ذرع من أحب من أعيان، حتى أن الوزير

---

(244) - كان الشيخ محمد الخليل يملك قصراً على شاطئ البحر. ولا يزال أحفاده يملكونه حتى الآن وكان له «بيارة» برتقال معمورة

وعد أنه يلزم أهل التحقير بإعادة الفقير بعزم كبير، فقلت الحمد لله العلي الكبير الذي أراحنا من الأتعاب ورد الكذاب. ثم عاد للقدس. وزار النبي شموئيل مع محمد السلفيتي وبات ليلة «وفي الصباح ورد خبر قدوم الوزير المعتبر فجعل العود من غير طريق لئلا يراه فيلزمه بالتعويق» ولما وصل الحرم وجد المقال صحيحاً.

وأرسل الشيخ محمد الخليلي رسولاً ومعه كتاب يدعوه إلى الزيارة ملوحاً أن جناب الوزير طلب ذلك وصرح بالعبارة وأمره بإحضار إخوانه. فعاد مع الأخ أحمد ومحمد السلفيتي ونور الدين وإبراهيم. وجلس هو وجماعته الأخ أحمد والسيد محمد السلفيتي نور الدين وإبراهيم الحادي وشم في المسير إلى الزيارة عرف طنطور الجندي، ولما أذن العشاء أجلسه لديه وقربه إليه، وأمره بالذكر، وجلس هو فوق المصفة، وكان الوزير حاضراً المجلس، فطرب للإنشاد، وأرسل إلى محب الدين النقيب (خرجية) وأرسل للإخوان مثلها. فتفرقت من أصلها. وكان يدعوهم لتناول الزاد لديه. وسأل عن المنشد وهل يمكن أن يقيم في الحرم ليعين له ما يحتاج إليه، فاعتذر بأن له والدة كبيرة ووالد عاجز الحركة فرضي بعوده، وقال هما بركة.

وخرجوا إلى الشيخ (بادار، الشيخ بدر) وأقاموا بجواره في كرم فسيح. وكانوا يترددون على الخليفة (أي النبي داود) والطور. وتوجّه صحبة الإخوان إلى التكية الأدهمية، وأقام الشيخ أحمد خليفة على الجماعة، ولقنّه الاسم الخامس وأحضر له السجادة وأجلسه عليها.

وكان أكرى مع الحاج محمد بن كريم خضر، وسار معهم السلفيتي، وصحبهم مصطفى بن عقبة، وبات في قرية عين يبرود. فجاءهم صديق اسمه عابد العسقلاني، وطلب منه ورداً للمسافر. فكتبه وأعطى منه نسخة إلى القدس ليدفعه للشيخ نور الدين الهواري. وسار إلى نابلس المحروسة، ونزل عند مصطبة التوتة الدرويشية. وجلس في جامع صغير قريباً من الرفاق ومضى الأخ الخفير والسيد مصطفى العقبي.

ولما بلغ سيفي آغا الكلشني نزوله في المحلة دعاه إلى الدرويشية وهيأ له محله وبات فيها، وزوده زاداً ومشى معه آخر الليل بالقنديل إلى منزل الرفاق. وواصلوا السير إلى القرية وودّع الأخ السلفيتي، وساروا يقطعون على طريق بلاطه، جاحولا والخيط وهو طريق وعر تقطعه أحياناً المتاولة. فقطعه بأمان. وأتى (بالملاحة) فنزل لدى الطاحونة القريبة، وهناك شرع في خطبته (تسلية الأحزان وتصلية الأشجان) وتكلم على سر الطاحون وسار إلى (حاصبية) وحضر السوق، وسرى مع السوّاق إلى كفر قوق، وكان الحر

اشتد وبات فيها وسار لدمشق وسبق الأخ الحاج إبراهيم معلماً بقدومه الأخ الشيخ عبد الكريم. فنزل داره بعد السلام والإكرام وكان الحر قد أثر فيه. وكان قد هلّ هلال رمضان وتوجه إلى القيمرية ونزل دار والده بالرضاع الحاج أحمد والد الحاج إبراهيم زوج والدته. وأقام في القلعة وورد عليه الأحباب. وجاء الولد النبيل إسماعيل مسروراً باجتماعه. وكان ألبس الولد أحمد كسوة الطريق للتبرك فقال الشيخ عبد الكريم لا ترفعها يا أخي بعد الآن.

وبعد أيام بادر للخلوة الجديدة، ودخل شوال فأكمل مسودة (التسلية) وبيضها في جمادى الأولى (1127 هـ) وأرسلها إلى الشيخ الأمجد الشيخ أحمد في أول شوال 1127 هـ.

وعزم الشيخ عبد الكريم على الحج نائباً عنه فلما وصل (العلا) وهو قافل من الحج توفي ودفن بها. واستقام بالشام من (1128 هـ). إلى مضي الثلثين من شهر رجب فتوّجه إلى حلب المعمورة. وسمّى الرحلة (الحلّة الذهبية في الرحلة الحلبية) وقبل التوجّه، أرسل للأخ الأمجد الهمام مكتوباً (زيتونة ودّه نورها يتوقد، وكوكب سعده مشرق بالود توقد) وقصيدة مطلعها: [من الوافر]

إذا ما الليل يا أحباب جنا | على المشتاق بالأشواق جنا

رحلة الشيخ البكري الصديقي الثالثة إلى القدس [1715م]

(الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية)

كان الداعي إلى هذه الرحلة[245]، رغبة الشيخ مصطفى البكري في زيارة بغداد فيقول في مقدمة رحلته (كان كثيراً ما يختلج في بالي، فيهيج أشواقي وبلبالي، زيارة بغداد ورجالها الموالي. فأسد عن الشرب من نهر دجلة وقريانه، والغرام يزيد إلى علم الشرق الفريد وصاحب المذهب المذّهب السيد والكاظم[246] وولده الوحيد، السامي كل منهم على أقرانه، وغيرهم من أعيان، أرباب عيان) الخ.. ويخص من الأعيان سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني[247]، وكان قد انتسب إلى طريقته وتراءى له في المقام فعزم على التوجه إلى حلب ومنها إلى بغداد، ولكن زوج والدته منعه من ذلك مخافة الحر، وخشية تعرض العريان له بسوء. فعدل عن زيارتها، ورأى أن يتوجه من حلب إلى زيارة مقام سلطان الزهاد إبراهيم بن أدهم[248] في جبلة ومنها إلى طرابلس الشام فبيروت فبيت المقدس. وكان رفيقه في الطريق السيد مصطفى بن عبد الرحمن المنيني[249] وأخاه لأمه أحمد.

وقبل ما تحرك خاطر الشيخ، لتلك المنازل المواطر، سأل الشيخ أحمد، فكاشفه قبل الاستشارة وصرح وما اعتنى بالإشارة. وجاءه في هذه الأثناء الأخ الشيخ مصطفى بن عمر الخلوقي وطلب للولد القلبي الشيخ إسماعيل الحرستاني بالدعوة والإشارة، ولبس الكسوة على المعتاد، فأذن له.

---

[245] - مصطفى البكري الصديقي (1099هـ 1162هـ 1678 ت 1748م) مخطوط في خزانة الكتب الخالدية بالقدس

[246] - وإليه تنسب الكاظمية وهي ضاحية من ضواحي بغداد، عدد سكانها اربعون الفاً، وفيها مقام الكاظم وولده

[247] - هو ابو محمد الجيلي الحنبلي ولد بجيلان سنة (491هـ) وتوفي (561) القطب الكبير.

[248] - توفي (161هـ) ودفن في جزيرة من جزر البحرية بلاد الروم مجاهداً.

[249] - نسبة إلى منين وهي قرية خضرة نضرة شمال جبل قاسيون إليها ينسب الجوز المنيني لرقة قشره وبياض قلبه وإليها ينسب الشيخ احمد بن علي المنيني مؤلف كتاب «الإعلام بفضائل الشام»

ثم كرر الشيخ الاستخارة في السير، فوقع الإذن بالمسير يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رجب سنة [1128هـ - 1715م] فتوجه وبات في قرية (القصير) ورافقه بعض الإخوان مودعين ثم سار إلى أن وصل (القُطيفة) ومنها إلى (قارة) ومنها إلى (النَّبْك)[250] المشتية أهلها فيها والمصيفة، ثم إلى (حسية) ومكث يومين ومنها إلى حمْص[251] وهو بلد يذكر ويؤنث. وأقام في جامعها الكبير، وزار من بعيد مقام خالد بن الوليد، مات بحمص سنة إحدى وعشرين [641م].

ويقول الشيخ (ولم يعشم لنا نصيب، بدخول مدينة حمص العجيب، تكويناً ومزدرعاً وأمواهاً، لأن الخراب عمها حتى فيها ظهر وتناهى، وكان أكثر خرابها من الموالي[252] الذين من والاهم لم يوال الموالي، على أن فيها من المزارات والسادات الكثير ويغلب على أهلها البلاهة والتغفل[253] مع الجد والتشمير، ولقد دخلت جامعها الكبير فرأيته آيل إلى التعمير، فصليت فيه الظهر والعصر، بنفر غير كبير).

وفارق حمص في الصباح، ولم يسر غير قليل حتى بزغت الشمس وإذا بخيول كأنها سيل يسيل من عرب يفسدون في الأرض دون إصلاح، لا يعرفون صلاحاً ولا سلاحاً حتى في صلاح، يرون نهب أموال الخلق مغنماً، وسلامة الخطار من شرهم مغرماً، فانعمت القافلة كالحرف المشدد، وانحازت المقاتلة إلى جهتهم بالرأي المسدد، فصرف الحق قلوبهم وفلوا[254] وبعد الكثرة والاجتماع تفرقوا وفلوا وشم الشيخ قرب انصرافهم رائحة قرنفل فقال (قُرِن فلَّ ربهم) فولوا، ولم يجعلوا على ما أملوا، وأصابهم من الله ضيراً، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وعند قرب جسر الرستن كرف[255] ورداً، فقال الشيخ وراد فإذا قافلة تكد كداً».

وفي قرية الرستن مرقد الإمام أبي زيد طيفور بن عيسى البسطامي[256]، والمذكور

---

(250) - [قارة بعد النبك وليس قبلها- تيسير خلف]

(251) - كورة بالشام مشهورة، اهلها يمنيون، قال سيبويه هي اعجمية لذلك لم تنصرف وقد تذكر والعرب تقول «اذل من قيسي في حمص»

(252) - قبيلة الموالي قبيلة كثيرة العدد تضرب في البادية السورية، ولها بطون كثيرة، واليها ينتسب آل العابد في دمشق وآل طوقان في جبل نابلس، وآل ابو ريشة في حلب

(253) - هذا قول عام لا يستند على اساس ولعل ذلك من آثار اختلاف القيسيين واليمنيين

(254) - فل القوم كسرهم وهزمهم تفلل القوم انكسروا. وقوم فل اي منهزمون

(255) - شمّ

(256) - إليه تنسب الطريقة البسطامية، من رجال القرن الثالث (261هـ) مقامه في جبل بسطام وله في القدس زاوية وكذلك في الرملة واليه ينتسب آل الغصين في الرملة وغزة ولد. وهم شيوخ طريقته في الرملة

له مشيخة على الشيخ، فقرأ له الفاتحة. وقرب العصر وصل حماة، ونزل في جامع مطل على العاصي. وسأل الشيخ من أهل البلد عن سبب خراب ديرتها، فقالوا له قبيلة العرب الموالي التي تنفر الطباع من سيرتها. وقد أشجاه صوت نواعيرها السامي، وأبكاه سراً إذا أبكاه جهراً تذكار مريع مريع وطنه الشامي، غير أن نواعيره صغيرة، وهذه كثيرة كبيرة، وأنشد بيت الصلاح الصفدي: [من الكامل]

أبدى لنا الدولاب قولاً معجباً | لما رآنا قادمين إليه
إني من العجب العجيب كما ترى | قلبي معي وأنا أدور عليه

قال في القاموس: العاصي العرق لا يرقأ ونهر حماه واسمه الميماس والمقلوب، لقب به لعصيانه فإنه لا يسقي إلا بالنواعير.

وسار إلى المحطة ونزل على العاصي، قرب ناعورة تسقى مروجاً أنيقة فتثبت النبات الحسن النهج والطريقة، وفي الصباح سار يقطع البطاح، ويوصل الليل بالنهار من السهاد، وكان قد وصل إليه كتاب من بعض الأحباب، صدره بـ: [من الرمل]

يا نسيماً هب من وادي قبا | خبرينا كيف حال الغربا
كم سألنا الدهر أن يجمعنا | مثل ما كنا عليه فأبى

وتوجه نحو (المعرة)، وهي على مرحلتين من حلب فبات بها، ثم سار إلى قرية (سرمين) المحتوية على الألوف لا المئين، ونزل في جامعها الحصين وسار ليلاً قاصداً حلب وشهباء، وأصابه عطش لقيظ وحر، حتى وصل سبيل المرأة المرحومة، فشرب وشربت القافلة، وكان معه أخوه لأمه أحمد فسبقه معلماً والده الحاج إبراهيم الطويل، فأخذه إلى بيته في القلمة، وكانت تصعب عليه الطلمة، وبعد ثلاثة أيام نزل إلى خلوة في العادلية. وكان الوصول إلى حلب في أوائل شعبان المبارك.

وبعد أيام جاءه رفيق السفر السيد مصطفى المنيني يرجوه بإلحاح أن يمدح مفتي الديار الحلبية أبي السعود الكواكبي. فتردد الشيخ مراراً من الظهور ولكنه نزل على إصرار رفيقه فقال:

سماء الدنا قد زينت بالكواكب | كما زينت الغبرا ببيت الكواكبي
أناس لهم في ذورة المجد منزل | يجل ويعلو فوق كل المراتب

وقد سر بها المفتي، ودعا الشيخ إلى داره ولما استقر به المقام جاءه عمر أفندي النقيب وسأل عنه، وعن ابن عم الشيخ، وسبب تغير مزاجه، وكان قد اجتمع به لما أتى مع

أعيان الشام لملاقاة الشيخ مراد، فأجابه إن هذا الأمر أخبر الشيخ عبد الغني النابلسي. ثم استفسر عن قضية الدراهم التي طلبت منه بعزمان، فلخص له القصة أنها كانت زوراً وبهتاناً، ومن جملة الشهود على أنها باطلة الشيخ عبد الغني، وأعيان الشام وقد أعلم الشيخ المذكور الوزير بالقضية في مكتوب كبير فجاء العفو، وقبول شهادته. ولم يجتمع الشيخ البكري بالمفتي إلا في العيد بعد الصيام، وكان يتردد وهو في حلب على تكية الشيخ أبي بكر بن أبي الوفا، وليس في خارج حلب أنزه من تكيته وأعجب، ولذا قيل فيها صالحية[257] حلب واصطحب معه شيخ التكية، الشيخ علي، وتردد عليه مراراً، وتمرض هو والدادة[258] علي، وعوفي المذكور وتوفي الدادة. وطلب الشيخ مصطفى المنيني رفيقه في الطريق الرجوع، فكتب الشيخ كتاباً إلى الشيخ إسماعيل الحرستاني وطلب منه أن يسلم له على الحاج إبراهيم الدكاني ويستدعيه فلما حضر، أذن للشيخ مصطفى بالسفر.

وممن زاره في حلب الحاج علي الكارجي (وطلب منه الخلوة، ورجا الذكر يوم الفتوة) فأناله مأموله، ولتصحبه معه إلى (الحلوية) وحضر ذكر السيد محمد، خليفة الشيخ قاسم الخاني وكان المنشد الشيخ حسن، وكان ينشد أبيات سيدي أحمد ابن عبد الله إسكندري ولما وصل إلى قوله: [من الطويل]

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما حسن العفو

فبكى وأبكى الحاضرين. وكان الشيخ يتردد على هذا المجلس لالتماس البركة مستعملاً الذكر القلبي الخالي عن الحركة ويقول عن أهل حلب والعهدة عليه (ورأيت في هذه الكرة أن أهل حلب عندهم رقة وخلاعة بالمرة، وأنهم أخلع من أهل الشام للعذار وأشجع في تناول أقداح الغرام لوجد ثار، وأهل الشام أجلد في السير وأخلد في طلب المير لأرض الخير، فإني كنت أراهم عند سماع الأشعار المديحية في رمضان يبكون ولدى قراءة القرآن لهم خشوع وسكون).

ولما سمع زوج والدته الحاج إبراهيم الطويل بنية الشيخ زيارة بغداد منعه وأقسم عليه، خوفاً من الحر ومن شر العريان فعزم على زيارة سلطان الزهاد إبراهيم بن أدهم.

---

[257] - المحلة المعروفة بدمشق، نزلها بنو قدامة لما هاجروا من جماعيل (جبل نابلس) في أيام الحروب الصليبية ولكن الصديقي يتحدث هنا عن صالحية حلب

[258] - الدادا كلمة محرفة عن كلمة (داية)، أطلقت في عصور العباسيين على المربي والمربية وفي كتاب أخبار أبي نواس الجزء الأول لابن منظور صاحب كتاب لسان العرب، ذكر لرجل قال انه كان (دايتي) ويحتمل ان تكون (الدادة) محرفة عن الددا. والددا معناه اللعب ولأن المربي والراعي للطفولة شأنه ان يأخذ الطفل بالتلعيب واسمه دده وتصحفت فأصبحت دادا، والدادة في التركية المربي وهي من المصطلحات الصوفية

فتوجه في منتصف شوال إلى تلك المحال، وسار إلى قرية (كفتين) وهي من قرى طرابلس الشام، وهم ليسوا من أهل السنة، ينتظرون نزول الحاكم بأمر الله، ووصل (جبلة) وزار مقام إبراهيم بن أدهم وأقام هناك ذكراً.

وسار في اليوم الخامس والعشرين من رجب ومر على طرطوس، ورأى قلعة أرواد، وجاء الرفاق منها بزاد، وشاهد قلعة المرقب المنيعة، وبات قريباً من البلد في مكان نزيه يقال له بركة البداوي. وقدم إليه الشيخ مصطفى القلا ونزل مدرسة الحدادين ثم خلوة الجسر المسكين، ثم القادرية البهية، واختلى بها العاشر من ذي الحجة. وكان الشيخ عبد الله الخليلي المهتدي يتردد عليه، ومدرسة الحدادين قريبة من دار السيد مصطفى القلا، وانضم إليهم الحاج محمد بن الحاج موسى العطار، ثم الشيخ مصطفى الرفاعي ودعاه لداره، وطلب الطريق وتبعه الشيخ عامر الصميدي، وكانا لا ينفكان عن قراءة الأوراد الأول في تكيته، والثاني في (المنية) في مسجده عند جماعته.

وكان جناب الصديق السيد محمد التافلاتي نجل مولاي أحمد[259] وهو ابن عم مولاي إسماعيل ملك المغرب، ينتهي نسبهم إلى سيدي عبد الله المحصن، قد ورد إلى طرابلس من بيت المقدس، ولم يكن الشيخ قد اجتمع به قبل ذلك، فأرسل يطلب الاجتماع بالشيخ فسر به ولكنه لم يطل الإقامة، وكرر الزيارة. وذهب الشيخ بعد ذلك إلى قرية (المنية) لزيارة مقام النبي يوشع، وقراءة الأوراد، واصطحب معه زمرة من أفاضلها كالسيد علي ابن دبوس، وأخيه السيد محمد والسيد أحمد المفتي، ومن بيت السيري، الشيخ أبي حامد العمري، ومن أولاد السيرمي الشيخ عمر.

وأكثر الشيخ التافلاتي التردد على الشيخ، وكذلك الشيخ عبد الله، وتردد الشيخ عليه في المدرسة التي نزل منها في سوق الحدادين، وتوجه للمنية غير مرة وبات لدى الشيخ عامر الصميدي. وورد عليه كتاب من الشيخ أحمد الميقاتي بالقدس، يبلغه حلول دار السلامة بسلامة، وضمنه سؤال طويل، عن بيت لسيدي عمر الفارض الذي يقول في مطلعه: (أروم وقد طال المدى، منك نظرة) فأجابه برسالة سماها (رفع السير والردى عن معنى قول العارف أروم وقد طال المدى). ثم كرروا على زيارة يوشع بن نون، للوداع، وصحب كل واحد منهم زاد قناق، وجاء السيد محمد بن أحمد التافلاتي بصحن كبير من المغربية ما لها نظير فأكلوا بعد الشبع. وبعد العشاء أقاموا مجلى ذكر وكان الحادي الأخ الحاج إبراهيم الحرستاني، وغيره ممن صحب الشيخ في سيره الرباني.

---

[259] - هو مفتي الحنفية في القدس (1192هـ)

[إلى القدس]

وفي أول جمادى الثانية عزم الشيخ على التوجه للقدس، ولم ينثلج صدره إلا للتوجه في البر دون البحر، فبات ليلة الوداع عنده الشيخ مصطفى بن الشيخ سليمان الرفاعي، والسيد مصطفى القلا، والشيخ عبد الله وجماعته، وكانوا قد تجمعوا فوق الثلاثين، وتوجه الشيخ إلى بيروت وقطع نهر الديمور[260]، ونزل في جامعها الكبير المعمور، ودعاه الشيخ مصطفى الحجيجي الشامي ومر بعد الظهر بصيدا، وقطع جسر نهر الكلب ليلاً أقام فيها خمسة عشر يوماً ينتظر السير براً فما تيسر إلا بحراً، فركب منها ضحوة ووصل قبيل الغروب عكا، ونزل في جامع البحر، واجتمع فيها بصديقه القديم الشيخ أحمد، وسار بعد العشاء مع القافلة نحو جينين وقطع نهري النعائم[261] والمقطع ثم أتى جينين وبات فيها ليلتين عند الحاج عبد الرحمن وفي صبيحة الليلة الثانية سار إلى نابلس، وبات عند أولاد سيدي يعقوب[262]، وفيما هو هناك وفد عليه السيد محمد السلفيتي بغير اتفاق فسر به. وقرأ له الموشح الأول الذي نظمه ومطلعه: [من مخلع البسيط]

إن رمتمـــوا تـــشربوا الحميـــا	وفي حبيـــب الحـــشا تبـــاهوا
فـــشنفوا سمعـــي وقولـــوا	الله الله الله يـــــا هــــــو

والموشح الثاني ومطلعه: [من الخفيف]

بـــارق القـــرب حـــين لاح لعـــيني	غبـــت عـــني وزال عـــني أنـــيني
وانمحـــت ظلمـــتي بـــذاك وغـــيني	وشـــهدت الحبيـــب في المحـــراب

وقد بكى السلفيتي عند سماعهما. وارتأى عليه المنام عند المحب الشيخ خليل الحارثي خليفة الشيخ محمد المزطاري، فبات في خلوته التي في المارستان[263] ليلتين، وبعد الشمس سار إلى قرية (حجة)، فتلقاه أهلها بالترحاب، ونزل في الخلوة المرفوعة، وبات ليلتين، وتوجه عشية النهار إلى (دير أسطيا)، ورأى مجذوبها الشيخ خاطر في بعض القرايا خاطر. وكان الشيخ وهو في نابلس أرسل للإخوان في القدس، خبر قدومه على الديار

---

[260] - نهر الدامور جنوبي بيروت، ونهر الكلب شمالي بيروت ولعل الشيخ اهتم بالسجع

[261] - هو نهر النعامين

[262] - هذا المكان هو جامع شرقي نابلس ويعرف بجامع الأنبياء وبه بئر نبع وهو غير بئر يعقوب قرب قرية عسكر.

[263] - قرب الجامع الكبير بنابلس

ليتهيئوا له محلاً للنزول، وبعد صلاة المغرب سمع عن بعد صهيل خيل، ورأى عجاجة، فسأل فقيل إخوان صفا من سكان القدس، وكانوا السيد أحمد الموقت ونور الدين الهواري ومعه جمع من الإخوان فسر بهم كثيراً. واقترح بعضهم زيارة سيدي علي ابن عليل[264]، فوافقوا وكدوا السير إلى (كفر ثلث) واجتمع الشيخ فيها، بالشيخ علي الرابي، ووصل المقام بعد أن دخل الغابة[265] ليلاً خوفاً من الطير[266] وجاءه هناك الشيخ رضوان الزاوية ومعه كبكبة[267] من أهل الود، فبات ليلة طيبة، وسار على طريق الطواحين وأقال لشدة الحرويات في (الزاوية) عند رضوان، ودعاه إلى (مسحا)[268] الشيخ طه، ومنها إلى (بديا) ثم (سرطا) فتلقاه بها مصلح بن صلاح الدين وزار الولي المشهور فيها الشيخ عبد الله. ثم أتى (كفرعين) ونزل عند مقام العيص، وفي أواخر جمادى الثانية دخل بيت المقدس ونزل في الخلوة البيرمية الفوقانية[269] وصحبته، الشيخ إسماعيل بن جابر بن رجب النبيل بن أحمد البغدادي، وكان أرسل للشيخ محمد من حلب كتاباً صدره بقصيدة يعارض فيها قصيدة شيخة، الشيخ عبد الغني النابلسي: [من الطويل]

صرفنا عنان العزم عن غيرها صرفاً   وقمنا إليها نحتسى خمرها صرفاً

كما أرسل له من طرابلس الشام ثلاثة كتب[270] ضمنها أكثر من قصيدة. وانتقل في أول رمضان من البيرمية إلى خلوة جار الله[271].

وفي أواخر شوال سنة 1129هـ [تشرين الأول عام 1716م] شرع الشيخ في عمارة الخلوة التحتانية البيرمية، وساعد في عمارتها جناب عثمان باشا المهتدي، وصار الإخوان يجتمعون فيها للأوراد. وزار مقام النبي موسى بصحبة صديقه الشيخ محمد الخليلي، وجعل مقره في خلوة الشيخ يونس شيخ الحرم. وقبل العيد الكبير سار الوزير [رجب باشا]

---

(264) - يقع مقامه شمالي يافا ويعرف بسيدنا علي، وهو ابو الحسن المشهور عند الناس بابن عليم ونسبه يتصل بسيدنا عمر بن الخطاب توفي (474هـ) عمر مشهده الحالي سنة (886هـ) عمره ابو العون الغزي شيخ القادرية

(265) - كانت هذه المنطقة مكسوة بالأشجار خطرة المالك

(266) - التطير والتشاؤم

(267) - الجماعة

(268) - قرية جنوب غربي سرطا.

(269) - نسبة إلى المير بايرام جاويش بن مصطفى توفي (947هـ)

(270) - يستدل من كثرة الرسائل والكتب التي كان يرسلها الشيخ من امهات المدن أو يتلقاها، على انتظام سير القوافل ووجود ما يشبه نظام بريد.

(271) - هائلة مقدسية كانت تعرف بأبي اللطف الحصكفي، خرج منها علماء ومفتون

لملاقاة الحج. وبعد قدومه من ملاقاة الحج جاء البشير بإسناد منصب ولاية حلب لرجب باشا، فسر الشيخ، وقد توجه الوزير، وكان صديقاً للشيخ إلى حلب في شهر ربيع الأول. وفي ربيع الثاني عزم الشيخ على زيارة الخليل ومنها إلى غزة وعسقلان ووادي النمل ويختم بزيارة علي بن عليم العمري. وتوجه ومعه الشيخ محمد الموقت، والشيخ نور الدين الهواري والشيخ رضوان الزادي، ونزل داراً قريبة من الحرم وورد عليه الشيخ عبد الرحمن الخطيب والشيخ محمد الطرعاني والأخ محمد القميري صاحب الميقات وغيرهم. وكان الشيخ إبراهيم الدكاني ينشد لهم من قصيدة للشيخ عبد الغني النابلسي مطلعها: [من الخفيف]

أنت قيد الوجود إن غبت غابا   وإذا ما ظهرت كنت حجاباً

وقصد زيارة عسقلان، فتوجه إلى بيت (جبرين) ونزل لدى علقتها، ومنها إلى (الفالوجة) وزار الشيخ أحمد الفالوجي، وسار نحو المجدل، وبات عند رجل معبد، يقال له ابن معبد، وأم عسقلان وزار شهداء المعركتين ووادي النمل، وأتى قرية (الحورة) وتوجه إلى قرية (حمامة) وزار الشيخ أبي عرقوب، وبايع عنده الشيخ يحيى المجدلاوي وابن أخيه، وسار في الليل وبات عند العرب الموالح، وسار إلى الرملة مدينة فلسطين، وصلى العصر في جامعها الأبيض، ونوى أن يتعداها إلى (لد) وزار مقام سيدنا علي رضي الله عنه، كما زار الجبانة، وبات عند الصديق المسعود الأعلى الشيخ أبي السعود المدود العلمي، فأكرمه وفي الصباح قصد زيارة أخيه الشيخ حسين العلمي. ثم توجه إلى قرية (عابود) ومنها إلى قرية (سلفيت) وبات بها، وتوجه في الضحوة إلى نابلس ونزل في التكية الدرويشية، وبلغه وهو فيها أن الشيخ محمد الخليلي ومعه النقيب السيد محب الدين يقصدان الشام للاجتماع بمتوليها قريباً جناب رجب باشا، للسلام. وكان قريبه الشيخ إبراهيم بن سعد الدين الجباوي قد وصل إلى نابلس بعد أن زار الخليل، فسلم عليه، ومن بني سعد الدين جدة جد الشيخ فهم أخواله، وبقي الشيخ في نابلس في التكية. وكان معمر الدرويشية سيفي أغا البكداشي الطريقة ذهب للديار الرومية، وأبقى مكانه شاباً اسمه أحمد. وممن زاره حسين بيك بن شرة، ودعاه لداره مع الأخوين السلفيتي والموقت فقبل دعوته. ودار بينه وبين الدرويش أحمد البكداشي حديث وقد أخبره الشيخ عن الشيخ عبد الغني النابلسي أنه قال بمناسبة حمل البكداشية للبوق وضربهم به في المساء والشروق، أنهم إنما يفعلون ذلك لتنفير الوحوش في المهمه الموحش المفروش، لأنهم يسيحون في المهاد فيحتاجونه لدفع أنكاد، فقال الشيخ نعم أنهم يضربونه لطرد وحوش الخواطر في مهمه

القلب الموحش المفروش بغير المواطر. ثم إلى قرية (حجة) وأقام بها في خلوة الجامع المرتفعة مع إخوته. ورأى عند الشيخ محمد شرح الجزائرية للشيخ قاسم الخانية ورأى بخطه قصيدة أبي مدين الغوث التي مطلعها: [من الطويل]

أدرها لنا صرفاً ودع مزجها عنا   فإنا أناس لا نرى المزج مذ كنا

وسار نحو قرية (عزون) وبعد الأكل وشرب القهوة عاد إلى (حجة) وكتب منها مكتوبين للإخوان، وودع رفاقه، وتوجه إلى (المجدل) قرية من قرى بني صعب، وإذا بخيول تتجارى في سهول الغابة وانقشع الغبار عن سحابة، فقيل له إن تلك الخيمة الزاهرة اللامعة نصبت للوزير جناب رجب باشا أمير الحاج صديقه، فأراد الاجتماع به، وما تغبرت الأقدام حتى ارتفع ذلك الخام، فجد بالسير نحو (عتيل) وبات فيها عند الشيخ عبد الله المغربي، ثم توجه نحو قرية (الهويج) وكان قد عمرها الشيخ صالح بن الشيخ سهل، فرحب به، وأقام بها يومين، وكرر شرب القهوتين، السوداء والبيضاء، ودعاه الشيخ قاسم أخو الشيخ صالح إلى قرية (المغار) وزار جدهم رفيع المنار وبات فيها أربع ليال، ولم يزل يسير إلى أن وصل قرية من قرايا مدينة صفد التي صفاها بالاندثار مصفد، فأنزله الأخ محمد عند صديقي يقول له أسعد، فبات عنده ليلتين. ثم بات في قرية ملئت بالفرقة الدرزية عند رجل من أهل السنة وبكر منها إلى جنان (حاصبية) ومنها إلى كفر قوق الدبس، ومنها إلى كفر قوق الفستق، ومنها إلى حارة القبيات، ونزل في دار المكاري للراحة، لا للبيات، ووصل دار صهره الشيخ إسماعيل التي جددها.

وكان قد نزل الخلوة بتوصية منه إلى صهره، جناب الصديق السيد محمد التافلاتي، مفتي القدس، والذي رافقه في طرابلس الشام. وجاءه للسلام وودعه في اليوم الرابع فانتقل الشيخ إلى الخلوة وأخذ بزيارة جدوده، لدى الشيخ أرسلان، والصالحية في دمشق، وزار شيخه الشيخ عبد الغني النابلسي وبات في خلوة داخل الجامع المحيوي، ومفتاحها بيد خادمه الشيخ إبراهيم الختمي، وبايع فيها شاب يدعى عثمان حرشي، وعاد في الصباح من طريق عين الكرش إلى مرج الدحداح وزار جده الأعلى سيدي محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ثم شيخه المرحوم الشيخ عبد اللطيف، ثم توجه إلى جنينة تحت القلعة وزار سيدي عدي بن مسافر، وقبره ملاصق لشجرة عظيمة مكتوب عليه عدي بن مسافر كتابة قديمة، وللمذكور ديوان، وعاد مع رفاقه للخلوة.

واجتمع الشيخ بوالي الديار صديقه [رجب باشا] وكان معه خبر قضية العم محمد

أغا البكري[272] الصديقي، وقد فاتحه في أمر زواج ابنته من الشيخ، فوعده خيراً، وأضاف أنه سيهبه مسكناً وسكناً، ويدخله على ابنته فرضى منه الوزير، بهذا الوعد المرقوبي، وصار عينه به، وسار الشيخ مع صهره إلى حرستا لحضور ختان ولديه السيد محمد أبي الفضل والسيد أحمد أبي الهدى.

وأراد بعض الإخوان الرجوع إلى القدس وذلك سنة (1130هـ) فحملهم كتباً للأخوان في القدس، ومنهم الشيخ محمد الخليلي، وكتاباً للإخوان في مدينة الخليل ومنهم الشيخ عبد الرحمن الخطيب التميمي، وقصائد تصف شوق الشيخ إلى تلك الربوع.

ولما دخل شهر رمضان حرك الله همة عم الشيخ، لزيارة البيت، فقال الشيخ في نفسه إن ذهابهم في صحبة الوزير، رجب باشا، وكان أميراً للحج فيه فائدة، أضف إلى هذا أنه يتقرب إلى قلب عمه، ثم يقضي فرضه، فرضي عمه بذلك، وقد ذكر الشيخ ما وقع له في هذه المرحلة في رسالة [الحلة الحقيقية لا المجازية في الرحلة الحجازية] والتي انتهت بوصول الشيخ إلى الشام في السابع والعشرين من شهر محرم سنة (1131هـ) [كانون الأول 1718م].

ولما عاد الشيخ من الحج، ألح الوزير على عمه إنجاز ما وعد به بشأن زواج ابنته، ولكن عمه لما بلغه خبر عزل رجب باشا عن الولاية عدل عما كان قد وعد به من أمور فيئس الشيخ وقطع أمله من ابنة عمه، فعول على بيع بعض أملاكه وحصة في بستان الدولابي والحاجب، وبستان النصراني، وسود في هذه المدة أفقية في التصرف.

وكان الشيخ قد فاتح السيد محمد السلفيتي ووعد الشيخ نور الدين الهواري أنه إذ لم يحصل مع عمه اتفاق بشأن الزواج، فإنه يرجع لأخذ ابنة بنت أخيه الروحي، أي حفيدة السلفيتي فحسن له ذلك، وعلى هذا عزم الشيخ على السفر إلى القدس للزواج وذلك في أواسط ذي القعدة سنة 1131 هـ مع جمع من الرفاق، فودعه صهره في المرجة في دمشق، وسار إلى (المزة) وزار قبر دحية الكلبي، ومنها توجه مع جمالة (جينين) في الليل واجتمع بالشيخ محمد بن يس الملقب طبيعة ويات في خان سعسع ومنها إلى قرية الجيب، وهي مشهورة بالسمن لجودته وهو مشهور في قطرها بطيبته، ومنها إلى الجسر ثم المنية، ثم عيون التجار ثم جينين ذات المياه والأشجار، وكان تعارف بالشيخ في الطريق السيد مصطفى التميمي فدعاه إلى بيته فأجاب الدعوة. وسمع بعد المغرب صوت خيل وطارق،

---

[272] - كان الشيخ مصطفى يأمل ان يتزوج من ابنة عمه محمد اغا البكري ووسط الوزير فلم يفلح واخيراً تزوج ابنة بنت السيد محمد السلفيتي ورزق منها بنتاً توفيت في القدس

وإذا هو السيد محمد السلفيتي وسار في الصباح إلى قرية (الزاوية) وأقام تحت شجرة البطمة، وكان قد دخل هذه القرية أحد أجداد الشيخ رضوان واسمه قاسم فقال الشيخ موالياً.

قاسم حبيبك على ما تملكوا قاسم	فرد علا في المحاسن اسمه قاسم
بل سلموا الكل إذ حبو الحبيب قاسم	لازال في حرز من يدعى أبا القاسم

ثم توجه للقدس وبات في قرية (بيتونيا) ويقول الشيخ في أمر زواجه (ويوم الخميس آخر ذي القعدة النفيس أقمنا في الحرم نستقبل أهل الكرم، وبعد مضي أيام الضيافة تعرضنا للنكاح بغير آفة، وفي يوم الأحد جرى القلم به بحول الأحد، أوائل ذي الحجة الحرام من العام، العام الأنعام، وليلة الخميس حصل الدخول الواجب التأنيس) وقد أرخ الزواج صديقه الشامي إذ قال (زفت الزهراء للقمر) سنة 1131هـ.

ولما حلت سنة 1132هـ [أواخر عام 1719م] ومضى منها حصة، تحركت همة الشيخ لزيارة القاهرة وذهب بهذه النية إلى الخليل، ولكن لم يتيسر له السفر إلى مصر فعاد إلى القدس. ولما عاد خطر له أن يخلف الأخ السيد محمد السلفيتي فباشر ذلك في المولوية[273] وألبسه الكسوة الخلوتية، وأذن له الإذن العام.

وقريباً من ختام هذا العام ورد ا لوزير ذو الاحترام رجب باشا متوجهاً إلى الكناية بإقدام، وطلب بإلحاح وإبرام أن نصحبه وجناب الشيخ محمد الخليلي الهمام فقسم النصيب قهراً وسرنا معه إليها جبراً وقسراً، وقد ذكرنا ما جرى فيها إلى سنة 1133هـ. في الرحلة المسماة (النحلة النصرية في الرحلة المصرية).

وبعد العودة من مصر شرع في رسالة المنهل العذب السايغ الواردة في ذكر صلوات الطريق وأوراده، وكان في مصر بيض الصلاة البرية والألفية ومنهج الصوفية، وأخذ عنه في مصر الطريق الشيخ محمد الحفناوي. وفي سنة 1133 شرح الشيخ صلوات سيدي عبد السلام بشيش المسمى بـ(الروضات العريشة على الصلوات البشيشة)، وبيض (السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد) وتمرض الشيخ سبعة أشهر وأكثر، وفي أواخر مرضه جاءت والدته لما سمعت بمرضه البدني، وجاء الوزير المقدم أمير جردة ومعه الصهر الشيخ إسماعيل المدرس تحت القبة، وودع الوزير في الخليل وفي صحبته صهره الذي عاد للديار الشامية بعد أن اطمأن على صحة الشيخ.

---

(273) - زاوية في القدس، يرأسها الآن العارف بالله الشيخ عادل المولي الطرابلسي

ومازال كذلك إلى أن جاءه الخبر بأن عمه أصدر عليه حجة نفقة ووكل السيد محب الدين النقيب في تحصيل ما حرر، فاستخار الله في السفر إلى جهة حلب لينال الظفر لأن الوزير (رجب باشا) صديقه منجم فيها بحال موفور فاستبشر وتوجه في رحلة سماها (تفريق الهموم وتفريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم). وقد أدرج الشيخ في آخر هذه الرحلة ما ذكره في الرحلة الرابعة والخامسة القدسية، ثم المصرية، ثم أوصلها بالرومية . انتهى.

النحلة النصرية في الرحلة المصرية 1719م

لما دخل شهر جمادى الآخرة من سنة (1132هـ 1719م) أراد الشيخ مصطفى البكري زيارة الخليل ومنها إلى القاهرة، ذات الربوع الزاهرة، وأقام في الخليل أياماً، جاءه فيها شيخ موهوب مجذوب يكنى بأبي جاعد، فسأله الشيخ بالإشارة عن التوجه إلى مصر، فأومأ بيده نحو السماء، مشيراً بأن العلم لله. وخرج مسرعاً ثم عاد، فكرر الشيخ السؤال فأعاد المجذوب الجواب. وأخبر عن رجل صالح أنه يقول إنه تراءى له سيدي اسحق وقال له قل لفلان يرجع إلى وطنه، فعدل الشيخ عن السفر. ودعاه الأخ الشيخ عبد الرحمن الخطيب بن الشيخ أحمد التميمي إلى كرمه خارج الخليل، وكان قد اتصل بطريقة الشيخ مثل ذلك، فأجابه وكان الوقت قيظاً، فحصل للشيخ من ذلك مشقة.

وعاد الشيخ مصطفى إلى القدس، وأقام إلى أن مضى شهر الصيام. وفي شوال توالت الأخبار بأن جناب الدستور المكرم والمشير المفخم الحاج رجب باشا تولى الديار المصرية، ومراده زيارة الأراضي القدسية والخليلية، ومنها ينزل إلى العريش، وكان له مع الشيخ صحبة ومودة، من مدة طويلة. وتحقق حلول ركابه في مدينة نابلس، فسار الشيخ لاستقباله مع شيخه الشيخ محمد الخليلي، ودخلا عليه، وكان الباشا ينزل عند نقيب أشراف نابلس السيد محب الدين، فدعا الشيخ لصحبته إلى أرض الكنانة، فأحاله على الشيخ محمد الخليلي فوجه إليه الخطاب فتعطل، ولكن الباشا ألح وأبرم فقبلا الدعوة.

وبعد زيارة الخليل، والمعاهد والمشاهد فيها، سارا صحبة الباشا إلى بيت جبريل، ونصب لهما خيمة، وعين لهما ما يحتاجان إليه من كثير وقليل، ولم يكن للشيخ في هذا المسير رغبة، لما فيه من المخاطر، وما كان قد استعد لمثل هذه السفرة الشاقة، وودع الذين صحبوه، وشرع لفوره في كتابة رحلته وسماها (النحلة النصرية في الرحلة المصرية)[274] وسار في الصباح لغزة وقال فيها من قصيدة: [من الخفيف]

---

[274] - مخطوط في خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس ولد مصطفى البكري الصديقي سنة (1099هـ وتوفي 1162هـ).

وارِدُ الشوق غـز في القلب غـزة	عنـدما جئـت أبتغـي أرض غـزة

ثم سار إلى خان يونس، وبات فيها وقال فيها مواليا:

يا فرحتي مذ بدا المحبوب لي يونس	مسامري بين ندماني لخان يونس
سألت ما الاسم بدري قال لي يونس	وقلت والأصل حبي قال لي يونس

واستأنس بأصحابه وبكر نحو العريش وقال من قصيدة: [من الخفيف]

عـرش الحـب في الحـشا تعريـشا	حـين حـل الملتـاع فيـه العريـشا

وأقام ثاني يوم ينتظر ذخائر القوم، ثم توجه نحو (بير العبد) ذي الماء الملح فلم يطق فيه مقاماً، وجهد حتى وصل (قطية) ومال لسهلها ونزل عليه، ورحل إلى (الصالحية) وتلقاه هناك نذر من جند مصر المحمية. وكان رافقه من غزة هاشم الشيخ صالح مفتيها، فتمرض في الطريق ودفن في الصالحية. ونجا بعد ذلك جهة (القرين) والوزير يرمقه والشيخ محمد الخليلي بعين، ويتفقد أحوالهما فيزول عنهما الغبن.

ونزل بعد ذلك نخيل (بلبيس) وارتحل للخانكه[275] وأتاها ليلاً، وأمر الوزير بعض من عول عليه من جند مصر، بإنزالهما داخل المدينة في مكان مناسب، وأرسلهما مع خادمه إلى دار محمد بك المكنى بأبي الشوارب، وورد عليهما للسلام أعيان البلد، وهي دار واسعة الأكناف، ممتدة الجوانب والأطراف، مقسمة إلى بيوت أربعة، كل بيت يسع الصنجق[276] والذين معه. ويقول الشيخ في وصف الدار (وكنا في ربعها نتيه، ونكاد إذا درنا في جنباته أن نتيه).

ولما دخل مصر القاهرة، شهد مدينة بالمباني الفاخرة، ورأى فيها أشياء كثيرة، لم يرها في غيرها من المدن الشهيرة، فتحقق أنها بلدة جمعت محاسن خطيرة، ولم يقل كما قال البعض إنها قرية كبيرة، بل قال كما قال الإمام الشافعي عنها (كنت أظن أن مصر في الدنيا، فرأيت الدنيا في مصر).

وكان الوزير الكبير، سأل الشيخ قبل دخول مصر، عن محل نزوله، فأجابه في محل يكون شيخه الشيخ محمد الخليلي فيه، فسأله (ولم لا تنزل في بيت البكري الوسيع؟) فأجابه (رغبة في صحبة الشيخ الرفيع، وإن دعانا شيخ السجادة إليه أجبناه). ويقول الشيخ (وأقمنا في هذا البيت مدة، وأظهر لنا كبير بيتنا صده، وجعلنا حرفاً منسياً، كمن

---

(275) - أو الخانقاه، هو الزاوية أو الرباط، بيت الصوفية

(276) - السنجق: اللواء والدائرة تحت لواء واحد

جاء شيئاً فرياً، فنفرت النفس). وارتحل إلى دار في الخرنفش صغيرة الدائرة، تحت تصرف صديقه إبراهيم أفندي، القاضي، وهي لصيقة قاعة التجلي التي للسادة الوفائية، وكان يتردد عليها، وربما أقام ليلاً ونهاراً لديها. ويقول الشيخ إن هذه القاعة نظير قاعة الجلال التي في بيتهم، وقد دخلها شيخه الشيخ عبد الغني النابلسي.

وأول ما ابتدأ به من الزيارات الحسيبة النسيبة السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. قال المناوي في ترجمتها: ولدت بمكة سنة خمس وأربعين ومائة ونشأت بالمدينة في العبادة وتزوجت إسحق المؤتمر بن جعفر الصادق، فولدت منه القاسم وأم كلثوم، قدمت مصر ونزلت بها ببيت عمتها سكينة المدفونة بقرب دار الخليفة بمصر، ولها بها الشهرة التامة بالولاية. ماتت بمصر سنة (208هـ) وكانت قد حفرت قبرها بيدها وصارت تنزل فيه وتصلي، ودفنت في قبرها بيتها بدرب السباع بالمراغة، محل معروف بينه وبين مشهدها الآن مسافة بعيدة. ثم ظهرت في هذا المكان الذي يزار الآن وكان الشافعي يعتقدها ويزورها. قال الذهبي، وكان والدها من سراة العلويين، ولي المدينة للمنصور ثم حبسه حتى مات، فأخرجه المهدي وأكرمه ولم يزل معه حتى مات المنصور في طريق الحج.

ولها كرامات كثيرة. ثم توجه للقرافة، فزار مقاماتها. ومنها إلى زيارة مقام الإمام محمد بن إدريس (الشافعي) ولد بغزة أو عسقلان سنة (150هـ) وهي السنة التي مات بها أبو حنيفة، وأجيز بالإفتاء وعمره خمس عشرة سنة، ثم رحل إلى الإمام مالك فأقام عنده مدة، ثم لبغداد، ولقب بناصر السنة ثم عاد لمكة، ثم لبغداد، ثم لمصر، فأقام بها حتى مات سنة (204هـ) عن أربع وخمسين سنة.

ثم عطف بعد ذلك على زيارة شيخ الإسلام زكريا بن أحمد زين الدين الأنصاري السُنَيْكي[277]، ثم القاهري الأزهري ولد سنة (826هـ) وتوفي سنة (921هـ). ثم زار أسلافه الكرام السادة البكرية، ووقف قبالة القطب الكبير سيدي محمد، وقرأ فاتحة الكتاب.

وتقدم بعد ذلك لزيارة عم والده، جناب العالم أحمد أفندي نجل والد جده الشيخ كمال الدين البكري نزيل دمشق الشام والقاطن بها هو ووالده وجده، وكان وفد الجد المذكور من مصر إليها، ثم إنه استحسنها وعول في السكنى عليها. وعم والد الشيخ ورد على مصر من الحجاز معزولاً عن قضاء مكة، وتوفي ثاني يوم دخوله وذلك سنة (1118هـ).

---

(277) - نسبة إلى قرية من اعمال الشرقية

ثم سار لزيارة أبي الحارث الليث بن عبد الرحمن ابن أبي الثنا الفهمي القرقشندي وهو من تابعي التابعين، القائل رأيت نيفاً وخمسين رجلاً من التابعين. وقال في حقه يحيى بن بكير، الليث أفقه من مالك. وهو شيخ البخاري ومسلم؛ ولد سنة أربع وتسعين وتوفي عام خمسة وسبعين ومائة. وزار بعد ذلك جملة صالحة من سكان القرافة لا يمكن عدهم، ولم يزد على التمثيل في العقبات الرفيعة إلا لدى سلطان العشاق سيدي عمر بن الفارض مولده (556هـ أو 560هـ) ووفاته (632هـ).

ثم قصد زيارة سيدي محمد الحنفي نجل علي شمس الدين الشاذلي [ولد سنة 747هـ . وتوفي سنة (847هـ). ثم توجه لزيارة السند الجليل سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه، ولد سنة أربع أو ست أو سبع واستشهد يوم عاشوراء يوم الجمعة سنة إحدى وستين (بكربلا). واعلم أنهم اختلفوا في رأس الحسين بعد مصيره إلى الشام أين صار، وفي أي موضع استقر، فذهب طائفة إلى أنه طيف به في البلاد حتى انتهى إلى عسقلان فدفنه أميرها[278] فلما غلب الإفرنج على عسقلان[279] افتداه منهم الصالح طلايع وزير الفاطميين بمال جزيل ومشى إلى لقائه من عدة مراحل، ثم بنى عليه المشهد المعروف بالقاهرة، وإلى ذلك أشار القاضي الفاضل[280] في قصيدة مدح بها الصالح طلايع. وصار آخرون ومنهم الزبير بكار والعلاء الهمداني إلى أنه حمل إلى المدينة مع أهله فكفن ودفن بالبقيع عند قبر أمه وأخيه الحسن. وذهبت الإمامية إلى أنه أعيد إلى الجثة ودفن بكربلا بعد أربعين يوماً من القتل. ورجح القرطبي، الثاني قائلاً ما ذكر من أن في عسقلان مشهداً هناك أو بالقاهرة باطل لا أصل له. انتهى والذي عليه طائفة من الصوفية أنه بالمشهد القاهري.

ثم زار الشيخ، علم هذه الديار، وأحد أركان مصر، سيدي عبد الوهاب بن أحمد الشعراني يتصل نسبه بسيدي محمد بن الحنفية نجل علي ﷺ رابع خلفاء المختار، ولد تقريباً سنة (899هـ) وتوفي سنة 973هـ وقد ترجمه المناوي وغيره وترجم هو نفسه في سننه، وقد طالع الشيخ جملة من مؤلفاته، وكرر له الزيارة فهو أحد أشياخه ثم زار سيدي محمد الكردي الكائن بعد باب الفتوح، ثم مال لزورة الخواص، وضريحه بزاوية ا لشيخ بركات خارج باب الفتوح تجاه خوص، توفي سنة (929هـ).

---

[278] - بها مشهد عظيم بناه الفاطميون من خلفاء مصر (الأنس الجليل ج2 . 422).

[279] - سنة 548هـ

[280] - وزير السلطان صلاح الدين كان إماماً في الإنشاء توفي (596هـ) في القاهرة

ولقد دعاه جناب الشيخ على نجل الحنفي الولي، إلى مكان نزيه ذي أبنية وثيقة، في مصر العتيقة، وكان بحر النيل في ازدياد على المعتاد، فأركبه والشيخ محمداً الخليلي، قياسة له صغيرة، وأرسلهما للتفرج على المقياس فسارا ورأيا العمود فيه مغطى بمياه فاقت (على) الأسفنطا؛ ورأيا الماء نازلاً عما عليه كان، لأنه فاض من الدرج الخارج وعم ساحة المكان؛ ثم عادا إلى محل الضيافة، فإن أمواجه كانت كبيرة، واختلاف أهويته كثيرة، وكان كبير ذلك المحفل الجامع والداعي لبيته وضيافته جناب الشيخ عبد الرؤوف البشيشي، وقطعا ذلك النهار، والداعي الصفي نجل الحنفي الولي يلاطفهما.

وبعد أيام دعي الشيخ للإصلاح بين الشيخ محمد شنن والشيخ أحمد (اللقدوسي؟) وأقام معهم في صفا ووفا، على بركة الرطلي التي تمتلئ إذا النيل وفا، وكان يوماً مشهوداً بالأفاضل المعتبرين ممدوداً بمكارم الكريمي المستقى هو وأخوه من بحر الشاذلي، وكان أخوه قد دعا الشيخ بعد أيام للحضور في داره، وقصد بعد أيام لزيارة مقام زين العابدين.

ثم توجه صحبة الشيخ محمد الخليلي إلى جامع سيدي عمرو بن العاص بن وائل السهمي فاتح مصر، وقد لقب أبوه بالعاصي على أحد الأقوال لأنه كان يتقلد بالعصا عوضاً عن السيف فسمي بالعاصي. وكانت زيارته وزيارة سيدي عقبة بن عامر الجهني تقدمت، ورأى الشيخ في الجامع مصحفين ينسبان للإمامين سيدي عُثمان وسيدي علي رضي الله عنهما، ويقول (إنه بالبعد عن المدينة، اضمحلت بعض رسومه المتينة)، وصعد المنبر، فوعظ وسار بعد ذلك إلى مصر العتيقة وكر ثانياً إلى المقياس. ويقول الشيخ ولو أراد سرد ترجمة من زارهم في القرافتين وقبور المجاورين، لاحتاج إلى وقت طويل. وكان من الذين أخذوا العهد على الشيخ ومن المترددين عليه الشيخ محمد الحفناوي. وممن دعا الشيخ إلى داره الشيخ محمد العناني ذو النسب العمري والحسب الشمسي القمري، وأغدق عليه المبرات.

ويقول الشيخ (وكنا نستعمل القصب بكثرة غير مختصرة، حتى اتخذنا له من الخشب صغير معصرة، ويقال إن الإمام المطلبي صاحب المذهب، ابن عم النبي كان سبب نزوله القاهرة، حبه في القصب السكري، وفي ذلك يقول الإمام السيوطي: [من المتقارب]

نزلتُ على القصب السكري	نزول رجال يريدون نهبه
يجز كجز رؤوس العدا	ومص كمص شفاه الأحبة

وكان يتردد كثيراً مع الشيخ الخليلي إلى بولاق لأجل الإطلاق لا من الإملاق، وكذلك لزيارة الشيخ فرج، وصعد طبقة فرأى بجدرانها أبياتاً أثبتها منها: [من الطويل]

ومن عجب الأيام أنك جالس على الأرض في الدنيا وأنت تسير

وسيرك يا هذا كسير سفينة بقوم جلوس والقلاع تطير

وكان الشيخ قد زار في أوائل قدومه الولي الشيخ محمد الدمرداش، ودعاه أولاد الشيخ محمد صاحب السجادة والشيخ عثمان، ودخل خلوة الشيخ.

في يوم السبت سابع جمادى الثانية، ودّع القرافة وتوجّه لزيارة سلطان الرجال أحمد المكنّي البدوي العلوي، صحبة الشيخ محمد الحفناوي وأخيه الشيخ يوسف، والشيخ حسن، والسيد عبد الله السلفيتي نجل المرحوم السيد حسن، والأخ إبراهيم الحرستاني المعروف بالبلاسي، وما زال يسير إلى أن عدّي في المعدية إلى قرية المرحوم وبات ليلة، وجاء السرّاق في الليل، يسطون على الخيل فخيب الله مسعاهم، وسار في الصباح مع إخوانه إلى قرية (مليج) وزار سيدي علي المليجي صاحب المقام وتملّى بالجامع الذي عمره إسماعيل بك ابن إيواز ونزل دار صديقه الحاج عمر، ثم استمرّ في السير إلى أن لاحت قبة السيد المزور، فنزل في البلد جوار سيدي أحمد، وقرأ الفاتحة، وكان معه الشيخ محمد الأجمل الحفني، وبقية الرفاق، وورد عليه المحب الشيخ محمد الإسقاطي وأخبره أن والده قادم للزيارة مع جماعة، واستفسر عن نية الشيخ للتوجّه إلى دمياط وطلب أن يرافقه. وفي الصباح سار لزيارة سيدي عبد الوهاب الجوهري، صاحب المقام وأخبر أن جناب الشيخ محمد البديري بن الميت في قريته فتوجه إليه واجتمع عليه وطلب أن يرافقه الشيخ في المعدية إلى دمياط، فقال له إنه وعد بذلك الشيخ محمد الإسقاطي، فقال إذن نزور في البر قبل الوصول إلى البحر جناب الشيخ محمد الشناوي، فأجابه لذلك. وعاد إلى المنزل فوفد عليه العالم والد الشيخ محمد جناب الشيخ أحمد الإسقاطي، وأكّد كلام ولده، ثم ودّعه، وعاد عند الظهر إلى الجامع الأحمدي، وبعد العصر، حضر لعنده فاضل، يدرّس في الجامع قريباً من الإمام، وهو شريك الأخ الشيخ محمد علي المرحوم جناب الشيخ أحمد الخليفي فدعاه لداره، وودّع الداعي بعد قيامه بأمر الضيافة فلما وصل فناء مسجد الشيخ، رأى شاباً ممسكاً بالشباك، وهو يبكي والناس حوله يهدون الفواتح للسيد، فإذا هو ليده ممسك مقيد، فسأل الشيخ عن قصته، فأخبر أنه سرق حماره، ففطن به، فأنكر، فأتى به إلى الشيخ لعله يتوب، فوضع يده على الشباك ليحلف، فأمسك الشيخ بيده فتاب وبكى، فلم يطلق إلا بعد ساعتين أو أكثر حتى شفع فيه جميع من حضر. وبات ليلته وجاءه الأخ محمد بما تيسر من الزاد، وحضر الشيخ محمد الإسقاطي بالدواب فتوجّه معه إلى أن لحقوا بالشيخ محمد البديري، ونزل قريباً من زاوية الشناوي، وما زالوا

يسيرون حتى وصلوا المحلة الكبرى، ونزل الشيخ في وكالة الحرير، وكان الشيخ أحمد الإسقاطي نزل عند محب قديم يقال له الحاج إبراهيم رضوان فأرسل ولده يستدعي الشيخ، فذهب وبات عنده. وفي الصباح توجّه يوم الخميس إلى قرية (سمنود) وركب والشيخ أحمد في قياسة حتى وصل (المنصورة) وقصد زيارة الشيخ عبد الله الرفاعي، وبعد صلاة العشاء أقلع والريح غير مريح، فوصل قبل دخول صلاة الجمعة إلى (شربين) وبعد الصلاة زار مقام سيدي شمس الدين محمد الشربيني. وسأله الشيخ يوسف الزين شقيق الشيخ محمد الحفناوي تخميس بيتين ففعل.

ولما وصل (فارس كور) توجّه إلى زيارة الشيخ أبي مدين الحدادي، وكانت ليلة مولده والفقراء يسعون إليه من كل ناد، فقرأ له الفاتحة وزار على أثره الشيخ إبراهيم الأحمدي، فقدم له رز بحليب فأكل منه لقيمات وصلى الصبح في جامعها الكبير، وتوجه إلى مدينة دمياط ودخلها مع الظهر يوم السبت. وزار أبا علي الصياد، ونزل في خلوة شيخه الشيخ محمد البديري التي في جامع البحر للعدّة للوارد على الدوام، وصار الشيخ يتردد عليه، ودعاه لداره وأكرمه. وكذلك أضافه عنده الشيخ أحمد الإسقاطي، وأوقفه على بعض ما له من الحواشي. وجاءه بعض الإخوان برسالة للسيوطي وطلب نظمها، فنظمها في مائة بيت. وسماها النظام (البسط التام، في نظم رسالة السيوطي الهمام) وأخبره الشيخ أحمد الإسقاطي أن عنده على الرسالة شرحاً، وأوقفه شيخه البديري على قصيدة امتدحه بها الشيخ عبد الغني النابلسي[281] وطلب منه أن ينسج على منوالها فتردّد ثم فعل. وكان الشيخ البديري لا يفطر إلا لديه، ويصحب معه الفطور والقهوة، ويجلس في مؤانسته إلى الضحوة. ثم توجه به إلى زيارة الشيخ ضرغام، فذهب في قياسه وصحبه السيد أحمد الطرابلسي، وخاله الحاج مصطفى وبعض الأحباب، وبعد الزيارة دعاه لداره وأراه سبحة الشيخ المزطاوي، وقال إن الشيخ أعطاه إياها غب الإجازة وأخبره بما سطره عنه في (السيوف الحداد في ترجمة سيدي محمد مراد النقشبندي) وسأله الإجازة فأجاب وذلك في غرة رجب سنة 1133، وقد ذيلها بإمضائه ونسبه وهو: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد البديري[282] الدمياطي الشافعي الأشعري الشاذلي النقشبندي.

وقصد زيارة الشيخ علي السقا، ثم زار سيدي الشيخ فتح، ومر على الشيخ جمال الدين العجمي، فقرأ له الفاتحة، وحضر عند الشيخ فتح مجلس ذكر، ثم ذهب إلى بستان

---

(281) - صاحب الرحلة المشهورة من دمشق إلى القدس، القطب الكبير، زار القدس سنة (1101هـ).

(282) - جد آل البديري في القدس.

السيد كمال النقيب سابقاً ومكث فيه إلى قبيل الغروب، ثم رأى أنه ذكر سيدي إبراهيم المتبولي، فأخبر بذلك الشيخ قاسم نجل الشيخ يوسف، وقال له عن مراده في زيارة السادة المتبولية، وبعض المقامات، فزار جناب الشيخ محمد العصيفراتي وجناب سيدي أبي العباس الحريثي، والشيخ الضير وعلي وسيدي حسن الطويل، وسيدي محمد المواجه له، وزار سيدي محمد العياشي وأبا الطيب والشيخ محمد هارون والشيخ يوسف المغربي.

وكان يخدم شيخه البديري رجلاً اسمه صبح وكان بعض الناس يمازحه بقوله: بالله يا صبح لا تزرني، يا صبح بالله أنا دخيلك، وهذا موشح قديم فقال الشيخ:

حبي جفاني، فطال ليلي، وقد كواني، وهد حيلي، ومذ سباني، بفرط ميل، ناديت يا ليل بالمثاني ادخل فإني دخيلك. إلخ.

وممن دعا الشيخ وكرر الدعوة صديقاه الحاج محمد والحاج مصطفى وهما خالا السيد أحمد الأدهمي، وكان يصحبه في البعض شيخه الشيخ البديري. ثم إن الشيخ المذكور عزم أوائل رجب على التوجه إلى مصر لأن له عادة في النزول أوائل الأشهر الثلاثة وإقراء الحديث الشريف فتوجه فتألم الشيخ لفراقه.

وكان قبل هذا التاريخ اجتمع بالعالم الشيخ حسن المفتي الحنفي، وجاءه للخلوة، ودعاه لداره، فسر بالاجتماع به، وممن اصطحب معه في الخلوة الشيخ محمد الهنيدي.

كان الشيخ قد سمع وهو في الديار الشامية أن دمياط فيها سلاطة الناموس فلا ينام فيها إلا بناموسية فقال لما لم يجد ذلك: [من الطويل]

وقد قيل للناموس فيها سلاطة	ولم أر ما قد قيل في جامع البحر
ويمكن أن البحر لما به ثوى	وذاك ذكي الدين فر من البحر

وكان لحقه إلى القاهرة أخ اسمه عثمان، وجاء من غير إذن من الشيخ، فخالف المشورة، وأمره الشيخ أن يركب من المغفر في شطية[283]، فركب في قياسة فأسرت دون غيرها وأخذ إلى ملطية[284]، فحزن قلب الشيخ عليه، ولم يطق رد ما أوصله مولاه إليه، ولم يسعه إلا شراءه من الأسر، ولكان اشتراه الشيخ بالنقود، ولكن لم يتم له ذلك.

وأنشد صديقه السيد أحمد بن صالح الطرابلسي الأدهمي مصراع مواليا وطلب من الشيخ أن يضيف إليه وهو: بالله يا بدر خذني في طرف عينك. فقال الشيخ:

---

(283) - من أسماء السفن التي جاء ذكرها في الرحلة، القياسة، والبلبك والشطية والمعدية.

(284) - يستدل من هذا ان القرصنة كانت قائمة حينذاك

فـــإن مـــضناك يـــشكو ســـيدي بينـــك

مـــا فيـــك مـــن شـــين غـــير الهجـــر يـــا حينـــك

لا أبعـــد الله مـــــا بـــيني ومـــا بينـــك

وانشد شطراً آخر وقال له أجز فأنشد الشيخ:

بـــالله يـــا منـــيتي أرفـــق بهـــذا الـــصب

رشـــأ بحبـــك لقـــد صـــب المـــدامع صـــب

يهـــواك طفـــلاً رضـــيعاً يافعـــاً بـــل شـــب

وكلمـــا شـــاخ حبـــك في حـــشاه شـــب

وأرسل الشيخ حسن إلى الشيخ زوادة لطيفة لما بلغه قرب سفره كان ينتظر قدوم (البليك) فتعذر ذلك.

وجاء المشار إليه مصاحباً معه سنده في حديث المصافحة وقال له: أردت أن أتحفك بهذه التحفة، وصافحه وقال (صافحتك كلما صافحني شيخنا الشيخ أحمد البنا، كما صافحه شيخه سيدي أحمد بن عجيل اليمني في منزله، كما صافحه شيخه تاج الدين النقشبندي، كما صافحه الشيخ عبد الرحمن المشتهر بحاجي رمزي، كما صافحه الشيخ محمد اسقرازي، كما صافحه أبو سعيد الحبشي الصحابي، كما صافحه سيد الأولين. وهذا سند شيخنا البديري، كما هو مسطر في ثبته مع زيادات فانتبه» وودعه مسروراً.

وكان قد وفد رجل طرابلسي استأجر[285] (شطية) مغفرة إلى البلاد فاجتمع به أصحابه السيد أحمد وأخواله وكلموه في نزول الشيخ معه فأظهر القبول. ثم عزم الشيخ على التوجه إلى العربة مع الرفاق وحضر لوداعه الشيخ أحمد الإسقاطي، فاستجازه بمروياته فأجازه، وبعد أن ودّع الإخوان توجه إلى العزبة، وبات بها ليلة.

وفي الصباح تموقت (القياسة) حتى طلع الريح، فلم يكن للمعدية أن تقطع العتبة فاحتاج أن ينام عند برج الشيخ محمد، وكان قد قصده للتنزه والتفرّج مع شيخه البديري، ويقول الشيخ (وهذا البرج فيه بعض مدافع[286]، ترهب العدو، إذ الأمر الإلهي ما له مدافع، ولقد تمنيت أن لو مكنت فبنيت أبراجاً عدة، على سواحل البحر، يكون فيها للثغور نجدة

---

[285] - يستدل من هذا ان التجار كانوا يستاجرون هذه السفن الأجنبية

[286] - في هذا ما يدلنا على الاستحكامات الدفاعية لدمياط في ذلك العهد

وعدة وعدة، وليست إلا حماية الله هي الواقية، وكفاية الله هي اللاقية، وجماعة المزية سندهم رهبة للعدو وفي الفرار رغبة، فلا يستعمل على المراكب، إلا كل مغربي متين السيوف راكب، فإن لهم معرفة بالحرب، وحب في الطعن والضرب، وبغض في الكفرة اللئام، واقتحامٌ في الميدان الأهوال العظام (كذا) فعدنا إلى البرج نهاراً، وثبنا لديه إلى أن زاد الفجر إسفاراً، وقطعنا العتبة أول النهار، والبحر ساكن، والقلب على عون الرب راكن، ووصلنا (الشطية)، وأجلست في القمرة التحتية، وعددت نزولي فيها من الذنوب السوالف، حتى جرى الدمع على الخدود والسوالف، ولقد كنت أتطير من النزول في المغفر، لما أسمع من تعاطيهم المنكر، ولما عرف مستأجر المركب قبطانه فينا، أخذ يلاطفنا ويصافينا، حتى أنه أذاب ماء وسكراً ممزوجاً بماء الليمون، وأتاني به فلم أقبله خوفاً من نجاسة الماعون، فنادى المستأجر وأخبره بطهارته، فأعلمه بعدم شربه، ومن مهارته أمره أن يغسل آنية، وأن يتعاطى تذويب السكر بيده علانية، ففعل كما أمر وجاءني بها الريس، وأظن اسمه عمر، فشربت بعض شربي، حيث طاب قلبي، وصار يتطلف بي، ويدعي ودي وحبي، وأنا برئ منه ومن وداده، وفي غنية عن حبه وانقياده).

ونام أول ليلة وهو يأمل سرعة الوصول إلى يافا، فتراءى له في المنام أحد شيوخ دمشق الشام واسمه أحمد سراج، ونشر أصابعه الخمس، فاستفاق الشيخ مذعوراً، وبان أن المراد الإقامة في البحر خمسة أيام، ومكث الريح المريح أربعة أيام يهب ويستريح وقابل هو وإبراهيم البلامي الحريثي الرسالة المرسومة (بالمنهل العذب السائغ لوراده، في ذكر صلوات الطريق وأوراده) وقابل (الألفية في طريق السادة الصوفية) وضاق الشيخ ذرعاً لطول الإقامة في البحر، من أمر النجاسة، فإنهم أي أهل المركب كانوا غارقين فيها حساً ومعنى ولأنهم لا يعرفون أنها من الخساسة.

وفي ليلة الخميس ويومه، طالت كربة الشيخ ومن معه، فتوسل بسيدي أحمد البدوي أن يسوق له صبيحة الجمعة (الريح الملئم ليخلص من القبطان وجنوده، جنود الشيطان، وجاءه القبطان يشكو قلة الماء، وأقسم بدينه أن الماء لا يكفيه غير اليوم مع التدبير، ولم يبق عنده إلا أواني الخمر. فاغتاظ الشيخ من كلامه وتأثر، وقال للمستأجر وكان هو الترجمان بينه وبين القبطان: إن الله سيسهل بالفرج ويزول الضيق، فقال له قل له يأمر الركاب يجتمعوا ويدعوا الله عيسى يجيب. فأجابه الشيخ قائلاً للترجمان قل له إن في هذا اليوم المبارك بعد الظهر بيسير، يأتي الريح وتدخل يافا قبل الغروب ولا أبات الليلة الداخلة إلا في يافا ذات الوجه النضير). ففهم القبطان ذلك وسُرَّ ولم يقطع بقول

الشيخ. ولما زالت الشمس هبَّ النسيم، ثم زاد على المعتاد حتى خال الشيخ (الشيطية) تطير في المسير، وخاف الشيخ من تقريع القبطان، وستر السُّتار الكبير، وفرش له فوق قمرته للتفرُّج على البحر، وكشف البر عقيب العصر وزال الضيق، وألقى المرساة ونزل الشيخ في (قياسة) صغيرة وبات في جامع البحر ليلة السبت وقد سُرَّ سروراً عظيماً. ورأى القافلة متوجهة إلى الديار، فحمد الله على تسهيل قرب المزار، وبلوغ الوطن[287].

ولما استقرَّ به المقام ورد عليه كتاب من الشيخ محمد البديري فلم يجب عليه إلا في بلاد الروم وأودعه في الرحلة الرومية، وبعد ذلك أرسل كتاباً إلى مفتي ثغر دمياط الشيخ حسن، وآخر إلى الشيخ محمد الحفناوي، ثم مرض الشيخ وامتدَّ أمر سقامه نحو سبعة أشهر وأيام، وفي هذه الأثناء جاءه كتاب من الشيخ محمد المذكور، وكانت والدة الشيخ وردت عليه للزيارة.

ثم اقتضى أمر أوجب سفر الشيخ إلى حلب الشهباء ذات الحفر، ولم ير بداً من التوجه لأمر اقتضاء الحال فعزم على المسير بعد ما استخار الله، وكل قبل ذلك بشهر، قال له الدرويش يعقوب الهندي إن في نيته الذهاب إلى حلب فنفى الشيخ ذلك، فقال له الهندي بل بعد ذهابك إليها سنتوجه إلى بلاد الروم، فأجابه الشيخ ما الذي يصنع في بلاد الروم ولا غرض له فيها؟ فقال له إنها بلدته، ولما أراد السفر توجه معه إلى حلب ومنها فارقه إلى بغداد.

وتوجه بعد مدة إلى بلاد الروم وسطر ذلك في رحلة سماه (تفريق الهموم وتغريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم) وأبقى الوالدة في داره في بيت المقدس، وقد حزن على فراقها ولكنه رضخ لحكم الأقدار (انتهى)

---

(287) - بيت المقدس

أردان حلة الإحسان

في الرحلة إلى جبل لبنان 1728م

لا شك في أن الدافع لرحلة الشيخ هذه وغيرها من الرحلات، ولتنقلاته المستمرة في المدن والقرى، إنما كان حرصه على نشر الطريقة الخلوتية والاتصال بأعوانه ومريديه. ولقد كان الشيخ مكثاراً في النظم والنثر، بل إنه ليؤلف الكتاب أو الرسالة في أية مناسبة. ولا شك أن نظمه ونثره يمثلان عصره أصدق التمثيل فقد امتاز هذا القرن بالسجع، والركاكة في الأسلوب، كما يتبين من دراسة رجال هذا القرن في كتاب أعيان القرن الثاني عشر للمرادي.

ولقد انتقل الشيخ من دمشق إلى القدس وتزوج فيها وتتلمذ على شيوخها وامتد نفوذه فيما بعد إلى جميع أنحاء فلسطين، وإلى سوريا بل وحتى إلى مصر والعراق.

وقد ساهم في الحياة العامة في فلسطين فعمر بالحرم القدسي خلوة، وبئراً، وحاول أن يصلح بين البراغثة شيوخ بني زيد وكانوا قد اختلفوا فيما بينهم، كما شوق الحاج حسن بن مقلد الجيوسي لزراعة الأشجار المثمرة حول قبة الصحابي سراقة في (كور) من أعمال قضاء بني صعب.

ويستدل من رحلته هذه [أردان حلة الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان[288]] أن حالة الأمن لم تكن مرضية في زمنه، فقد جاء ذكر تعدي الأعراب على القوافل بين الخليل وعسقلان، كما تعدوا على الشيخ التافلاتي مفتي الديار المقدسية، فسلبوه بعض ثيابه وما كان يحمل من الكتب.

ويلاحظ أيضاً أن الشيخ كان يغير طرق سيره، فبدلاً من أن يسلك الجادة السلطانية بين المقدس والخليل ماراً ببرك سليمان، غير طريقه إلى بني حسن وهي ناحية إلى الجنوب الغربي من القدس مخافة قطاع الطريق.

---

[288] - مخطوط في خزانة الكتب الخالدية

ويستدل من وصف الشيخ لبعض المدن التي اجتازها أن (حاصبية) كانت حينذاك قرية يقطنها الدروز وهي الآن مدينة، كما أن مدينة حيفا التي بلغ عدد سكانها الآن مئة وخمسين ألفاً، لم تكن سوى قلعة حصينة على ساحل البحر المتوسط. ووصفه هذا لحيفا ينطبق على وصف معجم البلدان، بعض الشيء. فقد جاء في معجم البلدان (ج3 - ص 382): «حيفا غير ممدود، حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا، لم يزل في أيدي المسلمين إلى أن تغلب عليه كندفرى الذي ملك بيت المقدس سنة (494هـ) وبقي في أيديهم إلى أن فتحه صلاح الدين في سنة (573م) وخربه».

ويصف لنا الشيخ زيارته أكثر من مرة للخليل، ويذكر كرومها، ويستدل من هذا أنها كانت محاطة بكروم العنب وهو حالها اليوم.

ويذكر الشيخ فيما يذكر أن الأمر السلطاني صدر باسم والدته لتعمير قناة الماء إلى الحرم القدسي. وهذه القناة ليست حديثة فقد جاء في الأنس الجليل ج2 ص 387 عند ذكر الأمير تنكز الناصري نائب دولة المماليك في الشام «وهو الذي عمر قناة الماء الواصلة إلى القدس، وكان ابتداء عمارتها في شوال سنة (727هـ) ووصلت إلى القدس ودخلت إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر ربيع الأول سنة (728هـ) وعمل البركة الرخام بين الصخرة والأقصى» وتعرف هذه الآن بالكأس، ويظهر أن هذه القناة خربت، فعمرت مدة ثانية كما يذكر الشيخ. وهذه القناة تمتد من برك سليمان إلى الحرم وتسيل بالانسياق لعلو برك سليمان عن الحرم القدسي، وهي من حجر.

والظاهر أن الشيخ كان أباً عطوفاً، فقد سر كثيراً بابنته (علما) وحزن حزناً عميقاً عند وفاتها وهي لا تزال طفلة، وقد رزق ولده محمد كمال الدين في القدس. ولقد كان الشيخ يزور مقام (علي بن عليل) وهو من نسل عمر بن الخطاب، ويعرف بسيدنا علي بن عليم عند العامة، وله موسم يقصده الزوار كل عام.

ويسجل الشيخ بألم ظاهر في هذه الرحلة وفاة قطبين عظيمين تتلمذ عليهما، وكان يحترمهما أبلغ احترام أولهما الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي القطب الكبير وصاحب الرحلة إلى القدس سنة (1101هـ) ويعتبر الشيخ من أخص تلاميذه، والثاني الشيخ محمد الخليلي مفتي الشافعية في الديار القدسية، والمصلح العمراني، والمؤلف القطب، وهو من أبرز رجال القرن الثاني عشر في فلسطين.

وفي الرحلة فوائد أخرى على الرغم من ركاكة الأسلوب، وتكرار السجع الممل، وانصراف الشيخ إلى نزعته التصوفية القوية، وفيها بعض معلومات عن أصل سكان

(الطيبة) من أعمال طولكرم، ونسب البراغثة في جبل القدس، وعن وقف قرية (عابود) في بني زيد للحرمين الشريفين، وما إلى ذلك.

ومن لطائف المصادفات أن يحضر إلى الديار القدسية الرحالة المصري الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي، سنة (1143هـ) [1730-1731م] وينزل عند الشيخ، ويأخذ عنه الطريقة ثم يصف لنا لقاءه الشيخ في رحلته المخطوطة «سوانح الأنس في رحلتي لوادي القدس» وقد أثبتنا رأي اللقيمي في الشيخ البكري.

وخلاصة القول إن هذه الرحلة المخطوطة التي لم تزد معلوماتنا كثيراً عن لبنان الجنوبي، شيقة برغم جميع مآخذها، فإنها تمثل القرن الثاني عشر، وهو قرن تتقصنا عنه المعلومات والمصادر الوافية، فتصف لنا بعض نواحي الحياة الفكرية، وبعض أحوال البلاد القدسية وعمرانها، ورجالها ولو كان أكثر من اجتمع به الشيخ من رجال التصوف والزهد.

ويظهر أن الملاريا (الحمى الربعية) أصابت الشيخ لتردده على مقام سيدنا علي، وهي منطقة موبوءة بهذا المرض إلى عهد قريب، فضايقته وأنهكته، وحاول أن يتخلص منها بالدعاء والالتجاء إلى مقام سيدي داود!

ونحن بعد ذلك نترك للشيخ أن يتكلم، إذ أنه بعد أن ختم الرحلة الرومية وبدأ في العراقية أراد أن يبتدئ برحلة بقاعية لبنانية فأسماها (أردان حلة الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان) فيقول: «اعلم أيها الأخ الواقف على هذه المواقف أن هذا الجبل المعظم المبجل المقصود بالزيارة، جبل مبارك له خواص عند الخواص أصل الإشارة، إذ من المعلوم، لدى أرباب المفهوم والاختصاص، أن الله تعالى اختص بعض الأمكنة والأزمنة والأشخاص، وقد طرق السمع، من أهل المعرفة والسمع، أن لهذا الجبل، الذي ينفي الجبل، حالا ظاهر الرجحان، وانساً باهر الميزان، وأن كل من حوله ممن له قدم في الولاية يأتيه زائراً ولو بالروحانية وهذه على فضيلته آية».

وكان كثيراً ما يجول في الخاطر، ويتكرر وروده على الضمير الخاطر، أن يشد الشيخ الرحل على عيس السرى إليه، لعله يحظى من بر أهله ومما لديه، ولكن الأقدار كانت تمنع. ولما آن الأوان، قصد البقاع العزيز ملتجئاً لحمى المهيمن الملك العزيز، وبعدما ودع الخلان والأصحاب والإخوان والأخدان. يقول:

«وتوجهت مستعيناً بالديان، نحو الديماس، مع رفقة حسان يوم الخميس السابع عشر من ذي القعدة عام أربعين ومائة وألف (1728م). وقصدت حمى الصالحية، وقرأت

الفاتحة لسكانها أهل الرتب الفلاحية، ثم صعدت إلى جبل قاسيون، وحصلت نفحة الإقبال من هداة فتحه، وتجاوزت قبة السيار الشائقة، التي تحت قبة النصر الشاهقة[289] وممن رافقنا لهذه الزيارة والقدس الفياح، الصديق الشيخ عبد القادر الموصلي ثم البغدادي السياح، المنتمي للعصابة السهروردية المتصلة أنسابهم بالأسرة الصديقية، والأخ السيد محمد السلفيتي العباسي، المحب الأسي والصديق المواسي، أول آخذ للطريق في الخطرة الأولى، وقد ذكرته في الخمرة المحسية في الرحلة القدسية، وفي غيرها من الرحلات الأنسية، وكان الأخ أكبر مساعد ومعين على إظهار الطريق في الديار المقدسة، وكنت قبل هذا التوجه الطويل المسافة أذنت له بلبس الكسوة والإرشاد لطلاب الإضافة. وممن صحبني أيضاً زوج الوالدة، لا برحت في الجنان خالدة، والأخ من الرضاع، الحاج إبراهيم جميل الأوضاع، المستقيم على قدم الحب من الصغر، كأنما نقش على فؤاده نقش الحجر، فلم يتغير بتوالي الزمان، لأنه ذو باع فيه طويل، قد عرف بابن الطويل في النسب. وممن صحبني أيضاً الأخ الواعي، الشيخ محمد البقاعي، خفيف الحركة، ثقيل البركة، فجعلته للنسبة الوطنية دليل الركاب، وسرنا نتملى بشهود وجوه أولئك الأحباب. ولما أظلنا وادي بردا [بردى] الظليل، قابلنا بعده أول قتيل هابيل النبيل، فقرأنا له الفاتحة. وأنشدت الدليل قرب الديماس مرتحلاً بقصيد مفيد الإيناس: [من الخفيف]

قد أتينا لقرية الديماس	نرتجي رشف خمرة الإقباس

ونزلنا بها مع الرفاق (زاوية بني تغلب) وبعد أداء الصلاة الوسطى وختام ورد العصر البسام، ورد كتاب من الصهر الهمام الشيخ إسمعيل العالم النبيل المقدام، مصدراً له بأبيات جسام وهي:

فرقتي للحبيب يوم الخميس	أورثت في الجنان رعب الخميس
أهل واد زاد التلهف مني	حيث فارقتكم لدى التفليس

وتوجهنا للبقاع وهو جمع بقعة موضع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق. قال في المراصد: وبهذا البقاع قبر إلياس ولما وصلنا باب وادي القرن أنشدت مواليا:

لقد قرنا الصفا بالبسط أيا قرن	لما أتينا صباحاً باب وادي القرن
ومذ عذول الحشا قد غاب ذاك القرن	دام التصافي إلى ما بعد نفح القرن

---

(289) - [اندثرت في مطلع القرن العشرين (قبة النصر على سوار) التي بنيت في عهد السلطان الأشرف قايتباي أواخر العصر المملوكي، وما تزال قبة السيار قائمة حتى الآن- تيسير خلف]

وجاءني الأخ البقاعي، بشيح[290] نشره عابق للبشر داعي، فكتبت وأنا على الدابة أسمعه ما يجري على القرطاس: [من الخفيف]

يا خليليَّ للبقاع فسيحا … تربا مربعاً هناك فسيحا

واسقياني كأس المدام لديه … وانشقاني فيه خزاماً وشيحا

ولما أشرفت على الجبل، إذ زال الجبل قلت:

يا ساكنين السفح من لبنان … هيجتمو بسناكم أشجاني

حولتمو قلباً أحب وقالباً … فأتيتكم أسعى على أجفاني

وقد اقتفينا من الدليل العزيز الجليل الأبر، الأثر، لأنه أسلم، وما زال يصعد بنا العقاب التي هي صعود للجوزاء بلا سلم، لكن راقيها بإمداد من حل فيها للعناية والرعاية والحماية والكفاية يسلم، حتى أتينا قرية نبي الله زريق فقلت:

يا نديميَّ من منام أفيقا … علَّ أن تلقيا لوصل طريقا

وانهجا منهج الحماة وسيرا … للمعالي لكي تشوني عبيقا

ثم زرنا في القرية مقاماً للخضر أبي العباس، وسبب تعدد مقاماته، شهوده فيها لكثرة تطوراته، وهذه علامة على حياته، خلافاً لمن دندن بوفاته. وللدليل قريب في القرية ثغره بسام، أنزلنا لديه فقدم ما قدر عليه من إكرام، وعزمنا في الصباح أن ننزل سهل البقاع، فرأيت مناماً دل على توديع السكان، من ذلك المنزل لعارض حر وعدم إركان، فأتيت مع الرفاق إلى تل مشرف، وأهديت النازلين من عمد وأركان الفواتح، وقلت: [من الخفيف]

يا سراة نحو العزيز الخفير … بلغوه سلام صب حقير[291]

خبروه بأنني مستهام … في هواه بحرقة وزفير

وبعد أن ودعنا المضيف بالأمس، جزنا إلى الشيخ يعقوب المنصوري، وهذا الذي صنع البركة الإبريزية للملك الرشيد نور الدين الشهيد فعمل منها أوقافاً على مد عين تورا ويزيد، ومنها قاعة الفقراء في الربوة بين ثورا ويزيد، وزورنا أولاد شيخنا الجيلاني،

---

(290) - الشيح بالكسر نبات منه أصفر الزهر يشبه السناب في ورقه وهو الأرمني ومنه أحمر غليظ الورق وهو التركي، وكله طيب الرائحة ومنه عربي ينبت في بلاد العرب ترعاه المواشي

(291) - ممن تكرهم الشيخ في قصيدته، شيث وإيليا، ونوح، والياس والنهري، وإيلون من الأنبياء، وسيدي مسافر، والرماني، والحداد، والمنصوري، وأولاد الجيلاني

ثم تقدم بي الدليل بعد الزيارة إلى قرية (كوكب) قاصداً فيها صلة رحم وقرب أحباب، فأنشدته مرتجلاً لما غيم الكدر انجلى: [من الرمل]

إنـــني في ســـفرتي هـــذي الـــتي — فـــاق محياهـــا ســـراجاً كوكبـــا

لم أزل أرقـــى العـــلا مـــع رفقـــتي — ولهـــذا قـــد رقينـــا كوكبـــا

وسرنا إلى (الذنبة)، بهمة طيبة الحضور والنيبة، ولما امتلأت بالسرور العيبة، فنقت بالحبور الموفور الجيبة، قصدنا بجمعنا قرية (حاصبية) فإذا هي قرية كبيرة مملوءة الأكناف بالطائفة الدرزية، ومضينا للخان ونزلنا لديه، ومنه جددنا السرى حتى أتينا قرية (ميس)، الحاملة أهلها لواء ربيعة لا قيس، الشيعة المائسين بحب الآل أي ميس. وهذه القرية من بلاد بشارة فأنشدت: [من الخفيف]

جـاء ممـن أحـب لـيلا بـشارة — مـذ حللنـا يومـاً بـأرض بـشارة

وصعدنا محلها العالي ذا الامتناع، ونزلنا عند صديقنا الغالي علي بقاع، وأمسكنا لديه معاملاً بإكرام، وسرنا للدير والقاسي[292] بأنس تام، ونزلنا عند أحبابنا في القاسي، وحب لي أن أمدح أهل الدير والقاسي، لأنهم أهل قرب وقرابة كل منهم لا يرى تشفيعاً فقلت: [من الطويل]

إذا رمت أن يسقيك سمعان في الدير — أنخ جمل الترحال في القاسي والدير

وأشرت بصالحهم لصالح أكبر أولاد مراد فإنه صالح.

كان صديقنا والد الأولاد المرحوم الشيخ مراد توفي في شهر ربيع الأول فعملنا عند قبره ختما، وطلب ليلة المسير الوالد الكبير الاندراج في السلك مع أخوته فأجبته، فأخذ صالح الدأب على الخير، وتبعه أخوه خير وأخوتهما ومصطفى وعلي وخالد وعمر وأولاده صالح، وسرنا بعد أن ودعنا الأخوان وصلينا الجمعة في (سحمواته) [سحماتا] وجاءنا من صفد، من له الغرام بالتحريك أوثق صفد، وبتنا في (قلعة مليا) الرفيعة، وفي الصباح عاد أهل صفد وصحبهم الأخ الشيخ عمر البقاعي وأرسلت معه كتاباً للصهر. ومنها توجيهنا بمن معنا إلى الساحل، وقبلنا لدى ذي النون المصري المقيم الراحل، فقلت: [من الخفيف]

ومررنـا بلـصق جـدران (عكـة) — بلـدة في الثغـور ثـورت عكـة

وحـديث بمـدحها فـضعيف — بكهـا الجـسم لا تقـسه ببكـة

---

(292) هي قرية دير القاسي من أعمال صفد الان

وقطعنا نهر الدعائم سرعاً   وأصبنا لدى المقطع ركة
ونزلنا قرب قلعة حيفا   وصككنا الجفا على العنق صكة
وسألنا الإله تقريب قدس   وارتحالا لطيبة ثم مكة

وبتنا في قرية (صرفند) بعد مشقة، ومنها أتينا حمى (عتيل) وعزمنا في الصباح على الرحيل، ونلنا من أهلها إكراماً له حال ثقيل، وحثثنا المطي بلا وقوف، إلى (الطيبة) الطيبة الخلوف، وهذه القرية من قرايا بني صعب[293] التي يأمن بها الخائف ويهون الصعب، وهم بطن في كندة ومن بجيلة، وكندة بالكسر، قبيلة من اليمن وقيل الكندي لقب ثور بن عفير أبى حمى باليمن لأنه كند[294] أباه النعمة ولحق بأخواله. قاله في القاموس وفي الصباح المنير بجيلة قبيلة من اليمن والنسبة إليها بجلى بفتحتين، مثل حنفي في النسبة إلى بني حنيفة، وبجلة مثل تمرة قبيلة، والنسبة إليها على لفظها انتهى. ومنها حول نبأ الدليل السلفيتي، إلى قرية (كور) فقدر بها مبيتي، لدى الأخ الحاج حسن بن مقلد[295] وسرنا إلى الخربة الطيبة الماء والتربة، وفيها ورد علينا الأخ الشيخ نور الدين [الهواري] صحوة النهار، وفي صباح يوم الخميس، أول ذي الحجة الأنيس، سرينا حتى أتينا (صفّير)، عازمين أنا بعد الغدا نسير، والقصد التوجه إلى جنة (الذاوية)، لدعوة رضوانها المنتمي لهلال مرابعها المداوية، فبتنا لديه، وأدخلنا صهره السيد محمد الطياري على ابنته الصغيرة. وبايع بعد العشاء جماعة تفوق على العشرين، وتقدمنا إلى (دير غسّان)، وبتنا فيها بليلة حسان، ودعانا الشيخ إبراهيم الرابي للغدا، فتوجهنا لزيارة (الخواص) سيد إبراهيم وافر الندى، فقلت: [من الخفيف]

أيها الواردون للخواص   إن هذا المقام نزل الخواص

وتوجهنا صبحاً إلى قرية (عابود) لدعوة أهلها ففتحنا باب الوفود، ورقينا تلك المنازل ذات الصعود، وبتنا فيها وجبل السرور ممدود، ومنها سرينا نجد في السير إلى (بيتلو) للاصطباح ولم نبت إلا لدى (نبي الله شمويل) ولما أرسينا بشطه وأمسينا فيه، وفد علينا من المقادسة من نصطفيه، فكانت الواردة من المنزل المقدس تتوف على العشرين. وفي ضحوة نهار الثلاثاء السادس من ذي الحجة عمدنا الديار المقدسة صحبة

---

[293] - هي قضاء طولكرم الآن وأصلها طوركرم

[294] - كندا النعمة كفدها.

[295] - هو حسن بن مقلد الجيوسي، شيخ بني صعب، وآل الجيوسي يسكنون قدية كور حتى اليوم

الأحباب، وتلقانا أناس أطهار أخيار، وإخوان صفا أولو إذكار وأذكار، ودخلنا مصاحبين الفاقة والذلة والانكسار، رجاء الانجبار نتلو البردة الشريفة على عادة أهل الديار، إلى أن وصلنا قبة السلسلة المرفوعة الأطوار، وزرنا بعد ختم الذكر المغارة والصخرة الشهيرة الأنوار، واجتمعت الأهل والبنية صانها الستار، وحصل بالاجتماع كمال السرور للحضار.

وقد استغرقت هذه الرحلة من دمشق إلى القدس عن طريق البقاع ولبنان تسعة عشر يوماً. وأخذ الشيخ بعد ذلك يدور في فلسطين، ويزور مشاهدها ويدون لنا في رحلته ما شاهده من الآثار، ومن اجتمع به من السادة الأخيار.

◆ ◆ ◆

ويقول الشيخ: «ودخل العيد ونحن في صفاء ما به أكدار، ووردت علينا بعد أيام مكاتبات من أحباب أخيار فخام، وأرسلنا الجواب البار، إذ شاقنا التذكار لأهل حلب والشام، وبقية خطاب كرام، وحصل بعد الحضور فتور قريحة فلا نثر ولا أشعار، وكان الأخ السلفيتي توجه إلى مربعه، وبعد أيام من الإقامة وجمع جامعه لكل مرة مداحة، حصل رمد عين، أورث نكد عين، ثم اتبعها أختها وحصل الشفا. وحين هل هلال محرم الحرام، سنة (1141هـ) [آب 1728م] استقمنا على نظام واحد في الخيام، هاجرين منهج النظام قهراً ولما آن أن يدنو منه التمام، بشرت بحمل وقيل إنه غلام، قلت ما جاء هدية من السلام، فهو لدينا مقبول ولا ملام، وعسى أن تكون بنية ذات حال وسما، لا سيما باسم والدتي الشريفة علما. وفي صفر الخير اتضحت البشارة، وزال في شهر المولد لبس الستارة، وكان الأخ السيد محمد (السلفيتي) وعد بالعود، لأجل أن يرافقنا في الزيارة العليلية[296] فعزمنا على المسير إليها، ورافقنا الأخ الشيخ رضوان نجل رضوان الزاوي، والأخ الشيخ نور الدين الهواري، وغيرهم من الإخوان ما لهم مساوي. وذلك نهار السبت السادس من شهر ربيع الأول شهر المولد».

الزيارة العليلية :

«وحين واجهنا سيدنا (شمويل) قرأنا لجنابه فاتحة الكتاب، وبعد هنيهة في المسير، أنشد رضوان الزاوي: [مجزوء الرمل]

---

[296] - نسبة إلى سيدنا علي بن عليل، ومقامه شمالي يافا وهو من نسل عمر بن الخطاب توفي (474هـ) ويقول في الأنس الجليل انه اخبر ان الإفرنج إذا اقبلوا على ضريحه وهم في البحر كشفوا رؤوسهم ونكسوها.

شـــوش الجمـــال قلـــبي	حـــين نـــادى بالرحيـــل
قلـــت للجمـــال خـــذني	قـــال لي حملـــك ثقيـــل

«وما زلنا على نجد نخب الأرض خباً والوقت أدلى أردان بسطه علينا وذوقنا قضباً وحباً وفاكهة، ونزلنا للاستراحة وقت الضحى، ولم نعقل الدار غب طي تلك المسافة إلا في (عامود) ونزلنا غب استقبالهم المضافة. وفي يوم الاثنين غلساً سرنا، وللاستراحة في (نزلة) نزلنا، وانعطفنا على زيارة سيدنا يهوذا وهو أحد أولاد سيدي يعقوب. فقلت: [من الخفيف]

يـا خليلـي متلـف الوجـد عـودا	وانـشقاني نـدأ عهـدت وعـودا

وبتنا بقريته المأنوسة، في دعوة الصديق الشيخ إبراهيم الخليلي القاسمي، وفي الصباح أتينا (يازور) وزرنا مقام سيدنا حيدرة المنسوب لسيدنا علي بن أبي طالب، ودخلنا (ساقية). وفي الضحى سرنا إلى (يافا)، وقد تلقانا أحبة، لهم صدق خلوص وفي (الجامع الجديد) حللنا به، إذ الرفاق جمعهم جمع، ودعانا الأخ السيد صالح محرم للدار، وبتنا عند أخينا العواد، نافعين الأكدار، وتوجهنا للحرم العليلي، وحضره قبلنا الأخ الحاج حسن مقلد، وجاءنا نفر من أهل يافا، وصحبتهم الشيخ خاطر المجذوب وختمنا بعد العصر الربعة الشريفة، وعملنا المحيا ليلة الجمعة وأقمنا فيه يومها».

العودة عن طريق نابلس :

وبعد العشاء وبعد العَشاء، توجهنا إلى (بنيامين) وقرأنا الورد السحري لديه، وأتينا (كور) وأقمنا بها ليلتين، ثم وردنا نابلس المحمية، ونزلنا بساحة (الدرويشية) ودعانا المحب، الحاج حمدان الطويل، وأخذ ولده الدخيل الشيخ يوسف وصالح للتكميل، وقام بما يلزم من إكرام جناب صالح باشا بن توقان [طوقان]، وزرت مع الأخ السلفيتي في جبلها الشرقي سيدي الشيخ غانم المقدسي، وتوجهنا بمن معنا إلى قرية (عينبوس)، وأخذ بها العهد الشيخ عمر مملوء الطسوس، وحضر الأخ المأنوس السيد محمد وقال ما أثرت في مبايعة أحد من إخواني، مثل ما أثرت في مبايعة هذا الأخ الجناني، ولا سمعت ذكراً أحلى من ذكرك حال التلقين الإحساني، فإني بمجرد قراءتك الآية الكريمة خشعت أركاني، وهمت أجفاني، فقلت له كان الوقت طيباً مغموراً بمحضور أهل النور الصمداني.

«وسرنا إلى قرية (جماعين)[297] وبتنا بها ليلة الأحد ذات السحاب المعين، وقرأنا الورد السحري في الجامع على جمع من الأعيان. ونحونا نحو (مردا) لم نجد عنها مردا، وبعد ما أظهرنا مضينا إلى قرية (كفرعين) راجين صلح بني زيد، عسى المعين عليه يمين، وبتنا بها في دار على جلباتها السرور دارا، ونهجنا منها إلى (دير غسان) بوجد نام، وقلت رهين من هان، وأقمنا فيها لأجل الإصلاح، إذ بدا شر بتلك البطاح، وأخذنا عطوا شهر للراحة، وسرنا للمنازل بنفوس مرتاحة، ولدى (بيت ريما) أنزلنا قصراً للإكرام، وفي (تبتلو) نمنا وبها مدت موائد إنعام، ولم نصل الظهر إلا في بيت الحرم، الكائن عندي في الدار المعدود من النعم، ورجع أخونا السيد محمد ومن معه للمنازل وارسلت للصهر المحترم كتاباً جعلته عن كتب جواباً. وصدرته بقصيدة. [من المجتث]

سيف الهوى ما أقله	بعد بلى ذاك سله

وأرسل جواب هذا الكتاب مصدراً بنظم مستطاب مطلعه

غصب الهوى ما أسله	يا ويح من رام سله
به الفؤاد عليل	ياليته ما أعله
فصار جسمي نحيلا	من الضنا كالأخله
وقد سرى في عروقي	مثل الدما وأحله
حتى كساني وجداً	قد صار للقلب حله

وجاءني منه كتاب ثانٍ ينبئ عن الحب الرفيع الشأن، وذكر فيه موشحاً للسيد يعقوب الكيلاني، نجل السيد عبد القادر الحموي الداني، وهي على طريقة الأندلسيين. وبعد أيام من ورود الكتاب القندي[298]، وجاءني الدرويش الحاج يعقوب السندي، وطلب مني حال عزم السفر مكاتبات أربعاً أحدها لشيخنا الشيخ عبد الغني (النابلسي) ومطلعه: [من الرمل]

يا لقومي من لصب ما غفا	طرفه مذ أم نادي القدس
صافعاً هم التنائي في العفا	إذ تملى بالجمال الأنفَس

وكنت أجبت الدرويش يعقوب لما طلب المكاتبات الأربعة إني منذ أتيت هذه الديار، أتكلف لكتابة مكتوب حروفه مجمعة وإن أردت النظم والنثر العادي، أراه متعسراً على، ولو

---

(297) - هي (جماعيل) من الضية جبل نابلس، وأحد مراكز العلم في القرون الوسطى

(298) - القند عسل قصب السكر إذا جمد.

تعمل له فؤادي. فما زاده الاعتذار إلا إلحاحاً وإلزاماً في الطلب، فدفعت له مكاتبة الأستاذ الملاذ [أي الشيخ عبد الغني النابلسي] فقال إنه يهديك هدية سنية تفوقي لديك الملاذ، ثم كر على طلب البواقي، فعملت له مكتوباً لشيخنا الساقي الشيخ ياسين الحموي الجيلاني فقلت: [من الرمل]

وكذا نهدى تحايا قد سمت وزكت أين ذكا منها أخي

وثنايا سحبها فيضاً همت بسطها للقبض يزوي أي زي

وأرسلت للصهر الأمجد كتاباً مصدراً بموشح: [من الرمل]

أصبحي أريحي أرجحي لوذعي المعيّ أجمعيّ

أفوجيّ أروحيّ أنجحيّ إرفعيّ أشجعيّ أرتقيّ

أنصحيّ إبطحيّ أسمحيّ أبدعيّ أطوعيّ أجرعيّ

ثغرة بيت البخاري أنا مسلم كأس الموطا محتسي

ولكم أذهب عنا من عنا وعياء وعلى ذا فقس

وكتبت كتاباً للأخ الحميم الشيخ عبد الكريم المشهور بنسبة الكريم، بالشراباتي النديم وصدرته بموشح:

أيها السيار سر بي للحمى واسقني من صرف صافي الأكؤس

وإذا ثنيت ثلث فالظما قد نحا بي للمقر الأنفس

ولما أتممت المكاتبات المطلوبة، وأحضرتهم على كيفية مرغوبة، تأخر الدرويش يعقوب عن السير، منتظراً للأذن المحبوب للقلوب عند الطروب. وكان قدم علينا غب العودة من الزيارة رجل مصري يدعى موسى انتمى إلينا فيها، وقصده التجارة لكنه مغلوب نفس، منهوب حدس، محجوب عبارة، ملسوب حية أمارة؟ «وفي يوم الأربعاء من أواخر شهر ذي الحجة توفي الأخ الأمجد الأوحد السيد محمد السلفيتي وسيأتي تاريخ وفاته وبعض ترجمته في حال زيارة تربته ومرثية قلتها فيه، ما زالت الرحمات توافيه».

انشغال الشيخ بعمارة داره بالقدس وولادة ابنته :

«وكنا لما اشترينا الدار شرعنا في العمارة، فأشغلنا الأخ بنقل التراب ورفع الحجارة، لكي تلين منه نفسه الغدارة المكارة. ولما دخل شهر الصيام والقيام الموجب النضارة تأهل المحل السفلي للجلوس فيه، دون إتمام القصارة.

«وحين ودع وسار بمسار سحبها غزار، وقد وفدت علينا من النيوب العزية البُنية الرشيدة السعيدة الفريدة والجوهرة الوحيدة، التي وقعت لتسميتها الإشارة الشريفة (علما)، جعلها الله ممن قدرها لديه سما، وذلك في السادس والعشرين من شوال المبارك، فتلقاها الفؤاد فرحاً بها لكونها هدية المولى تعالى وتبارك ورأيت كعبها كقصيدة كعب بن زهير لا زالت مظهراً للبر حسنة السير كثيرة الخير.

«وقد حضر لدينا رابع يوم ذي القعدة الحرام الأخ السعيد محمد سعيد البصرى ذو الإقدام، وكان ذلك يوم عقيفة[299]» ابنتي، المذكورة المحروسة، وكان قدومه من البصرة إلى حلب المأنوسة. ولما وصل كنا مع الإخوان خارج البلاد.

الزيارة العليلية الثانية عن طريف الخليل وعسقلان :

ولما دخلت سنة (1142هـ) عزمنا على زيارة الخليل، ومن هنا يفقد الزيارة العليلية، وحين دخلت عاشورا اجتمع لدينا من الإخوان أخدان، وتوجهنا عن طريق (بني حسن)[300] لأنه طريق أمين ومسلك وعر بالأمان حسن، وثبنا عند الحلاحلة[301] في (معنين) وسرنا صباحاً للمدينة بقلب رهين وعندما أشرفنا على الحرم قرأنا على الإقدام فاتحة الكتاب وتقدمنا إلى المقام وزرنا الأنبياء، وبدأنا بوالدهم شيخ المرسلين العام (إبراهيم الخليل) وثنيت بولده سيدي اسحق الغيور، ثم أثنيت بمقام سيدي يعقوب الغوث وختمت بسيدي يوسف بدر التمام، ونزلت في التكية القادرية[302] عند باب الحرم الشريف، لنحظى في أغلب الأحيان بالزيارة المنتجة التشريف. وكان الكروم[303] على أوائلها لم تتكامل حلاوتها في غلائلها. وبعدما أقمنا ثلاثة أيام في الجوار نتردد صباحاً ومساء على السادة الأطهار

---

[299] - عقف الشيء يعقفه عطفه وعرجه والعقاف داء في قوائم الشاة تعوج منه والصواب عقيقة وإلا نعرف كيف أن العلأمة احمد سامح الخالدي لم ينتبه إلى أن المقصود العقيقة التي تذبح بعد الولادة، وهي سنة نبوية تيسير خلف]

[300] - اسم لقضاء يشمل قرى المالحة، وبتير، والولجة، والراس الخ إلى الجنوب الغربي من القدس، وفي فلسطين القضية باسم بني صعبه وبني مرة وبني مالك الخ بأسماء القبائل التي نزلت البلاد

[301] - هم اهل حلحول قرية إلى يسار السالك إلى الخليل

[302] - في الأنس الجليل ج2، 426، 427 ،إن الزاوية القادرية بظاهر البلد. وفي الخليل زوايا عدة منها زاوية الشيخ المزى، وزاوية الشيخ عبد الرحمن الأرزومى، وزاوية البسطامية، وزاوية السمانية وزاوية الشيخ عمر المجرد، وزاوية ابي عقالة، ورباط الطواشي، وزاوية شيخون، ورباط مكى، وزاوية الشيخ رضوان، وزاوية الشيخ خضر، وزاوية الصلاطقة، وهي داخل الزاوية الأدهمية، وزاوية الرامي، وزاوية الشيخ علي كنفوش الأدهمي، وزاوية الشيخ محمد البيضة، وزاوية الموقع، وزاوية الشيخ إبراهيم الحنفي، وزاوية أبي كمال بظاهر المدينة، ورباط الحماعيلي، وزاوية الخضر وزاوية الأعنس الخ،

[303] - يستدل من هذا أن كروم العنب كانت تحيط بالخليل كما هو الحال الآن

ودعنا، وقصدنا مسجد اليقين، وتوجهنا إلى مقام سيدنا لوط. وعدنا في الصباح إلى مدينة الفلاح وزرنا حماة تلك البطاح ونجدنا (بيت جبريل)[304] وبتنا فيها، وسرنا إلى (الفالوجة) وزرنا أحمدها النزيل، وصلينا الجمعة فيها وخطيبنا الأخ المراعي الشيخ عبد الجماعي[305] وكان مرادنا زيارة عسقلان فأخبرنا بخراب ما حولها من عمران[306]، وفي الصباح طرنا بلا جناح وطلبنا دليلاً في تلك المسالك يعرفنا إلى (المسمية) بالدرب السالك، فانتحى المجذوب الشيخ لذلك، ولما توسطنا البرية، مثل هذه قبة سيدنا صالح فقرأت الفاتحة، وتجارأت علينا من بعد خيل أعراب بهم في تلك الصحارى أذية أغراب، فقلت لمن يحمل الإشارة سر على الجادة ولا تخف غارة، فسقط عن دابته كبيرهم وانتكس وشرد مركوبه، وبقصده انعكس، ثم لحقونا (للقسطينة) وجاؤوا معتذرين وثبنا في (المسمية) بنفوس سمية، وجد بنا إلى قرية (يِبْنى) المقول فيها إن مثلها ما يبنى، وعمدنا إلى جامع سيدي عبد الرحمن أبي هريرة، واختلف في اسمه الشريف، المحدثون، والذي رجح الأعيان عبد الرحمن، ورجع صاحب القاموس عبد الله. وبعد ما صليت الضحى، قلت: [من الطويل]

قصور الولا من رامها أن له تبنى	عليه بأن يثنى الركاب إلى يبنى

وبعد الزيارة توجهنا إلى (يازور) وزرنا سيدي حيدرة المنسوب لسيدي علي المطلبي، وبتنا بالقرية داخل الجامع المأنوس المعمور اللامع، وفي الصباح قصدنا قرة العين الحصن الأمنع سيدي سلمة بن الأكوع الصحابي[307] المهاب، وغب الزيارة. ارتقيت الطبقة طارقاً من باب الالتجاء الحلقة، فانفتح الباب بمعونة الوهاب فقلت في مدحه: [من الكامل]

شرف بذكر الحب خلي مسمعي	وأعد علي حديثه يا مسمعي
وأدر كؤوس خمور سلمى جهرة	فلعلها تشفي فواراً موجعي
وإذا سكرت فلا تلمني إنني	في حال شربي لا أفيق ولا أعي

وعدنا إلى (يازور) حيث البسط يفور، وما مكثنا خليلها الخ من المسير نحو (يافا) ذات الوجه النظير، وفي صباح يوم الثلاثاء حللناها واللحظ ينبعث انبعاثاً وبتنا في دار أبي

---

(304) - بيت جبرين وهي بين الخليل والفالوجة

(305) - من عائلة مقدسية كنانية، تعرف ببيت الخطيب وعليها الخطبة في المسجد الأقصى

(306) - قامت بقربها الآن مدينة المجدل

(307) - مقامه في قرية سلمة وبه سميت

سليمان العواد وثنى الأخ الخواجة أحمد المنجاز العواد إلى الوداد. وسرنا يوم الخميس قبل بزوغ الشمس إلى المقام العليلي، ووفد بعد الاستقرار، الحاج حسن بن الشيخ مقلد وبات معنا. وأقمنا في ذلك المقام المبارك الأنور ثاني يوم ووفد علينا قوم أحبة، وختمنا الربعة الشريفة تلك الحضرة المنيفة، وأهدينا ثوابها للمزور المشهور، وللأخ السيد محمد السلفيتي المشكور، وتوجهنا بعد صلاة الفجر ووداع الهزار إلى (كفر سابا) وزرنا جناب بنيامين شقيق سيدي يوسف الصديق، وكذلك السيد الصحابي سراقة؛ وعند الوصول إلى (كور)، ووفد علينا يزور الحاج يعقوب السندي، وقصدنا في الصباح شرب أقداح اصطباح، عند بستان تسامى ضمن هاتيك البطاح، وامتد زمان الانشراح إلى أن قرأنا ورد العصر، داخل قبته الصغيرة، الكبيرة المراح وكان الحاج يعقوب ممن حضر وناح، وتذكرت الأخ المرحوم السيد محمد العباسي [السلفيتي].

«وأشرت على الأخ الحاج حسن الذي منح في الحب فهماً، أن يغرس في صفحاته كرماً، وبعض أشجار تين فأبدى عزماً، وجمع في الأمر جزماً، وفعل ما به أشرنا.

«وبعد أن استوفينا أيام الإقامة فيها توجهنا إلى نابلس المحمية، ونزلنا على عادتنا في (الدرويشية) والأخ الحاج حسن معنا. وبعد أيام الإقامة، ودعنا، وتوجهنا إلى (جماعين) وقصدنا قرية (سلفيت) وزرت ضريح الأخ المرحوم السيد محمد السلفيتي، وختمنا الربعة الشريفة لديه. وقلت:

مـــا هـــذه دار البقـــاء لروحـــي روحـــي إلى بـــاب اللقـــا المفتـــوح

«وأتينا دير غسان، بعزم راجح الميزان لنوفق الخ. بين الزيود، فما تيسر الإصلاح، وتوجهنا إلى زيارة رجال (سوفا) المشهورين وبت لديهم ليلة الجمعة في العشر الأول من صفر. ولم نلبث أن سرنا إلى (عابود) ومنها إلى (شقبة) ثم أتينا مزار (عنِّير) وجلسنا في محله المنير، ودعانا إلى (الجانية) الشيخ صالح النوباني، وعدنا للديار المقدسة في نصف صفر الخير.

وكان الأخ محمد سعيد البصري ألح في طلب مقامة عراقية على نمط غير نمط الرومية فشرعت فيها وسميتها (المقامة العراقية والمدامة الإشراقية)، وتمت في شهر ربيع الأول، وجاءني زائراً بعض المغاربة بصلوات سيدي علي بن محمد وفا، وكنت شرعت في شرح عليها في الديار الرومية [أي التركية] ولكن النسخة تهدم بناء بعض حروفها، فأجبته إلى طلبته وسميتها (جريدة المآرب وفريدة كل شارب شارب). وجردت الهمة وشددت العزمة في منتصف هذا العام على تبيض الجزء الثاني من (شرح الورد السبحاني المسمى

بالضيا الشمسي على الفتح القدسي) وعرضت كراساً منه على الأخ محمد سعيد ليتأمل فيه وجاءني في الصباح ومعه معترفاً بعجزه.

ورأيت الأخ محمد سعيد عنده بعض فتور، ونحن مع جماعة في جبل الطور، فخاطبته وبلديته موسى ناصحاً وقلت: [من الطويل]

خليلي عن شوق ركابكما حثا إذا رمتما في الروع أن تدركا نفثا

ولقد جاءني الأخ محمد سعيد مرور الفرار فرقمت سطوراً في قرطاس ورفعتها له:

وجوه الورى من واجهوا أشرف الورى وللأثر السامي اقتفوا حالة السرى

«وجاءني من مدينة الخليل الشيخ محمد الترعاني فرآني داخل بستان في الحرم الداني، فقال لو وسعته كان حسناً وأمر الدنيا فاتي، فقلت هذا في خاطري معني يبدي لعياني، فيسر الله في مطلبه تلك الأيام، وتمّ على وجه حسن جميل وأكمل نظم، وكان الجمع التحتاني في دارنا تم، والمولى جل وعلا طم أنعامه علينا وعم، ولما انضم إلينا زكريا بن الحاج يحيى نسيبة[308]، وجماعات أخر من أحباب منحوا فتحاً يملأ العيبة، حصلت منهم مساعدة جسيمة في أمر العمارة الحرمية. وبعد ما كمل عام (1142هـ) ونمت أيامه ولياليه ذات المدد المكين.

سنة 1143هـ وفيها قدم الرحالة المصري الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي إلى بيت المقدس:

«تمت علينا بركات سنة (1143هـ) فعملنا عاشورا وتألفنا للسير إلى الزيارة[309]، وتأهب للتوجه معنا جمع أخيار منهم الأخ الأمجد العديم الأنظار الشيخ أحمد المراغي سالف الأعصار، والأخ محمد سعيد البصري البار، وزكريا النسيبي السيار، وجملة حضار وبتنا في السيد (شمويل) ومن حماه كمن للأوكار طار، وإن استقر منا للراحة في بعض العمار فدار إلى بلدة (لد) المعمورة الجهات والأقطار، بالمدرات المسرات المار من خطار، واجتمعنا بصديقنا الفاضل المسعود الشيخ أبي السعود، فأكرم وحيا، وزرنا أخاه المرحوم الشيخ حسين رحمه الله، وسرنا صباحاً إلى يازور ونزلنا داراً تعزى إذ تنسب للملاح وبتنا ليلة الخميس ببسط ما عليه مقيس، وفي ذلك اليوم الجالب التعيس، السادس عشر من

---

(308) - عائلة مقدسية خزرجية، بيدها حتى اليوم مفاتيح كنيسة القيامة، خرج منها علماء وقضاة

(309) - كانت هذه الزيارة سنوية إلى مقام علي بن عليل على ساحل يافا.

المحرم توجه الأخ زكريا (نسيبه) ليغتسل في البحر، وما درى السباحة يقيس، فغاب فيه روحاً وجسماً عن العين، وما ظهر إلا يوم الجمعة فكدر رائق وقت أنيس، ثم إنا استرجعنا ودفناه في مقبرة الجمع الجديد التأسيس[310]، وسرنا إلى الحرم[311] نترحم على المفقود وعملنا له ختمة قدها يميس، وأهديناه تهليلة جليلة، وكان الحاج حسن المقلدي (الجيوسي) وفد علينا الأسكلة[312]، وأقمنا في الزيارة ليلتين، وودعنا وسرنا إلى أن دخلنا قرية المذكور (كور) ومنها تعلقت بنا حمى الربع المجالية الأجور، لسابق قضاء وقدر مسطور، وولجنا نابلس المحروسة الطلول والدور، وأقمنا ثلاثة أيام أنسها يمور فلا يفور، وأتينا (جماعين) ونزلنا المحلة الفوقية ومنها عمدنا (الزاوية) ونزلنا منها إلى دير غسان لإلحاح الإخوان بها ووقفنا على تلك الآثار، وفي الصحاح وغسان اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه، منهم بنو جفنة، رهط الملوك، ويقال غسان اسم قبيلة. انتهى. وفي لب الألباب في تحرير الأنساب للسيوطي، الأزدي بفتح وسكون فمهملة إلى إزد شنوءة بن الغوث... إلى إسماعيل وفي اللب، الغساني بالفتح والتشديد إلى غسان قبيلة من الإزد، وجد غسان رأس الغسانية من المرجئة، ويضم أوله إلى غسان بن جذام بطن من الصدف، قال فيه الصدفي بفتحين وفاء إلى الصدف، بكسر الدال قبيلة من حمير. انتهى.

وأهلها المقيمون فيها الآن ينقسمون إلى جدهم برغوث[313] ولذا لقبوا بالبراغثة، وهم مشايخ بني زيد الآن وجباة وقف الصخرة والخليل، في تلك الأوطان، لكنهم بقلة الحكم وضعف ولاة الزمان جبوا لأنفسهم، وأكلوا ما للوقفين استبان حتى مال منهما القبان، إلى الخفا بعد العيان، وتوجهنا إلى (عابود) بلدة سيد الأكوان الداخلة في وقف الحرمين من غابر أوان، ومنها ختمنا مقابلة (العرائس القدسية) المفصحة عن الدسائس النفسية بحضور إخوان في واديها المصان وعدنا إلى الأوطان، وسلينا والد المفقود بما أمكن وبشرناه بحلوله جنة الأمان. وأرسلت كتاباً إلى الشيخ محمد المكتبي، وأرسلت آخر إلى الأخ الأمجد الشيخ أحمد نجل سميه خطيب الخسروية. وكتبت آخر للأخ الحميم عبد الكريم الشراباتي، وقلت:

---

[310] - هي المقبرة شمالي سراي يافا الآن والجامع الجديد بني في هذا القرن وقد وقف على تعميره الشيخ محمد الخليلي

[311] - الحرم هو مقام سيدنا علي ويعرف بالحرم

[312] - هي الميناء، والمقصود يافا.

[313] - هم آل البرغوثي شيوخ بني زيد، وبلدتهم دير غسانة، وهم منتشرون في قرى بيت ريما، وقداوة، وكفر عين، ودير نظام الخ

سـر للمنـازل يـا نـديمي تـسقى مـن الخمـر القـديم

ولما دخل شهر ربيع الأول ورد علينا من صديقنا الروحاني الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي كتاب يطلب فيه التداني من حينا القدسي، ويتشوق للقا النفسي الحسي الأركاني، وطلب كتابة كتاب لوالده نترجى منه الإذن بالمسير فأجبته وصدرته بقولي:

راح الحـشا والـروح والريحـان وصـل سمـا روحـاً مـع الريحـان

وكتبت له، ولوالده، طالباً الإذن للولد بالزيارة وأن يعود إن شاء الله في أقرب مدة.

«وقدم علينا الديار عقب هذا المكتوب الصديق القديم الشيخ داود الدمياطي وسألناه عن المكاتبة فأخبر بوصولها، وأن الأخ المكاتب عن قريب يجوب، وفي هذه الديار يتملى بالأنوار ولوطنه يؤوب، ولما عزم على المسير إلى الشام، طلب إجازة، فكتبت له. ثم ورد علينا من الصديق الشيخ مصطفى كتاب يعلم بقرب الجواز. فأرسلت له كتاباً وقلت:

سـلام علـى أهـل وادي الهـوى أنـاس فـؤادي إلـيهم هـوى

وأرسلت للصديق السيد أحمد الأدهمي نجل السيد صالح الطرابلس السمي، جواباً عن كتابين أرسلهما إلى بحال همي والمذكور له صحبة قديمة محفوظة عهدها أكرمي، في بلده، وأخرى جديدة تؤذن بمدد نمي في دمياط لما أتيتها والفؤاد محتمي فقلت:

لفتـى الـصبابة يـا سـعاد ترحمـي مـضنى لغـير جمالـك لا ينتمـي

وجواب الكتاب الثاني، صدرته بقولي:

أيهـا الـنفس باختيـارك مـوتي واخرجـي عـن ملابـس الناسـوت

الحمى تنهك الشيخ، وينتظر مولودا جديداً:

«ولما تمادت الحمى في غيها علي، وزادني كرب عيها الواصل إلي، ولم يفد فيها بدء ساعة دوا، ولا أنجع قلم له وصف ارتوى، ورد على الفؤاد وارد، وهو امتداح جناب الخليفة السيد المعمود سيدي داود، فقلت غب زيارته يوم الخميس المشهود.

إن قلـبي نحـو الحظـائر نـودي حـين فـوجي بلمـع نـور وبـودي

إلى أن قال:

فلهـذا ناديـت والجـسم أضـحى ضـمن نـار كالنـار ذات الوقـود

يـا حبـيبي داود كـن لي شـفيعاً إن دائـي قـد كـاد يفـني وجـودي

وقد استجاب الله دعاء الشيخ ثم يقول:

وكان أواخر ذي القعدة الحرام من سنة (1142هـ) تبين حمل وفي ذي الحجة عاد كاليقين، وفي محرم اتضح ذلك الأبهام، وكانت البنية السعيدة الجناية الفريدة، بلغت عاماً ونصفاً أو أقل بأيام، فخففنا عليها الفيلة، فحميناها بالفطام.

وكنت كثيراً ما أسمع قصيدة شيخنا جناب الشيخ عبد الغني (النابلسي) التي مطلعها البسام:

يا أشرف الرسل ضاقت فارسل الفرجا	فإنني فيك قد أملت ألف رجا

فأحببت أن أقتدي بهذا المولى فقلت:

يا سيد الخلق إن القلب مبتهجا	أضحى بحبك للتقريب منتهجا

المولود الجديد محمد كمال الدين :

ولما هل هلال شعبان المبارك، ومضى منه ثلاث ليال، ولد الولد المحمود محمد كمال الدين وكنيته أبا الفتوح، منح الرفد التام السعيد إن شاء الله تعالى وتبارك، أنشأه الله نشوء عبد الله ابن المبارك.

وعندما دخل شهر الصيام كنت أبيض الجزء الثاني من (شرح الورد السحري). فنجز في يوم الاثنين ختام العشر الثاني من شهر رمضان سنة 1143هـ.

قدوم الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي الرحالة :

وحين دخل العيد الصغير، ومضى منه يوم أول وثان وثالث توجهت لزيارة سيدي داود، وبت في جوار الخليفة داود، مع أنفار أمنوا العمار كل خيفة، وذلك في أواخر القعدة، لداع دعا للمبيت في تلك الخيام، وفيه قدم الأخ الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي، ولما تلاقينا معه بسطنا بساط المباسطة، واختلينا واجتلينا عرائس الأنس وما بيننا واسطة، في بيتنا المعمور. ولما أخذ وانتسب وأقبل ما احتجب أقام في خلوة حرمية واستقام في جلوة كرمية، مشمراً ذيل الاجتهاد، معمراً اللب بالاستمداد . وكنت في أواسط شوال المبارك، شرعت في عمارة دارنا الفوقية فتم منها المراد، ونزلت أشطح معه في السطح الحرمي، وتارة أسبح ناحية المهد في يم البسط البهمي، وما برح يتلقى ويستقي سلاف الأسلاف ويسقي ويأتي المنزل مجداً لم يهزل، فنحيك معه ثوب المؤانسة ونغزل، ونطلب له من ربه الجميل عطاء يجزل بكل بر جميل.

وصف الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي

لقاءه الشيخ البكري والاجتماع به :

إننا نترك الآن الشيخ اللقيمي الحسني سبط بن غانم المقدسي السعدي الخزرجي يصف لنا في رحلته (كتاب سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس سنة 1143هـ[314]) اجتماعه بالشيخ البكري ببيت المقدس قال: «ثم دخلنا المدينة من باب الخليل، وجاء الأنس بالسعد لنا دليل، فنزلنا بمنزل قطب دائرة الأفلاك الحسنية، واسطة عقد العصابة الهاشمية، خلاصة السادة الأشراف، وصفوة بني عبد مناف، من قال بحسن سيرته النجوم الزواهر، ويجميل طلعته البدور النواضر، الراسخ في العلم الإلهي، المكاشف عن أسرار الحقائق كما هي أستاذ كل أستاذ وملاذ كل ملاذ، مولانا السيد مصطفى البكري الصديقي قدس الله سره الشريف، وأسكرنا من كأس خمره الرحيقي فبرؤيته وردت علي واردات السرور من كل جانب، وأيقنت ببلوغ المآرب والمطالب، وعند ذلك جاد الجفن بالدمع وسمح، لما اعتراه من المسرة والفرح، فتلقاني بوجه طلق بسام، وعذوبة لفظ تزري باللآلئ في النظام، فإن أستاذنا المذكور قدس الله سره الشريف، بمظهر الجمال في أرفع محل منيف، مع لطف بلغ غاية الكمال، وحسن خلق وفضل وإفضال، فو النجم إذا هوى، إنه لجميع المحاسن قد حوى، وهو الذي يقتدي به المقتدون، وبسمته يهتدي المهتدون، وبمحاسن الصفات محلى، رفع الله له في العلا محلا.

مولى تحلي بالفضائل والتقى وأشاد من طرق الحقيقة معهدا

ودعا إلى النهج القويم مسلك لطريقه منها شهدنا المشهدا

انتهى كلام اللقيمي».

وفاة الشيخ عبد الغني النابلسي :

«وفي أوائل شوال ورد خبر وفاة شيخنا الهمام المفضال بركة الديار وشامة الشام جناب الشيخ عبد الغني المقدام فشرعت في عمل ترجمة مختصرة على المكتبات التي كتبتها لجنابه مقتصرة، وسميتها: «الفتح الطري الجني في بعض مآثر شيخنا الشيخ عبد الغني» وعملت في آخرها مرثية مطلعها السني المختوم بالأكؤس الأنسية: [من المتقارب]

---

[314] - رحلة مخطوطة نفيسة، نشرت ملخصها في كتابي رحلات إلى ديار الشام، ولدى البكوات آل مكى في المجدل نسخة اعتمدت عليها. وقد أتى اللقيمي من مصر عبر الصحراء إلى القدس ومنها إلى دمشق قصيدا فقبرص وعاد إلى مصر.

ســلام علــى عــيش صــب هــني	لقــد ســار مــذ ســار بــدر ســني
ومــــذ مــــات بــــالحي أرخ وهـــم	لقــد عــاش بــالحق عيــشاً هــني

وما زال الأخ اللقيمي المقدم في مدة إقامته التي فيها يتقدم يستعمل أوراداً فيجد أمداداً ويفتح أبواباً شداداً، فيمنح أحوالاً سداداً، إلى أن قرب عيد الأضحى، فلقنته الاسم الثاني فصحا غبُّ ما خبا انمحى، ونحا التقريب لا حيا للأحى فرحاً ورأيت معه رسالة للحاتمي، ذكر فيها مبشراته النبوية، فاقتفيت أثر مناهجه المرضية، وسميت الكراسة «بالدرر المنتثرات من الحضرات العندية، في غرر المبشرات بالذات العبدية المحمدية».

بئر للخلوة البيرمية في الحرم القدسي :

«وكنت قلت للأخ الحاج حسن حبي، لما طلب في الحرم أثراً ينتج الميرمتنني، أن الخلوة (البيرمية) تحتاج إلى بئر صغير فانتدبت له طالباً من النصير التيسير ولما أحضرت ما يلزم من الأحجار والجير، أمرت بإحضار فعلة لأجل الحفير، وألهمت أن أشرت بحفر محل معين بمعونة الخبير، فحفر خندق، وباشره من حضر من أجير، فظهرت ثاني يوم مصفاة بئر قديم التعمير، ثم عثرنا بعد ذلك بفضل القدير، فتوفر علينا بوجدانه شيء كثير، ورأينا ما دورته تزيد على الكأس[315] الشهير، ورفعنا بناءه نحو ثمانية أذرع لجمع الماء النمير. ولما رآه شيخنا الشيخ محمد الخليلي، قال هذه كرامة من غير نكير، لفلان وعلامة تهوين وتيسير، وإلا كان يمكنه أن يشير في الحضير إلى غير هذا المحل لاتساع كبير، قلت وقع لهذا التسهيل نظير عندنا في الدار حال التعمير، فلم نستر لأجل الستارات الكبار شيئاً بقطمير، واحتجنا إلى روزنة[316] في المطبخ لأجل التنوير، فقال البناء أين أحفر قلت هنا وتوكل على القدير، فظهرت روزنة قديمة فعجب وقال هذا حال خطير، قلت بل اتفاقية أبرزها التقدير.

دخول سنة (1144هـ) ، الزيارة العليلية ، السنوية وظهور الطاعون ببيت المقدس :

«وعندما دخل العيد الكبير وتمت بعدها عمارة البير، بقي من لوازمه العصارة، وهي تحتاج إلى إتقان ومهارة، فأحضرت لها ما يلزم، وواقفنا عليها رجلاً على المباشرة عزم،

---

[315] - هو بركة في وسطه ما يشبه الكأس بين المسجد الأقصى والصخرة حيث يصب فيه الماء من برك سليمان

[316] - الروزنة هي النافذة المطلة على الطريق وقد علاها قضبان من الخشب او الحديد لمنع الكشف

ولما نوى العام المؤرخ علي الرحيل، ودخلت سنة (1144هـ) بتكبير وتهليل، حضرنا بقية الشهر في المسجد، وتوجهنا غرة صفر الخير إلى زيارة علي بن عليل المرتجى المير، وكان حضرنا الأخ الشيخ رضوان الزادي والشيخ إبراهيم العرابي، وسرنا معهم جملة إخوان منهم الأخ الشيخ مصطفى أسعد [اللقيمي]، وكانت الحمى الربعية لم تفارق، لأمر إلهي نوره بارق، وبتنا في المقر الشمويلي الأنزه، وقلت: [من الطويل]

ألا أيها الطلاب سيروا إلى اللقا عساكم به تسقون كاساً مروقا

وتوجهنا على بني حمار[317] ومنها إلى (سبطاره) التي تشن العرب حولها الغارة، وجلسنا فيها مع الأخ اللقيمي نتذاكر بأنس يأتي بكل قرية خير. وكان الأخ المذكور أثر فيه برد البلاد فتغير مزاجه وفي (يازور) زاد، وتوجه صحبة شريكه النجار إلى (يافا) ولحقناه فيها نتصافى، ثم سرنا منها إلى المقام العليلي الندى، وورد علينا فيها الأخ الحاج حسن المقلدي، وبعد مضى أوقات الزيارة، سبقنا الأخ اللقيمي لوادي نابلس الفياح وتنقلنا إلى أن وصلنا (كوثر) والقلب مشتغل، والفكر فيه بالحمى فتور، وجاءنا الخبر أن الشيخ عبد الرحمن السمان جاء نابلس للزيارة القدسية وصحبته المنلا عباس تلميذ شيخنا المرحوم المنلا الياس المتوفى في السادس عشر من شعبان سنة (1138هـ). ثم أنه ورد علينا بمن معه (كور)، وعدنا جميعاً إلى نابلس في حبور، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة فيها ودعنا الأخ اللقيمي وبقية الأحباب وسرنا إلى (جماعين). ورأى جامعها السمان فسر به وقال إنه لعهد واف لجامع في قاف، لكن ذلك كبير واسع وماؤه فيض له هتان. قلت له: أتدري إمامه الذي فيه يصلى مقره يصان. قال: نعم، رأتيه والقوم كلهم له في ذي المقام. ثم عدنا للديار المقدسة، وبقي خاطرنا عند الأخ اللقيمي، وجاءنا الخبر بتوجهه إلى وطنه الصبيب (أي مصر). وكان ورد البلاد العالم الفاضل المراد الشيخ عقيلة المكي الوطني اليمني الأصل والمولد، يوم الخميس من شهر ربيع الأول الأنيس، واجتمعت به في منزله للسلام، وحضرت درسه العام باستسلام، وأخبر عن تأليفه الإحسان. ولما أوقفني عليه قرظته: [من الكامل]

يا راقياً لمدارج الإحسان أحسنت في الإحسان بالإحسان

وبعدما تم بناء البئر أردت أن أدخله في الحضير، فشرعت في تقتيم الستارة، وابتدأنا يوم الاثنين في العمارة، وكان أفرط عند الطاعون، أحوج لاستعمال ما في الماعون،

---

(317) - قضاء يقع شرقي الرملة قاعدته بلدة «نعلين»

وتعرض الأخ محمد سعيد ليلة الثلاثاء بوارد شديد، ومازال الأمر يزيد إلى أن اصطفاه إليه ليلة السبت الحادية والعشرين من ذي الحجة شهيد، وترجمته في كراسة وسميتها (العقد الفريد النضيد في ترجمة محمد سعيد) وحصل له مشهد فريد، ودفن في مأمن الله.

سنة 1145 هـ [1732م]

ولما دخل عام (1145 هـ) توجهنا والأحبة على عادتنا للزيارة [مقام علي بن عليل شمالي يافا] وأقمنا بعدما قطعنا بلاداً مع السيارة وبتنا لدى المزار ليلتين، ومنه أتينا بعد التنزه في المروج ذات الزهور، مع الجموع قرية (كور) وكنا تخلصنا بإمداد الشكور، من الحمى ذات العبور، إلى نجوم الجسد المنخور، وعطفنا على (نابلس) المحروسة، ولم ننزل إلا الدرويشة، لاتساع مبرور، وكان الحاج حمدان، قصد جامع النصر المعمور، والخلوة التي لديه وأذنا لولده الشيخ يوسف بالحضور، وسرنا بعد إكرام تام، ومازلنا بالبداءة والختم بالأوراد إلى أن وصلنا المنازل المقدسة. وكنا قد أكدنا مع الأخ الحاج حسن مقلد أمر الحج، ورجونا أنا بعقد جواهره نتقلد؛ وفي أوائل رجب جاءنا رجل مغربي سمى نفسه محمد السابع، وزعم أنه عائم في بحر المعارف سائح وحدثنا بعجائب من بنيات صدره، ووعدنا مواعيد عرقوب صانها في قدره.

وحين اشتد العزم على السير نحو الحجاز، وصله مودعاً إلى حيوض (السيلة) وفارقناه. وذكرت ما وقع في هذه الحضرة الكريمة سميتها (الرحلة الإحسانية الحجازية الثانية) ولما عدنا إلى الديار المقدسة صحبنا الأخ الشيخ محمد المكتبي الحلبي وكان بعد ما توجهت من حلب للقدس أرسل كتاباً للفقير مطلعه: [من الرمل]

ذاب من حر فؤادي جسدي   وغدا فودي بياضاً مفعما

وبعدما زار الأولياء العظام والأولياء الأماجد، أقام لدينا نفسه مسلماً مصاحباً منادماً متيماً ووالهاً في حبه هيماً، وفي أثناء إقامته ورد أول كتاب من الأخ اللقيمي مطلعه:

وافيت للمسجد الأقصى وللحرم   بعد انقضاء أداء النسك بالحرم

وقد ذكر فيه أنه أحرم، ثم دخل من باب السلام، وطاف بالكعبة سبعاً، وأسرع إلى عرفات، وبات بمزدلفة، وأصبح في منى، ثم رمى بالجمرة، ثم قدم مكة وطاف طواف الإفاضة ثم سعى، وحلق، ومضى لمضي عمرة، وختمها بطواف، وسمى وتوجه تلقاء مدين قرب جدة، وعاد إلى المسجد الأقصى.

ولما أقام الأخ الشيخ محمد الكتبي مدة أيام، وتلقن بعض أسماء حضر من الشام صديقنا الشيخ عبد الرحمن السمان، ومكث قليل أيام وزار المشاهد، وبعدها هم على الرحيل لوطن المقام وعزم على السير معه الخ الكتبي فكتبت له إجازة بالإذن كما أرسل إجازة للأخ اللقيمي.

سنة 1146 هـ [1733م]

ولما هل شهر رجب 1146 هـ ورد علينا الأخ الحاج إبراهيم بن حسن البكائي الحرستاني، وحرستى بلدة سيدي محمد بن الحسن صاحب النعمان (الرباني) ومعه رفيق من أهالي (بيت سوا) يدعى عبد الغني، وبعد أيام دخل الخلوة، ثم تشفع برجوعه بابنتي علما فقبلت شفاعتها فيه، وأجزته لما مدة إقامته انتهت.

وفي أواسط شعبان طلب الأخ الشيخ عمر العنبوسي عمل معراج نبوي مختصر مسمياً له (اليم الفدا المواج في ذكر أحاديث الإسراء والمعراج) وشرعت في تسويد شرح علي المنفرجة المنسوبة لأبي عبد الله النحوي، وكان ذلك عن طلب السيد علي الحنفي، وسميته (الفقيه النضيد المشيد الحجة، على القصيدة المسماة بالمنفرجة) وقابلته مع الشيخ محمد بن السيد عيسى الكردي، وأرسلته مع الشيخ المذكور، إذ مراده المسير إلى تلك القصور.

وكنت بعد العودة من الحج بأشهر وأيام أرسلت للأخ الشيخ محمد الحفناوي [في مصر] إجازة وإذناً عاماً بالإرشاد، وقد وردني في أواخر ذي الحجة منه كتاب جواباً على كتابي والإجازة.

صدور خط سلطاني بإصلاح قناة الماء للحرم القدسي :

وفي أوائل سنة 1146 هـ صدر خط سلطاني معرباً معجمه بأن الوالدة أنابها الله في الجنان، انتدبت لعمارة ما يلزم القناة القدسية، فعينت أحد أعيان الدولة، ووجهت له ما يحتاج إليه فوفد بصوله والمذكور (قبله لي زاده) فتوفي قرب حصول ما أراده، وكان حسن النية والإرادة، ثم ورد مباشراً على آغا بن حمود، وبعد تمام بعض نظام رجع لوطنه للزهو يقود، وكتب أهل الولاية له محضراً بما جرى، شاهدين فيه أن ماء الكاس لمحل جرى، وحصل للناس فرج وفرح.

سنة (1147 هـ) [1734م] وفاة الشيخ محمد الخليلي :

وكان ورد علي كتاب من الأخ الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي في عشرين محرم سنة (1147 هـ) مصدراً بقصيدة ثانية مطلعها : [من الطويل]

عيون بني الصديق بالصحو قدُت عيون أولى التصديق بالمحو فدُت

وفي أواخر ربيع الأول أرسلت كتاباً للشيخ مصطفى العمري مصدراً بقصيدة: [من الخفيف]

أيها المصطفى من الخلان كن بمولاك داعياً للعيان

واجتمعت ليلة الحادية عشرة من شهر ربيع الثاني (سنة 1147 هـ) بالشيخ يس الغزي الخلوتي، وكان الأخ الشيخ إبراهيم الشهير بابن صفر آغا أخبر أنه كان منكراً عليه ما يظهر منه من مخالفات تنسب إليه حتى استبان له الأمر فانقاد وزاد منه في الحب والاعتقاد.

وفاة الشيخ محمد الخليلي :

وفي منتصف جمادى الثاني ليلة الخميس؛ انتقل شيخنا العالم العامل المحدث الفقيه الشيخ محمد شمس الدين أبو الوفاء الخليلي[318] إلى المقام الأرفع، فكانت ليلة ليلاء على أهل إيلياء، كان رحمه الله جاور في الجامع الأزهر، ثم ورد إلى بيت المقدس، فانتفع به أهلها، وقد أخذت عنه الإجازة في الحديث سنة 1122 هـ لسند عال، ثم تأكدت المحبة بيننا وبينه لتكرر الخطرات القدسية، ثم نمت وزادت سنة (1131 هـ) لتأهل في الديار القدسية، وقد ذكرته في (النحلة النصرية في الرحلة المصرية) وقد تكررت صحبته في زيارة الخليل، والكليم، وقلت مرتجلاً في امتداحه: [من الخفيف]

أيها الذات في حمى الذات قيلي فلقد لذّ لي لديها مقيلي

وبعد وفاة الشيخ بثلاثة أيام اندرج بالوفاة إلى رحمة الله صديقنا الشيخ برهان الجعفري الرفاعي الخليلي الأوطان، وكان المذكور اجتمع علينا في ثاني خطرة للزيارة الخليلية وأظهر المحبة كأخيه الشيخ أحمد السابق للمنازل الإحسانية، وقد ظهرت له على ما أخبر به بعض أتباعه، كرامات تعرّف بمقامه.

---

[318] - هو صاحب الفتاوى الخليلية على المذهب الشافعي كبرى في مجلدين وصغرى في مجلد ترجمه حسن بن عبد اللطيف الحسيني في كتابه تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر، وقد أخذ عنه المرادي عمر جامع يافا الجديد، واسترجع مقام النبي صمويل من اليهود، وهو الجد الثامن لأم كاتب هذا المقال

وفي أواخر هذا الشهر ورد علي كتاب من الأخ اللقيمي وفيه: [من الكامل]

شوقي إلى عليا جنابك طافح	أخفيه وهو خَفِيّ سِرٌ فاضحُ

فأجبته بكتاب:

للعارفين خواتمٌ وفواتح	أنداؤها في العالمين فواتح

وفي أوائل شهر رجب شرعت في عمل مقامة مشيرة لفن الأدب سميتها (المدامة الشامية في المقامة) أودعت فيها من القصائد الجامعة، وشرعت في أخرى (مغربية) وسميتها (الغمامة الغربية في المقامة المغربية).

ثم شرعت في شرح قصيدة الإمام الحجة صاحب المنهاج.

الرحلة إلى الديار الرومية :

وفي ذي الحجة تحرك الخاطر إلى الديار الرومية، ومازال العزم يتقوى إلى أن دخل محرم، فتوجهت إلى الشام لأجل أن يكون المسير مع ركب الحجاج، وشرعت في الرحلة الرومية الثانية وأسميتها (الخلة الغانية الدانية، في الرحلة الرومية الثانية) وعدنا منها ثاني يوم من شهر الصوم.

مرض ابنته علما ووفاتها :

وعدت فوجدت بنتي المحمية لسري وقلبي، المقرية إن شاء ربي، متمرضة بأمر جرئي (؟)، فقاد كلباً ذيله طويل، وبعد أيام غيابية لا قليلة، أحبت مجاورة مولاها بنفس ذليلة. فحصل بفراقها ألم مؤلم، وذلك في الليلة التاسعة من شهر رمضان.

وترجمتها في رسالة أسميتها : (الغيوب الملجمة، والغيوث المسجمة، في ترجمة ابنتي المنفية قدراً سما، الشريفة الصديقة العباسية علما) وقد كتبت على شاهدة قبرها مؤرخاً :

قصر الجنان من يدي	جدي هنا تسلما
رضوان ربي دائماً	يهمي عليها كالسما

ومازالت المدامع بعد بعدها سخية إلى تمام ذلك العام

سنة 1149 هـ [1736م] البدو يسلبون الشيخ التافلاتي :

وبعد دخول العام الجديد سنة 1149 هـ ورد علينا الأخ الشيخ محمد التافلاتي،

وأخبر أنه جاءنا على طريق التيه وأخذ منه أعراب الطريق بعض أثواب، وكتاباً من الصديق الشيخ محمد الحفناوي.

وفي أوائل شهر ربيع شرعت في تأليف مولد نبوي وسمته (المولد الدري في المولد النبوي) وقرأته ليلة المولد على الإخوان متبركاً.

وجاءنا في هذه الأثناء السيد علي من بيت كريم الدين صاحب الجدود الفاخرة، والحسب، وكان مجيئه في جمادى الأولى بعدما طلع لأرض الروم، ونزل وتوجه من القاهرة، بوجوه غير سافرة، ووصل إلينا مفصول المرا، كمن قرا ولكنه ما درى، وكنت أرسلت للأخ الشيخ محمد الحفني كتاباً محرضاً له على الحضور لنزل قدس وافر السرور، فيتسير الأمر عليه وقدم والسعد بين يديه، منتصف جمادى الثاني سنة 1149 هـ مصحوباً بالتهاني وأرسلت ولدي يستقبله فرحاً بقدومه، واشتغلت بنظم أبيات، أسميتها له غب الإتمام فسرٌ بها، وكانت ساعة التلاقي ميمونة ومطلعها : [من الخفيف]

در كؤوساً من الرحيق الشهيْ ثم ثني من العتيق البهي

ولما استقر به المقام، وحل الرحاب منه، سار ذكره كالمثل السائر، وكنت أكتب في شرح الهمزية، المسمى (باللمح الفريدة المزية، في شرح القصيدة (الهمزية)، فصرت مهما كتبت أعرضه على أسماعه، وقلت: [من المتقارب]

عروسة صون بدا عطفها على سبها مذ هدا عطفها

وقابلت معه المعراج، والمولد النبوي، وشرعت في أوائل شعبان في مقامة يمنية، وعرضتها عليه مقابلة فأحب أن ينسخها لنفسه، وسميتها (العمامة اليُمنية في المقامة اليمنية)، وألحقت بها المقامة الموسومة بـ(الحمامة الورقا القصرية في المقامة المنفا المصرية) وأتبعتها بـ(الصمصامة الهندية في المقامة الهندية) وكنت وصفت (الكمامة النرجسية السندسية، في المقامة الأنسية القدسية).

الختام :

ولما دخل شوال تحرك المحب الرحال السيد موسى الكريمي إلى المسير ناحية (غزة) وطن الصبابة، ونزل الأعزة، فطلب الأخ الشيخ محمد التوجه صحبة المذكور، إلى الوطن الأصلي المشهور، فأردت إبقاءه إلى أن يقع لي الإذن بالذهاب، ثم خشيت أن أطول عليه أوان الفراق، والاغتراب، لعدم ظهور وقت المسير، إلى تلك الديار، على أني كنت وعدت الزائر بالعود لدياره صحبة الأهل والعيال وطول الإقامة في جواره، فرغب في إنجاز

الوعد، فقلت له لم يأت الإذن بعد، وحصل التوجه أواخر شوال المطير بمياه الأشجان، وخرجت معه للوداع إلى القرشي[319] والدجاني[320]. ولم يقسم له نصيب في زيارة الكريم والخليل، فقرأنا له الفواتح، وحرّضت الأخ على إظهار خفي الطريقة في الديار المعزية والمصرية ذات الأطوار العبيقة، وكان يوم الفراق لدغ حمة ولدغ إحراق. ولما رجعنا من وداعه بقينا أياماً في توحش اجتماعه وما طال أمل الإذن بالتوجه إلى ذلك المنتزه النزيه وأقمنا نتدارك أمر السفر إلى أوائل صفر، واتضح لنا الإذن المشير بالمسير، وجاءتنا أحباب نصاح لنعدل عن الرواح، فاعتذرنا، ولما سهل الحق الأسباب، توجهنا غلس صبيحة يوم الاثنين الثالث من صفر المبارك إلى جهة فلسطين المسماة (بالرملة) البيضاء، ومنها القصد إلى (غزة) ذات اليد البيضا.

وفي التاريخ ختمنا (الأردان) بطابع ختامه مسك وهكذا كان، فإن التوجه والنية المقصودة الحج،. وهاتيك المعالم المشهودة.

وأن ممن ساعد وما قصر، لا كمن في ساعديه عنها قصر، أخواننا المنتمين للعصابة النجمية والخيرية وبعض أصحاب لهم محبة في الأمور الخيرية، وبدأنا في هذا الحين في جمع رحلة سميتها: (الرحلة الثالثة للرياض المصرية والشامية والحجازية، ذات الإمدادات النصرية السامية الإنجازية) والحمد لله...

---

[319] - ابو عبد الله الولي المغربي دفن في مامن الله توفي 599 هـ

[320] - القطب احمد الدجاني جد العائلة الدجانية بالقدس، وحارس مقام النبي داود، توفي سنة 963 هـ ودفن في مامن الله، وقبره قرب القدس، وعلى كليهما قبة

رحلة المكناسي إلى فلسطين

أيام أحمد باشا الجزار

تشكل رحلة السفير المغربي محمد بن عبد الوهاب المكناسي إلى الأستانة ثم إلى الحج إلى الحجاز والقدس وثيقة في القرن الثامن عشر الميلادي عن أوضاع عاصمة الإمبراطورية العثمانية وولاياتها العربية لا سيما بلاد الشام تنم عن دقة الملاحظة لدى السفير، وانتباهه إلى مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والجغرافية.

وتنفرد رحلة المكناسي التي تمت في عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله في كونها تمت على طول طريق الحج العثماني، بخلاف جل الرحلات المغربية التي سلكت الطريق التقليدية إلى الحج عبر مصر.

وقد أورد خير الدين الزركلي في موسوعة (الأعلام) ما يلي في ترجمة المكناسي: محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي، وزير، رحالة، من الكتاب البلغاء من أهل مكناسة، استخدمه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في بعض الأعمال، ثم استوزره وانتدبه لكثير من المهمات وعقد المعاهدات، وكان سفيره في إسبانيا، ومالطة، ونابولي، والأستانة، وإلى إمبراطور النمسا، توفي بمراكش، من كتبه: الإكسير، البدر السافر، رحلة إلى مالطة، وهذه الرحلة التي أطلق عليها (إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والرسول الحبيب)، توفي عام 1213هـ - 1798م.

ووصف محقق الرحلة محمد بوكبوط المكناسي بأنه من عيار كبار رجال الدولة الذين أسهموا بفعالية في صنع أحداث النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي.

الرحلة

بدأ المكناسي رحلته أول عام 1200هـ - 1785م، منطلقاً من الرباط، إلى تطوان، ومنها تعذر سفره بحراً بسبب اضطراب البحر في فصل الشتاء، فأمضى أربعة أشهر

ونصف في انتظار الفرصة المواتية للإبحار، وبقي في تطوان لا يستطيع من كثرة الأمطار والطين خروجاً، ثم توجه إلى طنجة، ومنها عشية ثاني رجب من عام السفر، ركب البحر في مركب بعثه عظيم الإصبنيول، ملك إسبانيا كارلوس الثالث، فتوجه إلى قرطاجنة الإسبانية فوصلها في ثلاثة أيام، ومنها أبحر في مركب كبير فبقي في البحر لأن الريح غير مواتية شهراً ويومين، حتى تغير الماء وتأذى الناس من شربه فوصل إلى (سرقوزه) على الطرف الجنوبي الشرقي لجزيرة صقلية، ومن هذه المدينة كان دخول المسلمين على عهد بني أمية حتى تملكوها وبقيت تحت حكمهم نحواً من 300 سنة.

وفي رابع رمضان، غادر المركب صقلية، وكانت الريح مواتية، فوصلوا إلى جزائر بحر إيجة والتي سماها (جزر بر الترك) ثم خليج البوسفور ومدينة القسطنطينية الذي وصله في رابع شوال من عام السفر، وتحدث عن لقائه مع الوزير (الصدر الأعظم). ووصف المكناسي مراسم استقبال السلطان (السلطان عبد الحميد خان) 1725 ـ 1789م) له ولمرافقيه: بقوله: (ووجدنا أقواماً معينين للدخول معنا على السلطان، فأمسك بثوب كل واحد منا رجلان منهم عن يمين وشمال، فدخلنا عليه في قبة فوجدناه جالساً على مرتبة والوزير قائم عن يمينه، فشرح الوزير للسلطان وضعنا ومهمتنا، ومن أين أتينا، فقدّمتُ له هدايا سلطان المغرب، ووقفنا أمامه مقدار وقت قليل ثم خرجنا من عنده).

وقد تحدث المكناسي عن سيرة السلطان العثماني، وقدم موجزاً لتاريخ الدولة العثمانية، ووصفاً للعاصمة القسطنطينية.

وبعد أن أدى السفير المكناسي مهمته في بلاط السلطان العثماني، جاء وقت سفره من العاصمة التي أعجبته كثيراً متوجهاً إلى الحجاز لداء فريضة الحج عبر طريق الحج العثماني.

وحدد المكناسي خمس مراحل بين القسطنطينية والشام، يقطعها ركب الحجيج العثماني، بحيث يستريح بعد نهاية كل مرحلة، ويريح الدواب، ويستكمل الركب تامين وشراء وكراء ما يحتاج من مؤن لبقية مراحل الرحلة.

وكان منطلق الرحلة بعد عبور البوسفور من أسكدار، وبعد أن يمر بعدد كبير من المدن والقرى التركية يصل إلى الإسكندرونة، والتي يقال لها (مرسى حلب)، ومر الركب بأنطاكية المشهورة. ومر ركب الحجاج بأرض الزنبق على وادي العاصي، ومنها إلى جسر الشغر، ثم إلى حماة فحمص فزاروا فيها قبور المشاهير: سيف الله خالد بن الوليد، عبد الله بن عمر بن الخطاب وكعب الأحبار من التابعين، وجعفر الطيار أخي الخليفة الراشد

علي بن أبي طالب، وعكاشة بن محصن، وعمرو بن أمية الضمري، وسعد بن أبي وقاص، وأبي موسى الأشعري، ودحية الكلبي والراجح أنه مدفون في دمشق بقرية المزة، وعبد الله بن مسعود ممن يقال إنهم دفنوا في حمص.

ومن حمص توجه الركب إلى دمشق فنزل الركب خارجها، ثم تقدم إلى البلدة فقال إنهم وجدوا (جميعاً خرجوا لملاقاة ركب الحجاج بالفرح والإجلال، والطبول والمزامير، والخيول في مهرجان عظيم، فأنزلونا داراً فيها مياه كثيرة في عدة مواضع، لكون أرض الشام من أكثر البلاد مياهاً، إذ يشقها سبعة أنهر، وأجروا علينا من المؤن والعلوفات ما هو فوق الكفاية في إكرام عظيم، ووجدنا فيها قبوراً للمشاهير مثل قبر نبي الله يحيى بن زكرياء، وتبركنا بمصحف الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد أخرجه لنا القيّم من خزانته.)، وأنهى المكناسي رحلة ركب الحج من العاصمة العثمانية إلى الشام بوصف مقتضب لدمشق، التي عاد إليها بعد انتهائه من مناسك الحج وتوجّه منها لزيارة عكا يوم 9 ربيع الأول عام 1202هـ [ديسمبر 1787م]. وقد قضى فيها تسعة أيام، زار معالمها، وتعرّف على عادات أهلها، ومن الطريف أنّه سعى لترتيب رحلة عودته إلى المغرب عن طريق البحر على متن سفينة، وكانت السفينة ترتّب أمور السفر الذي يستغرق وقتاً وتحضيرات طويلة، فلم يشأ أنْ يضيع الوقت بالانتظار من غير فائدة فقرّر القيام برحلة سريعة لزيارة بعض مدن فلسطين، وأهمّها زيارة بيت المقدس، وقد كان له ذلك، فزار مدينة نابلس، ثم القدس التي أبدى إعجابه الشديد بمعالمها الأثرية والمقدسات الكثيرة فيها، ويمتدح بشاشة أهلها.

وزار المكناسي الطور، ثم زار مدينة الخليل، قبل أن يعود إلى عكا عبر قرية سنجيل وقلعة سانور ثم عكا التي غادرها في شهر يناير 1788م عن طريق البحر عائداً إلى المغرب.

وبقيت هذه الرحلة المهمة مجهولة لدى الباحثين في المشرق العربي، حتى قام الباحث محمد بوكبوط بنشرها ضمن سلسلة ارتياد الآفاق الصادرة عن دار السويدي للنشر والتوزيع في أبو ظبي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت عام 2003، وقد شكل صدورها بتحقيق ممتاز إضافة مهمة إلى المكتبة العربية الخاصة بأدب الرحلات، وعن هذه الطبعة أخذنا النص المتعلق بفلسطين.

إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام

وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب

1785

محمد بن عبد الوهاب المكناسي

التأهب للسفر إلى مدينة عكا

ثم أخذنا في التأهب للسفر لمدينة عكة[321] بقصد الركوب إلى الأوطان، فتوجهنا إلى زيارة رأس نبي الله يحيى بجامع الأمويين، فزرنا وتبركنا به ودعونا الله هناك، وغيره من الأنبياء والصحابة والصالحين لم يساعدنا الوقت في الطواف عليهم ثانياً من أجل الطين والأمطار، لكن عممناهم بالزيارة من مكان عال، ولما كنا بجامع الأمويين بقصد الزيارة دخلنا إلى مقصورة صاحبنا الفقيه الأجل الشيخ محمد الفزي بقصد رؤيته ووداعه، فقام إجلالاً وأنشد ارتجالاً: [من المتقارب]

فأهلاً بحبر أتى زائراً	كأني بفضل له كان أهلا
فكان كغيث سقى روضة	وبدر بآفاق قلبي تجلى
وعافية في فؤاد السقيم	ونور تبدى وسر تجلى

---

(321) - عكا، مدينة كبيرة من ثغور الشام ومن أحسن بلاد الساحل وأعمرها، يصفها ابن جبير قائلاً: «وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها واحتفالها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقس»، كانت سنة 1105 هـ حسب شهادة عبد الغني النابلسي «بلدة خربة مندكة قد تهدمت أسوارها وانكسر سوارها وانقلعت عين قلعتها وخفيت بدائع صنعتها ولم يبق منها إلا القليل من البيوت»، لتشهد في عهد أحمد باشا الجزار انبعاثاً حضرياً كما يصف ابن عثمان (الروض 410؛ معجم البلدان 4 ـ 143؛ ابن جبير 211؛ الحقيقة والمجاز 98).

فاكـــسب ذات الكمـــال[322] ارتقـــا وأولى جمـــيلاً بـــه صـــار أولى

وخرجوا معنا مشيعين.

وكان خروجنا من دمشق الشام في التاسع من ربيع الأول من سنة اثنتين ومائتين وألف[323]، فبتنا بقرية قرب المدينة بنحو ساعة ونصف يقال لها المزة بالزاي، وبظاهرها قبر الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه وقد تقدم ذكره في الزيارات، ومن الغد سافرنا فرحنا إلى خان عظيم معد للمسافرين، يداخل قصبة مؤسسة على وادي يقال له سعسع وصلناه على عشر ساعات، ومن الغد سافرنا إلى أرض ذات حجارة وصلد كثير متصل، فنزلنا بخان أيضاً معد للمسافرين يقال له خان الأرنب[324] نزلناه على خمس ساعات، وسافرنا من الغد فرحنا إلى خان يقال له خان الجسر[325]، مؤسس على وادي السيسبان /257/ وصلناه على تسع ساعات، وفي آخر هذه المرحلة مررنا بأرض كثيرة الحجارة كثيرة الطين، فصفحت الأرض بالحجارة المبسوطة ليمر الناس عليها زمن الطين، إلى أن وصلوا الرصيف إلى الخان وسموها جسراً، فأضيف إليها الخان فقيل خان الجسر، وعلى الوادي أيضاً جسر أمام الخان، وبالقرب من هذا الخان عن يمين الطريق المتوجه إلى عكة شجرة يقال إن بقربها مقابر بنات يعقوب، فقرأنا عند مواجهتها الفاتحة ودعونا الله بما نرجو قبوله.

وفي الغد سافرنا فأصابنا مطر كثير في الطريق، فقصرنا المرحلة ونزلنا بخان معد للمسافرين أيضاً على خمس ساعات، وإلى جانب الخان جب يوسف عليه السلام محيط به سور، وله باب يصعد إليه بمدارج ثلاثة، وقبالة البير داخل مسوره مسجد صغير له بلاط واحد، فدخلنا إلى مسور البير وأشرفنا عليه وفيه ماء كثير عذب، ودعونا الله تعالى هنالك، وقعدت بباب المسجد مقابلاً للبير وقرأت سورة يوسف، متفكراً قضيته وقضية أبيه عليهما السلام، وأنشأت هنالك أبياتاً وهي:

يـا أمـين الجبـاب يـا جـب يوسـف لقـد حـزت في البـسيطة فخـرا

صـــنت يوســف إذ رمـــوه وألقـــوا فوقـه مـن حجـارة الأرض صـخرا

---

[322] - كتب في الهامش قبالة هذا الشطر ما يلي: «قوله ذات الكمال يعني نفسه لأن لقبه كمال الدين».

[323] - دجنبر 1787.

[324] - [خان ارينبة بلدة معروفة في الجولان، قبل القنيطرة ببضعة كيلو مترات]

[325] - [المقصود خان جسر بنات يعقوب]

فحنـــوت عليـــه حنـــو رحـــيم أو مريـــد مـــن شـــيخه حـــاز ســـرا

ثـــم صـــادفك الفـــراق الـــذي يعـــ ـــقوب صـــادف قبـــل صـــبرا فـــصبرا

فبكـــاه يعقـــوب دهـــراً وانـــت لا تـــزال تبكـــي ودمعـــك أجـــرا

/258/وأراه مكفكفـــاً فأجـــاب الحـــ ـــحال لـــو كـــان مرســـلاً صـــار بحـــرا

دمـــت في تـــرف ومـــاء زلال تحـــسبه الـــوردا اريـــا وخمـــرا

ووفـــود تـــترى بمطفـــك طـــول الـــدهر تحمـــد منـــك وردا وصـــدرا

ومن الغد سافرنا وأعدنا الزيارة والدعاء عند البير المذكور، فسرنا في أرض من أصعب الأرضين وأكثرها حجارة وصلدا، فوصلنا قرية يقال لها الرمة على خمس ساعات فبتنا ببعض بيوتها، وبهذه القرية زيتون كثير وأهلها نصارى تحت ذمة المسلمين.

الوصول إلى عكا وحفاوة الباشا الجزار وذكر بعض إنجازاته

ومن الغد سافرنا منها إلى عكة فوصلناها على ست ساعات، ولما قربنا من المدينة بعثنا أحد أصحابنا ليكتري لنا داراً ننزل بها، فطاف البلاد كلها فلم يجد منزلاً، فسمع بذلك الوزير صاحب البلد وعملها ويقال له أحمد باشا الجزار[326]، فعين لنا موضعاً نزلناه مشرفاً على البحر في أحسن حال، في خان جديد أنشأه على ساحل المرسى، وبعد يوم من نزولنا استدعانا لأنه كان مريضاً، فتوجهنا إليه فأبدى بشاشة وفرحنا وقعدنا معه ساعة نتحدث ثم خرجنا من عنده.

ولهذا الوزير أثر كبير بهذه المدينة وهو الذي شهرها وبه اشتهرت، وأنشأ بها مسجداً من أحسن المساجد وألطفها على شكل مساجد القسطنطينية، وغرس في صحنه المستدير شجراً مصفوفاً من نخيل وسرو، وأنشأ بها أيضاً حماماً ما رأيت مثله لا في القسطنطينية ولا في الشام؛ وأهل البلد يثنون عليه كثيراً، فله جرايات على الضعفاء والفقراء ورواتب لأهل الحياء /259/ والحشمة الذين لا يسألون الناس إلحافاً، إلا أنه [به

---

[326] - من اشهر ولاة العثمانيين بالشام، ارتبط اسمه بمدينة عكا التي لا تذكر إلا مقرونة به إذ هو الذي أعاد بناءها، اشتهر الجزار باستقلاله عن الباب العالي الذي أعياه أمره، عرف بالقسوة والشدة وسفك الدماء ومنها لقبه الجزار، كما قاوم الحملة الفرنسية على الشام يورد الزياني حادثاً طريفاً جمعه بأحمد باشا وعنه يقول: «وكان هذا الجزار رجلاً أحمق يبحث عن أهل الحكم وعلم الحدثان، وكان يزعم أنه المهدي المنتظر ويصرح بذلك»، وقد دارت بين الرجلين مناقشات صرح فيها أحمد الجزار أنه سيملك «المشرق والمغرب ويصل بلادك (المغرب) ويملكها» (الترجمانة 258 . 259).

شموس من الدولة أبي القياد] (كذا)، يفعل في بلاده برأيه ويقبل من أوامرها ما يوافق غرضه. وقد استدعته الدولة ونحن هنالك للقدوم عليهم، قائلين له إنهم أرادوا بعثة لناحية العدو برسم الجهاد فأبى عليهم، لكنه معذور فلا يأمن على نفسه.

ويظاهر المدينة ضريح نبي الله صالح ﷺ، وهو عن يسار الخارج من المدينة لناحية المشرق في وسط المقبرة، فتوجهنا إليه وفتحوا لنا القبة التي فيها قبره المبارك، وقرأنا عنده ما تيسر من القرآن ودعونا الله بما يرجى قبوله.

ولما دخلت إلى حمامها البديع ذي الصنع الرفيع، وجدت القيم عليه أبدع وأحسن وأنصع، والطيور على أجناسها تقع، ولما خرجت منه وقعدت في إحدى مصاطبه للاستراحة، أتى إلي معرضاً بالقهوة علي، فقلت عند رؤيتي شمايله[327] وقوامه المدهش وتمايله: [من البسيط]

لم أنس عكة إذ جعلتها مآربي	يوم دخلت إلى حمامها المعجب
إذ قال ظبي به أسقيك قهوتنا	فقلت كلا فإني لست بالشارب
فقال لو من شراب قد حلا قلت إن	كان ولابد من لماك مع شارب
ثم ثنا عطفه يميس من خجل	فأكد التيه من سورة الراغب
ورام مشياً فلم يقدر وأقعده	ردف يعجزه بثقله الغالب
ثم تبسم عن در وعن شنب	ومال به الحيا قسراً إلى جانب
أفديه من أوطف عن لمس وجنته	يحمي بقوسين موترين من حاجب
/260/فقولي موترين فيه تورية بالوتر	والمقصود الإيثار والتسامح

التعاقد مع صاحب المركب للإبحار إلى المغرب وزيارة القدس الشريف

(427) وأقمنا بعكة تسعة أيام حين عينا المركب الذي يحملنا في البحر، وتعاقدنا مع صاحبه وعينا المدة للسفر، واشتغل رئيسه بإصلاح شؤونه والاستعداد للسفر، وتوجهنا من خلال هذه المدة لزيارة القدس الشريف والتبرك بمشاهدة المسجد الأقصى، وبمن هنالك من الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فكان مبيتنا يوم خروجنا من عكة عند عرب أهل بيوت شعر، بقرب تربة ولي مشهور في تلك النواحي يقال له الشيخ

---

[327] - الصحيح «شمائله» كما في (ب).

إبراهيم الزعبي على ست ساعات من عكة، فرحنا إليهم والسماء تجودنا فما كان إلا أن رأونا وأدخلونا إلى خيمة من أكبر خيامهم، وفرحوا بنا وسلكوا معنا مسالك أهل الحاضرة، فأتوا بالقهوة إثر نزولنا وبعلف الخيل وبعشاء قل أن يوجد في الحاضرة، وباتوا يحرسون الخيمة التي نزلنا فيها إلى الصبح جزاهم الله خيراً.

ومن الغد سافرنا فرحنا إلى قلعة سنور وصلناها على سبع ساعات، فأكرم مثوانا صاحب القلعة وأحسن نزلنا، وأتى بطعام كثير وفراش متكلف، ولم يترك شيئاً من الحضرية في طعامه ولا في شرابه؛ وهذه القلعة حصينة وقد وجدنا جماعة معلقين عدتهم ببابها، فلما دخلنا الباب أخذوا العدة من أيدي رفقائنا وأصحابنا، لأنهم لا يتركون أحداً يدخل بالعدة إلى هذه القلعة، ومن الغد عند خروجنا ردوا العدة إلى أصحابنا.

طبيعة العلاقة بين الولاة والباب العالي

وهذا الرجل صاحب هذه القلعة تحت نظر وزير الشام مولى عمل هذه الناحية على /261/ يده، لكنه غير كامل الطاعة والانقياد، فهو يميل إلى الاستقلال والاستبداد، منفذاً لأوامر أميره لكنه لا يتلاقى معه خوفاً على نفسه، والوزير أيضاً لا يقدر على نزعه فهو قانع بما يأتي منه، فإذا أتى الوزير إلى ناحية بلاده يخرج منها إلى ناحية أخرى حتى يرجع الوزير فيرجع.

وصف بلدة نابلس

ومن الغد سافرنا من هذه القلعة فوصلنا إلى بلدة نابلس[328]، وهي بلدة متوسطة بين جبال مرآها حسن، وبناؤها كله بالحجارة المنحوتة حسن المنظر، وماؤها كثير ذات بساتين، إلا أن أزقتها كثيرة العفونات والطريق إليها من القلعة المتقدمة في صعود وهبوط وحجارة، فوصلناها على أربع ساعات ونصف، فنزلنا بها على شيخ القلعة المذكورة، والقلعة كنا وجدنا بها ولده فله تصرف بهذه البلدة أيضاً، فبتنا عنده ومن الغد عين فارساً يصحبنا في الطريق إلى القدس، ولما خرجنا من نابلس أرونا عن يسار الخارج قبباً يقال إنها مدافن أولاد يعقوب عليهم السلام، فتبركنا بزيارتهم وقرأنا الفاتحة وتمادينا على

---

[328] - نابلس، هي مدينة السامرية بفلسطين بين جبلين كثيرة المياه وأرضها حجرية، تقع شمالي القدس وبها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام، كما حبس بها عيسى عليه السلام وطلب من المرأة السامرية الماء ليشرب، وعليه الآن كنيسة حسنة، كما يوجد بها الجبل الذي يعتقد اليهود ان الذبح كان عليه (الروض 571، معجم البلدان 5 . 248).

المسير في أرض كثيرة الحجارة، ولاسيما من موضع يقال له خان اللبان وأمامه وادي التين، وهو منخفض من الأرض بين جبال، وتلك الجبال كلها مفروسة بالتين إلا أنه صعب من كثرة الحجارة، لكن من عرف ما قصد هان عليه ما وجد.

فكان[329] مبيتنا بقرية يقال لها البيرة[330] على عشر ساعات، ومن الغد سافرنا منها فوصلنا القدس الشريف على ساعتين ونصف، وقبل وصولنا بنحو ساعة قابلنا النبي شمويل بن يعقوب /262/ عن يمين المار إلى القدس على ربوة عليه بناء، فقرأنا الفاتحة عند مواجهته ودعونا الله هنالك، وهذه البلاد كثيرة الحجارة كما تقدم.

وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة

وللقدس السور الحصين مبني بالحجارة في غاية الكمال والإتقان، والأبواب الحصينة الفلق فعدد أبوابه ستة[331]: الأول ومنه دخلنا وهو باب العمود، والثاني باب الزاهرة، والثالث باب الأسباط، والرابع باب المغاربة، والخامس باب النبي داوود، والسادس باب الخليل. فدخلنا إليه ونزلنا ببيت يقال إنه بيت الشيخ أبي مدين الغوث[332] دفين تلمسان وعليه وكيل وله أوقاف.

فكان أول ما بدأنا به أن توضأنا وتوجهنا إلى المسجد الأقصى، فدخلنا أولاً إلى قبة الصخرة وقد صعدنا إلى المكان الذي فيه الصخرة بمدارج نحو العشرين، وهو بلاط واسع جداً في وسط مسور المسجد، وفي وسط هذا البلاط قبة الصخرة المباركة وهي مثمنة الدائرة، لها أربعة أبواب عظام مجلدين بالصخرة، وبين الأعمدة شبابيك من الصفر في علو نحو قامتين، لها أربعة أبواب من نفس الشبابيك، فدخلنا من الشباك المذكور فألفينا

---

(329) - ابتداء من هنا نشر د محمد بن عبود ومحمد المنوني النص الخاص بالقدس في المناهل، ع 39، 1990.

(330) - البيرة، قرية من بيت المقدس ونابلس، خربها الملك الناصر لما استنقذها من الإفرنج (معجم البلدان 1 . 526).

(331) - ورد في هامش الصفحة 278 من (ب): «قد وقع لي شك في عد الأبواب (كتابة غير واضحة)، بل هي سبعة والباب السابع يقال له» (غير واضح).

(332) - شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني ابو مدين الغوث (ت 594 هـ/1198م)، من مشاهير الصوفية اصله من الأندلس اقام بفاس طلباً للعلم ولكنه سرعان ما استهواه التصوف الذي تنقل من مراتبه حتى بلغ مرتبة القطب «والغوث»، ورحل إلى مكة حيث لقي الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني كما قيل وأتم على يده علوم التصوف ولما رجع إلى المغرب اشتغل بتعليم الصوفية ونشر تعاليمها، حيث استقر ببجاية ناسكا وعلا صيته وهرع إليه الناس حتى قلق الموحدون من تعاليمه التي تخالف مذهبهم، فاستدعاه السلطان ابو يوسف بن يعقوب المنصور إلى مراكش لمناقشته، ولبى الشيخ الدعوة غير انه توفي قرب تلمسان حيث لا يزال قبره مزاراً ومحجاً قامت حوله مدينة العباد (جذوة الاقتباس 332، دائرة المعارف 1 . 399، الزركلي 3 . 166).

الصخرة محيط بها شباك من خشب علوه أقل من القامة، فأشرفنا منه على الصخرة ولمسناها على سبيل التبرك من طيقان بالشباك المذكور، ووضعت أصابع يدي في أثر أصابع الملك حيث أقام الصخرة لما مالت بالنبي ﷺ ليلة الإسراء كما يأتي بيانه.

فعدد /263/ أعمدة القبة كلها أربعون عموداً من الرخام الفائق، منها أربعة عشر عموداً هي الدائرة بالصخرة المرفوع عليها قبتها، ومنها ستة عشر عموداً مرفوع عليها المسقف المحيط بقبة الصخرة وهو مسطح، وجميع حيطان هذه القبة من داخل وخارج مكسو بالرخام المصقول الذي كأنه مرآة، وما رأيت في بلاد الإسلام أكثر تأنقاً من صنعة هذه القبة، وفيها محراب يصلي فيه إمام الحنفية الخمس.

ومن داخل القبة الأولى انحدرنا إلى سفلي الصخرة بأربع عشرة درجة، فصارت الصخرة فوقنا وقد أحاط بجوانبها بناء متصل بها، وتحتها عمود من رخام قائم تحتها متصل بها كأنه مقيم لها، وعند المدارج أيضاً عمود طرفه في بعض المدارج وطرفه الآخر متصل بها قرب لسانها.

وهذا المكان الذي تحت الصخرة كثيرة من الأنس يجد الإنسان فيه نشاطاً وخفة وانشراحاً لعبادة الله تعالى، فصلينا في محراب سيدنا سليمان ﷺ وهو عن يسار الخارج منها وهو من الرخام، وصلينا أيضاً ركعتين في محراب سيدنا داود ﷺ وهو عن يمين المخارج، وقرأنا تحت الصخرة ما تيسر من القرآن ودعونا الله هناك بما نرجو من الله قبوله، ثم صعدنا مع المدارج التي انحدرنا منها فأرونا طرفاً من الصخرة ممتداً شيئاً ما يقولون إنه لسان الصخرة، ولا أصل له وإنما ذاك من موضوعات المزورين.

ومكتوب في دائرة قبة الصخرة من خارج سورة الإسراء، وبدائرة المسطح المحيط بها سورة /264/ يس إلى يأكلون، وعبارة بعض المؤرخين: وأما الصخرة فهي في وسط المسجد على صحن كبير مرتفع عن أرض المسجد الأقصى الشريف، وارتفاع القبة التي على الصحن إحدى وخمسون ذراعاً بذراع العمل، وهو مقدار ذراع وربع ذراع الإنسان، وهذا الارتفاع من فوق الصحن، وأما علو الصحن عن أرض المسجد فسبعة أذرع، فيكون ارتفاع القبة عن أرض المسجد ثمانية وخمسون ذراعاً.

وأما جامع المسجد الأقصى الذي يصلي فيه إمام الشافعية، وهو المسقف من الأقصى وصار اليوم اسم الأقصى علماً عليه بالغلبة، فعرضه من المحراب إلى الباب الكبير مائتان وخمسون قدماً، وطوله خمسة وخمسون وأربعمائة قدم، هذا مما يلي صدر المسجد في بلاط المحراب وما يليه، وفيما دون ذلك أقل، ومحرابه في غاية الحسن وهو

الذي يقال إن المهدي يصلي فيه، وينزل عيسى عليه السلام فيجده قائماً يصلي بالناس فيقتدي به، وهو مكسو بألواح من الرخام عرض الواحدة أقل من شبر وعددها سبعة عشر لوحاً، ثمانية بيض وأربعة حمر وثلاثة إلى السواد أميل واثنان إلى الخضرة أميل، وفيه أمر يحكيه أهل الحرم فإن قصد فحسن وإن كان اتفاقاً فغريب، يقولون إن ثمانية الألواح البيض إشارة إلى ثماني ركعات صلاة الظهر والعصر، والأربعة الحمر إشارة إلى صلاة العشاء بعد حمرة الشفق، والثلاثة التي تميل إلى السواد إشارة إلى صلاة المغرب إذا أقبل الليل، والاثنان الخضراوان إشارة إلى صلاة الصبح.

وقد صلينا في هذا /265/ المحراب على سبيل التبرك، وأمام المحراب قبة عظيمة مزينة بالفصوص الملونة كاملة الزينة مكتوب في دائرتها: بسم الله الرحمن الرحيم جددت هذه القبة المباركة في أيام مولانا السلطان الملك الناصر، العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر، المؤيد المنصور قاهر الخوارج المتمردين محيي العدل في العالمين، سلطان الإسلام محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون الصالحي تغمده الله برحمته، في شهور سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. ومكتوب فوق المحراب: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر، صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله تعالى على يديه في شهور سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة. وبه منبر من العود المنتخب في غاية ما يكون من الصنائع الفائقة والنقوش الرائقة، صنعه نور الدين الشهيد صاحب دمشق المتقدم الذكر.

وله أي للأقصى المسقف من الأبواب أحد عشر باباً: سبعة في صف واحد في مقابلة الصخرة أوسطها هو الباب الكبير المقابل للمحراب، وأمام هذه الأبواب بلاط مسقف وأربعة أبواب في جانبه، وفي الجهة الغربية من الصحن عدة مدارس ويقربها متصلاً بها مسجد، وهو بلاط واحد كبير طويل جداً يقال له البقعة البيضاء، وبه يصلي إمام المالكية قرب مربط البراق، ويقولون إن النبي ﷺ صلى به، ويقربه زاوية لسيدي عبد القادر الجيلاني وبها حجرة شيخنا أبي السعود /266/ نفعنا الله ببركاته وهو القائم عليها.

وطول جميع مسور المسجد الأقصى، بين المسقف والصخرة وغير ذلك، سبعمائة وخمسة وثمانون ذراعاً من باب الأسباط إلى محراب داوود وسوق المعرفة، وسوق المعرفة المذكور هو مكان مسقف بين محراب داوود والمحل الذي فيه محراب مريم ومهد عيسى

عليهما السلام، ولم أقف على معنى هذا الاسم، والمزورون يقولون إن أرواح الصالحين تتعارف هنالك، ولا يعتمد عليهم في شيء من ذلك لأن غرضهم معلوم.

وعرضه أربعمائة وله أحد عشر باباً: فأولها وثانيها بابان متحدان في السور الشرقي الذي يرى بعض المفسرين أن الله تعالى فيه قال: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾[333]، فإن الوادي الذي وراءه يقال له وادي جهنم ومتصلاً به مقبرة اليهود، وهذان البابان من داخل الحائط مما يلي المسجد، أحدهما يسمى باب الرحمة والآخر باب التوبة؛ ويحكى أنه في بني إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنباً يصبح مكتوباً على باب داره، فيفر إلى هذا المكان فيتوب ويخرج من باب التوبة ويدخل من باب الرحمة، فإن تاب الله عليه تمحى الكتابة وإلا يبقى هناك، ولا يستطيع أحد أن يكلمه ولو كان أدنى الناس إليه، والذي ذكره الحنبلي[334] صاحب «تاريخ الأنس الجليل في القدس والخليل» أن المكان الذي كانت تقصده بنو إسرائيل عند ذنوبها هو محراب داود.

والثالث باب الأسباط نسبة لأسباط بني إسرائيل وهم يوسف وروبيل وشمعون ويهودا، وهو قريب من /267/ بابي الرحمة والتوبة، والرابع باب حطة في جهة الشمال، وهو الذي أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يدخلوا منه سجدا ويقولوا حطة، فبدلوا وخالفوا ما أمروا به فلعنهم الله، والخامس باب شرف الأنبياء من جهة الشمال أيضاً، ويرون أنه الذي دخل منه عمر بن الخطاب ﷺ يوم الفتح، والسادس باب الفوانمة والسابع باب الناظر، وقد جددت عمارته في زمن الملك العظيم عيسى بن أيوب في حدود ست المائة ويعرف قديماً بباب ميكائيل، والثامن باب الحديد والتاسع باب القطانين ومنه يخرج إلى سوق القطانين، والعاشر والحادي عشر باب السلسلة وباب السكينة وهما متحدان، وباب المغاربة سمي بذلك لمجاورته لباب جامع المغاربة الذي تقام فيه الصلاة أو لأنه ينتهي إلى حارة المغاربة، وهذا الباب في آخر الجهة الغربية من المسجد مما يلي القبلة ويسمى باب النبي ﷺ.

---

(333) - الآية 13 سورة الحديد.

(334) - ابو اليمن عبد الرحمن بن محمد مجير الدين الحنبلي المقدسي (810 . 928 هـ/1466 . 1522م)، مؤرخ من القدس تلقى تعليمه بالقاهرة واشتغل قاضياً بالرملة ثم قاضي القضاة بالقدس إلى ان توفي بها. له كتب منها «فتح الرحمان في تفسير القرآن، والمنهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد، ترجم فيه لمجموعة من الفقهاء الحنابلة، واشهرها كتابه «الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل» الذي جمع فيه معلومات مهمة عن اوضاع القدس بالخصوص خلال الفترة الأيوبية وتاريخ المدينة ومساجدها وتراجم رجالها (E, I, 7 . 296).

وزرنا أيضاً في هذا الحرم الموضع الذي فيه محراب سيدتنا مريم، وفيه أيضاً مهد عيسى عليه السلام، وقد انحدرنا إليه بمدارج وقعدت في المهد تبركاً بصاحبه، وأشرفنا من هذا المكان على القضاء المحمول عليه المسجد الأقصى كله، فهو محمول على أعمدة من الحجارة العظيمة من بناء الجان على عهد نبي الله سليمان عليه السلام، فذكر لي بعض المزورين من أهل الحرم أن عدد الأعمدة التي تحت الأرض المحمول عليها المسجد الأقصى /268/ ثلاثة آلاف قائمة والعهدة عليه، وكلها تحت الأرض وقد رأينا بعضها من طاق من محل مهد عيسى عليه السلام، فهي في غاية الضخامة العمود فيه ثلاث قطع من الحجارة العظيمة.

وزرنا أيضاً بهذا الحرم تربة سليمان عليه السلام وهي موضع كرسيه، وقيل الصحيح أنه مدفون مع والده في الجسمانية موضع خارج سور المسجد من جهة الشرق، وجزم بعض العلماء بأن سيدنا داود مدفون بصهيون، موضع خارج سور المدينة من جهة القبلة، وهو الآن مقامه مشهور في غاية الجلالة يزوره الخاص والعام لاغتنام المدد والجمال وقيل غير ذلك (والله أعلم).[335]

وزرنا المكان الذي كان يحكم فيه نبي الله داود عليه السلام، وهو أمام قبة الصخرة تحت قبة السلسلة مكتوب فوق محراب هذه القبة ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق الآية[336]، وذلك أن هذه السلسلة أدليت من السماء في أيام داود عليه السلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، فكان الناس يتحاكمون عندها، فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذباً لم ينلها، إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، وذلك أن رجلاً أودع جوهرة فخبأها في عكازه وطلبها المودع فجحدها، فتحاكما فقال المدعي إن كان صادقاً فلتدن مني السلسلة فمسها، ودفع إليه المدعي عليه العكازة وقال: اللهم إن كنت تعلم إني رددت له الجوهرة فلتدن مني السلسلة، فمسها فقال الناس قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم /269/ الخديعة وأوحى إلى داوود أن احكم بين الناس بالبينة واليمين وبقي ذلك إلى الآن.

وزرنا أيضاً تربة نبي الله داوود عليه السلام وهو خارج سور البلد، وقرأنا في ضريحه سورة (ص) ودعونا الله هناك، وتبركنا بزيارة مربط البراق وصلينا هناك ركعتين، ورأينا الحلقة التي ربط فيها البراق لكن الحلقة بدلت بغيرها وجعلت هذه تذكرة.

---

[335] - سقطت من (أ) ووردت في (ب).

[336] - الآية 26 سورة ص

ثم توجهنا لزيارة طور سيناء ومن اشتمل عليه من أهل الثناء والسنا، فخرجنا من باب الأسباط أحد أبواب القدس، فزرنا أولاً قبر الصحابي الجليل عبادة بن الصامت[337] وهو عن يسار الخارج من باب الأسباط ملاصقاً للسور، وبعده بشيء ما للصحابي الشهير شداد بن أوس قرب السور المذكور في مقبرة هنالك.

ثم انحدرنا إلى زيارة سيدتنا مريم بنت عمران، فوقفنا عند ضريحها وقرأنا لها الفاتحة ودعونا الله هناك، ومفتاح قبتها بيد النصارى ولا حول ولا قوة إلا بالله، جبر الله حال هذه الدولة فقد أفسدهم الطمع، وامامها تربة الإمام الحنبلي صاحب «تاريخ الأنس الجليل في القدس والخليل»، ثم صعدنا إلى الطور فزرنا قبر الشيخ محمد العلي من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله تعالى ببركاته، وحذاء ضريحه مسجد وزاوية يقال لها الأسعدية سميت باسم بانيها أسعد افندي كان شيخ إسلام، ثم دخلنا إلى الموضع الذي رفع منه عيسى عليه السلام فصلينا فيه ركعتين، وأرونا حجراً فيه أثر قدمه فتبركنا به ودعونا الله /270/ هنالك، وقد كان ايضاً بأيدي النصارى فاستنقذه الله منهم على يد هذا الرجل الصالح الشيخ محمد العلمي بواسطة شيخ الإسلام المذكور، ثم توجهنا إلى زيارة تربة نبي الله عزير فدخلنا مقامه المبارك ودعونا الله هنالك.

ومن جبل الطور يظهر بيت المقدس في غاية البهاء والابتهاج وحسن المنظر وكذا من جهة القبلة، وأما من جهة الغرب والشمال فلا يرى منه من بعد إلا القليل لمواراة (كذا) الجبال له، فإن بيت المقدس والخليل في جبال كثيرة الأوعار والأحجار، والسير فيها متعب والمسافة فيها بعيدة، فإن الجبال المحيطة بالبلدتين مسافتها تقريباً ثلاثة أيام طولاً ومثلها عرضاً يسير الأثقال، ولكن إذا من الله على قاصد الزيارة بالوصول إلى المسجد الشريف الأقصى وإلى المقام الشريف الخليلي، يحصل له من الأنس والبهجة ما لا يكاد يوصف، ويسلوا عما حصل له من المشقة والنصب، وقد أنشد الحافظ بن حجر عند قومه لزيارة بيت المقدس في معنى ذلك: [من الوافر]

إلى البيت المقدس جئت أرجو ... جنان الخلد نزلاً من كريم
قطعنا في مسافته عقاباً ... وما بعد العقاب سوى النعيم

---

[337] - عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري (38 ق هـ . 34 هـ/ 586 . 653م)، صحابي ورع شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، ثم حضر فتح مصر وكان اول من تولى قضاء فلسطين، مات بالرملة او ببيت المقدس وروى 181 حديثاً. (ابن عساكر 7 . 206، الإصابة 8 . 448، الزركلي 3 . 258).

ثم انحدرنا من وراء الطور فدرنا إلى صوب كليم الله ونبيه موسى بن عمران ﷺ، وهو بعيد من هذا المكان قبل بنحو أربع ساعات، فحدثت نفسي بالوصول إليه فأخبرني أهل البلد أن الطريق مخوفة، فرددنا الوجهة إلى صوبه ودعونا الله هناك، ثم تبركنا بزيارة بير /271/ نبي الله أيوب ﷺ الذي يروى أنه المراد بقوله تعالى: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾[338]، وقد أخبرني بعض الأفاضل من علماء القدس وقد توجه معنا لهذه الزيارة وهو الذي كان يدلنا على هذه الأماكن، أن هذا البير في فصل الشتاء والأمطار يفيض ويفور بماء كثير مثل النهر، وقد رأينا مجراه يابساً وهو محفور بجري الماء، وأشرفنا على البير فإذا فيه ماء كثير لكنه بعيد، فقد رميت فيه حجر فما وصل الماء إلا بعد حين.

ثم مررنا بعين يقال لها سلوان أخبرنا أهل البلد أنها تجري حيناً وتحبس حيناً، وهي خارجة من أصل جبل لا يدري لها أصل، قال الإمام الحنبلي في تاريخ «الأنس الجليل»: أما عين سلوان فهي بظاهر القدس الشريف من جهة القبلة بالوادي، يشرف عليها سور المسجد القبلي، وقال في آخر كلامه عليها وعن خالد بن[339].. أنه قال: زمزم وعين سلون التي ببيت المقدس من عيون الجنة، ومن الغريب أنها لا تجري غالباً إلا عند أوقات الصلاة وتحبس فيما عد ذلك، ونحن لما وصلنا إليها وجدنا ماءها منحبساً، وعند وصولنا إليها خرج ماؤها وجرى على وجه الأرض في مصاريفه، فشربنا منه فإذا ماؤها أشبه بماء زمزم، وهذا عند أهل البلد معروف وقد أخبرونا به قبل رؤيتنا له فلما شربناه وجدناه كما قيل.

ويروى عن كافة أهل البلد أن رجلاً هندياً شرب من ماء زمزم فسقط له قدح في البير، فغاب حقبه من الدهر وأتى إلى القدس، فاستقى ماء من بعض الضيع فناولوه الماء في قدح، فأمعن النظر في القدح فإذا هو قدحه الذي سقط منه في بير زمزم، فقال لصاحبه: من أين لك هذا القدح، فقال له: اشرب وما عليك فيه، فقال: هذا القدح لي وقد سقط مني في بير زمزم، وهاهو مجلد فانزعوا عنه الجلد فإن وجدتهم تحته كذا دنانير فهو لي وإلا فلا، فقال له: إن كان /272/ كما تقول فقد رمت به عين سلوان ورفعناه، فأخبرهم الخبر فأمسكوا القدح وعلقوه في المسجد الأقصى وقد رأيته، ولا غرابة في هذا فقد ورد أن مياه الدنيا كلها تخرج من تحت صخرة بيت المقدس.

---

(338) - الآية 42 سورة ص

(339) - اسم غير مقروء

وزرنا أيضاً القبة التي عرج منها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وهي في شمال قبة الصخرة قريبة منها، وصلينا هناك ركعتين ودعونا الله بما يرجى قبوله، وتبركنا أيضاً بالدخول إلى المسجد الأقصى القديم الذي فوقه المسجد الذي يسمى اليوم بالأقصى، فانحدرنا إليه بمدارج وهو إليه فيه محرابان، محراب إلى صوب الصخرة القبلة الأولى ومحراب إلى جهة الكعبة المشرفة، وبناؤه قديم من بناء سليمان عليه السلام بالحجارة الهائلة، فقد كلت حجراً من احجار جداره فوجدته فيه تسعة عشر شبراً في طوله وعرضه نحو خمسة أشبار، ورأيت فيه أعظم من ذلك جداراً في طرفه أسطوانة من ثلاثة أحجار فقط، منحوتاً منها بشكل الأسطوانة مدوراً من نفس الحجر الذي هو الجدار وباقيها مستطيل، وتبركنا بزيارة خلوة أبي مدين الغوث دفين تلمسان وهو في حارة المغاربة.

التوجه إلى الخليل وزيارة قبر أبي الأنبياء إبراهيم

ثم سرنا من القدس إلى بلدة حبرون[340] وتسمى اليوم بالخليل، فكان خروجنا من القدس من باب يقال له باب الخليل، ومررنا في الطريق على قبر راحيل أم يوسف عليه السلام عن يمين الطريق، عليها قبة وبينها وبين القدس نحو ساعة، ثم على قرية بيت لحم وفيها المكان الذي ازداد فيه نبي الله وكليمه عيسى بن مريم عليه السلام، /273/ وقد بقيت عن يسارنا واكثرها نصارى والبقعة المباركة في أيديهم، فزرنا المكان عند مواجهته وقرانا الفاتحة ودعونا الله هنالك، ثم تمادينا على المسير فواجهنا تربة نبي الله يونس بن متى صاحب الحوت، بقي عن يسار الطريق على ظهر جبل فدعونا الله تعالى عند مواجهته، فوصلنا إلى الخليل على ست ساعات بالسير الحثيث، وهو في قبلة القدس وهو أشبه شيء بمكة عند أول نظرة مؤسس على جبال، فنزلنا على شيخ البلد وتوضأنا وسرنا إلى المقصد الأعظم والملاذ الأفخم، أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، فدخلنا المسجد وملنا ذات اليمين إلى قبته، وتبركنا بالمقام عند ضريحه وقرأنا عليه سورة إبراهيم ودعونا الله هنالك، وكنت حقيقاً بأن أنشد هنالك ما أنشده بعض الشيوخ، وهو في الدواوين مسطر ومنسوخ لابن مطروح: [من الوافر]

---

[340] - حبرون أو الخليل نسبة إلى إبراهيم الخليل الذي يوجد قبره بها إلى جانب قبور إسحاق ويعقوب والبطارقة، ولذلك اكتست هذه المدينة مكانة خاصة لدى المسلمين واليهود والمسيحيين، فقد سيطر عليها الصليبيون ثم استردها صلاح الدين بعد معركة حطين، وصفها العبدري بأنها «قرية مليحة المنظر والمخبر انيقة المسموع والمبصر مشرقة كالصبح إذا أسفر، موضوعة ببطن واد قليل الماء والشجر والمحيط بها حرار وعرة» (دائرة المعارف 8 . 430؛ العبدري 222)

خليــل الله قــد جئنـــاك نرجــو شـــفاعتك الـــتي ليـــست تـــرد

أنلنـــا دعـــوة واشـــفع تـــشفع إلى مـــن لا يخيـــب لديـــه قـــصد

وقـــل يـــا رب أضـــياف ووفـــد لهـــم بمحمـــد صـــلة وعهـــد

أتـــوا يـــستغفرونك مـــن ذنـــوب عظـــام لا تعـــد ولا تحـــد

إذا وزنـــت بيـــذبل أو شمـــام رجحـــن ودونهـــا رضـــوى وأحـــد

ولكـــن لا يـــضيق العفـــو عنـــهم وكيـــف يـــضيق وهـــو لهـــم معـــد

وقـد سـألوا رضـاك علـى لـساني إلهـــي مـــا أجيـــب ومـــا أرد

/274/ فيـا مـولاهم عطفـاً علـيهم فهـــم جمـــع أتـــوك وأنـــت فـــرد

وفي مقابلته ضريح أم الأنبياء سارة زوجته وهما عند باب المسجد، ضريح سيدنا إبراهيم عن يمين الداخل وزوجته أمامه، وفي داخل المسجد قريب من المحراب عن اليمين ضريح نبي الله إسحاق ، فتبركنا به ودعونا الله تعالى عند مقامه، وفي مقابلته عن اليسار ضريح زوجته ربقة. ثم خرجنا من مسقف المسجد إلى ضريح نبي الله يعقوب بن إسحاق ، فزرناه وتبركنا به ودعونا الله في مقامه، ثم عجنا (كذا) إلى تربة نبي الله يوسف الصديق ، فزرناه وتبركنا بمشاهدته ودعونا الله هنالك صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.[341]

وهذا المسجد ليس بالكبير، فمساحته مقدار ما كتب في دائرة جداره، ففي دائرة المحراب ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ إلى آخر السورة[342]، ومن أول سورية يس إلى ﴿ومنها يأكلون﴾[343] بخط غليظ بذوب الذهب، وفي داخل المسجد في أرضه طاق مثل البير بقرب مقام سيدنا إبراهيم، تسرج فيه المصابيح ليلاً

---

[341] - كتب هذا الدعاء بخط بارز ومنمق في النصختين

[342] - الآية 120 سورة النحل

[343] - الآية 72 من سورة يس

ونهاراً وتدلى فيه[344]، قيل إن الأنبياء عليهم السلام مدفونون هنالك في مفارة تحت أرض المسجد (والمسجد فوق ذلك).[345]

وفي المسجد /275/ المذكور شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور ديباج مثل ما يفعل عندنا بقبور الأولياء، جعلت في مقابلة قبور الأنبياء إلا قبر يوسف فإنه في آخر المسجد عند انتهاء الصحن في الناحية الغربية، وكذا نبي الله يعقوب خارج عن مسقف المسجد، ويروى أن نبي الله آدم عليه السلام مدفون هنالك.

قال الإمام الحنبلي في تاريخ «الأنس الجليل» وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن آدم عليه السلام رأسه عند الصخرة ورجلاه عند مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وقال الشيخ البركة أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي[346] نفع الله به في شرحه «الحصن الحصين»، عند قوله ولم يعرف قبر نبي بعينه، إلا قبر نبينا محمد ﷺ فقط وقبر إبراهيم عليه السلام داخل السور من غير تعيين ما نصه: وفي مناسك الشيخ خليل ما تقول العامة من أنه ﷺ قال: [من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد ضمنت له على الله الجنة] فليس بصحيح ولكنه من أفعال الخير. وكذلك قول العامة أقدس حجتي، وهو عندهم من تمام الحج وهو باطل، لكن يستحب زيارة المسجد الأقصى وزيارة الخليل وذلك كله حسن.

قال أهل العلم: وليس موضع قبر مقطوع به بعد قبر النبي ﷺ إلا موضع الخليل، انتهى. وقال صاحبنا العلامة أبو سالم عبد الله العياشي[347] رحمه الله في رحلته: زرنا قبر خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبور أنبيائه الكرام، سيدنا إسحاق وسيدنا يعقوب عليهما السلام وقبور أزواجهم، والقبور كلها في مفارة تحت أرض المسجد، وفي المغارة طاق

---

[344] - بياض مقدار كلمة في الأصل

[345] - سقطت من (أ) ووردت في (ب).

[346] - ابو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي المالكي (1042 ـ 1116 هـ/ 1632 ـ 1704م)، فاضل م اهل فاس مولداً ووفاة، اشتغل اول مرة بعلوم العربية ثم اقتصر على التفسير والحديث، من كتبه «تكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام» وشرح «ارجوزة العربي الفاسي» (صفوة من انتشر 215، سلوة الأنفاس 1 ـ 316، الزركلي 6 ـ 212).

[347] - أبو سالم عبد لله بن محمد بن ابي بكر العياشي (1037 ـ 1090 هـ/ 1628 ـ 1697م)، يصفه القادري بـ «العلامة الكبير المحقق التحرير الفاضل المشارك في أنواع العلوم والمدارك الراوية الرحالة الجوال»، من قبيلة أيت عياش الأمازيغية جاب المغرب طلباً للعلم وبعد إجازته من طرف عبد القادر الفاسي حج للمرة الأولى سنة 1649، وفي حجته الثانية سنة 1653 الف رحلته «ماء الموائد» التي نالت شهرة كبيرة، كما الف العياشي كتباً اخرى منها «تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية» في التصوف، «واقتفاء الأثر بعد ذهاب اهل الأثر» وغيرها. توفي العياشي في وباء سنة 1679. (القادرية، نشر المثاني، ج2، ص 254؛ E, I .1 818؛ الإفراني، صفوة من انتشر).

مفتوح في وسط أرض المسجد مثل البير قد علقت /276/ فيها مصابيح توقد ليلاً ونهاراً، وفي أرض المسجد شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور ديباج، في مقابلة قبور الأنبياء التي في المغارة إلا قبر يوسف عليه السلام، فإنه في آخر المسجد في ركنه الغربي في محل يغلق عليه ولا يفتح إلا في أوقات مخصوصة.

واقتحمنا دخول المسجد اقتداء بمن جوز ذلك من العلماء، ورخص فيه، وإن كان كثير من أئمتنا المالكية قد شددوا النكير في ذلك، وقالوا لا يحل دخوله لأن قبور الأنبياء مقطوع بأنها هنالك ولا نعلم أعيانها، فكل محل يوطأ فيه يمكن أن يكون هو موضع القبر، ولا يحل الجلوس ولا المرور على قبر مسلم فكيف بقبر نبي. ولكن العمل منذ افتتحت البلاد على خلاف ذلك، فقد صار المحل مسجداً تقام فيها الجمعة والجماعة على مر الأعصار، والعلماء والأخيار يفدون عليه ويسمونه في تآليفهم وأسمعتهم مسجداً، وحكم المسجد ألا يمنع أحد من الدخول فيه، وقد استدل لجواز الدخول فيه الحنبلي مؤرخ القدس بما يطول ذكره، انتهى.

ونقل صاحب كتاب (دفع النقمة بالصلاة على نبي الرحمة) عن الهروي في كتاب (منازل الأرض)، أنه سمع على الشيخ أبا طار الحافظ السلفي بثغر الإسكندرية سنة[348] خبراً يرفعه إلى فلان الآدمي، ذكر فيه أن الآدمي المذكور قصد زيارة الخليل عليه السلام، وصادف القيم بالموضع فتقرب إليه بهدية وطلب منه النزول إلى المغارة، فوعده عند انقطاع الزوار زمن الثلج، فلما انقطع الناس أتى به إلى بلاطة /277/ وأخذ ما يستضيء به، ونزل في درج مقدار سبعين درجة، وانتهيا إلى مغارة واسعة كبيرة وانتهيا لطريق فيها ولها دكة عالية، عليها إبراهيم الخليل ملقى وعليه ثوب أخضر وشبت، وإلى جانبه إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم أتى إلى حائط في المغارة فقال له إن سارة خلف هذا الحائط، فهم الرجل أن ينظر ما وراء الحائط وإذا بصوت يقول إياك والحريم فعاد من حيث جاء والله أعلم.

قال الهروي: ثم دخلت أيضاً القدس سنة تسع وستين وخمسمائة واجتمعت فيه وفي الخليل عليه السلام بجماعة مشايخ، حدثوني أنه لما كان زمن الملك ابن مرود[349] انخسف موضع في هذه المغارة، فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب وقد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط، على رؤوسهم قناديل معلقة رؤوسهم

---

[348] - بياض في النسختين

[349] - بياض محل الاسم في (أ) ويرد في (ب)، ويورد عبد الهادي التازي أن المقصود بودوان Baudoin.

مكشوفة، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع وذلك في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة من الهجرة النبوية.

ثم رجعنا إلى محل نزولنا عند شيخ البلد فأكرم مثوانا وأحسن نزلنا، وقدم مفتي البلد للسلام علينا ويقي معنا نتحدث طرفا من الليل، ولما قرب طلوع الفجر بساعتين فتحوا لنا الباب وخرجنا من حبرون بلدة سيدنا إبراهيم الخليل، لأنه تعلق لنا غرض في صلاة الجمعة في المسجد الأقصى وقد كانت الليلة ليلة الجمعة، وخشينا أن تفوتنا إذا بقينا إلى الصباح فسرنا بقية الليل وصلينا الفجر والصبح عندما طلع الفجر، وتمادينا على المسير فوصلنا إلى القدس قبل الزوال /278/ بساعتين، فاسترحنا وتوضأنا وتوجهنا إلى المسجد الأقصى فصلينا فيه الجمعة ولله الحمد..

موجز تاريخ بيت المقدس

وقد رأينا أن نرسم ما يتعلق ببناء بيت المقدس، وأول من بناه ومن أعاد بناءه بعد الطوفان ومن جدد بناءه بعد الخراب، وما يتعلق بالصخرة المباركة وقبتها ومن بناها، والمسجد الأقصى ومعراجه ﷺ وكيف هو، منتخباً ذلك مما يعتمد عليه من التآليف مثل «الأنس الجليل في القدس والخليل»، ورسالة الشيخ التافلاني أحد أصحابنا المغاربة المالكية، لكنه انتقل إلى مذهب أبي حنيفة لما استقر ببيت المقدس وولي الفتوى هنالك.

فأول من بناه الملائكة الكرام بعد بناء البيت الحرام بأربعين عاماً كما جزم به الجلال المحلي والجلال السيوطي، وكما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع للناس فقال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي، قال: المسجد الأقصى، قلت: وكم بينهما قال: أربعون عاماً.

وهذا البناء قبل خلق آدم بمئتين من السنين، وبه صرح في الجلالين في تفسير قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾[350]، وهو الذي يجب الاعتماد عليه ولا يعول على غيره، وبه صرح البيضاوي في تفسيره لكن لم يقل بنته الملائكة، وقد علمت النقل عن الجلال المحلي والجلال السيوطي في ذلك.

واعلم أن أول قبلة للملائكة ولآدم عليه السلام هي الكعبة المشرفة، كما قاله الإمام ابن عباس وغيره وهو القول المعتمد عليه، فبيت المقدس ثاني القبلتين /279/ على القول

---

(350) - الآية 96 سورة آل عمران

المرجح، وأما من بناه بعد البناء الأول فقال ابن هشام في «التيجان»: إن آدم عليه السلام لما بنى البيت الحرام أمره جبريل عليه السلام بالمسير إلى بيت المقدس وببنائه، فبناه وتعبد فيه وكان بين البناءين أربعون عاماً، وزعم المؤرخون أن سيدنا آدم عليه السلام لم يعلم بوجود لبيت المقدس فضلاً عن كونه بناه، وهو جهل وخطأ صراح؛ ثم خربه الطوفان فبناه سام بن نوح عليه السلام، ثم خرب فبناه سيدنا يعقوب عليه السلام بعد بناء سيدنا إبراهيم الكعبة بأربعين عاماً، كما صرح به النجم الحافظ الفيظي في معراجه وغيره وعندي فيه نظر.

ثم شرع سيدنا داود في بنائه فلما علا البناء انهدم، ثم أعاد البناء فانهدم، فتضرع إلى الله تعالى فأوحى الله إليه أن هذا البناء لا يتم إلا على يد ولدك سليمان، ثم بناه سليمان عليه السلام بناء محكماً شاهقاً أمر الجن فعمرته، وكان علو قبة الصخرة اثني عشر ميلاً، وزينه بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والفضة كما بسطه المؤرخون، ثم خربه بخت نصر[351] وأخذ جميع ما فيه من الذخائر العظيمة، ثم بناه الملك كورش المومن[352] ملك الفرس بعد سبعين سنة، أمره الله تعالى على لسان نبي الله أرمياء، ثم خربه طيطوش[353] ملك الروم لعنه الله، ثم بنت هيلانة أم قسطنطين قبة الصخرة المشرفة، فلما أكملتها دخلها سبعون ألف راهب ليكفروا فيها، فهدمت عليهم ولم ينج منهم أحد، فبناها النصارى ثانياً وثالثاً /280/ فهدمت عليهم، فأشار عليهم إبليس لعنه الله بأن يبنوا القمامة الكبرى، فأخذوا جميع أعمدة المسجد وأحجاره وآلاته الحسنة فبنوا بها القمامة الكبرى والجسمانية وبيت لحم والمصعد، وجعلوا سطح الصخرة والمسجد مزيلة حتى كانت النساء الحيض من بلاد النصارى يرسلون خرقهن فترمى في المسجد.

ثم لما جاء الإسلام وفتح بيت المقدس صلحا على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كنس عنه جميع المزابل وغسل الصخرة المشرفة وبنى قطعة من المسجد للصلاة في صدر المسجد، ومازال هكذا وإلى الآن يدعى بمسجد عمر وهو عن يمين المستقبل في المسجد الأقصى، وهو بلاط واحد مفتوح له قوس داخل المسجد في الصف

---

[351] - بخت نصر، خلط العرب في اسم بخت نصر بين نابونصر ملك الكلدانيين الذي ولي عرش بابل بين 747 و733 ق‌م، ونبو شادنز او نبوخذ نصر الذي حكم بابل بين 605 و562 ق‌م وهو المقصود عند ابن عثمان، إذ هو الذي فتح بيت المقدس وخربها مرتين وسبى اليهود. (دائرة المعارف 3 . 429).

[352] - ملك الفرس الأخمينيين الذي سقطت بابل على يده وأعاد اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر إلى اروشليم، ولذلك يعتبره اليهود منقذاً لهم ويروى ان زوجته كانت يهودية

[353] - هو (39 - 81) Titus Flavius Sabinus احد قياصرة روما، خلف والده Vespatien واشتهر بحروبه ضد اليهود، حيث دخل مدينة القدس وخربها سنة 70م، وهو ما يحيل عليه ابن عثمان.

الأول، حتى جاءت ملوك بني أمية فبنى عبد الملك بن مروان منهم هذا البناء الموجود الآن، وبسط الكلام على ذلك يطلب في كتب التاريخ.

وطول الصخرة المشرفة نيف وثمانون ذراعاً، وطول سطح الصخرة المحيط بها مائة ذراع. وكل الأنبياء عليهم السلام صلوا للقبلتين، وروى الليث عن يونس عن الزهري قال: لم يبعث الله من هبوط آدم إلى الأرض نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس، وقال بعض العلماء: إلا إبراهيم فإنه لم يصل إلا إلى الكعبة خاصة، ولا يجوز الطواف بالصخرة أو قبتها كالكعبة، لأنه ما شرع الله الطواف إلا بالبيت الحرام، وما شرع الطواف بالصخرة ولا بقبتها في جميع الملل.

وأما الباب الذي دخل منه النبي ﷺ ليلة المعراج، /281/ فهو الباب السفلي القريب من باب مسجد المغاربة، والحلقة التي ربط فيها البراق قيل إنه كانت هنالك حلقة في صخرة من صخور المسجد تربط فيها الأنبياء دوابهم، ولما أسرى بنبينا ﷺ خرق الصخرة المشرفة بأصبعه المبارك، وربط البراق هناك زيادة لشرف النبي ﷺ على سائر الأنبياء، ودواب الجنة لا تبول ولا تروث. وأما الحلقة الموجودة الآن فليس محل ربط البراق، بل محل ربطه أسفل من ذلك ولكن لما أردم المحل بالأتربة جعلت الحلقة علامة على ذلك.

وأما عروجه ﷺ فهل هو من فوق الصخرة أو من موضع القبة المعروفة الآن بقبة المعراج، فالذي ذكره بعض المؤرخين أنه من فوق الصخرة، وهو قول واه والصواب أن العروج من مكان القبة المذكورة ولا خلاف فيه بين العلماء، والموضع الذي صلى فيه ﷺ إماماً بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهو مكان القبة المشهورة الآن بقبة بخ بخ، وهي شمال قبة المعراج قريبة منها كما يشهد لذلك الحديث، وليس مقامه في المحراب الذي هو غربي الصخرة، وإن ذهب إليه بعضهم فهو غير صحيح، وهل دخل رسول الله ﷺ تحت الصخرة وصلى هناك، فأما الدخول تحت الصخرة فقد دخل وأما الصلاة فلم يثبت أنه صلى تحتها.

ويسمى ذلك المكان الذي هو داخل المغارة تحت الصخرة مسجد داوود كما في الشفا وشرحه للشهاب، وأما النقيب الذي في الصخرة فوق /282/ المغارة وتزعم العامة أنها موضع عمامة النبي ﷺ، فلا سند له عند المحدثين وإنما هو من كلام المزورين، وأما المعراج فمن أي شيء هو، فهو درجة من ذهب ودرجة من فضة، وفي كتاب شوق المصطفى أنه أوتي بالمعراج من جنة الفردوس وأنه منضد، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة. وأما صخرة بيت المقدس فهل هي من صخور الدنيا أم من صخور الجنة، فقد ورد في

حديث ضعيف السند صخرة بيت المقدس من صخور الجنة، وفي لفظ سيدة الصخور صخرة بيت المقدس، فبعض المحدثين أبقاه على ظاهره وبعضهم حمله على المجاز والله أعلم.

وهل هذه الصخرة معلقة في الهوى (كذا) أم لا، فلم يثبت فيها حديث يرجع إليه في شأنها، ولا نقل عن السلف فيها شيء بتعليق أو عدمه، لكن نقل بعض المحدثين أنها معلقة، ونقله أرباب السير وكثير من المؤرخين من غير نكير، ويكفي هذا في الجزم بالتعليق وهو شيء جائز في العقول. قال الشهاب الخفاجي في شرحه على الشفا ما نصه: قال البرقي في غريب الموطأ: إن صخرة بيت المقدس من غرائب الدنيا، فإن جميع المياه تخرج من تحتها، وهي صخرة صماء في وسط المسجد الأقصى كجبل بين السماء والأرض، معلقة لا يمسكها إلا الله، وفي أعلاها قدم رسول الله ﷺ حين ركب البراق ليلة الإسراء، فمالت من تلك الجهة من هيبته، وفي الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها لما مالت، ولذا كان بعضها أبعد من الأرض وتحتها غار عليه باب يفتح /283/ لمن يدخله للصلاة والدعاء، انتهى.

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في شرحه لموطأ مالك، صخرة بيت المقدس من عجائب الله، فإنها صخرة قائمة في وسط المسجد الأقصى قد انقطعت عن كل جهة، لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وفي أعلاها من جهة الجنوب قدمه ﷺ حين ركب البراق، وقد مالت لهيبته ﷺ، وفي الجهة الأخرى أصابع الملائكة التي أمسكتها لما مالت، ومن تحتها المغارة التي انفصلت تحتها من كل جهة أي فهي معلقة بين السماء والأرض.

وامتنعت لهيبتها من أن ندخل تحتها لأني كنت أخاف أن تسقط علي بذنوبي، ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجاب، تمشي في جوانبها من كل جهة فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شيء، وبعض الجهات أشد انفصالاً من بعض. وهذا الذي ذكره ابن العربي أن قدمه ﷺ أثر في صخرة بيت المقدس حين ركب البراق وأن الملائكة أمسكتها لما مالت، قال به الحافظ ناصر الدين الدمشقي، وقد انكر اكثر المحدثين ذلك القدم لعدم صحة السند به عندهم والله أعلم.

وهل عروجه ﷺ كان مستقيماً أو معوجاً وعلى أي كيفية كان، ذكر الشيخ الغبطي في معراجه وغيره أن العروج كان مستوياً لا اعوجاج فيه، انتصب بخط مستوٍ (كذا) من مكان المعراج إلى باب السماء، وكيفية عروجه فيه هو أنه في حالة صعوده ﷺ تهبط له

الدرجات /284/ وترفعه درجة فدرجة إلى نهايتها، وكذلك في النزول تهبط حتى ينزل عنها ثم ترفع، فالحركات في الدرجات لا منه ﷺ كما هو وصف أهل الجنة في الجنة. وهل عرج على البراق أم تركه مربوطاً في المسجد حتى رجع، والراجع عند المحدثين أن البراق بقي مربوطاً كما صححه المحدثون، وعرج ﷺ بنفسه وقيل إنه عرج على ظهر البراق. وهل صخرة بيت المقدس أعلا (كذا) مكان في الدنيا وأقرب إلى السماء نعم، صرح بعض المحدثين أن بيت المقدس اقرب أماكن الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، انتهى.

ولاشك في أن الصخرة جزء من بيت المقدس فيعطي الجزء حكم الكل، قال الحافظ بن حجر: وفيه نظر لأن أقرب أماكن الأرض إلى السماء البيت الحرام، قال بعض المحدثين هذا النظر صحيح، ولكن يلزمه من عروجه من البيت الحرام اعوجاج المعراج إلى باب السماء الذي هو فوق بيت المقدس، وصرحوا بأن أفضل بقعة في المسجد الأقصى الصخرة المشرفة، وكلما قرب منها كان أفضل مما بعد. وما خفي من الصخرة المعلقة إلا أطرافها المتصلة بالتبليط والعمارة، ولو أزيل ذلك التبليط والعمارة لظهرت قطعة بين السماء والأرض منفصلة عن كل شيء.

وهل فضيلة هذه الصخرة باقية أم نسخت بفضيلة الكعبة المشرفة، قال علي القاري في موضوعاته: كانت صخرة بيت المقدس في شريعة بني إسرائيل فضيلتها في الأرض كيوم السبت في الزمان، وبعد نسخ الله قبلتها بالكعبة صار التفضيل للكعبة ونسخ تفضيل الصخرة، فهي الآن /285/ قطعة من المسجد، هكذا قال وللنظر فيه مجال فليراجع.

والدعاء في مغارتها مستجاب، وأما الطرف الناتئ منها الذي يستقبله الإنسان عند الانحدار إلى مغارتها، ويزعم المزورون أنه لسانها ويقبلونه فلم يثبت في السنة أن لها لساناً، وإنما هو قول المزورين لجلب الدراهم، بخلاف الكعبة المشرفة فقد ورد في الحديث أن لها لساناً تشهد به يوم القيامة لمن قبلها، وقصة سيدنا عمر مع سيدنا علي في ذلك مشهورة في كتب الحديث.

وله لهذه الصخرة ذكر في القرآن أم لا، نعم ذكرت في قوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولا هم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾[354]، وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾[355]، فالقبلة في الآيتين المراد بها الصخرة المشرفة، وذكرت أيضاً في قوله

---

[354] - الآية 142 سورة البقرة

[355] - الآية 143، سورة البقرة

تعالى: ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾[356]، قال المفسرون المراد بالمكان القريب صخرة بيت المقدس.

وأما ما ورد في فضل المسجد الأقصى، فمن ذلك ما رواه النسائي[357] وابن ماجه[358] وغيرهما أن سليمان عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله ثلاثاً: سأله ملكاً لا ينبغي لأحد سواه فأعطاه إياه، وسأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله من أتى هذا البيت يعني بيت المقدس لا يريد إلا الصلاة فيه أن يخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه. قال ﷺ: وأنا أرجو أن يكون أعطاه ذلك، رواه النسائي والإمام أحمد في مسنده وصححه الحاكم. وروى أبو داود وابن ماجه عن ميمونة /286/ مولاة النبي ﷺ قالت: يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس، فقال: [أرض المحشر والنشر، إيتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة في غيره)، قلت: أرأيت إن لم أستطع أن أصلي فيه، قال: [فتهدي زيتاً يسرج فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه] وقد صح غير ذلك.

وأما ثواب الصلاة في المسجد الأقصى فالذي صح في ذلك من الحديث أن الصلاة فيه بخمسمائة، وصح أيضاً أن الصلاة فيه بألف، وورد في حديث مضطرب أن الصلاة فيه بأربعين ألف وهو في مسند ابن ماجه ولا يصح الاحتجاج به، وأما رواية سبعين ألف فلا تصح.

وهل الأقصى جميع المسجد أم البقعة المعروفة الآن التي فيها المنبر، فقد أجمع العلماء على أن المسجد الأقصى هو جميع[359] ما أحاط به سور المسجد، فيدخل فيه قبة الصخرة وجامع المالكية وجامع قايتباي والمحل الذي فيه المنبر، وأما خصوص الأقصى بالمكان الذي فيه المنبر الآن فهو اصطلاح جديد. وهل صلى ﷺ ليلة الإسراء تحت المسجد في الأقصى أم لا، وأي موضع صلى فيه. نقل في الشفا للقاضي عياض[360] أنه

---

[356] - «ينادي المنادي» في النسختين، الآية 41 سورة ق.

[357] - ابو عبد الرحمن احمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان النسائي (215 . 303 هـ/830 . 915م)، صاحب «السنن» القاضي الحافظ شيخ الإسلام، اصله من نسا بخراسان استوطن مصر فحسده مشايخها وخرج إلى الرملة بفلسطين حيث عذب لرفضه الحديث عن فضائل معاوية ومات بسبب ذلك ودفن ببيت المقدس، وقيل خرج حاجاً فمات بمكة له «السنن الكبرى» ومسند علي ومسند مالك» (ابن خلكان 1 . 77؛ البداية والنهاية 11 . 123؛ الزركلي 2 . 171).

[358] - ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني (209 . 273 هـ/ 824 . 887م)، احد ائمة علم الحديث ومصنف كتاب «السنن» أحد الصحاح الستة المعتمدة، وهو من اهل قزوين رحل إلى البصرة وبغداد والشام والحجاز في طلب الحديث وله «تفسير القرآن» وتاريخ قزوين» (ابن خلكان 3 . 279؛ كشف الظنون 300؛ الزركلي 7 . 1).

[359] - سقطت من (ا) ووردت في (ب).

[360] - القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصوبي السبتي (476 . 544 هـ/1082 . 1149) من اشهر وجوه المالكية في الغرب الإسلامي، ارتبط بالدولة المرابطية التي ظل وفياً لها. استقر بمسقط راسه سبتة بعد الإقامة

صلى مع جبريل تحت المسجد في مقدم المسجد قبل أن يصلي إماماً بالأنبياء. وهل تضعيف الصلاة خاص بالمسجد أم عام بالبلد، أما تضعيف الصلاة بالمسجد فقد ثبت بالأحاديث والإجماع، وقال بعض العلماء تتضاعف في القطر المقدسي كله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

/287/ وما ورد من أن الخضر عليه السلام يصوم رمضان في كل عام في بيت المقدس، فقد صرح به بعض العلماء المحدثين وأورد في ذلك أثراً.

جرايات عثمانية لأهل القدس ومؤسسات خيرية

ولهذه الدولة العثمانية بهذا الحرم الشريف بل وكذا حرم مكة والمدينة اعتناء عظيم وأثر جسيم، فمهما سقط شيء منه إلا أعادوه وما تلاشى جددوه، صانهم الله تعالى وأبقاهم وأسماهم في معارج المآثر الحميدة وأرقاهم، ولهم هنالك زيادة على إصلاح ما في الحرم من البناء، الصدقة الجارية على من في القدس من الآباء والأبناء، وعينوا هنالك زاوية تظل على طول الأناء أعشار تفور، وآنيتها بالطعام على الفقراء تدور في العشي والبكور، ومن انحاز له من هذه الصدقة حظ أو نصيب، صار ملكاً له يورث عنه بالفرض والتعصيب، فإن أراد بيعه في حياته فهو كبعض شيئاته. وهذه الحسنة جارية قد مضت عليها من الدهر أحقاب، يتبع أثرها منهم صالح الأعقاب، وكل من أتى من ملوكهم عن هذا النهج لا يحيد ولا ينقص بل يزيد، أدام الله تعالى أيامهم ونصر جيوشهم وأعلامهم.

لقاء ابن عثمان مع شيخه في الطريقة القادرية

وممن اجتمعت معه في القدس الشريف، الشيخ البركة القدوة العارف بالله تعالى، أستاذنا وشيخنا أبو السعود محمد المأذون بالخلوة القادرية والخلوتية[361]، وقد أخذت عنه

بالأندلس وفاس والقيروان، وتتلمذ خلال رحلته في طلب العلم على يد مشاهير الأعلام مثل ابن حمدين الد خصوم الإحياء للغزالي وأبي بكري بن العربي اشتغل قاضياً بمدينته سبتة سنة 1121م ثم قاضياً على غرناطة لكنه لم يمكث في هذا المنصب طويلاً نظراً لإحراجه للحكام بها. كان عياض محرضاً على مقاومة سبتة للموحدين مما جعل الأخيرين ينفونه إلى تادلا قبل سجنه بمراكش حيث توفي وكان نموذج الفقيه المالكي الذي يعتبر أن لا حقيقة غير تلك التي علمها مالك ومدرسته، ترك العديد من المؤلفات أهمها «الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة اعلام مذهب مالك (E.. I.. 4 . 302)».

[361] - الخلوتية طريقة صوفية واسعة الانتشار متفرعة عن الأبهرية الزاهدية، انتشرت في البداية بالأناضول ومنه بدات توسعها في زمن السلطان بايزيد الثاني (1481 . 1512) حيث انتقل مركزها إلى استانبول ومنذئذ صارت

وصافحني بمصافحة شيخه في الطريقة، السيد مصطفى بن كمال الدين الصديقي الدمشقي البكري الخلوتي[362] قطب عصره، وأخذ أيضاً عن السيد عبد القادر القادري شيخ السجادة القادرية ببغداد. ومما أنشدني /288/ لنفسه مخاطباً بعض من استجار به بوارد صدر له في حالة الصلاة، فمما ورد له في الركوع: [من الطويل]

قبلنـا قبلنـا مـن أنـاخ ببابنـا ... مطيـة ذل واسـتجبنا دعـاءه

طردنـا طردنـا مـن تـصدى لكيـده ... جعلنـا جعلنـا الهـاشمي إمامـه

فجاء خاطر يقول له: من أين لك هذا، فورد عليه خاطر في حالة السجود بأن قال: [من الطويل]

ومـا كـان مـن دمـع غزيـر فإنمـا ... تعلـق قلـبي بـالعلو فـأوردا

عـن العـالم العلـوي مـا كـان مثبتـا ... صحيحاً عن الأملاك قد جاء مسندا

ومما أنشدنا متمثلاً ما تلقاه عن شيخه القادري المذكور وهو في جميع ذلك مشيراً إلينا:

وحيـث اتجهـتم سـاعدتكم عنايـة ... ويرعـاكم الـرحمن مـن كـل جانـب

ومن كلامه وإن كان فيه شيء من جهة الوزن:

أنـا شـيخ الوقـت في العـصر ومـا ... يجـري في الوقـت أنـا ملزومـهْ

أنـا مـن أصـل الزمـان إمامـه ... أنـا في كـل الأمـور علومـهْ

ومن كلامه ﷺ: [من البسيط]

مـن يـدعي حـب ليلـى ذاك لم يـنم ... ولم يـذق لـذة في العـيش مـن ألم

ولم يـر غـير سـعُدى في الوجـود وقـد ... أذْنـاه أمـست عـن الأغيـار في صـمم

ولم يـرد غيرهـا لـو راودتـه علـى ... جنـات خلـد ولم يخـش مـن الـضرم

مـن يـرى أنـه بالحـب متـصف ... ولم يكـن هكـذا قـد جـاء بالتـهم

الخلوتية لتفرع إلى زوايا تحمل كل واحدة اسم مؤسسها. وتعكس مخلفات شيوخ الخلوتية تأثرهم بمذهب ابن عربي في التصوف كما نجد آثاراً لأفكار شيعية عندهم وكما تدل على ذلك اسمها كان على كل مريد أن يقوم بخلوة دورية وفق طقوس مضبوطة إضافة إلى الأذكار وتبجيل الشيوخ وغير ذلك (E.., I.. 4 . 1023).

[362] - أورد ابن عثمان ترجمته أسفله

ترجمة الشيخ مصطفى البكري

ونذكر الآن ترجمة الشيخ مصطفى البكري شيخ شيخنا أبي السعود، فمن (شرح بلغة المريد ومنتهى موفق سعيد) للشيخ مصطفى المذكور، والشرح لولده أبي الفتوح كمال الدين: هو أي الشيخ مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كامل الدين بن عبد القادر محيي الدين بن أحمد بدر الدين بن أحمد ناصر الدين بن أحمد زين الدين بن محمد ناصر الدين بن شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن ناصر الدين محمد بن عوض بن يحيى بن محسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب بن نجم الدين محمد بن أبي الروح عيسى بن شعبان بن عيسى أبي الروح عوض بن داود بن محمد بن نوح بن سلطان المدينة المنورة طلحة الخير بن أبي محمد عبد الله بن الإمام الصحابي الجليل عبد الرحمن بن أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

وسلسلته في الطريق أخذ وتلقى عن شيخه الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ مصطفى أفندي الأدرنوي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ علي قرباش، وهو الذي مات عن أربعمائة وستة وأربعين خليفة، وله شرح على فصوص الحكم أتى فيه بالعجب العجاب، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ إسماعيل الجروي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ عمر الفوادي القسطموني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه /290/ الشيخ شعبان القسطموني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ خير الدين التمادي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ حلبي سلطان المعروف بحلبي خليفة، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ بير محمد الأرزنجاني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه السيد يحيى الشرواني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه صدر الدين الحياني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ عز الدين، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ أخي مرام الخلوتي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه بير عمر الخلوتي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه أخي محمد الحلواني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه إبراهيم الزاهد الكيلاني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه جلال الدين التبريزي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه شهاب الدين الشيرازي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه ركن الدين النجاشي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه قطب الدين الأبهري، وهو أخذ وتخلف عن شيخه أبي النجيب السهروردي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه عمر البكري، وهو أخذ وتخلف عن شيخه وحي الدين القاضي، وهو أخذ

وتخلف عن شيخه محمد البكري،، وهو أخذ وتخلف عن شيخه محمد الدينوري، وهو أخذ وتخلف عن ممشاد الدينوري، وهو أخذ وتخلف عن شيخه شيخ الطائفتين الجنيد البغدادي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه معروف الكرخي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه داود الطائي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه حبيب العجمي، وهو أخذ عن الإمام الحسن البصري، وهو أخذ عن أمير المؤمنين الليث /291/ الغالب الإمام بن علي أبي طالب ﷺ، وهو عن قرة عينيه وابن عمه رسول رب العالمين ﷺ، وهو عن الروح الأمين جبريل ﷺ، وهو تلقى عن رب العزة جل جلاله وعظم فيضه ونواله، فهذا سند شيخنا وقدوتنا وعمدتنا أبي السعود نفعنا الله به.

وممن اجتمعت معه في القدس الشريف السيد الفاضل الأديب الشيخ مصطفى بن الشيخ أبي السعود المترجم له، فمما أنشدني لنفسه: [من البسيط]

دري بحبي له فاختال في غيد ... وصاد لحظاه قلب الصب واقتدرا

طرا على مهجتي ما لست أعرفه ... والدمع قد سح من جفنيْ واقتطرا

فقوله واقتدرا يصح أن يقرأ بسيطاً على أنه من الاقتدار، ويصح أن يقرأ مركباً من وقت ودرى.

وله أيضاً من هذا النمط: [من البسيط]

رنا فأحكم قتلي في تلفته ... والقلب واللب ذاقا السقم وقت رنا

لم أدر هل موطناً كان الفؤاد له ... هذا المليك الذي في الحسن أم سكنا

وله أيضاً: [من البسيط]

قامت تتيه دلالا في ملابسها ... ربت شجوني أمالت عطفا واقتربت

رنت بلحظ فأصمى القلب طافقه ... والروح قد سارعت للموت واقترنت

وله أيضاً: [من المجتث]

قاني الملاح تبدى ... ثملت إذ ما سقاني

وقام يزري ببان ... سبيت إذ ما سباني

/292/ ومما أنشدني لغيره من أهل القدس في أهل زاوية بمصر يقال لها التمر تاشي فاستحسنه لما فيه من التضمين الحسن:

يا زائراً للتمر تاشي فزد بعدا ... واحذر تقيم به من قومه البهت

قــوم إذا نــزل الأضــياف ســاحتهم كــأنهم هريــا أبطــال أبْرَهَــة

ومما أنشدني لبعض أدباء الروم من ذلك النمط: [من البسيط]

لما انتنا[363] قده السامي يعانقني أخنى على كبدي عطفاه واقتسما

فجاء يحمي فؤادي منهما جلدي فسل سيفيهما لحظاه واقتحما

يصح أن يقرأ بسيطاً من الاقتسام والاقتحام، ويصح أن يكون مركباً من وقت مضافاً إلى سما وحما، ويشبهه قول الآخر: [مجزوء الخفيف]

رب ظـــبي هويتـــه ينتمـــي للهوازنـــه

قلـــت مـــا أثقـــل الهـــوى قـــال مـــا للـــهوى زنـــه

ولآخر: [مخلع البسيط]

أهــلاً بظــبي حمــاه قــصر كجنــة قــد حــوت نعيمــا

طرقتـــه لا أهـــاب ســـوءا أبـــاحني حبـــه الحريمـــا

أفـــدي حريقـــا أبـــاح ريقـــا لا بـــل حريمـــا أبـــاح ريمـــا

شخصية أهل القدس

ولأهـل بيت المقدس بشاشة وطلاقة وأخلاق حسنة، وميل إلى مؤانسة الغريب ومسامرته والمحادثة معه، ولاسيما إن كان من هذا الجنس العلمي، فلهم اعتناء به كثير حياهم الله وبياهم وأدام سقياهم /293/ ورياهم، وإلى مكارم الأخلاق يسرهم وهيأهم.

تظلم الناس من الولاة العثمانيين والنير الضريبي

وكان مقامنا به يومين ثم سافرنا منه، ورجعنا على طريقنا فبتنا أول يوم بقرية سنجيل فأكرمنا أهلها، إلا أنهم كثيرو التشكي من الوزراء والولاة الذين يولون أمرهم من قبل الدولة العثمانية صانها الله، فإنهم أكلوا اللحم وامتشوا العظم واستفوا المخ ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذه سيرتهم في جميع الإيالة، فكل من مررنا به يشتكي من جورهم، حتى أن بعضهم سألني عما يلزم الناس في أرض المغرب، فقلت له الذي أوجبه الله تعالى

---

[363] - كذا في (أ) والصحيح انثنى كما في (ب).

وهو الزكاة والأعشار، فقالوا: وكيف الأعشار، فقلت لهم: يأخذ رب الزرع تسعة أعشار والمزكي العشر، فقال: يا ليتنا لو تركوا لنا العشر وأخذوا تسعة الأعشار.

وأقبح من ذلك أن الوزراء يولون النصارى خدامهم على القرى، فتجد النصراني يستلزم للوزير خراج القرية ويتولى قبض ذلك من المسلمين في مهانة والأمر لله.

ومن هذه القرية بتنا بقلعة سنور فأكرمنا أهلها، ومنها إلى قرب عكة فبتنا بظاهرها، ومن الغد دخلناها بكرة، فأقمنا بعكة إلى السابع والعشرين من ربيع الثاني[364] أصلحنا في هذه المدة شؤوننا وأخذنا الأهبة للسفر، وأكرمنا وزير هذه البلد جزاه الله خيراً.

رحلة العودة بحراً من عكا

وركبنا البحر وكان فصل الشتاء معتمدين على الله تعالى، فسافرنا من عكة ثلاثة أيام وأرسينا بجزيرة قبرس لغرض كان رئيس المركب وقد طلب منا ذلك، فبقينا مرسين بها[365] نحو عشرة الأيام.

---

(364) - يناير 1788.

(365) - سقطت من (ا) ووردت في (ب).

رحلة عماني من زنجبار إلى فلسطين عام 1872

تتبع أهمية رحلة السيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي هذه، من كونها الرحلة الأولى لعربي عماني يقيم في زنجبار[366]، إلى فلسطين في أواخر العصر العثماني، حيث كثرت رحلات الرحالة والمستكشفين الغربيين بعد اتضاح أبعاد المشروع الاستعماري الغربي على أرض فلسطين. كما أنها، أي الرحلة، تمثل نصاً فريداً يمكن من خلاله دراسة الأبعاد الحضارية لتلك الحقبة، وخصوصاً الاقتصادية والمالية، وتأثر اللغة العربية بالمصطلحات الغربية التكنولوجية، التي بدأت تغزو العالم في ذلك الوقت من عمر الثورة الصناعية.

ترجمته :

جاء في كتاب (جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار) لسعيد بن علي بن جمعة المغيري في ترجمة السيد حمود ما يلي: (إن أحسن ما ينبغي لنا أن نزين به صفحات هذا التاريخ هو ذكر السيد المحسن الجليل: حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي، ويناسب أن نخلد ذكره بجوار ذكرى مآثر هذا السلطان العظيم، رب المحامد والمكارم، السيد برغش بن سعيد[367]. وحيث إن السيد برغش هو نادرة سلاطين زنجبار فكذلك السيد حمود بن

---

[366] - زنجبار اسم يطلق على مجموعة من الجزر التابعة لتنزانيا في شرق إفريقيا، ولكنها تتمتع بحكم ذاتي واسع، وتتكون من جزيرتين كبيرتين هما زنجبار وبمبا. إضافة إلى سبع وعشرين جزيرة صغيرة تتوزع حول بمبا وتبعد عن شاطئ افريقيا الشرقي قرابة 35 كلم مقابل تنجانيقا. احتل البرتغاليون زنجبار من عام 1503 حتى 1698، حيث قام العمانيون بطردهم في عهد السلطان سلطان بن سيف اليعربي وفي عهد السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي، حدثت طفرة نوعية في الجزيرة واختارها عاصمة لدولته لأن بها المقومات الاساسية كالموقع الجغرافي المتميز والمناخ المعتدل وتولي الحكم بعده السلطان ماجد بن سعيد ثم السلطان برغش بن سعيد. استقلت زنجبار عن بريطانيا كسلطنة ذات سيادة في 19 ديسمبر 1963. دخلت تنجانيقا مع زنجبار في اتحاد فدرالي ليشكلا تنزانيا، بأخذ الحرفين الأولين من كل منهما، و في 12 يناير 1964م، قام عبيد كرومي بإنقلاب ضد السلطان جمشيد بن عبد الله

[367] - السلطان برغش بن سعيد بن سلطان تولى زمام الحكم بزنجبار في 12 رجب 1287هـ و توفي يوم 14 من شهر

أحمد نادرة رعاياه [من] عرب زنجبار. فكان – رحمه الله – أفضل المتقدمين والمتأخرين من العرب.

إن المآثر التي تقرَّبَ بها لوجه الله السيدُ حمود بن أحمد، والأوقاف الطائلة التي أوقفها من أمواله في سبيل البر والرحمة؛ تدل على فضله وتقدمه على غيره.

فمن أعماله الجليلة المخلدة: بيت الرباط الذي بمكة المشرفة، اشتراه من طيب ماله، وأوقفه لوفد الله القادمين إلى حَرَمه وأمنه، لأداء فريضة الحج من أهل عمان وزنجبار، والذين هم على مذهبه القويم الإباضي. وبيت الرباط الذي بزنجبار. وأوقف أموالا بزنجبار وأراضي، تنفق غلتها على فقراء المسلمين من أهل مذهبه بزنجبار، وهي من الصدقات الجارية إلى الآن. ومن أعماله وفضائله في (بوبوبو): المسجد المبني بالزج، وما دار عليه من جميل البناء، والقصر الفاخر وما دار عليه من الأرض والأشجار، وجعل في هذه الحديقة معاصر من حديد لعصر قصب السكر، ومطاحن الدقيق تدار دواليبها بقوة جري الماء من الفلج، الذي أجراه من عين (موينانيا) وجعل ذلك وقف للانتفاع. فجزى الله هذا الرجل الصالح عن الإسلام والعروبة أحسن الجزاء.

وقد زهد في الدنيا آخر أيامه، ولازم سكنى (بوبوبو)، وبالأخص البيت الذي كان بقرب المسجد، ولزم المحراب إلى أن توفاه الله تعالى باليوم العاشر من ربيع الأول سنة 1298هـ [الخميس 10 شباط (فبراير) 1881م]. ودفن بجوار مسجده في بوبوبو[368].

ومن ثنايا نص الرحلة نستشف أنه كان راجح العقل، محباً للمعرفة، يلفت نظره أي شيء حول الآلات و الميكانيك. وبالإضافة إلى ذلك نجده ينقل عن الآخرين بقوله: هكذا أخبرونا، عندما يتعلق الأمر بمعلومة شفهية، أو ينقل عن بعض المصادر المكتوبة مثل المسعودي وغيره، لكن دون أن يشير للمصدر.

الرحلة :

خرج السيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي من زنجبار بصحبة السلطان برغش بن سعيد بن سلطان حاكم زنجبار يوم 26 شوال 1288هـ [8 كانون الثاني (يناير)

رجب 1305 هـ

[368] - جهينه الأخبار في تاريخ زنجبار، سعيد بن علي المغيري، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبوعات وزاره التراث القومي والثقافه، مسقط 1979.

1872م] لأداء مناسك الحج، فوصلا إلى مكة يوم 14 ذي القعدة 1288هـ [25 كانون الثاني (يناير) 1872م.

وبعد انتهاء مناسك الحج بقي السيد حمود مجاورًا للبيت الحرام مدة تزيد على ثلاثة أشهر، اشترى أثناءها دار بيت الرباط الأول في صفر 1289هـ [نيسان (أبريل) 1872م]. ثم انطلق في رحلته التي شملت شمال مصر وجنوب الشام، إلى أن عاد إلى مكة بتاريخ 1 شعبان 1289هـ [4 تشرين الأول (أكتوبر) 1872م]، حيث مكث إلى موسم الحج، وفي هذه الفترة اشترى دار بيت الرباط الثاني.

ويبدو أنه حرر رحلته أثناء وجوده في مكة، إذ يشير في خاتمتها إلى شاعر مكي يدعى الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الحضرواي المكي الهاشمي، قرّظ الرحلة بقصيدة منشورة في آخرها.

فلسطين في الرحلة :

وتحتل فلسطين حيزاً مهماً من رحلة البو سعيدي، فقد زار خلالها يافا، والقدس، والرملة، والخليل، وبيت لحم، وحيفا. وأشار إلى مواضيع لم يشر إليها أحد غيره مثل المسيحيين العرب وحقيقة انتمائهم إلى أمتهم، ووصفه للكنائس وأماكن الزيارة المسيحية في فلسطين. وذكره لتفاصيل الأمكنة والعملات المتداولة والأسعار ووسائل النقل.

ومع أنه كسائر أبناء عصره، يتحدث عن التاريخ والآثار من وجهة نظر دينية، إلا أنه قدم العديد من المعلومات المفيدة في الدراسة التاريخية لآثار القدس وبقية المدن الفلسطينية، بعد أن كادت هذه المعلومات تقتصر على رحلات الغربيين.

ويمكن استخلاص بعض النتائج التاريخية المتعلقة بفلسطين في تلك الحقبة، منها أن الأمن عاد إلى الأرياف الفلسطينية في هذه الحقبة بعد ان كان مفقوداً طوال قرنين أو أكثر من الزمن. إذ لم يشر السيد حمود البوسعيدي إلى وجود مخاطر قطاع الطرق في الأرياف الفلسطينية، والتي غالباً ماكان يتحدث عنها الرحالة والسياح في الحقب السابقة. ومنها أيضاً أن النفوذ الغربي في فلسطين بدأ يظهر بشكل واضح وجلي من خلال رفع الأعلام الخاصة بالدول الاستعمارية الغربية في ميناء يافا. ومنها زيادة هجرة اليهود إلى فلسطين من خلال بعض الأرقام التي أشار إليها في متن الرحلة.

ولعل الملاحظة الأبرز التي تستحق التأمل، هي فراغ المسجد الأقصى إلا من مئات قليلة من المصلين وخرابه بشكل جزئي، في وضع لم يشهد المسجد مثله منذ احتلال الصليبيين لمدينة القدس.

صدرت الرحلة مطلع عام 2009م عن دار التكوين بدمشق بتحقيقنا، وعنها أخذنا القسم المتعلق بفلسطين.

الباب الثالث

في صفة أرض الشام وعجايبها وقبور الأنبياء وبيت المقدس

[يافا]

وصلنا يافا ثاني يوم الساعة اثنين إلا اثنا عشر دقيقة [الثانية إلا اثنتا عشرة دقيقة] من النهار يوم الأحد السادس من شهر جمادى الآخر[369]، وهي بلد صغيرة عليها سوران على بعضهما البعض، ومن بعدهما خندق، وهي وحدها شكل فوق جبل، والبيوت بعضها فوق بعض، وشيء من الطرق للغرف.

وبنيانها أغلبه بالحجارة المنحوتة، وفيها مدافع على الأسوار، وبنيان الأسوار مصفّحة بالحديد. وهي بلدة قديمة وطرقها غير منصوبة ضيّقة وسخة، وفيها صعود وهبوط.

وأغلب البيوت والأسواق سقوفها زج، وكثيراً بناؤها قويّ، وعلى البحر عند الفرضة جبل داير على البندر، وله طرق لدخول المواشي[370]، ولا تدخل المواشي إلا من مواضع معلومة والنزال من الماشوة[371] إلى البنّط، والمراكب ترسي بعيداً عن البلد، وفيها بساتين خارج الخندق، وأغلبها نارنج مزنج، وهو البرتقال وغيره من الفواكه، وفيها جملة بيارق للنصارى[372] لأنها بندر القدس، ولابدّ من أن كل فرقه يكون لها بيرق.

---

[369] - 11 آب 1872م

[370] - السفن والزوارق

[371] - الماشوة قارب صغير يستخدم للتردد بين السفينه والساحل لنقل البحارة وبعض الامتعة الخفيفة

[372] - اعلام للأوربيين

ورأينا المحل الذي نزلت به المائدة لبني إسرائيل عليه قبّة، وفيها مسجد جامع كبير يقال له جامع أبو أنبوب[373] فيه أروقه وخلاوي، وباقي المساجد صغار.

والفواكه فيها رخيصة الذي في مكة بعشرين في يافة بعشر، الفرق قدر النصف.

[العرب النصارى]

وفيها كنيسة خارج البلد يدّعو[ن] أنها موضع سيدنا الخضر عليه السلام، ورأيناهم كيف يصلّوا [يصلون] في كنايسهم، أعني النصارى، صلواتهم قيام لا سجود لهم ولا ركوع، فبعضهم قيام على الأقدام ويوضعون متكأ تحت إبطهم، وبعضهم يجثون على الركب، وصيامهم في السنة ثلاث مرات، مرتان من أربعين يوماً، ومرة خمسة عشر يوماً، والفواكه عندهم إذا أكلوها لا تنقض الصيام ولا بأس بها.

والمذكورين نصارى الشام من العرب ليسوا من الإفرنج، بل إنهم ملّة واحدة[374]، ولباسهم مثل المسلمين، ويتعجب الإنسان من أقوالهم وأفعالهم أغلبها موافقة للمسلمين. واطلعت على تفسير كتبهم بها أحوال كثيرة موافقة للشريعة، وبها مواعظ وحكم، وعرفت الفرق بين القسيسين والرهبان. القسيسون يخالطون الناس في الكنايس وغيرها، والرهبان المنقطعون في الصوامع لا يخالطون الناس. وأخبروني عن صفة ماء المعمودية فلا يكون نصرانياً من لم يغتسل بماء المعمودية.

وذلك إذا ولد المولود أتاه القسيس بماءٍ في إناء، وقرأ عليه الإنجيل وما شاء من الأدعية، ووضّاه كوضوء الصلوة، ثم يغسله بذاك الماء. يفعل ذلك ثلاث مرات وبعد ذلك يكون نصرانياً طاهراً لا ينجسه شيء على زعمهم (..).

وعلى كل رأس شهر يمضي، يدخل القسيسون الكنيسة، وبعد صلواتهم يجعلون ماءً في إناءٍ ويقرأون عليه ثم يدورون به على المنازل يرشّونها من ذلك الماء، ومن لم يحضر الكنيسة من النساء والأطفال وغيرهم.

وأعلى درجةً منهم البتاركه [البطاركة]، وهم أكبر من القسيسين والرهبان، وجميع أحكامهم في مذاهبهم ترجع إلى البتاركه.

والنصارى المذكورون يذكرون أنهم يستنجون من البول والغايط، وكذلك الجنابه لها

---

[373] - الصحيح ابو نبوت، محمد اغا شحور المعروف بابي نبوت متسلم لواء غزة والرملة ويافا، وقد بنى هذا المسجد عمره 1225هـ، ووقف عليه سنة 1227هـ كثيرا من العقارات، والحق به مكتباً اي مدرسة لتعليم الأولاد.

[374] - اي انهم والمسلمون العرب شعب واحد.

استجاء خاص ليس هو غسل تام، وهم ينكرون على باقي النصارى ويخطّوهم [ويخطئوهم]، لأننا اجتمعنا بواحد من المتفقّهين في دينهم ورأينا منه الإحسان التام، يا ليته مسلم، ورأينا عندهم جوار سود، وسألناهم عن ذلك، فقالوا: معنا جايز البيع والشراء في الرقيق. قلنا: كيف والإنكليز يمنع؟ قالوا: فعله مخالف الإنجيل لأن الإنجيل محلل بيع الرقيق، بل الذي يدخل في ديننا نكره بيعه، لأنه قد دخل الدين وصار مثلهم وذلك لا يخرجه من الرقية بل يكره بيعه وليس بحرام مطلقاً.

ثم سافرنا من يافا إلى بيت المقدس على خيل في يوم الثلاثاء التاسع[375] من شهر جمادى الآخر، وأخذنا في الطريق اثنتي عشرة ساعة وربع الذي مشيناها، وكرى البهايم ثمانية أريل ونصف ناقص قليلاً.

وأغلب الطريق عمار مزارع وشجر الزيتون آية من كثرته حتى في الجبال. والسلك[376] يساير الطريق إلى بيت المقدس، والطرقات كلها مخدومة. تصعد الجبل مثل الدواب والبهايم تصعد بحمولها في جبال عالية جداً. والطريق فيها مقامات ومهاوي للاستراحة.

[بيت المقدس]

وجبال المقدس أغلبها بيض نيّرة مخضرّة، بخلاف باقي الأماكن إلى أن وصلنا مدينة بيت المقدس، وهي مدينة كبيرة عليها سور كبير، وأرضها طلوع ونزول ليست مصطحبة، وخارج البلد فيها بساتين وشيء من البيوت المنظمة الجديدة.

وأما بيوت البلد بنفسها فهي قديمة، وطرقها ما على كل حال[377].

وهي بلاد قديمة، وأغلب سكانها يهود ونصارى، والمسلمين [المسلمون] بها قليل. وبلغنا أن المسلمين سكان المدينة ألفان، والنصارى أربعة وعشرين ألفاً، واليهود أكثر عدداً من النصارى[378]، وفيها جملة كنايس.

---

(375) - يفترض ان يكون تاسع جمادى الآخر هو يوم الأربعاء 14 آب 1872م

(376) - اي سلك التلغراف

(377) - يعني ليست على احسن حال

(378) - هذه الأرقام ليست دقيقة، وقد اشارت السالنامة العثمانية لعام 1288هجري والذي يوافق زمن رحلة البوسعيدي ان الأعداد هي كما يلي: المسلمون 5125، والمسيحيون 3690، واليهود 3805، والمجموع 12620، اما الرحالة فوغيه فذكر في رحلته التي تمت عام 1872م وهو العام نفسه الذي يصادف رحلة البوسعيدي، بأن الأعداد هي كما يلي: المسلمون 4500، والمسيحيون 7500، واليهود 14000، ويفسر الدكتور عبد الكريم رافق تناقص اعداد المسلمين في

[المسجد الأقصى]

فوصلنا المسجد الأقصى بفضل الله وكرمه، فرأينا حرماً كبيراً متسعاً عظيماً وفيه المسجد، وهو مسجد عظيم لا له مثيل، يعجز الواصف عن وصفه، وفيه محاريب الأنبياء عليهم السلام، ونزلنا أسفله ورأينا بناءه القديم الذي بناه النبي سليمان بن داود، عليه السلام[379]، وهو بالأحجار العظام، والبناء الثاني وضع على أساسه السابق، وكل محارب في محله على أساسه هكذا أخبرونا.

والمسجد فيه أبواب كبار، وفي وسطه عالٍ مثل البندان على طوله، وآخر البندان قرب المحراب، فيه قبّة عظيمة مزخرفة الغاية، وفيه جملة عواميد بالرّخام الملوّن، وفيه شبّاك وتخوت ومدارج ومقطوع منه جانب للنساء، وفي جوفه صهريج ماء، وبعضه مفروش بحجر الرّخام، وبعضه بحجر آخر، وهو في جانب من الحرم.

وفي وسط الحرم الصخرة، وعليها قبّة عظيمة في غاية الحسن، وفي جوف القبّة شبّاك في وسط الصخرة، ولها درج تنزل تحتها وهي عظيمة، وتحتها محرابان أحدهما لسيدنا داود والثاني لابنه سليمان عليهما السلام، وموضعٌ صلى فيه سيدنا محمد عليه أفضل الصلوة والسلام. ويذكروا [ويذكرون أنها]كانت متعلقة [أي الصخرة]، والآن في حولها بناء خفيف إذا ضربته يرتج والله أعلمْ. وذكروا سبب ذلك إذا دخلت النساء الحوامل تحتها يضعن حملهن من الخوف، فبنوا هذا البناء لأجل الاطمئنان.

وفي القبة آثارٌ للأنبياء كثيرة، من محاريب لهم ومقامات وغير ذلك على ما أخبرونا، وبجانب القبّة قبة غيرها صغيرة في غاية الحسن، يذكرون أنها موضع السلسلة التي كانوا يَحلفون عليها، وفيها محراب، وهو موضع الحكومة الذي كان يقعد فيه نبي الله داود عليه السلام للحكومة.

وَرَأينا مهد سيّدنا عيسى عليه السلام كذلك في الحرم، وهو في الأرض ينزل إليه من أراد زيارته، وفي جانب من الحرم على طوله مدارس ومواضع للمجاورين، وفيه صهاريج ماء وأخبرونا أنه كان فيه عين ماءٍ تجري والآن انقطعت، وفي وسطه مواضع صغار للمتعلمين، وفيه جملة شجر زيتون وغيره.

القدس خلال تلك الفترة بجائحة الكوليرا التي قتلت الآلاف عام 1865، وفر نصف سكان القدس حتى ان الوالي العثماني فر من المدينة حينها. أما زيادة عدد اليهود فسره الدكتور رافق بتدفق الهجرة اليهودية في ذلك الوقت راجع الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الجزء الثاني الصفحات 907- 909

[379] - معلومات مستندة إلى مصادر دينية ولبس اثرية

الحاصل أنه مسجد مبارك وحَرَم كبير، غير أنه خراب، والمسجد مهجور كله وسخ من روث الحمام إلاّ ما شاء الله تجد به محلاً نظيفاً يصلى فيه.

ورأينا شيئاً من البناء القديم من زمن النبي سليمان بن داود عليه السلام، وهذا البناء عِبْرة لمن اعتبر.

ورأينا مربط البراق لمّا أتى به النّبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، هكذا أخبرونا.

وكل موضعٍ وأثرٍ قديم فهو نازل في الأرض، لا بد من النزول له، أغلب الآثار التي رأيناها هكذا.

والقبة التي فيها الصخرة، فهي في وَسَط مسجد مثمن وفيه أربعة أبواب مصفحة، وهو كبير، وفي وسطه القبة وفيها الصخرة، وعليها الشبابيك كما تقدم أوّلاً، تدخل من واحدٍ وتنزل، والثاني هو دائر على الصخرة، وهذا المسجد لا يتوصّف مما فيه من الزخاريف والنقوشات وإتقان البناء القديم، وذلك من بناء بني أمية.

بلغتي ممن رأى تاريخ البناء من الزوّار مكتوباً على القبة سنة ثلاث وثمانين ومايتين[380]، فيكون لذلك البناء إلى الآن ألف وست سنين، ورأيت مصابيح في هذا المسجد ما رأيت مثلها في باقي المساجد، إذا أشرقت عليهم الشمس ترى العجب من الألوان والأشكال. وسور البلد عالٍ مبني بالحجر المسحول العظام، ويذكرون فيه شيء من بناء نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، وأغلب البيوت مبنية بالحجر المسحول والطرق كلها مفروشة بالحجر، وفيها جملة أسواق وعليها زجّ، وكذلك البيوت عليها زجّ.

[وادي جهنم]

وخارج السور في جانب البلد وادي النار فيه مقابر اليهود، ما رأيت مقبرةً أكبر منها، وفي الوادي بناء قديم وآثار قديمة، ما وجدنا من يخبرنا عنها، ومن جملة ذلك قبة عالية متطاولة وفيها باب أعلى من الأرض بمقدار قامتين، يأتوها [يأتيها] النصارى ويَرمُوا [ويرمون] في جوفها أحجاراً صغاراً، من غير تشبيه، كرمي الجمار، وإذا امتلأت فرّغوها دائماً هكذا، يذكرون أنه طرطور فرعون بأخبارهم.

ومن جملة هذه الآثار مواضع منحوتة في الجبل بعض منها كالمساكن.

---

(380) - 896 م

وطلعنا جبل الزيتون وهو بعد وادي النار جبل عالٍ سهل المطلع، ورأينا فيه قبة يذكرون أنّه الموضع الذي رفع الله منه عيسى عليه السلام، وفيها موضع في الوسط هو علامة محل رفعه منه. والنصارى لم يزلوا [ما زالوا]يتردّدون في [على] ذلك الموضع تبركاً به، وفي بعض الأيام يعملون عيداً عظيماً عند القبة، هكذا أخبرونا.

وعلى الجبل المذكور آثار قديمة مزارات، منها مزار السيد محمد العَلَم حامل راية المسلمين، وسيدتنا رابعة العدوية رضي الله عنها، وسيّدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه، والشهداء الأربعون.

وما الجبل والبلاد في ناحية عن وادي النّار، من أعلاه قبر سيدتنا مريم بنت عمران عليها السلام، والآن في أيدي النصارى، طلبوه من الدولة وعملوا عليه كنيسة، وهو نازلٌ في الأرض نحو خمسين درجة في القياس، وعاملين معه من الزينة شيء لا يتوّصف، من أواني الذهب والفضة، من قناديل ومفارز وغير ذلك، والقبر عليه حجر مثل الكهرب[381] ومصوّرون صورة سيّدتنا مريم وسيّدنا عيسى(عم) ما شاء الله تلك الصورة قاصر عليها الروح وعليهم من اللّباس ما شاء الله، والمشاميع والقناديل مسروجة ليلاً ونهاراً. وفي بعض الأيام يعملون عيداً عظيماً عندها.

وقبر سيدنا داود عليه السلام خارج عن السّور. من جانب من الحرم موضع فيه على صفة القبر كبير قيل إنّه قبر سيّدنا سليمان عليه السلام، وقول آخر أنه محل كرسّيه مختلفين في ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم بصحته، وقول إنّه دُفن في غار قرب الصخرة، وقول عند أبيه، وحجّة من قال عند كرسيّه أنّ الأنبياء يدفنون حيثما كانوا، ودليله الآية.

[كنيسة القيامة]

وَدَخَلنا كنيسة النصارى القديمة التي من زمن الجاهلية المسماة بالقيامة، ورأينا فيها موضعاً، ورأينا فيها من الزينة والزخاريف وأواني الفضة والذهب من قناديل ومفارز وأمياز[382] مصفّحة وغير ذلك من التصاوير والتماثيل شيء عظيم.

ويزعمهم أنه الموضع الذي قتل فيه سيدنا عيسى عليه السلام، وحاشى لله من ذلك، وحتّى الدّم مصوّر. وموضع ما دفن صورة قبر حجر مثل الكهرب، وعليه شيء كثير

---

(381) - يستخرج حجر الكهرب من شواطئ ألمانيا وبولونيا، وهو يضيء في الظلمة ويستخدم خصوصاً في صنع السبح، ويسمى أيضاً الكهرمان

(382) - جمع ميز اي طاولة

مما ذكرته، وصورة سيّدتنا مريم (عم) في صباها، وعليها من اللباس والحلي والجواهر ما لا يوصف. الحاصل أنّ العقل لا يسع ما رأيناه، يعجز الواصف عن وصفه، ورأينا في هذه الكنايس نصارى الحَبَشة ورأيناهم يصلّون منهم القائم ومنهم الجاثي على ركبتيه، وهم صموتٌ على كثرتهم لا تسمع لهم حساً غير صوت القراء.

وحراس هذه الكنيسة مسلمين متوارثون لها من سابق، من مدّة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على هذه القاعدة، وهو الذي أقامهم وأبقى هذه الكنيسة لهم كرامةً لهم لأنهم سلّموا له البلد من غير حرب[383]، وأمر المسلمين أن يحرسوها لهم وتبت ذلك على ما كان. هكذا أخبرونا.

والقناديل والمشاميع لم تزل موقدة فيها ليلاً ونهاراً، وفيما أظنّ ليس عندهم كنايس أفخر من الذي رأيناها في القدس، ولا أكثر مالاً منها، لأن جميع ملوكهم تهدي إليها الأموال الجزيلة. هكذا أخبرونا.

وكنايس كثيرة في القدس بل الاعتماد عندهم على التي ذكرناها.

واتفق لنا يوم الجمعة في القدس، ورأينا المسلمين في صلاة الجمعة قليلين، نحو أريعماية نفر زايد قاصر، والمسجد خالٍ ما كأنّها صلاة جمعة من قلّة المسلمين في ذلك المحّل، والله المستعان. الدين غريب وسيعود كما بدأ.

وقبر نبي الله سيدنا العزير عليه السلام خارج البلد. بُعْدُهُ عن البلد مقدار ساعة إلا ربع، ورأينا كهفه الذي كان يتعبّد ويسكن فيه على قولهم، قرب قبره.

وسيدنا موسى كليم الله، على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والتسليم، قبره بعيد عن البلد بمقدار أربع ساعات ونصف إلى خمس ساعات، وطريقه صعبة مخيفة يسيرون له بعسكر.

ورأينا من كراماته حجراً في الموضع الذي هو فيه يتلظى مثل الفحم يطبخون به[384]، لأن تلك الجبال التي حوله عديمة من الشجر ولم يتيسر الحطب للزّوار وربما لأجل ذلك صارت هذه الكرامة من أراد أن يوقد ناراً يأخذ بعض الحصيات الصغار بقدر ما يشّب الحجر، ويطبخ به ما يشاء من المأكولات ويشوي به اللحم المراد إنّه مثل الفحم وَلَه رائحة في النّار، ورأيناه يلظي عَياناً، ويذكرون أنّه إذا خرج عن محلّ القدس بطل عمله والله أعلم.

---

[383] - إشارة إلى العهدة العمرية التي كتبها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمسيحيي القدس

[384] - هذا هو الحجر الزيتي الذي يسمى «السجيل» وهو موجو في مناطق مختلفة من بلاد الشام

وبالقرب من قبره قبر الراعي الذي كان يرعى غنم سيدنا موسى عليه السلام، وقبورهم في جوف المسجد في محل واحد عليهم شباك، وإذا طلعت جبل الزيتون ترى بحيرة ماء كبيرة جداً يذكرون هي التي أهلك الله فيها قوم لوط عليه السلام، وحولها موضع المداين المذكورة، والنصارى يقصدونها لأخذ الماءِ منها يتبرّكون به، ويصحبون إلى منازلهم.

ودخلنا كنيسة[385] اليهود التي بالقدس، وهي بخلاف كنيسة النصارى رأينا فيها كراسي جملة، وصناديق للكتب، وفي وسطها مثل التابوت، وهو موضع للقارئ، وفيها مثل المنبر وفي وسطه محراب، وعلى المحراب ستارة مرخية، ويذكرون أنّ في باطن هذا المحراب صورة النبي موسى عليه السلام، وأردنا أن نكشفه للتفرج عليه فمنعونا يذكرون أنّهم يكشفونه يوم السّبت عند عبادتهم، وليس في هذه الكنيسة كثرة من الزينة ككنيسة النصارى.

[بيت لحم]

ثم سافرنا من بيت المقدس في ثماني ساعات إلاّ ربعاً إلى الخليل، فمررنا في الطريق على قبر نبي الله راجيل[386] عليه السلام بن يعقوب، وهو بيد اليهود.

ومررنا على قرية تسمّى بيت لحم فيها موضع مولد روح الله عيسى عليه السلام، وحيثما وضعته أمة بعد الولادة وموضع النخلة، وهو محل نازل في الأرض وهو بيد النصارى، جاعلين عليه كنيسة كبيرة وبها من الزينة والزخاريف والتماثيل غاية في الكثرة.

وهذه البلد يذكرون أنّ كلّها نصارى ما بها أحد من المسلمين أبداً، ومررنا على النبّي متّى والنّبي يونس عليه السلام.

[الخليل]

ووصلنا بلد الخليل بعد ساعة إلاّ ربعاً من اليوم الثاني من مسيرنا، وكان جملة المسير خمس ساعات زايد قليل قاصر قليل. ورأينا بها مسجداً كبيراً ما شاء الله، وفيه

---

[385] - معبد اليهود يسمى كنيس او كنّاش اي مجمع

[386] - في الحقيقة لا يوجد ابن ليعقوب (عم) يدعى راجيل، ولكن لديه زوجة تدعى راحيل او راشيل هي ام يوسف ويزعم انها مدفونة قرب بيت لحم على الطريق بين القدس والخليل، والواضح ان المقام الذي زاره البوسعيدي هو ضريحها.

قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، منهم إبراهيم خليل الله عليه السلام، وزوجته سارة، والنبي اسحق، وزوجته رفقة، والنبيّ يعقوب، وزوجته لايقة.

هؤلاء في محلّ واحدٍ في مغارةٍ من الجبل باطن المسجد، وفي أعلا المغارة التوابيت، من خارج فوق كلّ قبر تابوت، وفي ناحية أخرى من المسجد المذكور مغارة أخرى من الجبل، باطنها قبر نبي الله يوسف عليه السلام، وكذلك من خارجه تابوت في أعلاه.

والغار الأول الذي فيه إبراهيم الخليل (عم) بابه مسدود بالرصاص، بل له فرجة قدر الكوّة الصغيرة، يزورهم الناس منها والأنوار تتلالأ في ذلك الغار.

وأمّا الغار الثاني، فله طريق من جانب المسجد، وأما نبيّ الله لوط عليه السلام فقبره بعيد عن البلد بمقدار ساعة وربع، ونبي الله العيص عليه السلام مسير ساعة ونصف عن البلد، ونبي الله نوح عليه السلام مسير ساعتين، وغار الأنبياء وعليهم السلام مسير أربعين دقيقة عن البلد. وهو السرد الشريف المشهور.

وهذا المسجد يذكرون أنّهُ أوّل [من] بناه النّبي سليمان عليه السلام، وما رأيت خدمةً أقوى منه. بناؤه بالحجر المنحوت، ذرعنا حجراً من طوله ست عشرة ذراعاً بذراعنا، وَعرضه ذراعان ونصف، وذلك باقي من بناء النبي سليمان عليه السلام[387]، وفيه بركة ماء كبيرة، والفلج من أعلاها، وهي على طريق المسجد في وسط الدّرج، وهذه البلد كلّها سكّانها مسلمون أخيار، ما رأيت مثلهم في تلك الأرض، ونساؤهم مستورات لا تسمع لهنّ حساً، ولا نرى منهم أحداً على الطّيق وهي الدرايش[388]، وإذا خرجن فهن في غاية الستر والتحفظ، لا يبين منهن شيء أبداً.

الحاصل أنّ الرجال والنساء في تلك البلد كلهم أخيار القليل كما هم. وأمّا الفلاحين [الفلاحون] فهم مثل البهايم، وجميع أشغالهم على نسائهم من بيع وشراء وغير ذلك، تراهم في الأسواق تتزاحم الرّجال والنساء.

وبلادهم نيّرة لم يكن بها أحد من المشركين سوى كمٍ [كم من] نفر من اليهود خاصةً، وهم في اتّم الذّل.

وهذه البلدان كلّها التي بقرب بيت المقدس بناؤها وطرقها وأسواقها وبيوتها على شكل واحد، لا فرق فيها غير الكبر والصغر، وأمّا القرى الصغار فصفاتها ثانية.

ورأينا الجبل المنحوت قريباً من القرية التي بها نبيّ الله عيص عليه السلام، وهي

(387) - كل الأحاديث عن آثار النبي سليمان هي محض تكهنات وافتراضات لم تبت أثرياً فيها بعد رحلة البوسعيدي

(388) - وهي النوافذ او الشبابيك بلهجات الجزيرة العربية

كانت قديماً مساكن للأوائل يتعجب النّاظر من صنعتها، والآن جعلوها مقابر يدفنون فيها الموتى. هكذا أخبرونا.

وتلك الأطراف بساتينهم كلّها يشبه بعضها بعضاً، والفواكه والمعاشُ كله رخيص بها، وشجرهم الذي على الجبال يجعلون لها رفوفاً كل طبقة أعلى من الثانية، من زيتون وغيره، وفيها من الخيرات شيء كثير، من الأشجار والمحاشي وغير ذلك.

[الرملة]

ومقام النّبي زكريا عليه السلام بين بلد الخليل والرملة، وقليل [وقيل]قبره في غار تحت المسجد في ذلك المحل والله أعلم.

وأما نبيّ الله صالح عليه السلام فهو في مدينة الرّملة في جامعٍ كبير، وذلك الجامع طبقتان طبقة من تحت الأرض وطبقة من أعلاها، وفي باطن الطبقة السفلى أربعون نفراً مدفوناً من قوم النبي صالح عليه السلام، وهم من المؤمنين رحمهم الله.

والجامع المذكور كلّه خراب ما باقي غير بعض آثاره وحدوده، وهذه الرملة بلد بين يافا وبيت المقدس مسير ثلاث ساعات من يافا. وكذلك سيّدنا الفضل بن العباس مدفون في الرملة.

[الرجوع إلى يافا]

ورجعنا من بيت المقدس إلى يافا يوم التاسع عشر من جمادى الآخرة[389] وكان وصولنا ذلك اليوم والحمد لله على بلوغنا لزيارة الأنبياء عليهم السلام، والمكانات الشريفة.

ومن الخليل إلى يافا مسير خمس عشرة [ساعة] تقريباً.

[إلى حيفا]

وسافرنا من يافا في تسع ساعات وتسع دقايق من يوم العشرين من شهر جمادى الآخرة[390]، ووصلنا حيفا في ثلاث ساعات وخمسة وعشرين دقيقة من الليل.

---

(389) - 24 آب 1272م

(390) - 25 آب 1272م

[بيروت]

وسافرنا منها في أربع ساعات وخمس وأربعين دقيقة، فوصلنا مدينة بيروت في مقدار ساعة إلاّ ثلث من يوم الأحد وعشرين من الشهر المذكور، وذلك في بابو البحر للنيمسا.

وهذه بيروت بندر [ميناء] من بنادر الشام، ولها سيفة[391] من البحر، ومرساها كثيرٌ زين تدخل المواشي بين جَبَلَيْن، وعَلى الجبال بناء، فتكون المواشي كأنّها في بِرْكة ماء، لا موجه ولا سوجة، وتنزل من الماشوة للبنط.

وكذلك الرفاع ينزل من الماشوة للبنط من غير تعب، وهي بلدٌ طيبّة فيها من المآكل الفاخرة من فواكه وغيرها شيء كثير. وأكثر سكّانها نصارى ويهُود، ويقدر الربع مسلمون وثلاثة الأرباع من غيرهم. وفيها جملة أسواق وبيوت فاخرة وبساتين، وأغلب طرقها مفروشة بالحجر.

الحاصل أنّها بلدة طيّبة وهواؤها ناصح، وفيها مقام نبي الله يحيى عليه السلام، ويده الشريفة.

هكذا أخبرونا، والمقام مجعول مسجد جامعٍ للجمعة منظّم.

[إلى دمشق]

ثم توجّهنا من بيروت إلى دمشق الشام، وأخذنا في الطريق ثلاث عشر ساعة إلاّ ثلثاً في الكروسة[392]، وهي عربيّة تجرّها ستّ رؤوس من الخيل، وهي تحمل خمسة عشر نفراً، أعلى وأسفل، وتبّدل الخيل في عشرة مواضع كل موضع تقف بقدر نصف ساعة بقدر قضاء حوائجهم من أكلٍ وغير ذلك.

والذين يسيرون على البهائم يمكثون في الطريق ثلاثة أيام، وفي الطريق من البساتين والمزارع والأشجار والأنهار شيءٌ كثير، وأكثر الطريق عمار والقليل فيها خراب، وفيها جملة قهاوي ومناخات وتلْفراف متصل من بيروت إلى دمشق.

---

[391] - سيفة البحر تعني شاطئ البحر.

[392] - هي عربة الخيل للمسافرين

القاياتي في ضيافة علماء فلسطين عام 1885م

الرحلة الأخيرة في الرحلات التي تناولناها في كتابنا هذا، هي (نفحة البشام في رحلة الشام) للرحالة محمد بن عبد الجواد بن عبد اللطيف القاياتي المتوفى سنة 1320هجرية/ 1902 ميلادية، وهو عالم أزهري انحصرت زياراته وعلاقاته برجال الدين وأضرحة مشاهير الأنبياء والصحابة والمتصوفين، ولكن رحلته تقدم فكرة لا بأس بها عن الأوضاع العلمية والعمرانية والاجتماعية في فلسطين مطلع الحكم الحميدي، الذي أتى بهاجس إعادة البناء وترسيخ سلطة الدولة على كافة أقاليمها المتبقية.

ينتسب القاياتي إلى بلدة قايات في صعيد مصر، كان أحد الذين سجنوا ثم تشردوا بسبب مواقفهم الوطنية من الاحتلال الإنكليزي لمصر عام 1882 ميلادية، نتيجة وقوفه إلى جانب الثورة العرابية.

نفي إلى بلاد الشام في 11 ربيع الأول 1300 هجرية/ 20 كانون الثاني 1883 ميلادية، وهو تاريخ بداية رحلته التي سماها (نفحة البشام في رحلة الشام)، والبشام نبات طيب الرائحة.

وصل الشيخ القاياتي إلى يافا بحراً قادماً من بيروت في جمادى الثانية 1302 هجرية/ آذار 1885 ميلادية، ولا يذكر شيئاً عن الفترة التي أمضاها في فلسطين ولا تواريخ زياراته للمدن المختلفة، ولكننا نقدر أنها لم تستمر أكثر من شهرين. وقد أمضى مدة زيارته لمدن فلسطين في ضيافة زملائه الأزهريين من علماء ومفتين وقضاة وأئمة مساجد، وزار خلال ذلك معظم الأضرحة المشهورة في يافا والرملة والقدس وبيت لحم ونابلس وطبرية.

وقد غادر القاياتي فلسطين إلى دمشق عن طريق جسر بنات يعقوب – القنيطرة، وهو طريق انتعش في الحقبة العثمانية، الأولى قبل أن يتخرب في المرحلة الوسطى والأخيرة، إلى أن أعيد العمل فيه أيام السلطان عبد الحميد الثاني.

وتعطينا هذه الرحلة فكرة لا بأس بها عن الوضع العلمي في فلسطين، الذي كان في

مرحلة ازدهار بعد إملاق شديد، فقد زار مدارس حديثة واطلع على ما تعلمه للتلاميذ، وبدا أن الأمن مستقر، وتراجع خطر الأعراب وقطاع الطرق، نتيجة إعادة السلطنة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني اهتمامها ببلاد الشام، وكف أذى الملتزمين الذي أوردوا السلطنة المهالك.

طبعت رحلة «نفحة البشام» في القاهرة بمطبعة جريدة الإسلام بمصر بحارة السقايين سنة 1319 هجرية [1901م] في حياة المؤلف، وقد أعدها للطباعة كما ذكر في صفحة التعريف بها سنة 1313م هجرية الموافق لعام 1895م.

نفحة البشام في رحلة الشام

تأليف حضرة الأستاذ الأعظم والملاذ الأكرم العالم العامل والمرشد الكامل
الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي حفظه الله
البشام كسحاب نبت طيب الرائحة
طبعت على نفقة حضرة الماجد الشيخ محمد مصطفى قايد

طبع بمطبعة جريدة الإسلام بمصر بحارة السقايين سنة 1319 هجرية
الفراغ من نقل هذه النسخة من المسودة في شهر ذي القعدة الحرام من سنة 1313
الف وثلاثماية وثلاثة عشر من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام
فهذه النسخة هي المبيضة ببعض تغيير يسير والحمد لله رب العالمين

مطلب زيارة القدس ونواحيها

فشددنا ركائب العزم والحزم وركبنا مطايا التصميم والجزم، وحدا بنا حادي الغرام والشوق حتى أثار كامن القوة والطوق. ونزلنا عصر يوم الجمعة في جمادى الثانية سنة 1302 ألف وثلاثمائة واثنتين من الهجرة [شباط 1885م] في وابور الخديوية المصرية المسمى بالرحمانية تفاؤلاً بالرحمة. فمكثنا طول الليل به إلى الصباح فوصلنا (يافا) عندما أضاء نور النهار ولاح. وكانت من فضل الله حركة البحر في المينا ساكنة وركاب الفلوكات فيها مطمئنة آمنة، مع أن العادة في تلك المينا أن يكون البحر في هياج واختباط وتلاطم أمواج، ولكن قد أدركتنا فيها الألطاف الخفية فوصلنا البلد بغاية الأمنية.

وقصدنا منزل الأستاذ العالم العامل الشريف الكامل، حليف التقوى والصلاح وأليف الهدى والنجاح، حضرة الشيخ إبراهيم أفندي أبي رباح، من أهل طريق الصوفية الأكابر، الوارثين لها كابراً عن كابر. فقابلنا بالإكرام والترحاب وحططنا رحلنا في ذلك

الرحاب. ويادر للسلام علينا كثير من الأحباب والأخوان والأصحاب، ولا سيما صاحب الفضيلة والخلال الجميلة والمراتب الجليلة، ولد عمه ذي المناقب، الشيخ علي أفندي أبي المواهب، نجل القطب الرباني الشيخ حسين أفندي الدجاني، أحد المرشدين العارفين من رجال الطريقة، الغارفين من بحار العلم والحقيقة.

وكان حضرة الشيخ إبراهيم، والشيخ علي المومأ إليهما من طلبة العلم بالأزهر في أيام مجاورتنا به ونعرفهما ويعرفوننا بدون اجتماع متعارف. وكانا من أهل الذكاء التام والمعارف يشتغلان بعلوم الآلات والآداب، ولهما على تحصيل العلم التفات وانكباب. فأقمنا عند الأول الليلة الأولى، ودعانا الثاني في الليلة الثانية. وبيوتهما متجاورة بل متلاصقة. فبتنا هاتين الليلتين في أكمل سرور وحبور وقرة عين وتذكرنا بهما عهوداً بالحمى، وقضينا ذلك الوقت بحسن المحاضرة ولطيف المذاكرة، التي هي أرق من نسيم الصبا مرْ على زهر الربى.

واجتمع بنا في منزليهما كثير من أهل العلم والأدب والحسب والنسب ولا سيما (بلدينا)[393] المصري الدمياطي حضرة مصطفى أفندي الأرنؤوطي، من جملة المنفيين معنا في الحادثة المصرية، وأقام ببندر (يافا) لقربها من ثغر دمياط، حتى يكون ذلك أنجز لمقصوده في إدارة حركة التجارة في البضاعات المصرية مثل الأرز وخلافه، وأقرب المواصلات اللازمة لتلك الجهات.

وفضلاً عن ذلك فقد نال من لطف هؤلاء السادة ما أذهب عنه وحشة الغربة وأنساه بلاده. ولقد صنع لنا حضرته وليمة عظيمة عالية المقدار غالية القيمة. ودعا إليها حضرات المشايخ العلماء وبعض التجار والأمراء. فجزاه الله عنا أحسن الجزاء. وبعد أن أقمنا هذه الليالي الثلاث في غاية الأنس عزمنا على التوجه في الكروسة[394] إلى القدس، وكنا خمسة أشخاص بدون انتقاص. فاستكرينا كروسة مخصوصة بليرة إنكليزية يجرها ستة من الخيل، وسادس ركابها سايق العربة ومدير سيرها.

وسافرنا في ضحوة النهار ولم نزل سائرين في أرض سهلة، إلى أن وصلنا إلى (الرملة)، فنزلنا بها لأجل استراحة الدواب وعلفها، واشتغلنا في هذه البرهة بزيارة من بها من الصالحين، ومزارات من قيل بدفنهم فيها من النبيين، ورؤية بعض آثار السالفين من الأمراء والسلاطين.

---

(393) - بلدينا: مصطلح مصري عامي يعني ابن بلدي

(394) - الكروسة: عربة تشبه الحافلة تجرها أحصنة

فأخذنا رجلاً من أهلها العارفين بها وما زلنا ندخل معه مشهداً بعد مشهد ومعهداً عقب معهد، إلى أن حان أوان الذهاب واستراحت تلك الدواب. فكان من ضمن من دخلنا مزاراتهم وحظينا بزياراتهم، حضرة سيدنا الفضل بن العباس في ضريح على يسار طريق الذاهب إلى القدس من يافا، وهو لعمر الحق مزار مشرق جلي الأنوار. وضريح زين العابدين، وضريح الشيخ أبي العون، وضريح الشيخ العليمي، وضريح السيدة أم العباس، ومزار نبي الله أيوب عليه السلام. وغالب هذه المزارات في وسط المزارع والأشجار وعما قريب يحدث عليها الاندثار ولا يبقى لها آثار.

ومنها مزار نبي الله صالح، وهو بجانب الجامع الأبيض المشهور ومنارته الغريبة الشكل المربعة الأضلاع، التي هي في غاية المتانة والكبر والارتفاع. وهي والمسجد من بناء السلطان (ابن قلاوون) من سلاطين مصر في سنة 718 سبعماية وثماني عشرة، كما رأينا مكتوباً على حائط المنارة بالحفر والخط بارز. ولم يبق من الجامع الآن إلا حائط السور وبعض أروقة. وهو مبني على مسجد آخر مثله في الشكل الفوقاني كالتحتاني فتأمل غريب هذه المباني. وهكذا المسجد الأقصى، الظاهر من على وجه الأرض بناء بني أمية، على حذاء البناء الأصلي تحت الأرض. ويقال إنه من بناء نبي الله سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام.

والرملة هذه هي المشهورة في التواريخ بفلسطين تسمى بها ولاية عظيمة في الملك من قديم الزمان، ولعدم طول مسافة المكث لم نستطع استيعاب المزارات والآثار كلها، ولم نتمكن من دخول البلد بل خرج إلينا منها بعض أهاليها من طلبة العلم الذين كانوا في مصر مجاورين بالأزهر من ذرية الشيخ خير الدين الرملي صاحب الفتوى الخيرية المشهورة في مذهب الحنفية.

ومنهم أخو الشيخ، القاضي بيافا الآن، كان يوم خروجنا من يافا واصلاً إليها حاضراً من الأستانة العلية. وجاء التلفراف من بيروت يفيد حضرة الشيخ المفتي أبي المواهب بقدومه في ذلك اليوم. وهو أيضاً من طلبة العلم الأزهريين. إلا أنه لعزمنا على السفر للقدس الشريف لم ننتظر حضوره ومقابلته، ثم بعد ذلك توجهنا إلى القدس في الكروسة ترفعنا جبال وتخفضنا أودية لم نرَ في عمرنا جبالاً مثل هذه ولا كنا نظن أن على ظهر البسيطة نظيرها فسبحان الخلاّق العظيم الرزاق الكريم.

ومن شدة علوها لم نستطع في بعض الأحوال رقي تلك الجبال ونحن راكبون على الكروسة فكنا ننزل ونمشي حتى نقطع تلك القطع الشاهقة. ولم نزل بتلك الحالة إلى أن

دخلنا القدس ليلاً بعد الساعة الرابعة. ولم نجد بالبلد محلاً صالحاً للمبيت إلاّ مزار سيدنا داود. على نبينا وعليه السلام. فإنه كما أخبرنا بعض الناس في يافا والقدس معد لنزول الزوار وأهل الأسفار من سائر الأقطار.

فحملنا رحالنا ونحن ملطخون بأوحالنا، لنزول الأمطار ومائها المدرار، على خلال العادة الجارية في غالب السنين الماضية. وطرقنا باب المزار على من فيه من الخدمة والزوار فكأنهم كانوا على انتظار، ففتح لنا الباب ودخلنا الرحاب، فوجدناه مزدحماً بأجناس من الناس رجالاً ونساء وصغاراً وكباراً. فجلسنا معهم كأحاد الفقراء والدراويش. فجاء قيم المزار قبل الاستقرار وطلب منا الصعود إلى محل عال في أودة[395] يقال لها (الإبراهيمية) من بناء إبراهيم باشا المصري أيام كانت البلاد الشامية في ضمن الحكومة المصرية. فرأينا ديواناً واسعاً مفروشاً وفي جواره أيضاً أود صغيرة ومرافق لقضاء الحاجة. فبتنا تلك الليلة بغاية المشقة الزائدة من شدة البرد واتساع المحل. وتغطينا بكل ما معنا من الأغطية والملابس فلم يجد نفعاً ولم نجد به دفعاً. فلسوء الحظ الناقص، جاء على خلاف العادة هذا البرد القارص.

ولما طلع النهار وأضاء المحل واستنار، جاءنا رئيس الخدمة الداودية وهو حضرة الشيخ محمد كمال الدين الداودي وسلم علينا ورحب بنا وطلب لنا القهوة، فرأينا عليه لوائح المروءة والنخوة، وأمر الخدامين بتهيئة محل في الدور التحتاني بجوار ضريح نبي الله داود (عليه السلام). وأعد لنا فيه ما يلزم من الفرش والأغطية الفاخرة فجزاه الله عنا كل خير في الدنيا والآخرة. وجاءنا للسلام أقاربه الكرام وأعيان المحل الفخام، السيد بكري أفندي وأولاده، والحاج علي وأولاده، والشيخ عبد الرؤوف الداودي الذي كان في الأزهر معنا مجاوراً، وله معرفة بنا في ذلك الوقت، وهو أخو السيد بكري المتقدم.

فبالغ الجميع في إكرامنا والقيام بما يلزم من الخدم لنا فرأينا ذلك من أكبر نعم الله علينا، حيث وجدنا في كل جهة توجهنا إليها من يعرفنا في مصر. وكان من أشدهم حرصاً على مراعاة خاطرنا حضرة الشيخ عبد الرؤوف المذكور، وحضرة الشيخ حسن بن الحاج علي، فإنه من أهل العلم المشتغلين بالطلب، وكما لا يخفى من أن الجنس للجنس أميل. ثم توجهنا في ذلك اليوم إلى زيارة الحرم المقدس، والمسجد الأقصى الأنفس. فألفينا به راحة الروح وقرة العين وطيب النفس. ومحل سيدنا داود هذا خارج سور البلد في الجهة الجنوبية.

---

(395) - اوضة: تركية تعني غرفة بالعربية

وقد بنى هذا السور السلطان سليمان فأتقنه غاية الإتقان وشيد أساس ذلك البنيان بما لم يرَ مثله في قديم الزمان.

حرم البيت المقدس

فأما المسجد الأقصى فمحاسنه لا تحصى وهو في مقابلة قبلة الصخرة من الجانب القبلي، وهو قبلة أهل الشام وتحت المسجد القديم ينزل إليه بدرج كثير وهو مسجد كبير وفيه من العمد العجيبة النزر اليسير، بخلاف المسجد الفوقاني فإن عمده من الرخام الملون ورؤوسها مطلية بالذهب الأحمر الوهاج في غاية الرونق الأنيق والابتهاج، مكتوب على محرابه بالخط الكوفي ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾.

ومنبره أعجوبة من أعاجيب الدهر وخطيبه من قديم الزمان يكون من عائلة مشهورة هناك يقال لهم بيت ابن جماعة، ويخطب في جمعة الموسم بذكر قصة الإسراء والمعراج، وكذلك يقرأ في الصلاة من سورة الإسراء فيحصل للمصلين من هذه الخطبة وهذه القراءة أثر عظيم من الخشية والاتعاظ، بتلاوة هذه الألفاظ.

وأما قبة الصخرة فهي شمالي المسجد، فبعد أن تخرج من الأقصى تمشي في رحبة واسعة جداً مفروشة بالبلاط وفي وسطها بركة ماء وافرة الكبر، وعن شمالك شجر الزيتون وفيه شجرة قديمة جداً يزعمون أنها من عهد بناء المسجد، ولا أظن ذلك صحيحاً، وبعد ذلك تنتهي إلى درج صاعد إلى محل الصخرة يبلغ نحو العشرين درجة. فإذا طلعت فوق هذا الدرج وجدت رحبة أكبر وأنضر من الرحبة الأولى وعليها بلاطات واسعة كثيرة عليها محاريب من بناء بعض الملوك تسمى مصلى (ثم ترى قبة الصخرة) هائلة منقوشة بالذهب وقطع الصيني الملون بالأخضر والأزرق والأحمر، في أكمل البهجة والنضرة والحسن الأوفر.

ولما دخلنا قابلنا بها حضرة رئيس الخدمة الشيخ عبد الله أفندي الدنف، رجل كبير السن عليه هيئة السلف، فأظهر لنا مزيد الحب والشغف، وأمر بعض أقربائه بمرافقتنا وتعريفنا محلات الزيارة في الحرم وما أحاط به من قبة السلسلة وقبة المعراج.

ومهد سيدنا المسيح في محل منخفض، في شمال المسجد الأقصى من الشرق، وباب التوبة وباب الرحمة، وهما الآن لطول الزمان قد أشرفا على الانهدام، ولذلك بني عليهما بنيان متين بالحجارة، ومحل كرسي سليمان (وباب حطة)، والقبة التي هناك، ومحل ربط

البراق عند باب المغاربة، وعنده مسجد في داخل الحرم يقال له مسجد المغاربة أيضاً، (وهؤلاء المغاربة موجودون بالقدس الشريف ينتسبون إلى أبي مدين الغوث) وذلك، زيادة عما في نفس الصخرة وقبتها من الآثار الشريفة، فإن فيها قطعة بلاطة زرقاء اللون تضرب إلى الخضرة على باب القبة الجوانية، يقال إن تحتها قبر سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، وفيها مسامير غائصة في الحجر لم يبق منها إلاّ نحو الأربعة؛ يقول العامة عنها إنه في آخر الزمان لا يبقى من هذه المسامير شيء ظاهر إلاّ غاص في هذا الحجر. ولا ندري هل لذلك الكلام صحة أم لا.

وأما ذات الصخرة، فهي الآن مرتكزة على بناء حولها من الجوانب الأربعة، وتحتها خلاء ومحراب يقف الزائرون فيه ويصلون ويدعون، وقد صلينا ودعونا. والحمد لله فنسأل الله تعالى القبول ونيل المأمول.

وهي قطعة حجر واحد في طول عشرين ذراعاً وعرضها قريب من ذلك وسمكها نحو الثلاثة أذرع؛ وفيه أثر القدم الشريف وآثار أخر يقال إنها محل يد جبريل، والعلم عند الله تعالى.

وحرم البيت المقدس واسع الخطة جداً. ويقول بعض الناس إنه أوسع من الحرمين الشريفين (حرم مكة والمدينة) لو دخلا فيه لوسعهما.

وفي أسواره منارات كثيرة وأبواب مثل باب المغاربة المتقدم وباب القطانين والباب العتم والباب الشمالي. ومن داخله جملة مدارس وزوايا وأروقة. وفي وسطه أسبلة وبرك للوضوء وسقاية الماء وجملة أود وخلاوي في رحبة قبة الصخرة من فوق، وجملة أود أيضاً في الساحة السفلى المنخفضة تحت القبة، من الشمال الغربي، يسكنها المجاورون في المسجد الأقصى لطلب العلم، وكذلك الأغراب المسافرون من الزوار. وقد عرضوا علينا أخذ أودة منها فلم نرض بمفارقة محلنا من الداودية لكثرة السيول والأمطار الفائقة الحد في ذلك الوقت. وغالب الحرم مكشوف ليس عليه سقف. ومن إخواننا الأزهريين المشغولين بالقراءة في الحرم الشيخ علي العوري، وأخوه الشيخ أبو السعود أفندي وله أودة مجاورة للصخرة في غاية الظرافة والنضرة، عزم علينا بأخذ مفتاحها على الدوام لنستريح فيها عند مجيء الحرم فلم نرَ حاجة إلى ذلك.

وبالجملة فحرم القدس (وهو كما لا يخفى ثالث الحرمين الشريفين ولا تشد الرحال لغيرها) لا يتمكن من الوصف وصفه. فكلما دخل إليه أحد ظهر له من المحاسن فيه ما لم يكن ظهر له من قبل، فسبحان من وضع فيه هذا الجمال وحلاه بحلية البهاء

والجلال، وجعل عليه من الأنوار ما يخطف الأبصار، ويذهل العقول والأفكار، ويورث الخشية والاعتبار.

ولقد أرسل إليه الآن مولانا السلطان الأعظم (عبد الحميد خان) ستة عشر ألف ليرة لتصرف في ترميم بلاطه، وتبليط الخالي من البلاط. ورأيناهم في وقت الموسم مشتغلين بهذا الترميم ولكن الظن أن هذا المقدار لا يفي بقدر النصف من مساحته مع أن الباقي الآن بدون شغل كله خال من البلاط بالكلية لا جديد فيه ولا قديم، وقد نبت العشب والحشيش في أرضه. فنسأل الله سبحانه تعالى أن يوفق له أهل الخير من المسلمين، فيكملمه أن يطلبوا له من حضرة أمير المؤمنين زيادة عما أنعم به، أسبغ الله نعمه عليه وأجرى الخير الجزيل على يديه.

كنيسة القيامة

وفي أثناء إقامتنا بالقدس الشريف مررنا يوماً على كنيسة النصارى المشهورة (القيامة) وحولها من نصارى الشام، وقبط مصر، ونصارى أوروبا، خلق كثير يتكبدون من المشاق ما لا يطاق في سبيل هذه الزيارة لتلك القيامة، التي لا تجدي نفعاً لهم يوم القيامة، ولا سيما أن موسم القدس في غالب السنين يوافق فصل الشتاء وما فيه من الأمطار والسيول وبرد الهواء، فسبحان من أعانهم على هذا العناء في زيارة ذلك البناء، الخالي من كل شيء إلاّ التصاوير والنقوش (التي هي صنعة أيديهم) ورؤية النور المجسم المحرق في يوم سبت النور المشهور فيما بينهم.

عَود عَلى بَدء

ثم إنه بعدما، صفا الجو، وهو كما يقول الطقس، وخفت الأمطار نوعاً ركبنا الدواب وتوجهنا لزيارة المعاهد الموجودة (بطور زيتا). وهو جبل عال جداً مشرف على القدس وحرمه. فالواقف عليه يرى القدس وحرمه الشريف كأنه بين يديه. وفيه من المزارات محل ارتفاع السيد المسيح إلى السماء، وكما يزوره المسلمون يزوره النصارى أيضاً. وفيه مزار في مغارة منخفضة وعليها قبة على ظاهر الأرض، يقال إنها ضريح سيدنا سليمان الفارسي الصحابي الجليل.

وفيه مزارات أخرى لم أتذكرها الآن. وفي قبة الجبل أيضاً كنيسة لدولة المسكوب [روسيا]. بنوها في عهد قريب بغاية الزخرفة.

وبعد نزولنا من الطور رأينا في أسفل الجبل بناء على شكل قبة يشتمل على نحو الخمس صخرات فقط، والصخرة العليا محدبة مرتفعة تسميه العامة بطرطور فرعون، وهو على شاطئ الوادي المشهور بوادي جهنم، في شمال الحرم من الجهة الشرقية. وكذلك هو أيضاً في شمال الداودية التي فيها مزار سيدنا داود على جبل عال في الجانب القبلي من القدس خارج السور كما تقدم. وفي أسفل هذا الجبل عين مشهورة بعين أيوب يستدلون بفيضانها في أيام الشتاء على استكمال المطر النافع لأراضي الشام في ذلك العام. ولقد فاضت ونحن بالقدس في أيام الموسم، ففرح الناس فرحاً شديداً واستبشروا بالخصب والرخا، فهي عندهم كالنيل بمصر إذا وفى كفى.

وفي مقابلة هذه العين عين أخرى تسمى عين سلوان، ذكر صاحب أنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، أنه ورد فيها حديث بأنها من الجنة، وماؤها أشبه المياه بماء زمزم. نزلنا إليها وشربنا من مائها ولله الحمد شكراً على هذه النعمة. وقلت فيها ونحن على أعلى الدرج النازل إليها هذين البيتين: [من البسيط]

إن لم أرد في رحاب القدس مورده	فيا جفائي وهذا عين سلواني
لكنني فيه لم أصدر بحر ظما	وأصدرتني روياً عين سلوان

وزرنا المقبرة التي بجوار سور الحرم من الشرق وفيها بعض الصحابة والعلماء الأقدمين. وقريب منها قبر السيدة مريم ابنة عمران، والمقبرة التي بالداودية.

وفيها من العلماء والصالحين خلق كثير، ولكن كثر تداول الأيدي من النصارى والإسلام واليهود على هذه البقاع، وتقادم العهود، صير المعاهد بها مجهولة مشتبهة. إلا المشاهد التي لا يمكن إخفاؤها ولا جحدها، ولو تقادم عهدها. فهذه هي التي تزار إلى الآن وعليها ما يحفظها من البنيان، وكل من عليها فان.

ولقد حضرنا هناك في الحرم الاحتفال بطلوع الصنجق (البيرق) لسيدنا الكليم واجتمع الناس من الأمراء والذوات والعلماء والباشاوات، واصطف العساكر على الجانبين من باب الأقصى إلى باب قبة الصخرة. ومعهم سعادة رؤوف باشا، متصرف القدس. وخرجوا به من الباب الشمالي وركب معه المفتي لكون خدمة مولد سيدنا موسى الكليم على بيت الحسيني من قديم، وهو منهم بل أكبرهم، وبعض الأمراء والتجار. فصار الحرم مزدحماً بالزوار وأرباب الإشارات ويقال لهم السيارات وكذلك الطرقات في حوالي الحرم وكان طلوعه بعد صلاة الجمعة في أول الموسم وما رجعوا إلا في الجمعة الثانية. وبعد

صلاتها عمل له احتفال كالأول، واصطفت العساكر على هيئتها النظامية من باب المسجد الأقصى إلى باب قبة الصخرة.

وكنا إذا ذاك واقفين على الباب مع حضرة شيخ الخدمة الشيخ عبد الله الدنف، وكبار أهل البلد فساروا بالصنجق إلى أن وصلوا إلى قبة الصخرة ودخلوا به إليها، ودخلنا معهم. وقفل الباب خشية الازدحام وكان هذا الختام. وبعد ذلك انصرف الناس إلى بلادهم وجبالهم.

زيارة الكليم

وأما زيارتنا لحضرة سيدنا موسى الكليم فكانت في الجمعة التي بعد طلوع الصنجق وقبل نزوله. فخرجنا من القدس ضحوة النهار وركبنا دواب من المكارية من أقبح دواب البرية، فسرنا تحت الأمطار والأخطار، والملجئ لذلك كون طريق الكليم لا تسلك ولا تؤمن إلاّ في أيام الموسم. وما زلنا في جبال وأودية إلى أن وصلناه قبيل الغروب، ودخلنا للزيارة في شدة الزحمة ونزول الرحمة، وطلعنا إلى ديوان عالٍ مشتمل على عدة أود معدة للزائرين في تلك الأيام. ووجدنا مفتي القدس جالساً معهم في إحدى الأود. فاستقبلنا بغاية كل إكرام واحترام وأخرج لنا وللحاضرين كافة عشاء من مطبخه. ولما حان وقت النوم أرسل إلينا فرشاً وألحفة للغطاء. وبات غالب الزوار في الصحراء تحت المطر، لأن البناء الموجود حول ضريح سيدنا موسى غير كاف لإيواء هؤلاء الجمع. وفيه هناك بعض خيم صغيرة يسمونها شوادر لا تكفي ولا تدفي، بل بلغنا أن بعضها اقتلعه الهواء فلم يعرف بعد إلى أين ذهب وفي أي موضع وقع، وذلك لشدة الرياح العاصفة والأهوية القاصفة.

وبتناها ليلة نابغية نعاني جهد البلاء ونتلوى من شدة اللأواء. ولما طلع النهار واستنار، ركبنا دوابنا بعد أن زرنا الضريح الأنور في جانب الكثيب الأحمر. وتوجهنا تجاه القدس ولم تزل الأمطار تنزل علينا كأفواه القرب، وقد أيقنا بقرب العطب، لما شاهدناه من هذه الكرب، ولكن الله سلم وتفضل وأنعم. ولا يمكنني أن أصف لك ما حصل للزوار في صعود تلك الجبال الشاهقة، وكل نفس زاهقة، وكل رجل زالقة، حتى كنت في بعض الأحيان يحصل لي الإياس، وتضيق مني الأنفاس، وانقطع في السير عن الناس، وأرى أن ترك المشي والوقوف أولى من السير مع هذا العناء الذي آخره كما كنت أظن الفناء. ولقد بلغنا أن بعض الزوار انقطع في الطريق من التعب والبعض حل به العطب.

ومات جملة من شدة البرد وأرسل المتصرف من طرفه عساكر وغيرهم للتفتيش عمن تخلف بالإعياء أو الموت وأحضروهم إلى القدس في اليوم التالي.

وكيف أصف لك المشي على رؤوس الجبال وتحتها الأودية البالغة الغاية في الانخفاض، التي لا يستطيع الإنسان أن ينظر إليها وإلاّ أخذته الدوخة والإغماء، فضلاً عن ضيق الطريق وامتلائه بالأحجار، وتزحلقه بكثرة ماء الأمطار. وصارت الشمسيات لا بقاء لها في الأيدي ولا ثبات وضاع أغلبها في الأودية من الهواء.

وبالجملة، فما دخلنا القدس إلاّ بعد الغروب، وتفرقنا فلا يلوي أحد منا على أحد، ولا والد على ولد، وصرنا من أول النهار إلى آخره في ماء واصل إلى الأبدان، لم تدفعه كثرة الثياب الثقيلة، فلا حول ولا حيلة. ولما أردنا تغييرها في القدس لم نستطع خلع بعضها إلاّ بشِقِّ الأنْفُس وأشَقّ الأنْفُس. ومكث ما كان معنا من الفرش والغطاء منشوراً مدة من الأيام ولا يجف. ومضت علينا أيام الموسم ونحن من كثرة الأرياح في المساء والصباح وتراكم الغيث الغزير المدرار آناء الليل وأطراف النهار، لا نستطيع الوصول إلى الحرم إلاّ في بعض أوقات إذا حصلت في ذلك الحال فترات.

حتى أن جناب الفاضل الأكرم والصديق الأفخم والشهم الأوحد والكريم الأمجد، حضرة الشيخ يوسف أفندي الفاهوم، نجل العلاّمة الهمام والسيد المقدام جناب الشيخ أمين أفندي الفاهوم صاحب المقام المفهوم، مفتي الناصرة في الحالة الحاضرة، جاء في هذا العام لزيارة القدس ولم يسبق له زيارة في غير هذه السنة، مع قرب البلاد وتوافر الأهبة والاستعداد، وذلك لأن حضرة المشار إليه أسبغ الله نعمه عليه، كان رفيقنا في أيام الحضور بالجامع الأزهر. وكنا نحضر التحرير والمنهج على شيخنا وأستاذنا المرحوم المغفور له الشيخ خليفة السفطي. فعندما شعر بقدومنا إلى الديار السورية وإقامتنا في بيروت أرسل إلينا تلغرافياً، على يد حضرة عزتلو عبد القادر أفندي القباني، يستدعينا للوفود إليه والقدوم عليه، لأجل الضيافة والإكرام وزيارة القدس الشريف معه في ذلك العام. فلم يساعدنا الوقت على ما طلب وإن كان ذلك عندنا غاية الأرب. فأرسلنا إليه بإبداء الأعذار في التأخر عن هذا المزار، وهكذا صار يدعونا في كل عام إلى أن يسر الله المرام وعزمنا على التوجه والعزم التام. فعندما أردنا القيام من بيروت، حررنا له جواباً نفيده فيه أن موعد الاجتماع بكم إن شاء الله تعالى موسم القدس الشريف بدون تسويف. فحضرنا نحن إلى بيت المقدس قبل حضوره بيوم أو يومين وقدم هو في يوم الجمعة وقت طلوع الصنجق فرأيناه على بعد في ذلك المجتمع فاشتبه علينا بادئ الأمر لكثرة شيبه

وظهور الكبر عليه، مع عهدنا به شاباً غض الشباب، ممتلئ الإهاب، فأخذنا من حاله الاستعجاب.

بيت لحم

وبعد أن سلمنا عليه طلب منا الإقامة معه في دار بجوار الحرم كان قد أرسل من قبل قدومه تلغرافاً لبعض أصدقائه فاستكراها له ولمن معه من الأصحاب والخدم. وكان في معيته جملة من الخيالة نحو العشرة أو يزيدون، فلم نرض بهذا الطلب مراعاة لخاطر الجماعة الداودية ولا سيما الشيخ محمد كمال الدين، فإنه لما سمع بأن الشيخ يوسف الفاهوم حاضر العام إلى القدس لأجل الزيارة والمقابلة معنا لسابق المعرفة معه من مصر، بادر بوصيتنا والتأكيد علينا في عدم الخروج من مزار نبي الله داود، ورجعنا إلى منزلنا الأول وأقام هو بداره مع جماعته وحال بيننا وبين الاجتماع به شدة الأمطار والوحل في الطريق. فكنا لا نجتمع به إلاّ على سبيل الندرة في المسجد الأقصى أو في قبة الصخرة. إلى أن عزمنا على زيارة الكليم فرافقنا في الذهاب والإياب، وكذلك حينما عزمنا على زيارة الخليل أشار علينا بالمبيت أول ليلة في بيت لحم حتى نزور مولد السيد المسيح ويخف علينا السير ونستريح.

فكتب له بعض أعيان النصارى في القدس وصية منه إلى رئيس الدير في بيت لحم وأرسل بها مخصوصاً قبل قيامنا من القدس، فركبنا من عصر اليوم ودخلنا بيت لحم قبل الغروب فاستقبلنا أهل الدير وأدخلونا إلى محل الولادة وموضع النخلة في جانبه، وقد زخرفا بأنواع الزخارف البديعة ومحل الولادة عليه صحائف الفضة مدور الشكل في وسطه دائرة منخفضة عما حولها بيسير، ورأينا في الدير كثيراً من طوائف النصارى يدخلون طائفة بعد طائفة ومعهم الحرس من عساكر الدولة العثمانية خوفاً من وقوع بعض فشل أو خلل.

ورأينا صورة المسيح موضوعة في ألواح معلقة على حوائط الدير من كل جانب ومنها تصويره مصلوباً وفي بطنه وبدنه ورجليه مواضع دق المسامير. وتصويره على حجر أمه عرياناً مائل العنق والرأس وبعض بدنه ملقى على الأرض. وتصويره واليهود يضربونه ويمثلون به والدم سائل من جميع أعضاء بدنه. وتصويره طفلاً (صغيراً بريئاً) رضيعاً. وتصويره طفلاً مشدود الوسط في خدمة يوسف النجار يعلمه صنعة النجارة وعلى رأسه ما يشبه القبعة، وتصوير أمه العذراء البتول وفي جانبها صورة يوسف النجار وهي تنظر إليه.

الخليل

ثم إن الرئيس أمر لنا بالمسافر خانه المعدة للمسافرين. فدخلناها فوجدنا فيها لكل واحد تختاً وناموسية، وكرسياً للجلوس، وكرسياً آخر عليه شربة ماء وطشت وإبريق للوضوء. ثم دعينا لتناول طعام العشاء فنزلنا لأودة السفرة فرأينا فيها طرابيزة وعليها أنواع الطعام من لحوم وأطبخة وحلواء فأكلنا ورجعنا إلى محلنا الأول ونمنا إلى الصباح.

ثم خرجنا خارج الدير وقد أعد لنا الخدم الركائب وسرنا على بركة الله متوجهين إلى جهة الخليل نصعد في جبل وننحدر في واد حتى وصلنا إلى الخليل، إلا أن طريقه أسهل سلوكاً من طريق الكليم.

وبعد أن خرجنا من بيت لحم مررنا في الطريق على يمين الذاهب إلى الخليل بضريح السيدة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق وعليه قبة صغيرة فزرناها، ومضينا في صوب مقصدنا حتى وصلنا إلى عين ماء على يمين الطريق يقال لها (عين سارة) امرأة سيدنا إبراهيم، وبعدها على نحو ساعة أو أكثر من البلد دخلنا في بساتينها ومزارعها ووجدنا كروم العنب فيها لا تحد ولا تعد ومن ذلك كان العنب بها رخيصاً جداً، فإن الرطل الشامي بها يساوي عشرين فضة وهو مقدار نحو خمسة أرطال مصرية ونصف. ودخلنا الخليل قبل العصر ونزل بنا الشيخ يوسف علي ابن قاضي البلد الشيخ محمد أفندي علي، وهو رجل من أهل العلم الأزهريين كان له معرفة به في أيام الطلب بالأزهر. وبعد أن استقرت ركائبنا في منزله وكان في محل شغله خارج المنزل أرسل أهله إليه يعلمونه بمجيئنا وتوجهنا نحن لزيارة خليل الرحمن فدخلنا المسجد، وهو كما قيل من بناء سيدنا سليمان، وآثاره باقية فيه إلى الآن. فرأينا على ضريحه قبة وبابه من فضة، وعليه من المهابة والإجلال ما لا يفي بذكره المقال.

الضريح المسجد

ومن داخل هذا الضريح المسجد وقبة ضريح سيدنا إسحاق وفي محاذاته ضريح زوجته (رفقة) وعليها قبتان ومدفنهما في داخل مغارة تحت الأرض لها منور مفتوح من الجانب الغربي.

وأما سيدنا يعقوب فهو وزوجته في محل آخر من المسجد في مقابل ضريح الخليل. وسيدنا يوسف في محل آخر أيضاً، في الجهة القبلية، منفرد في جانب على حدته وعليه من الجمال اليوسفي والمحاسن البهية ما يبهر عقول البرية، دخلنا فوجدنا به المصاحف

الجميلة وهي موضوع عليها العلامات في سورة يوسف فقرأت السورة بتمامها في رحابه وأهديتها لروحه الكريمة زيادة في ثوابه.

ولما صلينا بالمسجد صلاة وجدنا به بعض دروس منعقدة في تعليم العوام. وبلغنا أن حضرة الشيخ خليل أفندي التميمي قريب الشيخ التميمي الأزهري، الذي كان قديماً مفتي الديار المصرية، من ذرية الصحابي الجليل سيدنا تميم الداري يقرأ دائماً دروس العلم في ذلك المسجد وفي بيته أيضاً، وكان في ذلك الوقت منحرف المزاج فتوجهنا نحن وحضرة الشيخ يوسف أفندي لزيارته وعيادته تبركاً به والتماساً لدعوة خير منه. فإنه مع كونه مقلداً بوظيفة الإفتاء في الخليل إلا أنه أنزه نفساً عن أن يتعاطى شيئاً من حطام الدنيا فيه أدنى شبهة من حرام، وهكذا يصفه أهل الشام بزيادة الورع والعفة.

فلما دخلنا عنده قابلنا مقابلة عظيمة ورأينا عليه مخايل الصلاح والتقوى لائحة وهو من التقلل والخمول في جانب عظيم، مع كمال الدراية والمعرفة ولا سيما في فقه أبي حنيفة. وما زال يؤانسنا ويلاطفنا ويقص علينا بعض أحواله في أيام المجاورة في الأزهر وهو في صحبة بلديه الشيخ التميمي، المفتي بمصر إذ ذاك.

الرجوع إلى القدس

ولما أن أردنا الانصراف خرج معنا إلى خارج الدار ولسانه منطلق بالدعاء والابتهال في صلاح حال مصر وبلاد الإسلام. وفي الصباح توجهنا من الخليل راجعين إلى القدس، ومررنا في الطريق على بلدة يقال لها (حلحول)، وفيها ضريح نبي الله يونس، عليه السلام، فدخلناه للزيارة فوجدنا به عمارة جديدة لم تكمل بعد.

والبلد على ربوة عالية وهي على يمين الذاهب إلى القدس. وتحتها عين ماء عذبة جداً، جارية على الدوام ليلاً ونهاراً، يقال لها عين الدروة. ثم وصلنا إلى القدس في يومنا ذلك وأردنا بعد إكمال هذه الزيارة الرجوع إلى محل الإقامة فألح علينا حضرة الشيخ يوسف أفندي في الذهاب معه إلى بلدة الناصرة، ونحن لما شاهدناه من صعوبة الطريق في تلك البلاد لم ينشرح صدرنا لهذا الأمر، إلا أنه أبدى رغبة شديدة وظهر لنا من حاله أننا إذا لم نذهب معه وجل قصده في حضور الموسم في هذا العام إنما هو الدعوة، يحصل له تغير خاطر وكسوف طبع بين أهل البلاد. فتوكلنا على الله وأجبنا دعواه، واستكرى لنا دواب من القدس وتوجهنا على طريق نابلس، ومررنا على ضياع كثيرة منها: سلواد، وعين يبرود، وسبسطة بلدة صغيرة فيها مشهد لسيدنا يحيى الحصور في مغارة وعليها بناء

قديم جداً يقال إنه من بناء الملكة هيلانة، ويدل على ذلك ما فيه من الصور والصلبان وغيرهما والله أعلم بالحال.

نابلس

ونزلنا في وقت الظهر للغداء بخان في منتصف الطريق بين القدس ونابلس. وما دخلنا البلد إلاّ بعد ساعتين ونصف من الليل وقد وهت منا القوى والحيل وضعفت عزائم الخيل، وذلك بسبب وعر الطريق فنصعد عالياً وننزل وادياً، والصخور معترضة في وسط المسالك تعوق كل مار وسالك وتورطه في سبيل المهالك. ولولا ألطاف السيد المالك، لما خلصنا بلا ريب من ذلك. ونزلنا في هذه المدينة على بيت أولاد الشيخ زيد من السادة القادرية، ولهم شهرة قديمة بالصلاح والتقوى والعلم. فاستقبلنا أحدهم وهو الشيخ سيف الدين وأدخلنا داره الخاصة به دون أخوته، وهم الشيخ أحمد زيد والشيخ منيب أفندي وأولاد عمه.

ومنهم، الشيخ عبد الغني أفندي، رجل من العلماء الصالحين له معرفة تامة بعلم الفلك والميقات. ولم نلبث إلاّ قليلاً وقد حضر العشاء لكونهم كانوا على استعداد من قبل بواسطة تلغراف أرسله لهم الشيخ يوسف من القدس يعلمهم فيه بالخروج منه في ذلك اليوم والحضور عندهم فيه بنبأ على تكرار الدعوة منهم له في القدس مراراً عديدة بالتحارير والتلغرافات. وقد حضر لملاقتنا وزيارتنا في بيت سيف الدين المذكور عدد لا يحصى من أمراء البلد وعلمائها ووجوهها.

فمنهم، الشيخ أمين أفندي المفتي الأزهري. وجناب سعيد أفندي الحسين من بيت عبد الهادي من مشاهير العشائر في سالف الزمان. حتى قيل إنه السبب في حماية إبراهيم باشا المصري في أيام حرب الشام، والمحاصرة له، ولولاه لما خلص من غوائل أهل الشام. وسعيد أفندي المذكور رجل كبير السن كبير القدر كريم النفس صاحب مروءة تامة، ولطف أخلاق وطيب أعراق. ولذلك إنه لما رأى علينا أثر الإعياء والتعب والشموثة والغبارة من وعثاء السفر، أمر بإخلاء الحمام تبعه ليلاً وأخذ لنا الإذن من الحاضرين بالمجلس من ذوات وأمراء، وذهب بنا إلى الحمام في حذاء داره، وغيرنا فيه ثيابنا، ورجعنا إلى المنزل الأول. وصنع لنا في الليلة الأخرى وليمة حافلة دعا إليها جناب المتصرف خليل بك الأسعد، ورجال الحكومة معه، وغالب الوجوه والأمراء، والقاضي والمفتي.

وكانت ليلة مشرقة مرونقة لمساحة نفس هذا الرجل وأقاربه. ودعانا في الليلة

الثانية حضرة الشيخ أمين أفندي المفتي وبالغ في تهيئة العزومة فوق ما يلزم ودعا كل من كان حاضراً في الليلة السابقة وزيادة. ومع كل ذلك لم نغير مركزنا الأصلي في النوم فكنا بعد انقضاء السهرة نرجع إلى بيت سيف الدين ونراه وأنجاله وعياله في الانتظار، قائمين بكل خدمة بغاية الأدب والحشمة، مجتهدين في كل ما يدخل السرور علينا . فيذهبون بنا إلى مزارات الصالحين ومدارس المعلمين والمتعلمين.

فزرنا في هذا البلد ضريح الأسباط، أخوة سيدنا يوسف، وعليه من النور ما يشرح الصدور. وفيها أيضاً محل حزن يعقوب، وفيها ضريح أبي يزيد البسطامي، وفيها مسجد كبير عمري، ومسجد آخر فيه العلماء المدرسون وطلبة العلم المشتغلون من مذهب أبي حنيفة ومذهب الإمام أحمد بن حنبل. فإن الحنابلة في نابلس وجبالها كثيرون جداً، دون غيرها من بلاد الشام. وشيخ الحنابلة الآن عندنا بمصر من تلك الجهة ويسمى الشيخ يوسف تعلم أيضاً في نابلس، ثم ثانياً في دمشق، كما أخبرونا عنه بذلك.

وزرنا حضرة الشيخ مصلح أفندي نائب رئيس شعبة المعارف بها، في خلوة في ذلك المسجد معدة لقراءة دروسه ومطالعتها . وهو ممن سبق له طلب العلم بالأزهر ورأينا غيره كثيراً من الطلبة الأزهريين.

ولما دعينا لزيارة المدرسة البلدية، وتوجه معنا حضرة الشيخ مصلح أفندي الموما إليه ودخلنا إليها، قابلنا الخواجات والمعلمون بالإكرام، وعملت التلامذة لنا أناشيد بأنغام مطربة تحية للقدوم، وأجرى المعلمون معهم صورة الامتحان بين أيدينا لإبداء ما عندهم من المعارف في القراءة والنحو والصرف والحساب وغير ذلك، فظهرت عليهم علامات النجابة والنجاح، وأمارات التقدم والفلاح. وأخبرونا أن عدد تلامذة هذه المدرسة نحو الستمائة تلميذ وكلهم في مدرسة واحدة إلاّ أن مواضع التعليم متعددة فكل صف منهم في محل خاص.

وسررنا برؤية هؤلاء الأولاد وما أبدوه من المهارة، لا زالت بلاد الإسلام تتقدم في التمدن والعمارة. وسمعنا بها شابين من حفاظ القرآن لم نرَ مثلهما في بلاد الشام تجويداً وصوتاً وحسن قراءة، أحدهما يدعى الشيخ أحمد، والثاني الشيخ حسن. وتفرجنا في نابلس على معامل الصابون المسماة بالمصابن فرأيناها شيئاً عجيباً لم نره في بلاد مصر.

ودخلنا بيت طوقان، عائلة من العائلات المشهورة بنابلس بل وبلاد الشام ومصر. وبلغنا أن واحداً من هذا البيت كان والياً في مصر قديماً من طرف الدولة العلية، فرأينا هذا البيت غاية في الكبر والتشييد والمتانة.

وزرنا بيت النمر، الذي كان ينزل فيه حضرة سيدي عبد الغني النابلسي الأصل الدمشقي المولد كما ذكر ذلك في رحلته القدسية، فوجدناه أيضاً من البيوت العظيمة والدور الواسعة القديمة. وهذه المدينة محاطة بالجبال العالية وهي في وهدة، وبيوتها من الطراز القديم، مبنية كلها بالأحجار، وفيها ماء الينابيع غزير مدرار، فسبحان الفاعل المختار. وأهلها كعشائر العرب في الهمة والمروءة والنخوة والجراءة، جعلها الله وسائر بلاد المسلمين عامرة زاهرة آمين.

جينين

ثم أننا في صبيحة الليلة الثانية ركبنا دواب من المكارية أيضاً وتوجهنا صوب الناصرة نمشي في جبال وعقبات مهولات وأودية منخسفات، إلى أن وصلنا إلى (جينين) قبيل الغروب ونزلنا في بيت شرقي البلد، من بيوت آل عبد الهادي. وزارنا فيه القاضي والمفتي وقائمقام القضاء لأن مركزه بها. وهي بلدة صغيرة وبها مدرسة جديدة زرناها وفحصنا حال التلامذة بها ولم نسافر من تلك البلد إلاّ بعد أن تناولنا طعام الفطور بها ضحوة النهار.

الناصرة

وركبنا وسرنا إلى الناصرة فمررنا على مرج ابن عامر، وهو أرض سهلة واسعة بسيطة لم نرَ في بلاد الشام أرضاً هي أشبه بأرض مصر إلاّ هذا المرج وسهلة البقاع، فلم نزل سائرين إلى أن قابلتنا جبال الناصرة، فصعدناها في نحو الساعة وقطعناها في ساعة أخرى ونزلنا بساتين الناصرة وينابيعها المنحدرة إليها.

ولما أشرفنا عليها وجدناها في سفح جبال من كل صوب وليست في الوادي بالمرة ولا فوق قبة الجبل بالمرة. وقابلنا أهاليها مشاة وركباناً، ولاسيما أخوة حضرة الشيخ يوسف وأنجاله وأعمامه، بغاية الترحاب والتأهيل والإكرام والتبجيل، ودخلنا إلى بيوتهم العامرة ودورهم الزاخرة، فوجدنا داراً عالية المباني كاملة المعاني، وهي في وسط الدور تشرح الخواطر والصدور، منظمة كنظام هذه الأعوام، مفروشة بالرخام، وفيها ديوان مشيد مسقوف بالقرميد، وفي أطواقه وشبابيكه أنواع الزجاج في نضارة تامة وابتهاج، وفيه حمام ظريف وجملة أود [غرف] فيها التخوت والسرر والناموسيات معدة للمسافرين والضيفان. وبعد أن استقر بنا المجلس حضر إلينا والده الأكرم الشيخ أمين أفندي فرأيناه

رجلاً كبير السن يبلغ الثمانين من العمر ومع ذلك هو أقوى بنية واشد همة من ولده الشيخ يوسف، بصره صحيح حاد وأسنانه كما هي. أما ولده فقد سقطت أسنانه وصارت لحيته بيضاء إلاّ القليل. وذكر لنا أنه في أيام إبراهيم باشا نفي إلى مصر وأقام بها مدة من الزمان، ثم عفي عنه ورجع إلى الشام. وإن إفتاء الناصرة كانت في بيتهم قديماً ووالده كان فيه من قبله.

وعنده من الكتب القديمة جملة وافرة صار يطلعنا عليها ويحادثنا في الأخبار السالفة وما وقع في البلاد الشامية من الحوادث كأنه تاريخ. وعنده من النساء ثلاث أو أربع وأولاد صغار، ويركب الجياد من الخيل ويشرب الدخان في الشبكات على عادة القدماء قبل هذا الجيل وعليها التراكيب من الكهرمان، وأخوه الشيخ عبد الحميد أفندي، رئيس بلدية الناصرة الآن، وولده الشيخ عباس خطيب مسجدها، وله إلمام بالعلم.

وأخوه الشيخ عبد اللطيف أفندي مشغول بأمر الزراعة، وكذا ولده الشيخ خضر، والشيخ يوسف له شركات في الزرع وأراضٍ واسعة جداً وهذا سبب زيادة ثروته العظيمة التي لا تضاهى في تلك النواحي. وله معاملات وديون على كثير من مشايخ العشاير وأعيان البلدان هناك.

ولذا كان كبير المقدار عندهم مسموع الكلمة فيما بينهم مهاباً معتبراً عند الحكام. وله ولد كبير يتولى بعض شؤون المنزل يسمى عمر يقرأ ويكتب ويحسب، وولد أصغر منه يقال له راغب وغيرهما، ومع كثرة الخدم والحشم والعبيد، تراه يخدم الضيوف بنفسه وأولاده وأخوته ولا يفرق بين ضيفانه بالغنى والفقر، بل الكل على مائدته سواء، يطعم الجميع من اللحوم وأنواع الحلواء. وأقمنا عنده مدة اثني عشر يوماً فلم نتناول طعاماً عند غيره إلاّ مرتين مرة عند عمه الشيخ عبد الحميد أفندي ومرة عند علي آغا شاويش وأخيه عمر أفندي من أولاد ضاهر[396] المشهور في تلك البلاد بالشجاعة والقوة وكان أميراً من أمراء العشائر في نواحي عكا وغيرها.

مطلب ذكر محل إقامة المسيح بالناصرة

وزرنا في الناصرة محل إقامة السيد المسيح وأمه السيدة مريم. فإنهما أقاما بها نحو السبع عشرة سنة. ومن ثم قيل لأتباع المسيح نصارى نسبة إلى هذه البلدة، كما هو

---

(396) - المقصود ظاهر العمر الزيداني

مذكور في الكتب والتواريخ. وعلى هذا المحل دير كبير للنصارى دخلناه ورأينا موضع سكن السيد المسيح ووالدته السيدة مريم. وهو عبارة عن مغارة فيها موضعان منقوران من الجبل متصل أحدهما بالآخر وهما باقيان بحالهما إلى الآن.

وأما البناء الذي فوقهما في الدير والكنيسة، فهو في غاية الزخرفة والتزويق بالنقوش والمعادن الذهبية والفضة وغيرهما . وقبل أن نزور ذلك الموضع حضر لزيارتنا رئيس الدير والمطران الموجود بهذه البلدة المقدسة عند النصارى، وذلك إكراماً منهما لحضرة الشيخ يوسف حيث أننا ضيوفه من الأقطار المصرية. وأهدى إلينا الرئيس تنكاً من صفيح فيه نشوق من صنعة أهل الدير ورهبانه يزرعون دخانه عندهم ويسوّونه بأيديهم وهو عجيب اللون والنكهة جداً.

ثم لما أردنا السفر تكدر حضرة الشيخ يوسف غاية الكدر وشدد علينا في الإقامة عنده إلى انقضاء المدة، فلم نجبه إلى ذلك وأبدينا إليه الأعذار التي منها أخذ الأخبار وتناول التحارير والمكاتيب الحاضرة لنا من العيال بسهولة لداعي كون البلد مرسى الوابورات على الدوام.

ومنها أننا مستأجرون بيتاً في بيروت، والباقي من الإيجار مدة طويلة.

ومنها أننا ألفنا تلك البلد وأهلها ووافقت سكناها صحتنا من أول الأمر إلى هذا الوقت.

وأما هواء بلدكم وماؤها فلم نرهما موافقين لصحتنا مثل تلك. فحينئذ رخص لنا في السفر إلاّ أننا ترددنا في التوجه إلى بيروت رأساً أو إلى دمشق ثم إليها وسألنا عن المسافتين في طريق البر فأخبرونا أنهما سواء.

مطلب التوجّه إلى دمشق

فصممنا على زيارة الشام أولاً بالمرة، فانتظرنا سفر القافلة واستكرينا دواب منها وسافرنا إلى جهة (طبرية) فدخلناها قبيل الغروب من ذلك اليوم. ومررنا في الطريق على ضيعة يقال إن فيها مزار سيدنا يونس، عليه السلام[397]، فدخلناها ومعنا أهلها بخيولهم يتسابقون عليها على عادة أهل مصر في استقبال العزيز عليهم، وكذلك أخوة الشيخ يوسف وبعض رجاله وخيالته.

---

(397) - المقصود قرية المشهد في قضاء الناصرة

ووجدنا ذلك المزار عبارة عن قبة صغيرة ومن داخلها غار يقال إن فيه قبر نبي الله يونس، فزرناه ودعونا الله بما أردناه من خيري الدنيا والآخرة. وشربنا عند هؤلاء القهوة.

طبرية

وسافرنا إلى طبرية ومعنا هؤلاء المودعون حتى أنزلونا في دار الحاج محمد الطبري. وهي دار معدة لنزول الضيوف والمسافرين وصاحبها من بيت علم قديم وأجداده من أكابر العلماء، وعندهم مكتبة عظيمة لا نظير لها كلها بخطوط الأفاضل والمؤلفين، ولكن لطول الزمان عليها تمزق غالبها وتشتت واقتسمتها تلك العائلة اقتسام الطعام صبرة فصبرة.

فإن قريبهم الشيخ عبد السلام (مفتي طبرية الآن) دعانا في أول ليلة للنوم عنده فاطلعنا على ما أدركه من هذه المكتبة ووقع في قسمه منها. فرأيناه مما يرثى عليه ويؤسف من حاله فإنك ترى المجلد فيه عدة قطع من عدة كتب. وهو مشغول بتصليحها وترتيبها.

(ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر).

ومن زيادة لطف هذا الشيخ عزم علينا بكل ما نختاره من هذه المكتبة فلم نرض ومع ذلك أعطانا كتاب (المرقاة في أسمائه ﷺ) تأليف الإمام جلال الدين السيوطي. وقد قرأه عليه جماعة من العلماء وكتبوا ذلك في آخره وصدق عليه المؤلف بخطه الشريف، وكذا في غالب أوراقه كتابة بخط الشيخ يقول (بلغ قراءة في تاريخ كذا كتبه مؤلفه)، وبعض زيادات بخطه أيضاً. وأعطانا (شرح لامية العجم) للشيخ أبي البقا العكبري وبعض رسائل أخر.

ودعانا الشيخ عبد السلام المذكور للمبيت عنده الليلة الثانية فأجبناه رغبة في الاستراحة والاستحمام في حمام طبرية المشهور. وهو خارج البلدة بمسافة نصف ساعة، فركبنا دوابنا وتوجهنا إليه ظهر اليوم الثاني بعد صلاة الجمعة في مسجدها الذي على شاطئ البركة.

فرأينا هناك جماعة من الأفندية النابلسية ومنهم شاب ظريف من طلبة العلم بالأزهر يعرفنا من مصر. فبالغ هو وأصحابه في كرامتنا وخدمتنا في دخول الحمام والتوصية لقيم المحل علينا، وأحضروا لنا بشاكير نظيفة من عندهم ندخل فيها. فلما دخلنا إلى الحمام وجدنا بركة عظيمة مستديرة من الرخام وعليها نحو الخمسين رجلاً أو أزيد، وكأنه لم يكن فيها أحد، وفي جانب هذه البركة (أود) صغيرة وفيها برك كذلك فمن

أراد الانفراد سلخ ثيابه فيها واقتصر على الاستحمام بها . إلاّ أن البركة الكبيرة أنفع وأقل سخونة لكثرة النازلين فيها . ومع هذا لم نستطع نزولها إلاّ بشق الأنفس لشدة حرارتها الفائقة الحد ولولا صب الماء البارد عليها وكثرة اغتسال الناس فيها لما أمكن نزولها لمثلنا أصلاً فسبحان الصانع الحكيم.

ويقال إن الذي بنى هذا الحمام الجديد على هذه العين المعدنية الحارة خلقة حضرة إبراهيم باشا المصري أيام حكمه في بلاد الشام. وفيه هناك محل استحمام قريب من هذا يقال إنه من بناء سليمان.

وفي جنوب طبرية بناء قديم فيه عمارة جديدة الآن يقال إنه ضريح السيدة سكينة ابنة الحسين رضي الله عنهما وقد زرناه والحمد لله.

وأخبرني بعض أهل طبرية إنه في مدة قريبة رأى في بيته أثر بناء قديم فوجد فيه لوحاً من حجر أبيض وعليه كتابة بالعربي محصلها (هذا ضريح أبي هريرة صاحب رسول الله ﷺ) فتوجهنا لزيارة هذا المحل ورأينا هذا اللوح بأنفسنا .

وهذا ربما خالف ما ذكرناه في هذه المجموعة من أن مزار السيد أبي هريرة موجود في طريق بغداد على شاطئ نهر الفرات. ولا يعلم الحقيقة إلاّ الله سبحانه وتعالى.

وأظن أنه يمكن التخلص من مثل هذه المعارضة بأن تعدد المزارات يكون سبب تعدد المعاهد لهذا الميت. فالبعض منها محل ولادة، والبعض محل إقامته وسكنه، والبعض محل تعبد مثلاً، والبعض محل دفن، وبعضها محل له نفسه، وبعضها محل لأحد ذريته وسميه.

وبحيرة طبرية هذه، ماؤها عذب خفيف على المعدة، وفيها سمك عظيم. وهي قريبة في المقدار من بركة قارون التي في الفيوم بالبلاد المصرية. والبلد نفسها ليست كبلاد الشام في البرودة، بل كبلاد مصر في الحرارة.

ثم بعد إقامة يومين في طبرية توجهنا إلى دمشق ومررنا على جب يوسف عليه السلام، فرأيناه فوق ربوة عالية كالبئر مردوم منه نحو النصف. وتحت هذا الجبل خان قديم وقشلاق[398] عسكرية خارب الآن في الجانب الشرقي من مدينة (صفد)، ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى نهر الشريعة قبل الغروب بنحو الساعة. وبتنا في ذلك المحل عند القنطرة المسماة (بجسر بنات يعقوب) وفي هذا الجسر قول السيدة عائشة الباعونية: [من الوافر]

---

[398] - قشلاق: ثكنة عسكرية باللغة التركية

بنـــى ســـلطاننا برقـــوق جـــسراً	بـــأمر والأنـــام لــــه مطيعـــه
مجـــاز في الحقيقـــة للبرايـــا	وأمـــر بـــالمرور علـــى الـــشريعه

ونهر الشريعة هذا هو نهر الأردن المذكور في التواريخ القديمة.

وفي الصباح توجهنا في الطريق ومررنا على جبل الجيلان [الجولان] وكانت جبا على يميننا من الجانب الجنوبي وأسفنا على عدم مرورنا عليها لأجل زيارة الشيخ سعد الدين الجباوي المشهور بالولاية والكرامات.

ورأينا في هذا الجبل خياما كخيام الأعراب فسألنا عنهم فقيل لنا إنهم من أكراد نزلوا فيه مدة السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولم نزل في السير إلى أن وصلنا إلى القنيطرة بلدة قديمة كانت خرابا فأعطتها الدولة الآن للشراكسة المهاجرين من بلادهم يعمرونها ويزرعون فيها، ودخلناها في وقت الظهيرة إلا أن المسافة بينها وبين البلاد المعمورة طويلة جداً فلم نجد بدا من المبيت بها تلك الليلة فنمناها بقهوة حادثة النشأة لعدم وجود محل فيها لنزول المسافرين.

ورأينا على شاطئ نهرها زهر البابونج المعروف في الطب فجمعنا منه جملة وافرة، وفي الصباح توجهنا جهة سعسع وهي مدينة قديمة خربة ليس فيها كثير من الناس بل أفراد قليلة من الأعراب، وعندها مياه غزيرة وأرضها صالحة للزراعة لكن لقلة العالم في تلك البلاد تجد كثيراً من الأرض الواسعة والمسافات الشاسعة خالية من الزرع والشجر لخلوها من السكان، ولو كانت في بلاد مصر لكانت مزارع عظيمة غالية القيمة.

المصادر والمراجع :

- إحراز المعلّى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، محمد بن عبد الوهاب المكناسي، تحقيق محمد بوكبوط، سلسلة ارتياد الآفاق، دار السويدي للنشر والتوزيع في أبو ظبي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت عام 2003.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، عدة طبعات.

- الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، للشيخ عبد الغني النابلسي، طبعة القاهرة في عام 1299 هـ وطبعة 1906م، وطبعة مصورة للدكتور أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة عام 1986م، وطبعة محققة بدمشق لرياض عبد الحميد مراد، دار المعرفة بدمشق عام 1989م.

- الدر المنظوم في ذكر محاسن الأمصار والرسوم، السيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي، تحقيق تيسير خلف، دار التكوين دمشق 2009م.

- الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني، الجزء الثاني، دراسة الدكتور عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين.

- بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، كامل جميل العسلي، عمان 1992.

- دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي، دمشق وزارة الثقافة 1998م.

- رحلات في ديار الشام، أحمد سامح الخالدي، القدس 1946م.وما نشره الخالدي من أخبار باقي الرحلات في مجلة الرسالة القاهرية المجلد 16 عام 1948م.

- رحلة الخياري، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، بغداد، ثلاثة أجزاء بين عامي 1969 و1980م.

- سياحة نامة سي، أوليا جلبي، الطبعة العثمانية، جريدة إقدام، 1896، وطبعة عام 1935م.

- محمد كرد علي، الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، المطبعة العلمية، بيروت 1916.

- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، عدة أجزاء.

- نفحة البشام في رحلة الشام، الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، مطبعة جريدة الإسلام بمصر حارة السقايين 1319 هجرية.

فهرس

مجلدات الموسوعة :

- المجلد الأول: وصف فلسطين أيام الفاطميين.
- المجلد الثاني: وصف فلسطين أيام الحروب الصليبية.
- المجلد الثالث: السياحات الصوفية والزيارات الدينية.
- المجلد الرابع: موانح الأنس برحلتي لوادي القدس.
- المجلد الخامس: الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية.
- المجلد السادس: وصف فلسطين أواخر أيام العثمانيين 1898- 1916.
- المجلد السابع: فلسطين في عشرينيات القرن العشرين.
- المجلد الثامن: فلسطين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.